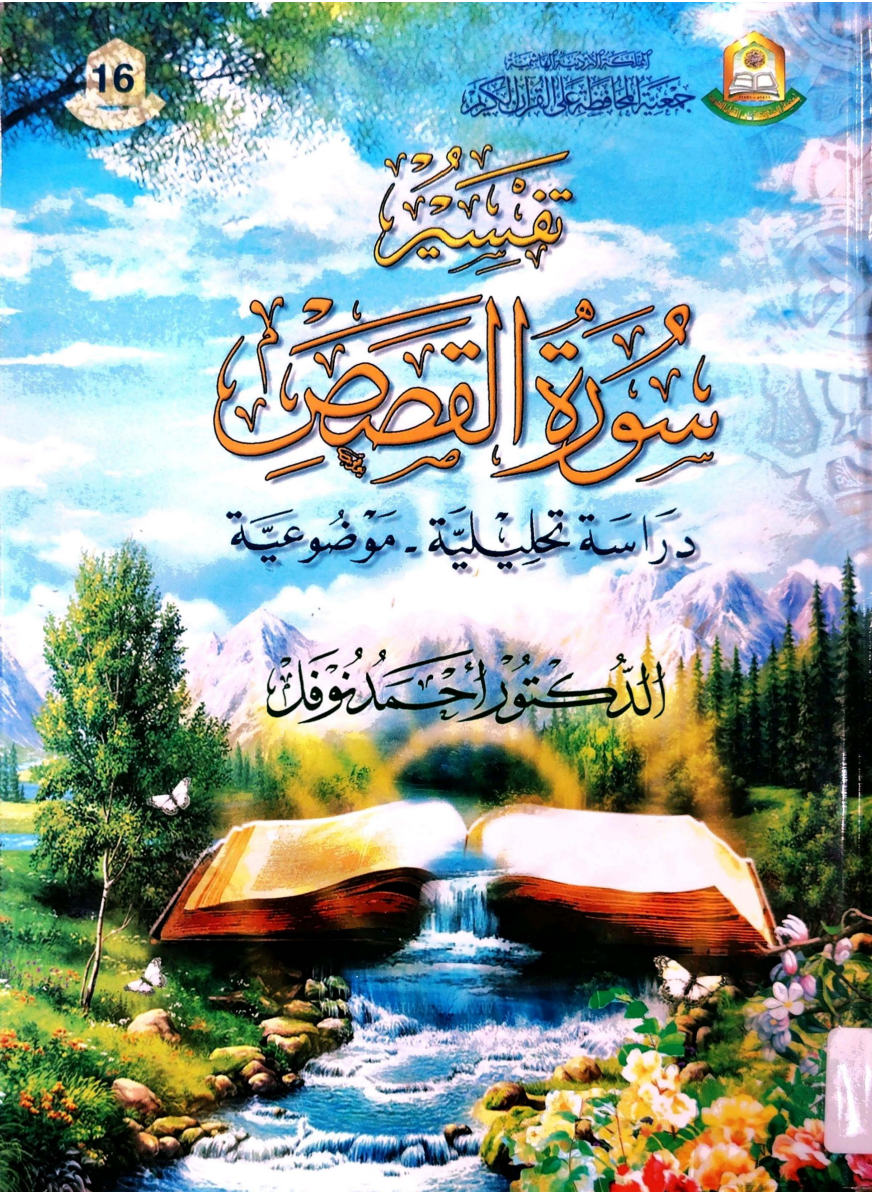


تَفْسِيرٌ

سُورَةُ الْقَصَصِ

دَرَاةٌ تَحْلِيلِيَّةٌ - مَوْضُوعِيَّةٌ

الدُّكْتُورُ أَحْمَدُ نُوفَلْ



تفسير سورة القصص

دراسة تحليلية موضوعية

مُحْفُوظٌ
بِمَنْعِ حَقُوقِ

الطبعة الثالثة

(طبعة مزيّدة ومنقّحة)

١٤٣٦ هـ - ٢٠١٥ م

المملكة الأردنية الهاشمية
رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية
(٢٠١٤ / ١٢ / ٥٧٤٥)

ISBN 978-9957-571-57-3 (ردمك)

من منشورات

جمعية الحفاظ على القرآن الكريم
رئاسة مركز الأبحاث والبحوث



هاتف: ٩٦٢٨٣٣٤ ٦ ٩٦٢ - فاكس: ٩٦٢٨٣٣٦ ٦ ٩٦٢

ص.ب: ٩٢٥٨٩٤ - الرمز البريدي: ١١١٩٠

حسابنا لدى البنك الإسلامي الأردني / فرع الحسين (١٧٦٧١)

حسابنا لدى البنك العربي الإسلامي الدولي / فرع الحسين (١٠٢٠٠)

حسابنا لدى بنك الأردن دبي الإسلامي / فرع الشميساني (١٠٥٥٩٧)

عمان - الأردن

www.hoffaz.org

E-mail: hoffaz@hoffaz.org

تفسير سورة القصص

دراسة تحليلية موضوعية

الدكتور

أحمد نوفل

جميع الحقوق محفوظة
لجميع المصلين على القرآن الكريم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة الطبعة الثالثة

الحمد لله والصلاة على رسول الله، نحمد الله الذي توفيق الذي كتبه الله لهذا الكتاب فطبع طبعين قبل هذه، وهذه هي الثالثة في بضع سنين، وهذا في بلدنا في ظرفنا في زماننا نادر، أقصد أننا لسنا بالعدد الكبير سكاناً ولا الطرف الاقتصادي السهل، والوقت وقت إدبار عن الكتاب إما إلى لا شيء وإما إلى الوسائل الحديثة.. فالحمد لله على كل حال.

وأمر آخر، أنني كنت أتمنى لو كان الوقت يسمح وفيه فسحة لأعيد النظر فيما كتبت فأنضجه أكثر وأستخرج من كنوز الآيات أوفر مما فعلت، ومعلوم أن جهد البشر يظل محل ملاحظة ونقد وقابلية للتحسين، ويظل كلام الله معطاء مكتنزاً غنياً لا تفتنى فوائده، ولا تنتهي عوائده، ولا تتوقف فيوضه، ولا تخفت إشراقاته وأنواره، بل تتصل عطاياه وتتواصل هواطله، وكلما نظرت فيه أكثر وأعمق أعطاك أغزر وأدق.. هذا ما كنت أتمنى لكن ما كل ما يتمنى المرء يدركه..

وأمر ثالث أن تجليات القرآن بالمقارنات مع التحقق في الواقع والتنزيل على الحياة ومشاهدها، هذا أمر مدهش متجدد وعطاء لا ينتهي وتأويل القرآن بما يتحقق منه في الواقع باب للتفسير واسع كبير، كنت أتمنى أن أجه لكن العقدة ذاتها هي العائق: الوقت.

وقد أشار القرآن لنا إلى هذا التأويل حيث قال: {هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلَهُ...} [الأعراف: ٥٣] أي هل ينتظرون إلا تحقق هذا القرآن في الواقع؟ وهل رأيتم كيف تتحقق كلمات القرآن التي وردت في سورة الإسراء؛ فالآن رأينا ما كان يفسر لغوياً نظرياً من معنى العلو الكبير، رأينا الآن واقعاً حياً عملياً.. من هيمنتهم على العالم ودوله سياسياً واقتصادياً واختراقاً أمنياً وإعلامياً..

هذا جانب من التفسير مهم، وينبغي أن يأخذ حقه... وكنت أود لو عدت إلى الكتاب لأنظر فيه من هذه الزاوية..

ومع ما قلت من زحمة الأوقات، فإني قد أضفت إلى الكتاب بعض الصفحات، في الحديث عن بعض شخصيات سورة القصص، وهذا اقتراح تفضل به الدكتور سليمان الدقور مشكوراً، وقد تكلمت عن شخصية موسى وهرون وفرعون.

على كل الأحوال، هذا جهد المقلّ، متواضع الإمكانيات، والحمد لله أن تقبله الأحباب والإخوة القراء بقبول حسن، فهذا كله فضل الله.. وأسأله تعالى أن يبارك في أوقاتنا ومجهوداتنا، وأن يرزقنا الإخلاص والقبول والتوفيق، وأن يعين على إتمام تفسير الكتاب، فهذا حلم العمر وأمنية الحياة وغاية المنى وقرة العين إن شاء الله.

وسبحانك اللهم وبمحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت وحدك لا شريك لك

وصلّى وسلّم وبارك على نبيك محمد وآله وصحبه وسلّم.

ربّنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم.

والسلام على الكرام القارئين.

المؤلف

مقدمة الطبعة الأولى

القرآن الكريم جنّات وارفة الظلال وافرة الغلال، دانية الجنى، قريبة المنال، والحياة في هذه الظلال، مئة عظيمة ونعمة جزيلة جليلة، لا يقدرها حق قدرها، إلا من ذاق الخلاوة، واستروح الظلال، وانتشى بالعبق والعبير، وتنسم النسائم المبللة بالندى والروح والريحان، تهب عليه من آيات القرآن وكلماته العذاب الحسان. وكل سورة في هذه الرياض الغناء، زهور في أكمامها، تفتح بالتفسير عن ألوان معجبة، وروائح عطرة منعشة، وعن معان رائعة مدهشة.

والفضل في فكرة تفسير سورة القصص يرجع إلى الدورة الشرعية الرابعة التي عقدت في مركز حراء لسنة ٢٠٠٣، وهي دورة تعقد سنوياً لطلاب فهم الكتاب، واستروح معانيه ومغانيه ومبانيه.. فكتبت المادة الأولى منه في الفصل الصيفي للموسم المذكور، ثم طفقت أزيد عليها بين الفينة والفينة والحين والحين، حتى جاء موسم سنة ٢٠٠٤، فعدنا العزم الدورة ونحن بالتبع منهم، أن نطبع ما تجمع في كتاب، فاستعنا الله، وبذلنا الجهد الممكن في ظل زحمة الحياة والعمل والشواغل الكثيرة والصوارف العديدة، ولقد بذلت من الجهد في تصحيح (بروفات) الطباعة، ربما ما يعدل وقت التأليف والجهد المبذول فيه.. ما بين أخطاء وفقد وخلط.. ولا يعلم مشقة هذا الأمر إلا من يكابده، ثم وقفنا إلى (اللؤلؤة للتصميم) التي تولّت الكتاب فانزاح كمّ من العناء والعذاب.

ولا ننشغل عن بيان المنهج الذي اعتمدته، بتفصيل الجهد الذي عانيته في الطبع والتصحيح وكثرة التصحيف.

فقد قسمت العمل إلى قسمين: قسم أول: ويتضمن المقدمات العامة عن السورة، وهي كثيرة - نسبياً - ولو كان الوقت أفرغ لكان الكلام أملاً وأكثر وأفضل - بإذن الله -، والقسم الثاني: القسم التفسيري.

وفي المقدمات كانت أمور تتعلق بموضوعات في السورة، ومنها قضايا لغوية وعلمية واجتماعية..

ولكني توقفت طويلاً عند ما أسميته: التناسق الفني (وشبكة العلاقات بين سورة القصص والعديد من السور).

وأرجو أن أكون بهذا قد بينت منهجاً وطريقاً في مثل هذه المسائل، فإني أزعّم أن التناسق أحد أعظم وأهم أوجه الجمال والإعجاز في القرآن الكريم.

وكلما أمعنّت النظر، أسعفت النظر بأوجه من التناسق مذهشة جديدة، وعلم الله، أنني حرصت ألا أتكلف، وألا أنعسف، فما أغنى القرآن الكريم المبين عن تكلف المتكلف واعتساف المتعسف.

ومما كنت أتوقف عنده بين الفينة والفينة، وكلما سنحت سائحة، وأسعفت بارقة، موضوع (الإعجاز العددي) ولن ندخل في مناقشة المصطلح والتسمية، تثبت أو لا تثبت، تصح أو لا تصح، فالقضية - عندي - فوق أن تبحث. بعد أن ثبت بوجه شبه قطعي - أن الإعجاز العددي لون موجود في هذا الكتاب الذي لا تنتهي عجائبه، والذي من أعظم أوجه إعجازه، ألا تنهاى أوجه إعجازه، وليقل ما شاء ما شاء، ففي الفضاء البحثي والعلمي متسع للجميع، شرط البحث العلمي والنزاهة الممكنة، والنظر الموضوعي، وعدم رفض الجديد لأنه جديد..

فلو توقفنا عند ما قال الأسلاف - عليهم الرضوان - لكننا قائلين بانتهاء معجزة الكتاب المبين عند حدود أقوال الأولين. وهذا لا يقول به ذو فهم مكين، ولا نظر في الأمور سليم متين.

وأما الحروف المقطعة فقد أطلت فيها التلبث وهذا الذي أثبتته جزء من بحث أطول سأواصله لتجلية موضوع طال فيه الأخذ والرد، واتسعت شقة الخلاف، والأمر أيسر والخطب أسهل والشقة أقرب..

وأما القسم التفسيري فقد حرصت أن أنوع النقل والأقوال ليطلع القارئ العزيز على أكبر قدر ممكن من تفاسير الكتاب العزيز. وكنت أجمع بين القديم والحديث، ولم أحرص على الترتيب الزمني في النقول، فهذا جهد يطول، وليس على قدر المحصول.

وكنت أنقل نقولاً ثم أرد بعضها، وقد يسأل سائل: فيم هذا الجهد إذاً إذا كنت سترد؟ والرد جيتنذ أن هذا الرد على الأقول للتنبيه إليها إذا صادفت القارئ أو صادفها.

ولا يفوتني في هذه المقدمة أن أبين أنني في بحثي هذا أو جهدي الفقير المتواضع في تفسير سورة القصص العظيمة الكريمة كتبت عدة مباحث مما يمكن عده في باب التفسير الموضوعي. فقد أخذت عدة موضوعات تتعلق بهذه السورة، فبحثت في ما أسميه: ظاهرة الاستقطاب الاجتماعي كما بينها سورة القصص، الحياء خلق الإسلام كما تبين في سورة القصص، ظاهرة التفرعن كما حدثتنا عنها سورة القصص، ومشاهد القيامة في سورة القصص، والإشارات الزمنية في سورة القصص، هذا سوى الحديث عن الالتفاف (هذه الظاهرة البلاغية) كما جاء في سورة القصص، وحروف المعاني في سورة القصص، والأفعال وغير ذلك.. ثم ختمت تفسير السورة بالدروس المستفادة من سورة القصص.

هذه نظرة عجل على المنهج، ونقاط التركيز والارتكاز، ولن نفوتنا في خاتمة المقدمة الإشارة إلى أن التفسير عماده اللغة وفقهها وفهمها وتدقيقها، وأن الكلام كالنسيج يفهم التصميم بالنظر إلى اللوحة كاملة، أعني أن السياق يسهم إلى حد كبير في فهم المفردة القرآنية والتركيب القرآني. ثم إن التأمل والتدبر وإعمال العقل وطاقته الذهن يسهم في فهم النص.

وإعمال القلب والنفس والروح والوجدان، كل ذلك عوامل مساعدة في

إدراك مرامي النص. وكلما اجتمعت هذه العوامل كان الحصاد أوفر، والنتاج أغزر، والعكس صحيح أيضاً.

وختاماً أقول: هذا جهد المقلّ والمشغول، والذي يعلم من نفسه ضعف الموهبة وقلة البضاعة، فإن أصبت فبمنّ ربي وإن أخطأت فمن نفسي وتقصيري وجهلي وقلة جهدي.

سائلينه تعالى العفو والعافية، والقبول الحسن منه تعالى ﴿رَبَّنَا اقْبَلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ .

والحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أكرم المرسلين.

المؤلف

❖ سور الحروف المقطعة حسب ترتيب المصحف

الشریف

❖ الأجزاء التي ليس فيها سور ذوات الحروف

المقطعة..

❖ قول في الحروف المقطعة

سور الحروف المقطعة

حسب ترتيب المصحف الشريف

م	اسم السورة	عدد الآيات	رقم السورة	رقم الجزء
١-	البقرة (الم)	٢٨٦	٢	١-٣
٢-	آل عمران (الم)	٢٠٠	٣	٣-٤
٣-	الأعراف (المص)	٢٠٦	٧	٨-٩
٤-	يونس (الر)	١٠٩	١٠	١١
٥-	هود (الر)	١٢٣	١١	١١-١٢
٦-	يوسف (الر)	١١١	١٢	١٢
٧-	الرعد (الر)	٤٣	١٣	١٣
٨-	إبراهيم (الر)	٥٢	١٤	١٣
٩-	الحجر (الر)	٩٩	١٥	١٤
١٠-	مريم (كهيعص)	٩٨	١٩	١٦
١١-	طه (طه)	١٣٥	٢٠	١٦
١٢-	الشعراء (طسم)	٢٢٧	٢٦	١٩
١٣-	النمل (طس)	٩٣	٢٧	١٩
١٤-	القصص (طسم)	٨٨	٢٨	٢٠
١٥-	العنكبوت (الم)	٦٩	٢٩	٢٠
١٦-	الروم (الم)	٦٠	٣٠	٢١
١٧-	لقمان (الم)	٣٤	٣١	٢١
١٨-	السجدة (الم)	٣٠	٣٢	٢١

٢٢	٣٦	٨٣	يس (يس)	-١٩
٢٣	٣٨	٨٨	ص (ص)	-٢٠
٢٤	٤٠	٨٥	غافر (حم)	-٢١
٢٤	٤١	٥٤	فصلت (حم)	-٢٢
٢٥	٤٢	٥٣	الشورى (حم عسق)	-٢٣
٢٥	٤٣	٨٩	الزخرف (حم)	-٢٤
٢٥	٤٤	٥٩	الدخان (حم)	-٢٥
٢٥	٤٥	٢٧	الجاثية (حم)	-٢٦
٢٦	٤٦	٣٥	الأحقاف (حم)	-٢٧
٢٦	٥٠	٤٥	ق (ق)	-٢٨
٢٩	٦٨	٥٢	القلم (ن)	-٢٩

(٤) سور آياتها مثنان من الآيات فصاعداً وهي كلها ذوات حروف مقطعة وليس غيرها في المصحف.

الأجزاء التي ليس فيها سور ذوات الحروف المقطعة والأجزاء التي فيها هذه السور

الأجزاء التي ليس فيها سور حروف مقطعة: ٥، ٦، ٧، ١٠، ١٥، ١٧، ١٨،

٢٧، ٢٨، ٣٠.

الأجزاء المحتوية على سور ذوات حروف:

١، ٢، ٣، ٤ (١-٤)، (٨-٩).

١١، ١٢، ١٣، ١٤ (١١-١٤)، (١٦).

١٩، ٢٠، ٢١، ٢٢، ٢٣، ٢٤، ٢٥، ٢٦ (١٩-٢٦) (٢٩).

(٢٠) جزءاً فيها سور فيها حروف مقطعة.

(١٠) أجزاء ليس فيها سور فيها حروف مقطعة.

والأجزاء العشرة التي ليس فيها (٥) منها زوجية أرقامها و(٥) منها أرقامها فردية.

الأجزاء العشرون التي فيها سور فيها حروف تنقسم إلى (١٠) أرقام أجزائها زوجية، (١٠) أرقام أجزائها فردية.

قول في الحروف المقطعة

الحروف المقطعة في أوائل السور وردت في تسع وعشرين سورة كلها مكية إلا الزهراوين، ومنها ما كان على حرف أو اثنين أو ثلاثة أو أربعة أو خمسة، فهذه خمس مجموعات من السور ذوات الحروف المقطعة. ومنها ما جاء آية ومنها ما لم يأت آية، وسورة النمل لم تأت الحروف فيها آية، بينما جارتها سورة القصص جاءت الحروف فيها آية. (ما جاء آية كل الحروف عدا ما لم يأت آية (الر، المر، طس، ص، ن، ق) ما جاء آيتين (حم، عسق)، والحروف المقطعة تمتد من الجزء الأول إلى الجزء التاسع والعشرين.

وأول سور الحروف المقطعة نزولاً هي آخرها في ترتيب المصحف وهي سورة (ن، والقلم). وأما السور التي جاءت على حرف فثلاث: (ص، ق، ن).

وما جاء على حرفين: (طه، طس، يس، حم) وعددها (٩). وما جاء على ثلاثة أحرف: (الم) ٦ مرات، (الر) ٥ مرات، (طسم) مرتين، وعددها (١٣). وما جاء على أربعة أحرف سورتان فحسب: (الر)، و(المص). وما جاء على خمسة أحرف سورتان أيضاً: كهيعص، حم عسق: (وهي آيتان).

وقد استخدمت واستعملت الحروف المقطعة، كما هو معلوم، نصف حروف المعجم العربي، وأهملت النص الآخر، والطريف العجيب أن النصف المختار يحمل نصف خصائص حروف العربية من إدغام واستعلاء وقلقلة وهمس وغير ذلك^(١) والحروف المستعملة إذا أسقطنا المكر يتكون منها عبارة: (نص حكيم قاطع له سر).

والحروف المقطعة في أوائل السور لها وظائف، وإن كنا لا نقف على معناها، بل لا يضير أن نقول: إنه لم يعهد في العربية أن يكون للحرف معنى، فما الغريب إن قلنا: لا تطلب معنى للحروف، ولكن افهم وظائفها وغاياتها، ونحن نحاول بإذن الله أن ندرك بعضاً من وظائفها في هذه السطور المستعجلة والمرتبلة.

فمن ذلك أنها لإثارة الاهتمام وجلب الانتباه والتشويق، مثلها في ذلك مثل أدوات الاستفتاح في العربية، ألا، هلا، إلخ... ولكنها أي الحروف جاءت على غير مألوف العرب، لأن المعاني وسمو البيان ليس ضمن النمط المألوف، فجدد له في أدوات الاستفتاح.

ثم هي مؤشرات ودلائل على الإعجاز، كما أسلفنا في السطور السابقة بإيجاز. فالحروف إشارة إلى مادة القرآن الكريم، فهي نفس حروفكم أيها العرب، فلماذا تعجزون عن أن تؤلفوا منها كلاماً مثل كلام القرآن؟

ووجه آخر فيها أنها تصدر من نبي أمي لم يعرف أسماء الحروف ولا مسمياتها، فأنى له النطق بها أسماء ومسميات إلا أن يكون من تعليم الله له؟
(طسم):

تبتدئ السورة الجليلة بالحروف المقطعة، التي تفيد التحدي والإعجاز، الذي يمكن تلخيصه بقولنا: يا أمة هذا النبي الكريم ﷺ، إن الله قد أنزل من هذه الحروف، وهي حروفكم، وحروف لغتكم، التي بها تتكلمون، وبها تكتبون، أنزل

(١) ستنقل عن الزمخشري بعد قليل ما يفصل هذا.

قرآنًا، وأبلغكم نبينا أنه كلام الله، وإنما دوره هو أن يبلغه عن ربه لكم فقلتم ما قلتم صدأً وتكذيباً، قلتم: يعلمه بشر، وقلتم شاعر، وقلتم كاهن، وقلتم ساحر، وقلتم أساطير الأولين، وأنا أتحداكم فإن كان الكلام هذا من صنع بشر ومن عند بشر فبإمكانكم أن تعارضوه، وها أنذا أنثر بين يديكم المادة الخام: الحروف التي منها صيغ هذا القرآن المعجز، فهل فعارضوه فإن عجزتم عن ذلك، وأنتم كذلك، فاعلموا أنه كلام الله، يقيناً بلا شك، وحقاً بلا ريب، ودعوا عنكم وساوسكم وإيجاعات شياطينكم.

وأما (طس) فلم تتكرر في القرآن كله، بينما تكررت (طسم) قبل هذه السورة وبعدها: أعني الشعراء والقصص والنمل بينهما، فسبحان الحكيم الذي أنزل كلامه ورتب سورة.

وكل هذه المجموعة ذوات حروف الـ(ط) وما انضاف إليها، كلها تضم قصة موسى عليه السلام بتفصيل. فكان الطاء هذه إشارة إلى الطور، وكأن السين إشارة إلى سيناء. ولا تتكلف، وإنما هذه انطباعات وذوقيات، والله أعلم.

والتناسق ما بين الحروف المقطعة وسورها أمر مدهش حقاً، وفوق ما يتصور، بحيث يستحيل استبدال حرف مكان حرف، فحرف (ص) مثلاً يعقبه ذكر القرآن، وقاف يعقبه القرآن، فهل يمكن أن نحل (ق)؟ بالقطع لا. ليس لأنه كلام الله الذي لا تبديل فيه فحسب، بل لأن هناك من التناسق ما يختل معه النظام كله لو استبدلنا حرفاً بحرف فأولاً موضوع سورة (ق) منسجم مع الحرف الذي افتتحت به وهو القيامة فلو أبدلنا الصاد به، ضاع التناسق بين الحرف الذي هو فاتحة السورة وموضوع السورة.

ثم لون ثان من التناسق سيختل أو ينهدم هذا التناسب والتناسق في الجرس وكثرة تردد حرف (ق) في مثل قوله تعالى: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ﴾ [ق: ٤]، ﴿وَالنَّحْلَ بَاسِقَتٍ﴾ [ق: ١٠]، ﴿رِزْقًا لِلْعِبَادِ﴾ [ق: ١١]، ﴿كَذَبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ﴾

[ق: ١٢] ﴿أَفَعَبْنَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [ق: ١٥] ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا
الْإِنْسَانَ ... وَنَحْنُ أَقْرَبُ﴾ [ق: ١٦] ﴿مَا يَلْفُظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عِنْدٌ﴾ [ق: ١٨]،
﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ﴾ [ق: ٢٣]، ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ﴾ [ق: ٢٧]، ﴿قَالَ لَا تَخْضَعُوا لِدَيْ وَ قَدْ قَدَّمْتُ
إِلَيْكُمْ﴾ [ق: ٢٨]، ﴿سَتَقُوفُ الْأَرْضُ﴾ [ق: ٤٤].

ناهيك عن الإعجاز العددي الذي سيختل إن زحزحنا حرفاً واحداً^(١).

ثم تأمل من (ص) هذه المواضع التي يتحقق بها الانسجام الموسيقي والجرس
والإيقاع مع (ص) ﴿فَادَاوُلَاتِ حِينَ مَاصٍ﴾ [ص: ٣]، ﴿أَشْأَوْ وَأَصِيرُوا﴾ [ص: ٦]،
﴿وَأَصْحَبُ لَيْكَةِ﴾ [ص: ١٣]، ﴿صِيحَةٍ وَجَدَةٍ﴾ [ص: ١٥]، ﴿أَصِيرَ عَلَى مَا يَقُولُونَ﴾
[ص: ١٧]، ﴿وَفَصَلَ الْخُطَابِ﴾ [ص: ٢٠]، ﴿نَبَأَ الْخَصَمِ﴾ [ص: ٢١]، ﴿خَصَمَانِ
بَعَى بَعْضًا﴾ [ص: ٢٢]، ﴿سَوَاءَ الصِّرَاطِ﴾ [ص: ٢٢]، ﴿ءَامِنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾
[ص: ٢٤]، ﴿أَمْ تَجْعَلُ الَّذِينَ ءَامِنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ [ص: ٢٨]، ﴿الصَّافِنَتِ
الْحَيَادُ﴾ [ص: ٣١]، ﴿حَيْثُ أَصَابَ﴾ [ص: ٣٦]، ﴿كُلِّ بَنَاءٍ وَعَوَاصٍ﴾ [ص: ٣٧]،
﴿مُفَرِّقِينَ فِي الْأَصْفَادِ﴾ [ص: ٣٨]، ﴿يَنْصَبِ وَعَذَابٍ﴾ [ص: ٤١]، ﴿إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا﴾
[ص: ٤٤]، ﴿أَوَّلَى الْأَيْدِي وَالْأَبْصَرِ﴾ [ص: ٤٥]، ﴿أَخْلَصْتَهُمْ بِخَالَصَةٍ﴾ [ص: ٤٦]،
﴿لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنِ الْأَخْيَارِ﴾ [ص: ٤٧]، ﴿فَصَبْرَتْ الطَّرْفِ﴾ [ص: ٥٢]، ﴿جَهَنَّمَ
يَصْلَوْنَهَا﴾ [ص: ٥٦]، ﴿صَالُوا النَّارِ﴾ [ص: ٥٩]، ﴿زَاغَتْ عَنْهُمْ الْأَبْصَرُ﴾ [ص: ٦٣]،
﴿تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ﴾ [ص: ٦٤]، ﴿إِذْ يَخْضَعُونَ﴾ [ص: ٦٩]، ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ﴾

(١) قال صدقي البيك: حرف (ن) في سورة القلم ١٣٣ مرة أي ٧×١٩، ص ٥٣.

أَلْمُحَلِّصِينَ ﴿ص: ٨٣﴾، ثم أمر آخر أن منظومة الصاد أي السور التي فيها حرف الصاد وهي ثلاث سور: المص، كهيعص، ص^(١)، بينها قواسم مشتركة بحيث تشكل عائلة واحدة فلو رفعت الصاد لاختلفت لا السورة فحسب وإنما المنظومة كلها، وتأمل التالي: ﴿صَّ وَالْقُرْآنَ ذِي الذِّكْرِ﴾ ﴿كَهَيَعَصْ ١ ذِكْرٌ﴾ ﴿الْمَصَّ ١﴾ كَتَبَ أَنْزَلَ... وَذَكَرَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿

فالذكر والذكرى قرين الصاد، وهي متناسقة حتى في موقعها من المصحف فالمص في منتصف الجزء الثامن وكهيعص في منتصف الجزء السادس عشر، وص في منتصف الجزء الثامن من نهاية المصحف.

ومنظومة حروف (ق) تشكل مجموعة أخرى بينها قواسمها الخاصة: فسورة الشورى ﴿حَمْدٌ ١ عَسَىٰ﴾ وسورة (ق) ﴿تَشْتَرِكُ فِي الْحَدِيثِ الْمَفْصَلِ عَنْ الْقِيَامَةِ - وَكِلَاهُمَا مَخْتَمَةٌ بِذِكْرِ الرَّسُولِ وَإِنْ أَرَادَ قَوْمُهُ بِالْوَحْيِ وَالْقُرْآنِ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى فِي خَتَامِ سُورَةِ الشُّرَى: ﴿تَهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ... وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ تقارب قوله في ختام (ق): ﴿وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ فَذَكَرْ﴾.

أما سورة (ن) على سبيل المثال فموضوعها: النبي ونفي تهمة الجنون عنه ﷺ ولذلك جاء في أولها: ﴿مَا أَنْتَ بِمَجْنُونٌ﴾، وجاء في خاتمها: ﴿وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَرِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ﴾. ثم لاحظ وفرة حرف النون في السورة سوى ما ذكرنا: ﴿وَإِنَّكَ لَأَجْرَاعٌ مَّمْنُونٌ﴾، ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾، ﴿إِنَّ

(١) وجدت البيك يقول: حرف ص في (ص ومريم والأعراف) ورد: ٢٩+٢٦+٩٧+١٥٢=٨٠٩. راجعه، ص ٥٤.

(٢) وجدت صدقي البيك يقول: حروف (ق) في سورة (ق) ٥٧ مرة وفي الشورى ٥٧ مرة فمجموعهما ١١٤ مرة: ٦٠٩ راجع معجزة القرآن العددية للبيك، ص ٥٣.

رَبِّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ ﴿١٠﴾ وَدُّوا لَوْ يُدْهِنُ فَيَذْهَبُونَ ﴿١١﴾ ﴿أَنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَبَيْنَ﴾ (هذه الآية فيها خمس ما بين نون وتونين)، ﴿إِنَّا بَلَوْنَهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْبَنَةِ﴾.

ثم تأمل هذا التناسق بين حرف النون وقصة ذي النون التي تضمنتها السورة: ﴿وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ﴾. والحوت هو النون. وصاحب الحوت ذو النون. هذا كله في سورة (ن).

والعجيب في هذه الحروف أن أول ما نزل منها (في ترتيب النزول) هو آخر السور من حيث ترتيب المصحف وذلك سورة (ن).

والأصل أنه يعقب الحروف المقطعة ذكر القرآن الكريم، عدا قليل من السور منها آل عمران: ﴿الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾. ولكن ذكر الكتاب تلا ذلك مباشرة. ولعل من أسرار ذلك أن آية الكرسي وهي ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ من سورة البقرة جيء بها لتكون فاتحة في آل عمران، رمزاً للتوأمة بين السورتين والترابط الوثيق الحميم.

وأما تفسيري لكون البقرة وآل عمران (الزهاوين) من المدني فحسب هما اللتان تضمنتا الحروف المقطعة، فهو أنهما أول ما نزل في العهد المدني فكانه أراد بهما أن يحسم قضية الإعجاز في المدينة كما حسمت في مكة، فلما انتهت المسألة انتهت الحروف المقطعة حتى آخر نزول المصحف. والله أعلم.

وقد تراوحت أقوال المفسرين في الحروف المقطعة، فمنهم من قال إنها أسماء للسور. ف(حم) عدة سور و(الم) عدة سور، وإذا قلت (الم) العنكبوت، فقد أطلت الاسم، والأصل الاختصار والإيجاز.

ومنهم من قال: إنها أقسام أقسم الله بها، مع حذف حرف القسم، فقوله تعالى (ن)، (ق) كأنه قال وحق (ق)، كما قال والطور. وهذا تكلف ولا دليل عليه البتة. ومنهم من قال: إنها من المتشابه الذي استأثر الله بعلمه ومعناه، وهذا لا يقل غرابة عن الأقوال التي سبقته. فالوَلَمْ تَذَكَرِ الحروف ليكون لها معنى، فما عهدت العربية أن يكون للحرف الواحد معنى، فإذا انضم إليه آخر، صار له معنى. فـ (ف) ليس لها معنى، ولكن (في) لها معنى. فأين (التشابه) في حرف لا معنى له؟ وثانياً: إن الله تعالى لم يُنزل الكتاب ليكون شيء منه أحاجي وأسراراً ومغلقات لا يعلمها إلا الله، والله وصف كتابه بالمبين، والصحابة والتابعون فسروا كل آية حتى الحروف، فأين زعم استئثار الله بعلم هذه الأشياء. ومنهم من جعلها رموزاً يرمز بها إلى معاني مثل: ﴿الْمَصَّ﴾: أن الله أعلم وأفضل. وهذا شديد التكلف، ويمكن لكل أحد أن يعطي على هذه الشاكلة معاني أخرى لذات الحروف فهذا غير منضبط.

وأغرب الأقوال قول من جعلها رموزاً حسابية كما زعموا روايات عن بني إسرائيل تحسب من خلال الحروف عمر أمة الإسلام. ومنهم من دخل في متاهة حساب الجُمَّل. وهو أو هي في مجملها أو هي من بيت العنكبوت، وهي أقوال لا تستحق التسجيل. والذي أراه أن هذه الحروف جاءت للتحدي ولإفادة الإعجاز. وبمنتهى الاختصار والتبسيط أقول: إن الله خلق الإنسان من أبسط عناصر الطبيعة: الطين وجعله أعلى المخلوقات وأكرمها. والشمس هذا السراج المنير من أبسط عناصر الوجود: الهيليوم والهيدروجين.

والقرآن العظيم معجزة الكون وأعظم كتب الله مكون من حروف هي في متناول كل عربي وأول ابتداء تعليم الأطفال الحروف. فيا أيها العرب الفصحاء والبلغاء: هذه حروفكم وهذه لغتكم منها أنزل الله على قلب هذا النبي قرآنًا يتحدثكم أن تأتوا بمثله، فإن عجزتم عن المجازاة والمضاهاة فاعلموا أنه كلام الله.

فالمقصود الأول فيما أرى من هذه الحروف هو التحدي والإعجاز، والتحدي يأتي من عدة جوانب: فالملاحظ الأول أو الجانب الأول، أن هذه الحروف حروفكم واللغة لغتكم فقولوا بها كلاماً تضاهون به كلام الله، إن استطعتم، ولن تستطيعوا فاعلموا إذاً أنه كلام الله، وليس كلام بشر.

والملاحظ الثاني: هذا التناسق الذي لا تخطئه الأذن ولا العين ولا العقل بين الحروف وسورها. التناسق مع الموضوع، والتناسق في الإيقاع والجرس، ثم أخيراً التناسق في منظومات الأعداد والحساب.

والملاحظ الثالث: من أين لهذا الأمي ﷺ أن يعرف أسماء الحروف ولم يعلمه بشر، فهو إذاً من تعليم الله له.

والملاحظ الرابع: أن العرب عرفت بعض أدوات التنبيه، فجاء القرآن بهذه الحروف لتكون كالأدوات الخاصة التي يستخدمها في التنبيه.

والملاحظ الخامس: أن مثل هذه الحروف كمثّل طليعة موكب، وهذا تشبيه المرحوم المودودي في (تفهيم القرآن)، فكان هذه الحروف إشارة إلى عظيم شأن ما بعدها من سور.

والملاحظ السادس: اجتماعها مرة كالحواميم وافتراقها مرة كسور ﴿آل﴾، يدل على أن وراء هذا الترتيب حكمة وقصداً، وأنه من لدن حكيم عليم.

والآن، نعرض بعض أقوال المفسرين في الحروف المقطعة في أوائل السور وفي أوائل القصص بالذات.

حروف الفواتح وترتيب سور القرآن

«تكررت حروف الفواتح (٧٨) مرة، فإذا وضعنا ترتيباً لهذه الحروف وتكرارها من ١ - ٧٨، بحيث يكون بإزاء كل تكرار حرف سورة من سور القرآن الكريم وبنفس ترتيبها في المصحف كان الناتج كما يلي:

١- حرف الألف تكرر ثلاث عشرة مرة، والسورة الثالثة عشرة هي سورة الرعد، وأولها (ألر)، والصورة الحرفية (ألر) هي مجموع الصورة الحرفية (ألر) والصورة الحرفية (ألر)، وقد تكررت الصورة الحرفية (ألر) ثماني مرات^(١)، وتكررت الصورة (ألر) خمس مرات، فيكون المجموع (١٣) وهو نفسه رقم سورة الرعد.

٢- وردت الهاء مقترنة بالكاف ومقترنة بالطاء، في مريم وطه، وسورة مريم رقمها (١٩) وطه (٢٠)، وهي في ترتيب النزول سابقة على طه.

٣- سورة الشعراء (طسم) رقمها (٢٦) ومجموع حروفها (٢٦) (ط = ٤، س = ٥، م = ١٧ المجموع ٢٦).

٤- سورة طه رقمها (٢٠)، ويرتبط حرف الطاء مع الميم في طسم ويرتبط حرف الطاء مع السين في طس، وقد تكررت حروف طه (٦) مرات (ط = ٤، هـ = ٢) فإذا أضفنا الرقم (٦) إلى طه كان الناتج (٢٦) وهو رقم سورة الشعراء المفتحة بالطاء أيضاً.

٥- سورة النمل (طس) ورقمها (٢٧)، وترتبط الصورة الحرفية (طس) مع الميم في طسم، والتي هي افتتاح سورة القصص ورقمها (٢٨). وقد تكررت حروف (طس) في الفواتح تسع مرات (ط = ٤، س = ٥) فإذا أضفنا الرقم (٩) إلى رقم سورة النمل وهو (٢٧) كان الناتج (٣٦) وهو رقم سورة (يس) المفتحة بالسين أيضاً.

(١) (الم) ست مرات و(الر) و(المص)، فيكون مجموع مرات (الم) التي من بينها (الر) هو ٨ مرات.

٦- تكرر اسم (الرحمن) في أول ست وثلاثين سورة من سور القرآن (٤٠) مرة وقد ورد ذكر المرة الحادية والأربعين في سورة (حم فصلت) في قوله تعالى: ﴿تَنْزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ والرقم (٤١) هو نفس رقم سورة حم فصلت. وقد ورد حرف (ق) في افتتاح سورة الشورى على شكل (عسق) كما ورد حرف القاف أول سورة (ق)، وقد تكرر اسم الرحمن مرة واحدة في سورة (ق) فإذا أضفنا هذه المرة إلى الواحد والأربعين مرة السابقة كان الناتج = ٤٢ وهو رقم سورة الشورى^(١).

الحروف المقطعة

مجموعة الـ (ص) وعلاقتها بالرقم (٨)

«المص، كهيعص، ص»

$$\diamond \text{ مجموع آياتها: } ٢٠٦ + ٩٨ + ٨٨ = ٣٩٢ = ٨ \times ٤٩$$

$$\diamond \text{ لفظ الجلالة فيها: } ٦١ + ٨ + ٣ = ٧٢ = ٩ \times ٨$$

♦ الأجزاء التي تقع فيها هذه السور: الأعراف (٨، ٩)، مريم (١٦)، ص

$$(٢٣) \text{ مجموعها: } ٨ + ٩ + ١٦ + ٢٣ = ٥٦ = ٧ \times ٨$$

♦ مجموع الحروف في هذه المجموعة بلا تكرار = ٨ (أ، ل، م، ص، ك، هـ، ي، ع)

♦ ثم خطر لي أن أحصر السور التي في اسمها حرف (صاد)، فهل تعلم أنها

كانت (٨) أيضاً وهي: القصص، الصافات، ص، فصلت، الصف، العصر، النصر، الإخلاص، وآخر السور رقمها ١١٢ وهو (٨ × ١٤).

وإذا جمعنا عدد الآيات (٤) مع أرقام السورة^(٢) كان الناتج = ٨ = ١ + ١ + ٢ + ٤

(١) د. جبري مصطفى: فواتح حروف الفواتح، ص ٣٢٢ - ص ٣٢٥ باختصار .

(٢) أقصد أن رقم السورة هو ١١٢ أي ١ + ١ + ٢ بالتفكيك .

سورة الأعراف

«المص»

- ❖ تقع في الجزء رقم (٨).
- ❖ كلمة "ربك" فيها (٨) مرات.
- ❖ "ربكم" فيها $2 \times 8 = 16$.
- ❖ "ربي" فيها (٨) مرات.
- ❖ وفي السورة قصة (٨) أنبياء: آدم، نوح، هود، صالح، لوط، شعيب، موسى، هارون.

سورة مريم

- ❖ في الجزء رقم ١٦ (٢×٨) وفيها اسم الرحمن ١٦ مرة (٢×٨).
- ❖ لفظ الجلالة فيها (٨) مرات.
- ❖ وعدد آياتها يتدئ بالرقم ٨: ٩٨.

سورة (ص)

- ❖ هي في الجزء الثامن من آخر المصحف.
- ❖ وعدد آياتها يتدئ بالرقم ٨: ٨٨.
- ❖ ورقم السورة يتدئ بالرقم ٨: ٣٨.
- ❖ وقد ذكرت (٨) أسماء (إذا اعتبرنا ذا الكفل لقباً أو وصفاً): داود، سليمان، إبراهيم، أيوب، إسحاق، يعقوب، إسماعيل، اليسع، والغريب أنها ذكرت قصة آدم ولم تذكر اسمه.
- ❖ والآية الأولى فيها (٤) كلمات والأخيرة (٤) ومجموعهما: ٨.

الأحرف المقطعة

قال الأستاذ بسام جرار:

ذهب المفسرون مذاهب شتى في تفسير هذه الفواتح. ولم يجزموا بوجه من الوجوه، ولم يصح في تفسيرها شيء عن رسول الله ﷺ. وقد حاول المفسرون معرفة أسرار وحكمة ورود هذه الفواتح. ولكنهم لم يصلوا إلى ما يشفي الغليل، حتى أصبحت عبارة: (الله أعلم بمrade) هي العبارة السائدة في كتب التفسير عند التعرض لتفسير الفواتح^(١).

يتكون القرآن من ١١٤ سورة تستهل ٢٩ منها بحروف نورانية، وهذه السور تساوي نصف حجم القرآن تقريباً، وإليك بعض الملاحظات حول الفواتح:

- ١- الأحرف النورانية (الفواتح) هي ١٤ حرفاً: (أ، ل، م، ر، ص، ك، هـ، ي، ع، ط، س، خ، ق، ن).
- ٢- عدد الفواتح (١٤) فاتحة: وهي (الم، المص، ألم، الر، حم، حم عسق، كهيعص، يس، طه، طسم، طس، ص، ق، ن).
- ٣- هناك فواتح لم تتكرر منفردة: (المص، الم، كهيعص، طه، طس، يس، ص، حم عسق، ق، ن) ومنها فواتح تكررت في فواتح: (طس، ص، ق) وهناك فواتح تكررت منفردة: (ألم، الر، طسم، حم) ومن هذه واحدة لم تتكرر في فاتحة أكبر منها.
- ٤- الحواميم فقط وردت سلسلة في ترتيب المصحف: (٤٠، ٤١، ٤٢، ٤٣، ٤٤، ٤٥، ٥٦) ونزلت متسلسلة.
- ٥- أول ما نزلت (ن)، وثاني ما نزل (ق)، ثم (ص) أي أن أول ما نزل الفواتح التي تتكون من حرف واحد، والحرف هو وحدة بناء هذه الفواتح^(٢).

(١) بسام جرار: إعجاز الرقم (١٩)، ص ٦٣.

(٢) جرار، إعجاز الرقم ١٩، ص ٦٣، ص ٦٤ باختصار.

سور الأحرف وعلاقتها بالرقم (١٩)

- ١- أول هذه السور (ذوات الحروف المقطعة) نزولاً هي سورة (ن)، ولم تتكرر فاتحتها في سورة أخرى. وثاني ما نزل سورة (ق)، وتكررت فاتحتها مرتين: ق، حم، عسق. وثالث ما نزل سورة (ص)، وتكررت فاتحتها ثلاث مرات: ص، المص، كهيعص.
- ٢- السور الثلاث السالفة الذكر، لترتيبها علاقة بالعدد (١٩): فسورة (ص)، رقمها في ترتيب السور (٣٨) أي (١٩×٢)، وإذا بدأنا العد من سورة (ق)، يكون ترتيب سورة (ن) هو (١٩).
- ٣- عدد السور هو (٢٩)، وتقع سورة العنكبوت في المنتصف، والملاحظ أن ترتيبها في المصحف هو (٢٩).
- ٤- سورة مريم (كهيعص) هي السورة (١٩) في ترتيب المصحف، وتبدأ فاتحتها بحرف (ك)، ولم يرد هذا الحرف في غير سورة مريم. وتنتهي بحرف (ص)، وترتيب سورة (ص) (٣٨) أي (١٩×٢). ولا توجد سورة ثالثة من سور الفواتح ترتيبها من مضاعفات الـ (١٩).
- ٥- في الترتيب المتسلسل لسور الفواتح الـ (٢٩) نجد أن عدد السور بعد سورة مريم هو (١٩)، وعدد السور قبل سورة (ص) هو أيضاً (١٩).
- ٦- عدد السور من سورة البقرة (الم) إلى سورة القلم (ن) هو (٦٧) سورة، وإذا تم حذف سور الفواتح: (٦٧-١٩) = (٣٨) أي (١٩×٢) أي أن عدد السور التي لا تبدأ بفواتح: والمحصورة بين البقرة والقلم هي (٣٨) سورة^(١).
- ٧- الفواتح: (الر، الر، الر، الر، الر، الر، طس، ق، ص، ن) ليست آية في حين كل فاتحة من الفواتح الأخرى هي آية. وعليه فإن هناك (١٩) سورة تعتبر فاتحتها آية و (١٠) سور فاتحتها ليست آية.

- ٨- عدد أحرف الفواتح (١٤) وعدد الفواتح (١٤) وعدد السور (٢٩)، وإذا صح أن نجمع عدد الأحرف والفواتح والسور فإن المجموع هو (٥٧) أي (٣×١٩).
- ٩- تتضمن فاتحة (المص) فواتح أخرى هي (الم) و(ص)، وكذلك (الر) تتضمن (الم) و(الر)، وكذلك (طسم) تتضمن (طس). وعليه يكون مجموع الفواتح في حقيقتها (٣٨) أي (٢×١٩).
- ١٠- الفواتح بدون تكرار (١٤) فاتحة، وقد تكررت في الـ (٢٩) سورة (٣٨) مرة. وعدد أحرف الفواتح (٣٨) حرفاً أي (٢×١٩)، ووفق ترتيبها في المصحف نجد أن عدد الأحرف حتى نهاية فاتحة سورة مريم هو (١٩) وبعدها (١٩) حرفاً. وهذا يوافق ترتيب سورة مريم في المصحف، وترتيبها في سور الفواتح. إذ أن ترتيبها في المصحف (١٩) ويأتي بعدها في سور الفواتح (١٩) سورة. فتأمل!
- ١١- يدخل حرف (ا) في تشكيل الفواتح (الم، المص، الر، المر) وكذلك حرف (ل)، أما حرف (م) فيدخل في تشكيل: (الم، المص، المر، طسم، حم، حم عسق). وعليه فإن أحرف الفواتح الـ (١٤) تدخل في (٣٨) فاتحة أي (٢×١٩).
وإليك تفصيل ذلك:
ا: الم، المص، المر، الر.
ل: المر، المص، الم، الر.
م: المر، المص، الم، طسم، حم، حم عسق، حم.
ص: المص، كهيعص، ط.
ر: المر، الر^(١).
ك: كهيعص^(٢).

(١) بسام جراز: إعجاز الرقم (١٩)، ص ٦٧ - ٦٨.

(٢) قال الأستاذ بسام: جاءت فاتحة سورة مريم وفق هذا الترتيب بعد (١٩) فاتحة وعليه يكون ترتيبها هو (١٩) إذا بدأنا العد من فاتحة (ن).

هـ: كهيعص، طه.

ي: كهيعص، يس.

ع: كهيعص، حم عسق.

ط: طه، طسم، طس.

س: طسم، طس، يس، حم عسق.

ح: حم، حم عسق.

ق: ق، حم عسق.

ن: ن.

١٢- جاءت السور التي فاتحتها (الر، المر) متسلسلة في ترتيب المصحف على الصورة التالية: (الر، الر، الر، المر، الر، الر) ويلحظ أن عدد أحرف هذه المجموعة (١٩) حرفاً. وحتى نهاية فاتحة الرعد هناك (١٣) حرفاً. واللافت للنظر أن سورة الرعد تقع في الجزء (١٣) وهي السورة رقم (١٣) في المصحف. وقد وردت كلمة (الرعد) في الآية (١٣) وهي (١٩) كلمة. وسيجد القارئ أن سورة الرعد (الر) تقع في منتصف مجموعة مكونة من (١٣) سورة. وهي مجموعة (الر).

١٣- جاءت سور الحواميم متسلسلة الترتيب على الصورة التالية: (حم، حم، حم عسق، حم، حم، حم، حم). وهي تختلف عن مجموعة (الر) أن (الر) تقطع التسلسل مع أن (الر) تتضمن (الر). أما هنا في الحواميم فهناك تسلسل من غير انقطاع، إذ إن (حم) آية و(عسق) آية أخرى. وعليه فإن عدد أحرف (حم) في السور السبعة هو $(7 \times 2 = 14)$ وعدد أحرف (حم عسق) هو (٥) أحرف. وبذلك يكون مجموع أحرف فواتح الحواميم هو $(14 + 5 = 19)$ ^(١).

سور القرآن المشتركة في الحرف ط في فواتحها

هي أربع سور. ومجموع آياتها هو (٥٤٣)^(١).

ومن هذه المجموعة:

سورة الشعراء رقمها (٢٦).

وتكرار الحروف في الصورة الحرفية (طسم) = ٢٦.

ط = ٤، س = ٥، م = ١٧ = ٢٦.

والرقم ٢٦ هو مجموع تكرار كل من حرفي الألف واللام في حروف الفواتح.

سورة النمل رقمها ٢٧ وهي مفتحة بالصورة الحرفية طس.

وعدد تكرارات طس هو ٩ فإذا أضفنا الرقم ٩ إلى الرقم ٢٧ كان الناتج ٣٦

وهو رقم سورة يس المفتحة بالسين^(٢).

تكرر ذكر الآيات الدالة على التوحيد بذكر لفظ (الواحد) سبحانه إحدى

وعشرين مرة (٢١) في كل القرآن الكريم.

وهو موجود في السور التالية المفتحة بالحروف:

البقرة، يوسف، الرعد، إبراهيم، العنكبوت، ص، غافر، فصلت.

وقد بلغ تكرار الحروف في الصور الحرفية في السورة السابقة (واحدًا وعشرين)

تكراراً (٢١) وهي بعدد الآيات التي ورد فيها اسمه الواحد. وتكرر قوله تعالى:

﴿الَّذِي خَلَقَ﴾ ٢١ مرة^(٣).

(١) في كتاب الدكتور جبري ذكر عددها ٤٤٧ آية والصحيح ما ذكرنا وهو مجموع: ١٣٥، ٢٢٧، ٩٣، ٨٨.

(٢) د. جبري مصطفى: فواتح حروف الفواتح، ص ٢٣٩، ص ٢٤٣، ص ٢٤٧.

(٣) د. جبري مصطفى: فواتح حروف الفواتح، ص ١٩٢ - ٢٠٥.

القسم الأول

المعلومات العامة

عن سورة القصص

اسم السورة وسبب التسمية وهل للسورة أسماء أخرى؟

من المعلوم أن أسماء السور توفيقية، لا توفيقية، أو اجتهادية. بمعنى أنها تعليم من الله تعالى للرسول ﷺ، وهو بلغنا إياها بدوره، فاستقرت على ذلك، وهي كما هي عندنا هي في السماء في اللوح المحفوظ وبعض السور لها اسمان مثل (ن) و(القلم)، ومثل (تبارك) و(الملك)، و(عم) و(النبا) ... إلخ. لكن أغلب السور لا يعرف لها إلا اسم واحد، كسورة البقرة وآل عمران ومريم. ومن هذا القبيل سورة القصص.

وقد تسمى السورة بأول كلمة فيها مثل كثير من السور كالعصر والقارعة وعم، والصفافات والطور والتين... إلخ. وقد تسمى بكلمة في الآية الأولى منها كالأنفال، والواقعة والمنافقون والبيّنة... إلخ. وقد تسمى بموضوع فيها مهم أو بارز كالبقرة أو آل عمران، ومن هذا القبيل سورة القصص.

وقد جاء في السورة قوله تعالى في قصة موسى والعبد الصالح: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُ، وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [القصص: ٢٥]، وليس للسورة اسم آخر.

قال ابن عاشور:

سميت سورة القصص ولا يعرف لها اسم آخر، ووجه التسمية بذلك وقوع لفظ القصص فيها عند قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُ، وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ﴾ [القصص: ٢٥]، فالقصص الذي أضيفت إليه السورة هو قصص موسى الذي قصه على شعيب عليهما السلام^(١)، فيما لقيه في مصر قبل خروجه منها، فلما حكى في السورة ما قصه

(١) قلت: رحم الله ابن عاشور، فما من دليل يدل أنه شعيب، اللهم إلا روايات ليس لها من الصحة رصيد ولا نصيب.

موسى كانت هاته السورة ذات قصص لحكاية قصص، فكان القصص متوغلاً فيها، وجاء لفظ القصص في سورة يوسف، ولكن سورة يوسف نزلت بعد هذه السورة^(١).

قال ابن عاشور:

وهي السورة التاسعة والأربعون في عداد نزول سور القرآن، نزلت بعد سورة النمل، وقبل سورة الإسراء، فكانت هذه الطواسين الثلاث متتابعة في النزول كما هو ترتيبها في المصحف، وهي متماثلة في افتتاح ثلاثتها بذكر موسى عليه السلام. وهي ثمان وثمانون آية باتفاق العادين^(٢).

(١) ابن عاشور: التحرير والتنوير، ج ٢٠، ص ٥، بيروت: مؤسسة التاريخ ط ١ سنة ١٤٢٠هـ/ ٢٠٠٠م.
(٢) ابن عاشور: التحرير والتنوير ج ٢٠، ص ٥، وما قاله ولا نقره عليه، بعد ذكره الطواسين، قال: ولعل ذلك الذي حمل كتاب المصحف على جعلها متلاحقة، قلت: والصحيح الذي لا يحيد عنه أن ترتيب السور القرآنية توقيفي لا اجتهادي، وإثبات ذلك ليس محله هنا.

زمان نزول السورة

سورة القصص مكية كلها فيما نعلم، وقال الماوردي: (مكية في قول الحسن وعكرمة وعطاء) ^(١). أقول: ونسبة القول إلى هؤلاء الكرام يومهم أنه رأي لهم وحسب، ولا نظن أن أحداً يخالف في مكية السورة.

وأظن أنه ليس بالقول القوي هذا الذي يروى وينسب إلى ابن عباس وقتادة فيما ينقله ابن الجوزي حين قال: (وقال ابن عباس وقتادة إلا آية منها نزلت بين مكة والمدينة، وقيل بالجحفة، وهي (أي الآية): ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ [القصص: ٨٥] يقصد الماوردي أنها مدنية.

قلت: قد انتهى القول المختار في علوم القرآن في تحديد المكي من المدني أنه ما نزل قبل الهجرة وما نزل بعدها، أي اعتماد المقياس الزماني لا المكاني فما نزل بعد الهجرة هو المدني، والهجرة من وصول النبي ﷺ إلى المدينة. هذا أمر، ثم إن قول الله تعالى: ﴿لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ يحتمل معنى غير المعنى الذي ذهبوا إليه، ولا يتعين أنه يعني الهجرة. هذا والله أعلم.

وإذا أخذنا بتفسير ﴿لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ أنه إعادته ﷺ إلى مكة بعد الخروج منها، وأن هذه الآية نزلت وقت أو بعد خروجه بيسير، أقول: إذا أخذنا بهذا القول، فإن سورة القصص تكون بناء عليه، من أواخر ما نزل في العهد المكي. وإن لم يكن هذا متعيناً. ومعلوم أن تحديد زمان نزول السور أو محاولة ترتيبها على النزول أمر متعسر أو متعذر.

المكي والمدني في سورة القصص

قال الأساس: قال الألويسي:

مكية كلها على ما روي عن الحسن، وعطاء وطاوس، وعكرمة. وقال مقاتل: فيها من المدني قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا أَتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿لَا يَنْبَغِي الْجَاهِلِينَ﴾.

فقد أخرج الطبراني عن ابن عباس رضي الله عنهما أنها نزلت هي وآخر الحديد في أصحاب النجاشي الذين قدموا وشهدوا واقعة أحد، وفي رواية عنه رضي الله عنه أن الآية المذكورة نزلت بالجحفة في خروجه عليه الصلاة والسلام للهجرة، وقيل: نزلت بين مكة والجحفة.

وقال المدائني في كتاب العدد عن يحيى بن سلام قال: بلغني أن النبي ﷺ حين هاجر نزل عليه جبريل عليه الصلاة والسلام بالجحفة وهو متوجه من مكة إلى المدينة فقال: أتشتاق يا محمد إلى بلدك التي ولدت فيها؟ قال: نعم. قال: (إن الذي فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد)^(١).

قلت: والذي أراه أن سورة القصص مكية كلها، وخبر أهل الكتاب لا يمنع أنه حصل في مكة.

قال ابن عاشور:

(وهي مكية في قول جمهور التابعين، وفيها آية: ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ﴾ [القصص: ٨٥]، قيل نزلت على النبي ﷺ في الجحفة في طريقه إلى المدينة للهجرة، تسلياً له على مفارقة بلده.

(١) سعيد حوى، الأساس في التفسير، ج ٧، ص ٤٠٥، ط ١، القاهرة، دار السلام، ١٤٠٥-١٩٨٥.

وهذا لا يتأكد أنها مكية لأن المراد بالمكنى ما نزل قبل حلول النبي ﷺ بالمدينة، كما أن المراد بالمديني ما نزل بعد ذلك ولو كان نزوله بمكة.

وعن مقاتل وابن عباس أن قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَاعْلَمُوا أَنَّهُمْ الَّذِينَ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى الْإِسْلَامِ مِن قَبْلِهِ هُم بِهِ يُؤْمِنُونَ﴾ [القصص: ٥٢] إلى قوله ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا تَبْغَى الْجَنَّةَ﴾ [القصص: ٥٥] نزل بالمدينة^(١).

هل في السورة ناسخ ومنسوخ؟

درج العلماء على تقسيم سور القرآن إلى سور تجمع الصنفين: الناسخ والمنسوخ، وسور تحوي واحداً منهما دون الآخر. إما الناسخ وإما المنسوخ، فهذه أنواع ثلاثة، ونوع رابع لا ناسخ فيه ولا منسوخ. ولا نريد أن نناقش الآن توسعهم في القول بالناسخ والمنسوخ، بحيث لا تخلو سورة في نظر بعضهم من وجود ناسخ أو منسوخ أو كليهما.

والذي نراه باختصار، وخصوصاً إلى صلب الموضوع المطروح أن سورة القصص لا ناسخ فيها ولا منسوخ.

ذلك، أن سورة القصص سورة قصصية ولا نسخ في الأخبار والقصص. ولا نسخ في العقائد، ولا نسخ في الأخلاق، إنما النسخ في الأحكام الشرعية التفصيلية، ولا أحكام شرعية تفصيلية في القصص، فلا نسخ فيها بالتالي، ولا منسوخ ولا ناسخ من باب أولى، إذ الناسخ ينبغي أن يكون متأخراً. وهذه السورة مكية، والناسخ ينبغي أن يكون من المديني المتأخر.

(١) ابن عاشور: التحرير والتنوير، ج ٢٠، ص ٥ بيروت: مؤسسة التاريخ، ط ١/ ١٤٢٠ هـ - ٢٠٠٠ م. قلت: والراجع بل والصحيح أن السورة كلها بكل آياتها مكية.

فواصل سورة القصص

ونعني بالفاصلة الحرف الأخير من الكلمة الأخيرة من الآية. وإنما سميت (فاصلة) تمييزاً لها ولكتاب الله عن التشبه بالسجع في الشر، أو القافية والروي في الشعر. وفواصل سورة القصص تنحصر في أحرف أربعة: النون والميم والراء واللام. والنصيب الأكبر إنما هو للنون، التي لها النصيب الأكبر من فواصل القرآن على الجملة. وهي أغنى حروف اللغة العربية بالموسيقى، وتكاد تستأثر بنصيب الأسد في أحكام التجويد، لغناها الذي أسلفنا.

وأما تفصيل مرات ورود، والآيات لكل فاصلة فهي كما يلي:

١- النون: (٨١) آية أي بنسبة (٩٢٪) من الآيات.

وهذا تفصيل الآيات، من (١٥-٢)، (٢١-١٧)، (٢٧-٢٥)، (٢٩-٧٨)، (٨٠-٨٨) وأطول مرات اتصلت فيها فاصلة النون بلا انقطاع من الآية (٢٩-٧٩) أي خمسين آية.

٢- الميم: وجاءت في ثلاث آيات: ١، ١٦، ٧٩، وهي بنسبة (٣، ٤٪) من مجموع الفواصل.

٣- اللام: ٢٢، ٢٨ بنسبة (٢، ٢٪).

٤- الراء: ٢٣، ٢٤ وجاءت متصلة بلا انقطاع.

وعلى طريقة علمائنا، فإننا لو جئنا نشكل أو نكون من هذه الحروف عبارة ليسهل حفظها واستذكارها، لجاءت التباديل على هذا النحو: (رملن)، (نرمل)، (لم نر)، أو (لنرم) فهذه تباديل أربعة، ويمكن تشكيل غيرها، من حروف أو لحروف فواصل سورة القصص. والحروف الأربعة هي حروف التجويد بلا منازع، الأولان حرفا الغنة، والحرفان المسيطران على أحكام التجويد، والآخران حرفا أحكام الترقيق والتفخيم.

وإذا تجاوزنا الفواصل كحروف لننظر فيها ككلمات، فإننا واجدون قرابة ٢٠٪ من فواصل السورة تتعلق بالظلم والفساد. لتعطيك بالتالي جو السورة وعمّ تحدث وإليك التفاصيل:

أكثر كلمات الفواصل تكراراً: (ظالمين، ظالمون) ووردت في (٦) آيات هي: ٢١، ٢٥، ٣٧، ٤٠، ٥٠، ٥٩. أي قرابة ٧٪ من فواصل السورة كلها.

ثم (المفسدين): ٤، ٧٧.

ثم (المجرمون، مجرمين): ١٧، ٧٨.

ثم (الكافرون، كافرين) ٨٢، ٨٦، ٤٨.

(فاسقين) ٣٢.

(الجاهلين) ٥٥.

(المقبوحين) ٤٢، (المشركين) ٨٧، (الخاطئين) ٨.

ومجموع هذه الكلمات إلى المجموع العام للفواصل نسبته ٢٠٪.

فإذا انتقلنا إلى الأفعال وجدنا:

(يقتلون) آية ٣٣، (يكذبون) ٣٤، (تزعمون) ٦٢، ٧٤.

(لا ينصرون) ٤١، (يشركون) ٦٨، (يفترون) ٧٥.

وفي المقابل نجد:

(الوارثين) ٥، ٥٨، (المرسلين) ٧، ٤٥، ٦٥، (المؤمنين) ١٠، ٤٧، (الصالحين)

٢٧، (المصلحين) ١٩، (الأمينين) ٣١، (الغالبون) ٣٥، (الشاهدين) ٤٤، (مسلمين)

٥٣، (المفلحين) ٦٧، (الصابرون) ٨٠، (المهتدين) ٥٦، (صادقين) ٤٩،

(الناصحين) ٢٠، (ناصحون) ١٢.

ومجموع هذه الكلمات إلى المجموع العام للفواصل نسبته ٢٢٪ فإذا رفعنا كلمة

(المرسلين) كانت النسبة هنا أيضاً ٢٠٪.

موقع سورة القصص بين سور الحروف المقطعة

يمكن أن ننظر إلى زمر الحروف المقطعة من زوايا عدة. فالنظرة الأولى والأسهل: موقع السورة بين سور الحروف من حيث ترتيب المصحف، وهذا ميسر في المتناول بمجرد العد، وهي من هذه الناحية السورة الرابعة عشرة، سبقها ثلاث عشرة سورة، ويلحقها خمسة عشر سورة فهي - تقريباً - في القلب.

ويمكن أن نصفها من زاوية ثانية من حيث النظر إلى الزمرة من جهة عدد الأحرف، فهي من هذه الناحية من زمرة السور ذات الثلاثة أحرف، وموقعها بين السور ذات الثلاثة أحرف هو: التاسعة.

ويمكن النظر إليها من زاوية ثالثة، فهي من عائلة (ط) وهذه الزمرة تعتبر سورة القصص هي خاتمها ونهايتها من بين أربع سور هي: طه، طسم، طس، طسم. وهي بالترتيب: طه، الشعراء، النمل، القصص.

وهي من ناحية رابعة مشتركة مع السور ذات حرف الميم، وهي بهذا الاعتبار السورة رقم (٦) ويعقبها (١١) سورة.

وهي من ناحية خامسة يمكن أن ننظر إليها من حيث عدد الآيات فهي بهذا الاعتبار السورة رقم (١٢) وهي تشترك في هذا مع سورة (ص) التي تماثلها في العدد. ويلحقها في هذا المقياس خمس عشرة سورة، فيكون قد التقى النظر في الأول من هذه الناحية مع هذه النظرة الأخيرة.

وعن لي أن أزيد زاوية نظر سادسة، ذلكم هو ترتيبها من حيث السور التي رقمها زوجي وعدد آياتها زوجي، وهي في هذا السورة رقم (٣) فقد سبقتها البقرة وإبراهيم وتبعتها أربع سور هي الروم والسجدة وص ون، فالجُمُوع سبع سور^(١).

(١) أما السور التي رقمها فردي وعدد آياتها فردي فهي سبع سور أيضاً، وهي: هود ١٢٣: ١١. الرعد ٤٣: ١٣، الحجر ٩٣: ١٥، العنكبوت ٦٩: ٢٩، الزخرف ٨٩: ٤٣، الجاثية ٤٥: ٣٧.

ثم رأيت أن أزيد وجهة نظر سابعة أن نرى ما موقعها في زمرة السور المحتوية على حرف السين وهي خمس سور، وموقع القصص فيها هو في القلب تماماً، قبلها الشعراء والنمل وبعدها (يس) و(الشورى).

فهذه سبع زوايا نظر وسبعة اعتبارات نظرنا من خلالها إلى موقع سورة القصص في مجموعة الحروف المقطعة.

وخطر لي بعد الطبعة الأولى أن ننظر إليها من زاوية عدد الحروف فمعلوم أن سور الحروف تتراوح أعداد الحروف فيها من ١-٥ وسورتنا حروفها (٣) فهي من هذه الناحية في القلب أيضاً فقبلها ذوات الحرف والحرفين، وبعدها ذوات الأربعة حروف وخمسة حروف.

ولعل هناك زوايا نظر أخرى لم نخطر ببالنا يفتح الله بها على أصحاب نظر آخرين.

مقاطع سورة القصص وموضوعاتها والوحدة الموضوعية فيها

هي السورة رقم (٢٨) وآياتها (٨٨)، وهي السورة رقم (١٤) في سور الحروف المقطعة، وهي السورة رقم (٤) والأخيرة من سور المجموعة ذوات حرف الطاء، وتقع في أوائل الثلث الأخير من المصحف في مطالع الجزء العشرين.

وسميت القصص لأن فيها قول الله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ﴾ [القصص: ٢٥]. وهي من ناحية أخرى سورة تستغرق القصص جل مساحتها من بدنها إلى متهاها، وفيها أقل من ثلاثين آية ما بين (٤٧-٧٥) تعقيبات من جو القصص تثبت نبوة النبي ﷺ من خلال هذه القصص:

﴿وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْفَرْقِ إِذْ فَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ [القصص: ٤٤].

﴿وَمَا كُنْتَ تَأْوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾

[القصص: ٤٥]

﴿وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا...﴾ [القصص: ٤٦].

وبعد أن أثبت نبوة هذا النبي الكريم من خلال هذه القصص تكلم عن موقع العرب الذي يشبه موقف فرعون من موسى:

﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا لَوْلَا أَوْفَىٰ مِثْلَ مَا أَوْفَىٰ مُوسَىٰ أَوْلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا

أَوْفَىٰ مُوسَىٰ مِنْ قَبْلُ قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا﴾ [القصص: ٤٨].

ثم تكلم عن فضل هذا الكتاب وفضل من يؤمن بهذا الكتاب. وتمحلات العرب في عدم الإيمان به وأنه خوف أن تتخطفهم القوى المحيطة بهم وما أشبه

الليلة بالبارحة، ويرد عليهم بالحرم الذي جعله الله آمناً يجبى إليه ثمرات كل شيء.. فهذا الدين والإيمان والأمن والأمان صنوان.

ثم عاد إلى السنن الاجتماعية يستخرجها من القصص، من أجل مماهاة تلك السنن بواقع العرب: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرَبٍ بِطَرَتِ مَعِيشَتَهَا فَبِئْسَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [القصص: ٥٨]. ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ۚ وَإِنَّا لَمَّا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَىٰ لَأَ لَا أَهْلَهَا ظَلِمْتُمْ﴾ [القصص: ٥٩].

ومن مشاهد القيامة عاد إلى الكون من جديد على ما هي عادة القرآن أنه يراوح بين الآخرة والدنيا جيئة وذهاباً.. وما أشبه منهج القصص بالنمل. وذكر من المشاهد الكونية مثل هذه الآيات: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ أَمْ لَأَ تَسْمَعُونَ﴾ [القصص: ٧١].

وذكر الصورة المقابلة، ليستخرج رحمة الله في تعاقب الليل والنهار من أجل القيام بالوظائف التي أنيطت بالبشر. ثم في آيتين عاد إلى مشاهد القيامة.. ليستقل منها في خواتيم السورة إلى قصة قارون الذي تربطه بقصة موسى في أول السورة روابط حددها وحدثنا عنها القرآن إذ قال: ﴿إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مَوْسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ [القصص: ٧٦].

وتستمر القصة حتى الآية (٨٢) ليعقب السياق عليها بتعقيب هو واحد من قوانين الاستخلاف في الدنيا والآخرة: ﴿تِلْكَ الْأَمْثَلُ الْأَخْرَجُ لِمَعْلَمِهَا الَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [القصص: ٨٣] ثم ختام السورة.

وبعد فكانت هذه نظرة عامة على هيكلية موضوعات السورة. والآن نفصل هذا بشيء يسير من التفصيل فيما نطلق عليه: المقاطع.

مقاطع سورة القصص

١- المقطع الأول: من الآية (١-٦) (فاتحة ومقدمة).

مقدمة السورة وفيها بعد الحروف المقطعة والإشارة إلى الكتاب المبين، موجز قصة موسى وفرعون، وقانون الله في تداول الأوضاع، وإدالة دولة من طغى واستضعف الخلق وتجاوز عليهم، وخفض المرفوع، ورفع المخفوض.

٢- المقطع الثاني: (٧-١٣) (موسى الرضيع في يد فرعون)

وفيه بيان كيفية عمل قانون الله، وقد بدأه من الحلقة الأولى، إرضاع موسى، ليكون الزعيم المتقذ الذي يغير الله به التاريخ، وأوضاع الشعوب. فالزعيم نواة أمة، وكما تتخلق خلايا الجسم من نواة، تتخلق الأمة من نواة.. من هنا بدأ المقطع بالإيماء إلى أم موسى بإرضاعه، ثم بإلقائه في اليم عند إحساس الخطر ليصل إلى قلب الخطر: إلى يد فرعون، ففي مواجهة الخطر خير فرصة للنجاة من الخطر، وتدير الله فوق كل تدبير.

٣- المقطع الثالث: من الآية (١٤-٢٢) (موسى يقتل القبطي ويهاجر)

يتحول موسى في هذا المقطع من ربيب القصر وولي العهد إلى زعيم الشعب الإسرائيلي ومحرر المستضعفين، ويقتل قبطياً في محاولة نصرته إسرائيلي.. ثم يصبح مطلوباً للقصر وتأتيه معلومات بذلك فيهاجر.

٤- المقطع الرابع: من الآية (٢٣-٢٨) (موسى في مدين..)

هذا المقطع ست آيات وعشر سنوات، وفيه هجرة موسى من مصر إلى مدين ثم زواجه في مدين من بنت الرجل الصالح ورعيه الغنم وانتهاء الأجل عشر سنين، ثم الحنين إلى مصر.

٥- المقطع الخامس: من الآية (٢٩-٣٥) (نبوة موسى ومعجزاته)

في طريق العودة إلى مصر مروراً بطور سيناء يرى موسى النار التي هي في الحقيقة نور، وعلامة لموسى لنبوته، وفي الوادي المقدس يرى معجزة العصا واليد لتكون سلاحه في مواجهة أطغى طواغيت الأرض، ثم يطلب صحبة أخيه، ولا ندري أين هو، فيكرمه الله بالاستجابة ويرسل رسولين بآيات إلى رجل واحد.. إلى فرعون.

٦- المقطع السادس: من الآية (٣٦-٤٣) (موسى في مواجهة فرعون)

يبتدئ المقطع بمجيء موسى إلى فرعون وينتهي بغرق فرعون في اليم ولوجه النار في جهنم، وتصويره فيها إماماً..

٧- المقطع السابع: من الآية (٤٤-٥٠) (إثبات نبوة محمد من خلال قصة

(موسى)

فهذه الأخبار والتفصيلات التي تضمنتها قصة موسى في هذه السورة لا توجد في كتاب على الأرض سوى القرآن، وليست بهذه الدقة والتحديد عند بني إسرائيل ولا العرب، ولا كان محمد حاضرها، فهو رسول الله إذاً، فإن لم يؤمن قومه بعد هذا فهو اتباع الهوى من قبلهم.

٨- المقطع الثامن: من الآية (٥١-٥٩) (تعقيب على التعقيب)

وفيه نبوة هذا النبي ﷺ ورسالته التي وصلت قومه، وموقف مؤمني هذا الكتاب من هذه الرسالة، ثم صفات من يؤمن بهذا الكتاب وأنه الإنسان الجاد. ثم تعللات العرب وذرائعهم لعدم الإيمان، وأنه الهاجس الأمني، بدعوى أن الإيمان يجعلهم غرضاً للسهام من القوى الإقليمية والدولية: ﴿إِنْ نَنْتَهِجْ أَهْدَىٰ مَعَكَ نُنْخَطَفْ مِنْ أَرْضِنَا﴾ والرد عليهم، وختم المقطع بقانون الله في هلاك الأمم الظالمة، وهو تلويح للعرب أو تصريح.

٩- المقطع التاسع: من الآية (٦٠-٦٧) (مشهد من مشاهد القيامة)

وصل القرآن الحديث عن عذاب الدنيا بالحديث عن عذاب الآخرة. وفي هذا المشهد يتدنى بالدنيا وإذ بنا من الآية الأولى في الآخرة: ﴿وَمَا أُوْتِيتُمْ شَيْءٌ فَمَتَّعُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزَيَّنَّهَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ وفي المشهد تكرار ﴿أَنْ شُرَكَاءِي﴾ ويتهي بترؤ كل فريق من الآخر. والنداء الثاني ﴿مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ﴾ ويحيب الله عنهم: ﴿فَعَيَّيْتُ عَلَيْهِمُ الْأَنْبَاءَ يَوْمَئِذٍ﴾ ويختم المشهد بفوز المؤمنين.

١٠- المقطع العاشر: من الآية (٦٨-٧٥) (تقرير التوحيد)

يقرر هذا المشهد وحدانية الله من خلال طلاقة مشيئته في الخلق، واختياره المطلق في هذا الخلق وأنه الإله وحده في الدنيا والآخرة، ثم يقرر ذلك من خلال الحديث عن الظواهر الكونية ويختار منها تعاقب الليل والنهار، ويلفتنا إلى افتراض ديمومة الكون على ظاهرة واحدة من ليل أو نهار، وأن هذا التعاقب من رحمة الله وحكمته. وينتهي هذا المشهد بمشهد من مشاهد القيامة نداء: ﴿أَنْ شُرَكَاءِي﴾ ثم يطلب من المشركين البرهان. وأنى لهم؟

١١- المقطع الحادي عشر: من الآية (٧٦-٨٣) (قصة قارون)

وهي مرتبطة بقصة موسى وفرعون التي جاءت في أول السورة من حيث الاستكبار والاستعلاء في كلا القصتين، هناك الاستعلاء السياسي وهنا الاستعلاء الاقتصادي، وأما من حيث الرقعة الجغرافية والقوم، فالقصة في ذات الرقعة وذات المجموعة البشرية. ورباط ثالث: الفرق والهلاك في قصة فرعون، والخسف وابتلاع الأرض في قصة قارون. فالقصتان من معدن واحد، ولذلك جمعهما الحكيم الخبير في سياق ونسق واحد في سورة واحدة هي سورة القصص.

١٢- المقطع الثاني عشر: من الآية (٨٤-٨٨) (ختم السورة)

وفي هذا الختام القضايا الرئيسية للسورة واسترجاع لها من جديد، وفيه: العدل الإلهي وجزاؤه الحسنة بالحسنة والسيئة بالسيئة، ثم بشارة محمد ﷺ بعودته إلى مكة، وهي شبيهة عودة أخيه موسى من مدين إلى مصر، وقد يكون الكلام مراداً به الآخرة، فهو مرتبط بصلب قضايا السورة على هذا المعنى أيضاً، فمشاهد القيامة هي من المحاور التي تنشأ إليها آيات السورة.

ثم إن النبوة جاءت ﷺ على غير توقع كما نبئ أخوه موسى في أول السورة على غير توقع: ﴿وَمَا كُنْتَ تَرْجُو أَن يُلْقَىٰ إِلَيْكَ الْكِتَابُ﴾ وهذه تذكرنا بعدة مرات وردت من صيغة ﴿وَمَا كُنْتَ﴾ ووردت في السورة ويذكرنا التوجيه بعدها: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِلْكَافِرِينَ﴾ بقول موسى: ﴿فَلَن أَكُونَ ظَهِيرًا لِلْمُجْرِمِينَ﴾ قبل سبعين آية من هذه الآية.

ثم آية الختام بتقرير التوحيد، والرجوع إلى الله، ليشكل ذلك أروع ختام وأوقعه وأجمعه: ﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾.

ظروف نزول السورة

إذا تأملنا القصص الذي في السورة، وهو متناسق قطعاً مع الواقع الذي يتنزل فيه، أقول: إن هذا القصص يلمح إلى احتدام المعركة واشتداد الصراع مع الباطل، من خلال الإشارة إلى علو فرعون: ﴿إِنِّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ ومن خلال الإشارة القصصية إلى تذبيح الأبناء من بني إسرائيل، فهي مواساة من طرف خفي لما يلقاه المؤمنون من عنت.

وقوله تعالى: ﴿وَرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِيكَ اسْتَضَعِفُوا﴾ إشارة إلى سنة الله في مداولة الأيام، وهو تطمين المؤمنين وإيدان بقرب الفجر والفرج.

وأما الإشارة الأجلى والأوضح ما جاء تعقياً على قولهم: ﴿إِن نَّبِيعَ الْهَدَىٰ مَعَكَ نُخَطِّفَ﴾ إذ قال النص الكريم بعدها مباشرة: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِكَ بِطَرَفٍ مِّمَّهَا﴾ وبعدها مباشرة: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ؕ إِنَّا بَنَيْنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَىٰ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ﴾ فهو تهديد للكافرين جلي صريح، وتطمين للمؤمنين بين واضح.

ظروف نزول السورة وموضوعاتها كما يراه في (الظلال) صاحب الظلال

«هذه السورة مكية، أنزلت والمسلمون في مكة قلة مستضعفة، والمشركون هم أصحاب الحول والطول والجاه والسلطان. نزلت تضع الموازين الحقيقية للقوى والقيم، نزلت تقرر أن هناك قوة واحدة في هذا الوجود، هي قوة الله، وأن هناك قيمة واحدة في هذا الكون، هي قيمة الإيمان، فمن كانت قوة الله معه فلا خوف عليه، ولو كان مجرداً من كل مظاهر القوة، ومن كانت قوة الله عليه فلا أمن له ولا طمأنينة ولو ساندته جميع القوى، ومن كانت له قيمة الإيمان فله الخير كله، ومن فقد هذه القيمة فليس بنافعه شيء أصلاً.

ومن ثم يقوم كيان السورة على قصة موسى وفرعون في البدء، وقصة قارون مع قومه - قوم موسى - في الختام.. الأولى تعرض قوة الحكم والسلطان. قوة فرعون الطاغية المتجبر اليقظ الحذر، وفي مواجهتها موسى طفلاً رضيعاً لا حول له ولا قوة، ولا ملجأ له ولا وقاية. وقد علا فرعون في الأرض، واتخذ أهلها شيعاً، واستضعف بني إسرائيل، يذبح أبناءهم ويستحيي نساءهم، وهو على حذر منهم، وهو قابض على أعناقهم. ولكن قوة فرعون وجبروته وحذره ويقظته، لا تغني عنه شيئاً، بل لا تمكن له من موسى الطفل الصغير، المجرد من كل قوة وحيلة، وهو في حراسة القوة الحقيقية ترعاه عين العناية، وتدفع عنه سوء وتعمي عنه العيون، وتتحدى به فرعون وجنده تحدياً سافراً، فتدفع به إلى حجره وتدخل به عليه عرينه، بل تقتحم به عليه قلب امرأته وهو مكتوف اليدين إزاءه، مكفوف الأذى عنه، يصنع بنفسه لنفسه ما يحذره ويخشاه!

والقصة الثانية تعرض قيمة المال، ومعها قيمة العلم. المال الذي يستخف القوم وقد خرج عليهم قارون في زينتته، وهم يعلمون أنه أوتي من المال ما إن مفاتحه

لتعبي العصابة من الرجال الأقوياء. والعلم الذي يعتز به قارون، ومحسب أنه بسببه وعن طريقه أوتي ذلك المال. ولكن الذين أوتوا العلم الصحيح من قومه لا تستخفهم خزائنه، ولا تستخفهم زيته، بل يتطلعون إلى ثواب الله، ويعلمون أنه خير وأبقى. ثم تتدخل يد الله فتخسف به ويداره الأرض، ولا يغني عنه ماله، ولا يغني عنه علمه، وتتدخل تدخلاً مباشراً سافراً كما تدخلت في أمر فرعون، فألقته في اليم هو وجنوده فكان من المغرقين.

لقد بغى فرعون على بني إسرائيل، واستطال مجبروت الحكم والسلطان، ولقد بغى قارون عليهم واستطال مجبروت العلم والمال. وكانت النهاية واحدة. هذا خسف به ويداره، وذلك أخذه اليم هو وجنوده. ولم تكن هنالك قوة تعارضها من قوى الأرض الظاهرة. (يقصد أن قوة فرعون لم تكن قوة أرضية مادية تقف لها وتحادها) إنما تدخلت يد القدرة سافرة، فوضعت حداً للبغي والفساد، حينما عجز الناس عن الوقوف للبغي والفساد.^(١)

ودلت هذه وتلك على أنه حين يتمحض الشر ويسفر الفساد ويقف الخير عاجزاً والصالح حسيراً، ويخشى من الفتنة بالبأس والفتنة بالمال، عندئذٍ تتدخل يد القدرة سافرة متحدة، بلا ستار من الخلق، ولا سبب من قوى الأرض، لتضع حداً للشر والفساد.^(٢)

وبين القصتين يحول السياق مع المشركين جولات يبصرهم فيها بدلالة القصص، - في سورة القصص -، يفتح أبصارهم على آيات الله المبثوثة في مشاهد

(١) الظلال، ج ٥، ص ٢٦٧٤.

(٢) ينقل صاحب الظلال هنا ما كتبه في تفسير سورة طه لمناسيته للمقام هنا، فيقول: (إنه حين كان بنو إسرائيل يؤدون ضريبة الذل لفرعون وهو يقتل أبناءهم ويستحي نساءهم لم تتدخل يد القدرة لإدارة المعركة، فهم لم يكونوا يؤدون هذه الضريبة إلا ذلاً واستكانة وخوفاً، فأما حين استعلن الإيمان في قلوب الذين آمنوا بموسى واستعدوا لاحتمال التعذيب، وهم مرفوعو الرؤوس يجهرون بكل الإيمان. في وجه فرعون دون تجلجج، ودون تحرج، ودون انقواء التعذيب. فأما عند ذلك فقد تدخلت يد القدرة لإدارة المعركة، وإعلان النصر الذي تم قبل ذلك في الأرواح والقلوب).

الكون تارة، وفي مصارع الغابرين تارة، وفي مشاهد القيامة تارة. وكلها تؤكد العبر المستفادة من القصص، وتساوقها وتتناسق معها، وتؤكد سنة الله التي لا تتخلف ولا تتبدل على مدار الزمان. وقد قال المشركون لرسول الله ﷺ: ﴿إِنْ نَبَّعَ أَهْدَىٰ مَعَكَ نُنْخَطِفُ مِنْ أَرْضِنَا﴾، فاعتذروا عن عدم اتباعهم الهدى بخوفهم من تخطف الناس لهم، لو تحولوا عن عقائدهم القديمة التي من أجلها يخضع الناس لهم، ويعظمون البيت الحرام، ويدينون للقائمين عليه. فساق الله إليهم في هذه السورة قصة موسى وفرعون، تبين لهم أين يكون الأمن وأين تكون المخافة، وتعلمهم أن الأمن إنما يكون في جوار الله، ولو فقدت كل أسباب الأمن الظاهرة التي تعارف عليها الناس، وأن الخوف إنما يكون في البعد عن ذلك الجوار، ولو تظاهرت أسباب الأمن الظاهرة التي تعارف عليها الناس، وساق لهم قصة قارون تقرر هذه الحقيقة في صورة أخرى وتؤكدها.

وعقب على مقالتهم: ﴿أَوَلَمْ تُمْكِنْ لَهُمْ حَرَمَاءُ امْنًا يُجِجْنَ إِلَيْهِ شَرَّتْ كُلُّ شَيْءٍ رَزَقًا مِنْ لَدُنَّا وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ يذكرهم بأنه هو الذي آمنهم من الخوف، فهو الذي جعل لهم الحرم الآمن، وهو الذي يديم عليهم أمنهم، أو يسلبهم إياه، ومضى يندهم عاقبة البطر، وعدم الشكر: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ قَبْلِكَ بَطَرَتْ مَعِيشَتَهَا فَبَلَكَ مَسَكِنُهُمْ لَمْ تُشْكِنْ مِنْ بَدْرِهِ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثُونَ﴾. ويخوفهم عاقبة أمرهم، بعد أن أعذر إليهم وأرسل فيهم رسولاً. وقد مضت سنة الله من قبل بإهلاك المكذبين بعد مجيء النذير: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُوا عَلَيْهِمْ أَيْنَمَا وَكُنَّا مُهْلِكِ الْقُرَىٰ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ﴾.

ثم يعرض عليهم مشهدهم يوم القيامة حين يتخلى عنهم الشركاء على رؤوس الأشهاد، فيبصرهم بعذاب الآخرة بعد أن حذرهم عذاب الدنيا، وبعد أن علمهم أين يكون الخوف وأين يكون الأمان.

وتنتهي السورة بوعد من الله لرسوله الكريم وهو مخرج من مكة مطارداً من المشركين بأن الذي فرض عليه القرآن لينهض بتكاليفه، لا بد راده إلى بلده، ناصره على الشرك وأهله.

وقد أنعم عليه بالرسالة ولم يكن يتطلع إليها. وسينعم عليه بالنصر والعودة إلى البلد الذي أخرجه منه المشركون. سيعود آمناً ظافراً مؤيداً، وفي قصص السورة ما يضمن هذا ويؤكدده، فقد عاد موسى عليه السلام إلى البلد الذي خرج منه خائفاً طريداً، عاد فأخرج معه بني إسرائيل واستنقذهم، وهلك فرعون وجنوده على أيدي موسى وقومه الناجين.

ويختتم هذا الوعد ويختتم معه السورة بالإيقاع الأخير: ﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا ءَاخَرَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾.

هذا موضوع السورة وجوها وظلالها العامة. ثم قسم صاحب الظلال السورة إلى ما أسماه: (أسواطها الأربعة): قصة موسى - والتعقيب عليها، وقصة قارون، وهذا الوعد الأخير.. ثم شرع صاحب الظلال في التفصيل والتفسير^(١).

محور سورة القصص كما يراه صاحب الأساس

قال الشيخ سعيد حوى: «قلنا إن محور الطاسينات الثلاثة هو قوله تعالى: ﴿تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ تَنْتَلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾. فنلاحظ الآن بعض ما ورد في سورة القصص مما يؤيد ما قلناه: تبدأ السورة بقوله تعالى: ﴿طَسَمَ ۝ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ۝﴾ تَنْتَلُوا عَلَيْكَ مِنْ نَبَأِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿[القصص: ١-٣]. التشابه بين بداية السورة وآية المحور: ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ﴾ يقابلها في السورة: ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ﴾ ﴿تَنْتَلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ﴾ يقابلها ﴿تَنْتَلُوا عَلَيْكَ مِنْ نَبَأِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ﴾.

فنلاحظ التشابه الكامل بين البداية وبين محور السورة. وفي الآية السابقة يرد قوله تعالى: ﴿إِنَّا آتَيْنَاهُ الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ مِنْ أَلْفِ مَوْعِدٍ﴾ وصلة ذلك بقوله تعالى في المحور: ﴿وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ واضحة، وبعد أن تنتهي قصة موسى يأتي مباشرة قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْفُرْقَيْنِ... تَنْتَلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾ لاحظ ﴿تَنْتَلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾ وصلة ذلك بآية المحور: ﴿تَنْتَلُوها عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾.

ثم يسير السياق مناقشاً الذين يكفرون بآيات الله وبرسالة محمد ﷺ مقيماً الحجة عليهم، فإذا وصلنا الآية (٦٥) نجدها: ﴿مَا ذَا أَجَبْتُهُ الْمُرْسَلِينَ﴾ وصلة ذلك لا تخفى، وتنتهي السورة بخطاب مباشر للرسول ﷺ، «ويذكر الشيخ الآيات...»^(١).

أغراض سورة القصص

تحت هذا العنوان قال ابن عاشور:

«اشتملت هذه السورة على التنويه بشأن القرآن والتعريض بأن بلغاء المشركين عاجزون عن الإتيان بسورة مثله. وعلى تفصيل ما أجمل في سورة الشعراء من قوم فرعون: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فُتِنَّا وَلِيدًا﴾ إلى قوله: ﴿مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ ففصلت سورة القصص كيف كانت تربية موسى في آل فرعون. وبيّن فيها سبب زوال ملك فرعون.

وفيها تفصيل ما أجمل في سورة النمل من قوله: ﴿إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِ إِنِّي آنَسْتُ نَارًا﴾ [النمل: ٧]. ففصلت سورة القصص كيف سار موسى وأين آنس النار، ووصف المكان الذي نودي فيه بالوحي إلى أن ذكرت دعوة موسى فرعون فكانت هذه السورة أوعب لأحوال نشأة موسى إلى وقت إبلاغه الدعوة ثم أجملت ما بعد ذلك لأن تفصيله في سورة الأعراف والشعراء. والمقصود من التفصيل ما يتضمنه من زيادة المواعظ والعبر.

وإذ قد كان سوق تلك القصة إنما هو للعبرة والموعظة ليعلم المشركون سنّة الله في بعثه الرسل ومعاملة الأمم المكذبة لرسولها.

وتحدي المشركين بعلم النبي ﷺ بذلك، وهو أُمي لم يقرأ ولم يكتب ولا خالط أهل الكتاب، ذُيّل الله ذلك بتنبية المشركين إليه وتحذيرهم من سوء عاقبة الشرك وأنذرهم إنذاراً بليغاً.

وفقد قولهم: ﴿لَوْلَا أَوْفِي مِثْلَ مَا أَوْفَىٰ مُوسَىٰ﴾ [القصص: ٤٨].

وأبطل معاذيرهم ثم أنذرهم بما حل بالأمم المكذبة رسل الله.

وساق لهم أدلة على وحدانية الله تعالى وفيها كلها نعم عليهم وذكرهم بما سيحل بهم يوم الجزاء.

وأنحى عليهم في اعتزازهم على المسلمين بقوتهم ونعمتهم وما لهم بأن ذلك متاع الدنيا وأن ما ادخر للمسلمين عند الله خير وأبقى.

وأعقبه بضرب المثل لهم بحال قارون في قوم موسى، وتخلص من ذلك إلى التذكير بأن أولئك لا يحظون بنعيم الآخرة وأن العاقبة للمتقين. وتخلل ذلك إيماء إلى اقتراب مهاجرة المسلمين إلى المدينة، وإيماء إلى أن الله مظهرهم على المشركين: ﴿وَرِيدٌ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضِعُوا﴾.

وختم الكلام بتسليية النبي ﷺ وتثبيته ووعدته بأنه يجعل بلده في قبضته ويمكنه من نواصي الضالين^(١).

من ألوان التناسق في سورة القصص

لا غل من تكرار حقيقة أن التناسق من قواعد الجمال والإعجاز في هذا الكتاب العظيم، وهو من علامات ربانيته، طالما أن في الاختلاف والتنافر من علامات عدم الربانية، وحاشا.

والتناسق ألوان تكرر أو تقل بحسب نظر الناظر وبمح الباحث، فكلما أمعنت النظر واتت ووافتك ألوان من التناسق جديدة، ربما خطرت ببال أحد وربما لم تخطر لك ولا لغيرك ببال، إنما أخرجها البحث وطول التدبر، وقبل ذلك وبعده: التوفيق - ومن ألوان التناسق التي سنبحثها في هذه السورة:

- ١- التناسق بين فاتحة السورة وخاتمتها.
- ٢- التناسق بين موضوعات السورة والواقع الذي تنزلت فيه.
- ٣- التناسق بين قصص السورة.
- ٤- التناسق بين السورة وما قبلها (سورة النمل)
- ٥- التناسق بين السورة وما بعدها (العنكبوت).
- ٦- التناسق بين السورة ونظيرتها في عدد الآيات (ص).
- ٧- التناسق بين الحروف المقطعة في أوائل السورة والسورة.
- ٨- التناسق بين سورة القصص وسورة البقرة لاشتراكهما في الميم (الم) (طسم).
- ٩- التناسق بين سورة القصص وسورة آل عمران وسورة الرعد (المز) وسورة الأعراف (المص).
- ١٠- التناسق بين القصص وسورة الروم.
- ١١- التناسق بين القصص وسورة لقمان.
- ١٢- التناسق بين القصص وسورة السجدة.
- ١٣- التناسق بين القصص وسورة يس لاشتراكهما في حرف السين.
- ١٤- التناسق بين القصص وسورة الشورى (آخر سورة من ذوات حرف السين).

التناسق بين فاتحة السورة وخاتمتها

هذا لون من ألوان التناسق، ونعني به ما يسمى عطف البدء على الختام، أي التعانق الحاصل بين فاتحة السورة وخاتمتها.

ولله المثل الأعلى ولكلماته، فكان السورة موجز فتفصيل فتعود إلى الموجز من جديد، من هنا فإننا واجدون أن السورة كالسبحة تلتقي الحبة الأولى عند الحبة الأخيرة. والأمثال والأمثلة كثيرة.

نعود إلى سورتنا الكريمة: القصص. فما هو وجه تناسق مطلعها مع ختامها.

١ - فقد جاء ذكر الكتاب في الفاتحة والختام:

﴿ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴾ [القصص: ٢].

﴿ وَمَا كُنْتَ تَرْجُو أَنْ يُلْقَىٰ إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا ﴾ [القصص: ٨٦].

٢ - جاء ذكر الآيات في البدء والمتنهي:

﴿ تِلْكَ آيَاتُ ﴾ [القصص: ٢].

﴿ وَلَا يَصُدُّكَ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ ﴾ [القصص: ٨٧].

٣ - ذكر فرعون وكونه من المفسدين في بداية السورة، وذكر نهي الله للنبي أن يكون من المشركين، والشرك أساس الفساد، والعكس صحيح:

﴿ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴾ [القصص: ٤].

﴿ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [القصص: ٨٧].

٤ - ذكر العلو في الأرض والفساد في أول السورة ونهاياتها:

﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴾ [القصص: ٤].

﴿ تِلْكَ الدَّارُ الْأَخِيرَةُ يَجْمَعُهَا الَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فُسَادًا ﴾ [القصص: ٨٣].

٥ - تحقق الوعد يجعل المستضعفين أئمة في بدء السورة وختامها:

﴿وَرِيدٌ أَنْ نَمُنَّ ... وَنَجْعَلَهُمْ أَيْمَةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾ [القصص: ٥].

﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [القصص: ٨٣].

التناسق بين سورة النمل والقصص

إني أرى أن السور المتجاورة بينها من العلاقات والتشابه الشيء الكثير الذي جعلني أطلق عليه: (نظرية التوأمة بين السور). وكتبت فيه كتاباً خاصاً يبلغ مجلداً، ضمن مشروع من خمسة مجلدات - إن شاء الله - عن التناسق الفني في القرآن.

وإنك واجد هذا التناسق يتجلى في الموضوعات الرئيسية، ثم يسري إلى تفاصيل المفردات. فاما التشابه أو التناسق في الموضوعات فهما تشتركان في فاتحة الحروف المقطعة: النمل: طس، والقصص: طسم، وهذه الحروف فيها الإشارة إلى قصة موسى. ففي السورتين وردت قصة موسى، جملة في النمل، مفصلة في القصص.

وهذه نظرة في القواسم المشتركة بين السورتين:

القواسم المشتركة بين النمل والقصص

- ورد لفظ الجلالة (الله، الله، الله): (٢٧) مرة بالضبط في كل سورة منهما.
- ورد لفظ (كان) ٧ مرات في كل منهما.
- (ناراً): وردت مرة في كل.
- (أنعمت): وردت مرة في كل.
- (يومئذ): وردت مرة في كل.

- (واد): وردت مرة في كل.
- (تهتز): وردت مرة في كل.
- (نفسى): وردت مرة في كل.
- (وَرَدَ): لم ترد إلا هنا، أعني في السورتين، وما ورد هذا اللفظ (وَرَدَ) في القرآن في غيرهما.
- كلمة (تكنن): لم ترد في المصحف إلا مرتين: مرة في النمل ومرة في القصص.
- لفظ (المدينة): ورد في كل منهما مرة واحدة.
- (حق): وردت مرة في كل من السورتين.
- (لثلقى، يلقأها): وردت مرة في كل من السورتين (الأولى في النمل، والثانية في القصص).
- لفظة (الكافرين): وردت مرة في كل من السورتين.
- (أكثرهم): مرتين في كل من السورتين.
- (لعلني): وردت مرتين في النمل ومرتين في القصص.
- (مدبراً): وردت مرتين: مرة في النمل ومرة في القصص.
- (سخر): وردت مرة في كل.
- (صرح، صرحاً): وردتا في السورتين (صرح ٢ أي مرتين - النمل، صرحاً ١، القصص). ولم ترد في القرآن كله إلا مرة أخرى في غافر.
- (ربّ إني ظلمت نفسي): بهذه الصيغة ليس غيرها في القرآن، وردت مرة في النمل ومرة في القصص.
- مادة (ظلم): وردت في النمل (٥) مرات وفي القصص (٥) مرات.
- (عصاك): وردت في السورتين.
- (عاقبة): (٣) مرات في القصص و(٣) مرات في النمل.
- (تعالى): وردت مرة في كل من النمل والقصص.

- (علوا): وردت مرة في كل من النمل والقصص.
- (جعل): وردت (٤) مرات في كل من السورتين.
- (جان): وردت مرة في كل.
- (قليلًا): وردت مرة في كل.

وأخيراً أقول: الأوجه كثيرة، لكن إليك هذه الزيادة في الأمثلة:

في النمل قوله تعالى: ﴿جَعَلْنَا آلِيلَ لَيْسَكُونُافِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ [النمل: ٨٦].

وفي القصص: ﴿جَعَلَ لَكُمُ آلِيلًا وَالنَّهَارَ لَيْسَكُونُافِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ﴾ [القصص: ٧٣].

الفواصل المشتركة بين النمل والقصص

- (بُشْرُكُون) (٥٩، ٦٣) النمل. القصص (٦٨).
- (تُبْصِرُونَ) (٥٤) النمل، القصص (٧٢).
- (صادقين) (٤٩) النمل. القصص (٦٤).
- (العالمين) (٨، ٤٤) النمل. والقصص (٣٠).
- (تُصْطَلُونَ) (٧) النمل. والقصص (٢٩).
- (مُيِّنٌ)، (المُيِّن) (١، ١٦، ٢١، ٧٥، ٧٩) النمل. والقصص (٢، ١٥، ٨٥).
- (الْمُفْسِدِينَ) (النمل: ١٤)، القصص (٤، ٧٧).
- (مُسْلِمِينَ) (٣١، ٣٨)، (المُسْلِمِينَ) (٩١)، (مُسْلِمُونَ) (٨١) النمل وفي القصص آية (٥٣) (مُسْلِمِينَ).
- (تَفْرَحُونَ) (٣٦) النمل، القصص (٧٦) (الْفَرِحِينَ).
- (تَرْجِعُونَ) القصص (٧٠، ٨٨)، والنمل (٢٨) (يَرْجِعُونَ).
- (يَشْعُرُونَ) (١٨، ٥٠) النمل. (٩، ١١) القصص.

- (الْمُرْسَلُونَ)، (الْمُرْسَلِينَ) (١، ٣٥) النمل، القصص (٧، ٦٥).
 (الْمُؤْمِنِينَ) (١٥) النمل. القصص (١٠، ٤٧).
 (ثُعْلُوثُونَ) (٢٥) النمل. (يُغْلِثُونَ) القصص (٦٩).
 (غَفُورٌ رَّحِيمٌ) (١١) النمل. (الْغَفُورُ الرَّحِيمُ) (١٦) القصص.
 (الْأُولَى) (٦٨) النمل. القصص (٣٦).

الأعداد المذكورة في سورتي النمل والقصص

ذكرت سورة النمل الرقم أو العدد (٩) مرتين في آيتين:

١- ﴿فِي سَعَاءَ يَأْتِي...﴾ آية رقم (١٢) وهي من (١٩) كلمة.

٢- ﴿وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ سَعَةُ الرَّهْطِ...﴾ آية (٤٨) وهي (١٠) كلمات. في الآيتين

$$. ١٨ = ٩ + ٩$$

وفي سورة القصص ورد التالي:

﴿تَمَتَّنِي جِجَعٌ فَإِنْ أَتَمَمْتَ عَشْرًا﴾ آية (٢٧) وهي (٢٩) كلمة وفيها الأرقام ٨،

١٠ ومجموعها: ١٨.

والعجيب أن آية سورة القصص (٢٩) كلمة ومجموع آيتي سورة النمل (٢٩) كلمة.

من أوجه التناسق بين سورتي النمل والقصص

في السورتين، بل في خواتيم السورتين ورد قوله تعالى: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا﴾ [النمل: ٨٩].

﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا...﴾ [القصص: ٨٤].

﴿وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وَجُوهُهُمْ فِي النَّارِ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النمل: ٩٠].

﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [القصص: ٨٤].

وكلتا الآيتين الأخيرتين، بين كل آية في كل سورة وختام السورة ٣ آيات.

وجه مناسبتها لما قبلها

قال في الأساس في وجه مناسبتها: اشتغالها على شرح بعض ما أجمل فيه من أمر موسى عليه السلام.

قال السيوطي: إنه سبحانه لما حكى في الشعراء قول فرعون لموسى عليه السلام: ﴿قَالَ أَلَمْ تُرْيِكْ فِينَا﴾ إلى قوله: ﴿وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ ثم حكى سبحانه في (طس) قول موسى: ﴿إِنِّي أَنَا نَارُكَ﴾، وكان الأمران على سبيل الإشارة والإجمال، فبسط جل وعلا في هذه السورة ما أوجزه في السورتين، وفصل تعالى شأنه (في هذه) ما أجمله فيهما على حسب ترتيبهما، فبدأ بشرح تربية فرعون له مصدراً

بسبب ذلك من علو فرعون، وذبح أبناء بني إسرائيل الموجب الإلقاء موسى عليه السلام عند ولادته في اليم خوفاً عليه من الذبح، وبسط القصة في تربيته، وما وقع فيها إلى كبره، إلى السبب الذي من أجله قتل القبطي، إلى قتل القبطي وهي الفعلة التي فعل، إلى فراره إلى مدين، إلى ما وقع له في مدين^(١) وتزوجه، إلى أن سار بأهله، وأنس من جانب الطور ناراً، إلى ما وقع له من المناجاة لربه، وبعثه رسولاً، وما استتبع ذلك إلى آخر القصة، فكانت هذه السورة شارحة لما أجمل في السورتين معاً على الترتيب، وبذلك عرف وجه الحكمة من تقديم طس على هذه وتأخيرها عن الشعراء^(٢).

ويتابع السيوطي وعنه الأساس: وروي أن الثلاثة نزلت تباعاً.

ويعود إلى المناسبة فيقول: «وأيضاً قد ذكر سبحانه في السورة السابقة من توبيخ الكفرة بالسؤال يوم القيامة ما ذكر، وذكر جل شأنه في هذه من ذلك ما هو أبسط وأكثر مما تقدم.

وأيضاً ذكر عز وجل من أمر الليل والنهار هنا فوق ما ذكره سبحانه منه هناك وقد يقال في وجه المناسبة أيضاً: أنه سبحانه فصل في تلك السورة أحوال بعض المهلكين من قوم صالح، وقوم لوط، وأجل هنا في قوله: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ...﴾ الآيات.

وأيضاً بسط في الجملة هناك حال من جاء بالحسنة وحال من جاء بالسيئة وأوجز سبحانه هنا^(٣).

(١) قال السيوطي: «وقع له مع شعيب» وهذا فيما أرى غير صحيح، فما هو شعيب، للفارق الزمني الكبير.. والله أعلم. والقرآن لم يسمه على كل حال ولا السنة.

(٢) الأساس في التفسير مجلد ٧، ص ٤٠٥٥، ويراجع السيوطي: تناسق الدرر في تناسب الآيات والسور.

(٣) الأساس، ج ٧، ص ٤٠٥٦.

التناسق بين سورة القصص والعنكبوت

لا تتجاوز سورتان، ثم لا يكون بينهما علاقات وأوجه اتساق، هذه فيما أرى قاعدة، وقد تصيب النظرات وقد تحطى، وقد توفق الفهوم والعقول وقد لا يحالفها التوفيق، لكن التنسيق موجود.

وأحاول في هذه العجالة أن أحصر أو أذكر بعض أوجه التناسق بين السورتين الجاريتين الكريمتين: القصص والعنكبوت.

فهما أولاً مكيتان ومن ذوات الحروف المقطعة، وتشتركان في الحرف الأخير من الثلاثة أحرف المفتوح بها كل من السورتين، فهذه أي القصص: طسم، وتلك أي العنكبوت: ألم.

والسورتان ثانياً قصصيتان. فبينما ذكرت (القصص) قصة موسى وهو من أواخر الرسل عليهم الصلوات، ذكرت العنكبوت قصة نوح وإبراهيم وهما من أوائل الرسل. وذكرت سواهما قصة لوط، وقصة مدين مع نبيه شعيب، وذكرت ذكراً كلاً من عاد وثمود ومساكنهم.

ففي السورتين ذكر مدين - وفي السورتين كما أسلفنا قصص، بل الجسم الأساسي في القصص. وتأمل هذا التعقيب المشترك بين السورتين:

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ بَطَرَتْ مَعِيشَتَهَا فَإِنَّكَ مَسْكَنُهُمْ لَا تَسْكُنُ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ﴾ [القصص: ٥٨].

﴿وَعَادًا وَثَمُودًا وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ مَسْكَنِهِمْ وَرَبِّكَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ﴾ [العنكبوت: ٣٨].

وتأمل هذه الوقفة المشتركة كذلك:

﴿وَقَالُوا إِنَّمَا هُوَ إِلَهُنا مَعَكَ نَحْطِفُ مِنْ أَضْنًا أَوْ لَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجِئُ إِلَيْهِ تَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ وَرِزْقًا مِّنْ لَّدُنَّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [القصص: ٥٧].

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَنُحَظَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبَالْبَطِيلِ يُؤْمِنُونَ وَنِعْمَتُ اللَّهِ يَكْفُرُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٧].

ولا أريد أن أدخل معك في موضوع الأرقام لأقول لك إن عدد كلمات آية القصص هو (٢٦) فلو جمعناها مع رقم الآية لكان المجموع: (٨٣) وأن عدد كلمات آية العنكبوت (١٦) فلو جمعناها مع رقم الآية لكان: (٨٣).

وهل تعلم أن كلمة (خسفنا) لم ترد في القرآن كله إلا مرتين: مرة في القصص ومرة في العنكبوت؟

﴿خَسَفْنَا بِهِ وَبِآرِهِ الْأَرْضَ...﴾ [القصص: ٨١].

﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ...﴾ [العنكبوت: ٤٠].

ولعل الإشارة في العنكبوت في قول: (خَسَفْنَا) إلى قارون وأمثاله خاصة وأن قارون ذكر في السورتين بل هو لم يذكر إلا في ثلاث سور: القصص والعنكبوت ثنتان منهما:

- (الأرض): في القصص (٨) مرات وفي العنكبوت (٩) مرات.
- (الدنيا): في القصص (٥) مرات وفي العنكبوت (٣) مرات.
- (الحياة): في القصص (٣) مرات وفي العنكبوت (٢) مرتان.
- مادة (علم): في القصص (١٦) مرة وفي العنكبوت (١٤) مرة.
- (الكتاب): في القصص (٥) مرات وفي العنكبوت (٧) مرات.

التناسق بين سورة القصص ونظيرتها في عدد الآيات: (ص)

سورة القصص (٨٨) آية. فهل لها في هذا العدد شبيه بين سور القرآن؟ نعم. إنها سورة (ص). و(القصص) في الجزء العشرين وهذه في الثالث والعشرين. وكتاتهما من ذوات الحروف المقطعة. وكتاتهما سورتان قصصيتان. وكتاتهما مكيتاني. وكتاتهما تشتركان في حرف الصاد في اسم كل منهما. قد يبدو القول متكلفاً، فهل يعقل أننه مجرد أن السورتين جمعهما قاسم هو عدد الآيات يكون بينهما أوجه من التناسق؟ والذي نراه، ولا نتكلف إن شاء الله، أن نعم.

وإليك سريعاً بعض ألوان أوجه هذا التناسق بين السورتين:
فهما أولاً من الناحية المظهرية أو الشكلية تشتركان في خاصية أن كلا منهما من حيث رقم السورة ومن حيث عدد الآيات زوجي. ليس هذا فقط ولكنهما أي السورتين تبدئان في كل ذلك بالرقم (٨)، وانظر:
القصص عدد آياتها (٨٨) ورقمها (٢٨).
(ص) عدد آياتها (٨٨) ورقمها (٣٨).

قواسم مشتركة بين (القصص) و(ص)

- لفظ (القرآن): ورد مرة في كل من السورتين.
- (فرعون): ورد ذكره في السورتين.
- (لا تخف): وردت في السورتين آية (٢٥) قصص و(٢٢) ص.
- (يدك): مرة في كل من السورتين.
- (المتقين): مرة في كل.

- ١- السورتان مبتدأتان بالحروف، وكل منهما تفتتح بثلاثة أحرف تنتهي بالميم.
- ٢- السورتان أرقامهما زوجية وعدد آياتهما زوجي كذلك.
- ٣- في السورتين ذكر موسى عليه السلام.
- ٤- في السورتين ذكر فرعون.
- ٥- ذكر الكتاب في الآية الثانية من كل من السورتين.
- ٦- في السورتين ذكر الرضاعة والمراضع.
- ٧- في السورتين ذكر تذيبح أبناء بني إسرائيل واستحياء نساھم: ﴿يَسْأَلُونَكَ﴾ [البقرة: ٤٩].
- ٨- في السورتين لعن الكافرين: ﴿يَسْتَضِعُّ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يَذِيحُ أُنْبَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ﴾ [القصص: ٤].
- ٩- ﴿وَلَعَنَهُ اللَّهُ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٨٩].
- ١٠- ﴿وَاتَّبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً﴾ [القصص: ٤٢].
- ١١- ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾، نص مشترك في البقرة [٨٧] والقصص [٤٣].

١٠- في السورتين ذكر البيت الآمن الذي يجبي إليه الثمرات:

في البقرة: ﴿جَعَلْنَا آيَاتَ مَثَابَةٍ لِّلنَّاسِ وَأَمَّا ﴿البقرة: ١٢٥﴾ ﴿بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ﴾ [البقرة: ١٢٦].

وفي القصص: ﴿حَرَمًا آمِنًا يُجْبَىٰ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رَّزَقًا﴾ [القصص: ٥٧]

١١- في السورتين نصان متشابهان في توحيد الله:

﴿وَاللَّهُ كُودٌ لَهُ وَحْدَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ١٦٣]

﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ [البقرة: ٢٥٥]

﴿وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ [القصص: ٧٠]

١٢- ﴿وَالِيهِ تُرْجَعُونَ﴾ [القصص: ٨٨]، [البقرة: ٢٤٥]

﴿إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [البقرة: ٢٨] فواصل مشتركة.

١٣- في ختام السورتين ذكر المصير والمرجع إلى الله.

﴿وَالِئِكَ الْمَصِيرُ﴾ [البقرة: ٢٨٥]

﴿وَالِيَهُ تُرْجَعُونَ﴾ [القصص: ٧٠].

١٤- في السورتين ذكر جعل الصالحين أئمة:

﴿وَرِيدٌ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضِعُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً﴾ [القصص: ٥].

﴿قَالَ إِنِّي جَاعِلٌ لِّلنَّاسِ إِمَامًا﴾ [البقرة: ١٢٤].

١٥- في السورتين الاستشهاد بالذين آمنوا من أهل الكتاب على صدق هذا الكتاب:

﴿الَّذِينَ آمَنُوا أَن كُتِبَ عَلَيْهِمْ أَن يَتْلُوا حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ [البقرة: ١٢١].

﴿الَّذِينَ آمَنُوا أَن كُتِبَ عَلَيْهِمْ أَن يَتْلُوا حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ [البقرة: ١٢١].

[القصص: ٥٢-٥٣].

- ١٦- ﴿وَمَارَزَفْنَهُمْ يُفْقُوتُ﴾ [البقرة: ٣]، [القصص: ٥٤].
- ١٧- في السورتين ذكر أن الشيطان عدو بين العداوة:
- ﴿الشَّيْطَانُ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ﴾ [القصص: ١٥].
- ﴿الشَّيْطَانُ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ [البقرة: ٢٠٨].
- ١٨- الله لا يحب الفساد ولا المفسدين، هذه الحقيقة تردد صداها في السورتين:
- ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ﴾ [البقرة: ٢٠٥]
- ﴿وَلَا تَبِعِ الْفُسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ [القصص: ٧٧].
- ١٩- سنة وحقيقة أن الله لا يهدي القوم الظالمين تكررت في السورتين فاصلة آية:
- ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ٢٥٨].
- ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٦٤].
- ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [القصص: ٥٠].
- ٢٠- في السورتين تبرؤ الأتباع من المتبوعين وتبرؤ المتبوعين من الأتباع وانقطاع النفع والمودة بينهم: ﴿تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ﴾ [القصص: ٦٣]. ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ أُتْبِعُوا مِنْ الَّذِينَ اتَّبَعُوا﴾ [البقرة: ١٦٦]، ﴿وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَكُنَّا كَرَةً فَتَبَرَّأْنَا مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا﴾ [البقرة: ١٦٧].
- ٢١- في السورتين مادة الحياء والاستحياء من ضمن ثلاث سور في القرآن تضمنت هذه المادة.
- ٢٢- في السورتين استسقاء موسى لقومه وسقي موسى للفتاتين.
- ﴿وَإِذْ أَسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ﴾ [البقرة: ٦٠]
- ﴿فَسَقَىٰ لَهُمَا﴾ [القصص: ٢٤]

- ٢٣- في السورتين كلمة الشجرة في البقرة آية [٣٥]، والقصص الآية [٣٠].
- ٢٤- في السورتين ذكر إتياء موسى الآيات بينات:
- ﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ﴾ [البقرة: ٩٢]
- ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ﴾ [القصص: ٣٦].
- ٢٥- ﴿سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ فاصلة آية مشتركة بين السورتين: [البقرة: ١٠٨]، و[القصص: ٢٢].

التناسق بين سورة القصص وسورة آل عمران لقاسم الميم المشترك في الحروف المقطعة بينهما

- ١- كلاهما مفتوحة بالحروف، وهي ثلاثة تختتم بالميم.
- ٢- كلتاهما زوجية عدد الآيات.
- ٣- السورتان مختمتان بالفعل المضارع.
- ٤- في السورتين ذكر موسى.
- ٥- في السورتين ذكر البيت والحرم، القصص [٥٧] وآل عمران [٩٦، ٩٧].
- ٦- ذكر عذاب الكافرين، وأنه ما لهم من ناصرين في السورتين:
﴿فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنْتَصِرِينَ﴾ [القصص: ٨١].
﴿فَاعْزِبْنَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَالَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾ [آل عمران: ٥٦].
﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَاصِرٍ﴾ [آل عمران: ١٩٢]
- ٧- النهي عن الحزن في السورتين: [القصص: ٨]، وآل عمران: [١٣٩].
- ٨- علم الله بما في صدور العالمين حقيقة مشتركة بين السورتين.
﴿وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ [القصص: ٦٩].
﴿وَمَا تَخْفَى صُدُورُهُمْ﴾ [آل عمران: ١١٨]، ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ [آل عمران: ١١٩].
- ٩- (الليل والنهار) حديث مشترك عنهما في السورتين وحكمة تعاقبهما:
﴿وَاخْتَلَفَ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ﴾ [آل عمران: ١٩٠]، و [القصص: ٧١، ٧٢، ٧٣].

١٠- ذكر إيمان فريق من أهل الكتاب بهذا الكتاب، في السورتين وفيهما إيتاؤهم

أجرهم: ﴿الَّذِينَ آمَنَتْهُمْ أَكْتَبَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذَا يُنَالُ عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا... ﴿٥٣﴾ أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ ﴿٥٤﴾ [القصص: ٥٢ - ٥٣ - ٥٤].

﴿وَلَوْ أَنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَشِيعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِعَاقِبَتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ ﴿١٩٩﴾﴾ [آل عمران: ١٩٩].

١١- القصص الحق في السورتين: ﴿تَتْلُوا عَلَيْكَ مِنْ نَبَأِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ ﴿٣﴾﴾ [القصص: ٣].

﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ ﴿٦٢﴾﴾ [آل عمران: ٦٢].

١٢- في القصص ذكر موسى وأمه، وفي آل عمران ذكر عيسى وأمه.

١٣- في القصص محاولة قتل موسى وخروجه: ﴿إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتِمُرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ ﴿٢٠﴾﴾ [القصص: ٢٠].

وفي آل عمران محاولة قتل عيسى، وإخراجه من

الدنيا من قبل الله: ﴿وَمَكْرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينَ ﴿٥٤﴾﴾ [آل عمران: ٥٤].

يَعِيسَى إِي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعَكَ إِلَيَّ ﴿٥٥﴾﴾ [آل عمران: ٥٥].

١٤- الهدى هدى الله، ولا يملك هذا إلا الله، مشترك بين السورتين:

﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾﴾ [القصص: ٥٦].

﴿قُلْ إِنْ أَلْهَدَى اللَّهُ هُدًى لِلَّهِ ﴿٧٣﴾﴾ [آل عمران: ٧٣].

١٥- لعنة الله على الكافرين والظالمين مشتركة بين السورتين:

﴿وَاتَّبَعْنَاهُمْ فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ ﴿٤٢﴾﴾ [القصص: ٤٢].

﴿أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللَّهِ ﴿٨٧﴾﴾ [آل عمران: ٨٧].

١٦ - ستة مداولة الأيام بين الناس مشتركة بين السورتين:

﴿وَرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضِعُوا فِي الْأَرْضِ﴾ [القصص: ٥].

﴿وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٤٠].

١٧ - (سلطاناً) مشتركة بين السورتين: [القصص: ٣٥]، و[آل عمران: ١٥١].

١٨ - (وكيل)، (الوكيل) فاصلة مشتركة بين السورتين: [القصص: ٢٨]، [آل عمران: ١٧٣].

التناسق بين سورة القصص وسورة الروم

ولما نبحت في التناسق بين السورتين لمبرر أن هناك قاسماً مشتركاً بين السورتين هو التقاؤهما في حرف الميم في فاتحة الحروف المقطعة في كل:

١- السورتان مكيتان ومن ذوات الحروف المقطعة ومن زمرة الثلاثة أحرف والمتتية فاتحة كل منهما بحرف الميم.

٢- كلمة (الأرض) في الآية رقم [٣]، [٤] في كل منهما.

٣- ستة الأولين وتعاقب الظهور والضعف قاسم في كل منهما:

﴿عَلَيْتِ الرُّومُ ۝ فِي آدْنِ الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَلَيْهِمْ سَبْعُونَ﴾ [الروم: ٢-٣].

﴿وَرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضِعُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ

الْوَارِثِينَ﴾ [القصص: ٥].

٤- صدق وعد الله في كل من السورتين:

في القصص: ﴿وَلَتَعْلَمَنَّ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [القصص: ١٣].

وفي الروم: ﴿وَعَدَ اللَّهُ لَا يَخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ، وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الروم: ٦].

٥- ﴿لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ﴾ [القصص: ٧٠]، ﴿وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَوَاتِ

وَالْأَرْضِ﴾ [الروم: ١٨].

٦- ﴿وَمِنْ مَآيِنِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ﴾ [الروم: ٢٣]،

﴿وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ﴾ [القصص: ٧٣].

٧- حقيقة أن أكثر الناس لا يعلمون مشتركة بين السورتين:

﴿وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الروم: ٦].

﴿وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [القصص: ١٣].

- ٨- السورتان كل منهما زوجية رقم السورة وعدد الآيات.
 ٩- السورتان مختمتان بالفعل المضارع.
 ١٠- كلمة (العاقبة) وردت ٣ مرات في كل من السورتين.

التناسق بين سورة القصص ولقمان

- ١- كل منهما مكية وتفتح بالحروف المقطعة من فئة ثلاثة أحرف مختممة بالميم، وكل منهما زوجية عدد الآيات.
- ٢- ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ [القصص: ٢].
 ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ﴾ [لقمان: ٢].
 وواضح أن سورة لقمان افتتحت بذكر الحكمة لأن فيها إتياء لقمان الحكمة... وختمت آيتان منها بالعزیز الحكيم.
- ٣- ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةً﴾ نص مشترك [لقمان: ٣] و [القصص: ٤٣].
- ٤- ﴿وَأَقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاعْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ﴾ [لقمان: ١٩].
 تذكرنا بقوله تعالى: ﴿تَمْشِي عَلَى آسْتِخْيَاءٍ﴾ [القصص: ٢٥].
- ٥- ﴿وَلَا تُصْعِرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ [لقمان: ١٨].
 هذه الآية تذكرنا بقوة بقصة قارون في سورة القصص الذي 'خرج' على قومه في زينته والذي قال له قومه: ﴿لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾ والذي كانت نتيجته لا خياله وتكبره: ﴿فَسَفَنَّا بِهِ وِيدَارِهِ الْأَرْضَ﴾.
- ٦- في قصة موسى ذكر أمه وإرضاعها له، وفي سورة لقمان في ثنايا قصة لقمان: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفَصَّلَهُ فِي عَامَيْنِ﴾.

- ٧- في سورة القصص ذكر علم الله: ﴿وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ [القصص: ٦٩]، وفي سورة لقمان كذلك حديث مفصل عن علم الله: ﴿يَبْقَىٰ إِلَهُهَا إِنَّ تِلْكَ مِثْقَالُ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِيهَا اللَّهُ﴾ [لقمان: ١٦]، ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ [لقمان: ٣٤] ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ [لقمان: ٢٣].
- ٨- في السورتين ذكر خلق الله: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ﴾ [القصص: ٦٨] وفي لقمان: ﴿هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ﴾ [لقمان: ١١] ﴿مَا خَلَقْتُمْ وَلَا بَعَثْتُمْ إِلَّا نَفْسٍ وَاحِدَةً﴾ [لقمان: ٢٨].
- ٩- في السورتين ذكر متاع الدنيا وقلته وعواقبه السيئة لمن اغتر به: ﴿كَمَن مَّتَعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَمَةِ مِنَ الْمُخْضَرِينَ﴾ [القصص: ٦١] ﴿ثُمَّ نَبْعَثُهِمُ فَلَيْلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ [لقمان: ٢٤].
- ١٠- (الشجرة) مشتركة بين السورتين: ﴿فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ﴾ [القصص: ٣٠]، ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَمٌ﴾ [لقمان: ٢٧].
- ١١- في السورتين تمسك الكافرين بما عليه الآباء واعتباره مقياساً للحق في نظرهم: ﴿وَمَا سِعَتِ بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأُولَىٰ﴾ [القصص: ٣٦] ﴿قَالُوا بَلْ نَنبَغُ مَا جَعَلْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾ [لقمان: ٢١].
- ١٢- حقيقة أن أكثرهم لا يعلمون، مشتركة بين السورتين: ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [القصص: ١٣] ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [لقمان: ٢٥].

- ١٣ - (الشیطان) عدو مبين ويدعو إلى عذاب السعير كما في السورتين.
- ١٤ - (الظل) و (الظلل) كلمتان موجودتان في السورتين [القصص: ٢٢] و[لقمان: ٣١].
- ١٥ - النون والميم والراء، فواصل مشتركة بين السورتين.
- ١٦ - النهي عن الحزن في السورتين: ﴿وَلَا تَحْزَنْ﴾ [القصص: ٧]، ﴿فَلَا يَحْزَنُكَ﴾ [كفره] [لقمان: ٢٣].
- ١٧ - (الليل والنهار) ورد مرتين في سورة لقمان لكل منهما، وورد النهار مرتين في القصص والليل ٣ مرات.
- ١٨ - النهي عن الشرك فيهما: ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [القصص: ٨٧]، ﴿لَا تَشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣].

التناسق بين سورة القصص وسورة السجدة حيث تشتركان في حرف الميم من الحروف المقطعة

- ١ - كلتاها مكية، ومن ذوات الحروف المقطعة، وتشتركان في أن كلاً منهما تفتتح بثلاثة حروف، تنتهي كل بحرف الميم.
- ٢ - في كل من السورتين ذكر موسى عليه السلام.
- ٣ - تشتركان في فاصلتين متابعتين، الأولى منهما: ﴿أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾ [القصص: ٧١]، ﴿أَفَلَا يَسْمَعُونَ﴾ [السجدة ٢٦]. والثانية: ﴿أَفَلَا تَبْصِرُونَ﴾ [القصص: ٧٢]، ﴿أَفَلَا يَبْصِرُونَ﴾ [السجدة: ٢٧].
- ٤ - ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ فاصلة مشتركة بين السورتين [القصص: ٤٩]، [السجدة: ٢٨].

- ٥- وفي السورتين: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾ [القصص: ٤٣، السجدة ٢٣].
- ٦- ذكر ﴿الْكِتَابَ﴾ في الآية رقم ٢ من كل من السورتين.
- ٧- ﴿حَقَّ الْقَوْلُ﴾ [السجدة: ١٣]، ﴿حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ﴾ [القصص: ٦٣].
- ٨- ﴿تَرْجِعُونَ﴾ فاصلة مشتركة [القصص: ٧٠، ٨٨]، و[السجدة: ١١].
- ٩- ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا﴾ [القصص: ٥٨]، ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا﴾ [السجدة: ٢٦].
- ١٠- الاستكبار مذكور وموجود في كلتا السورتين، في القصص (٣٩) وفي السجدة (١٥).
- ١١- ﴿مِنْ رَبِّكَ لِتُنْذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَتْهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ﴾ نص مشترك بين القصص (٤٦) والسجدة (٢).
- ١٢- ﴿الْحَقُّ﴾ مذكور في الآية (٣) من كل من السورتين.
- ١٣- ﴿الْأَرْضِ﴾ في الآية (٤) من كل من السورتين.
- ١٤- ﴿أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ﴾ [القصص: ٧٨]، ﴿أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْقُرُونِ﴾ [السجدة: ٢٦].
- ١٥- ﴿الرَّجِدُ﴾ فاصلة مشتركة: [القصص: ١٦] و[السجدة: ٦].
- ١٦- ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدًى﴾ [السجدة: ١٣]، ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [القصص: ٥٦].
- ١٧- رقم السورة في كل من القصص والسجدة زوجي وعدد الآيات في كل من السورتين زوجي كذلك، وتشارك في رقم الجزء في العشرين منه فالقصص الجزء العشرون والسجدة الحادي والعشرون.

التناسق بين سورة القصص ويس باعتبار اشتراكهما في حرف السين

- ١- اشتراكهما في كونهما مكيتين ومن ذوات الحروف المقطعة والاشتراك في حرف السين ثانياً من بين الحروف: طسم، يس.
- ٢- في السورتين في الآية رقم (٢٠) من كل منهما هذا النص:
﴿وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ يَسْعَى﴾ [القصص: ٢٠]،
﴿وَجَاءَ مِّنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى﴾ [يس: ٢٠].
- ٣- وردت (مبين) و(في ضلال مبين) مشتركة في فواصل السورتين.
- ٤- وهل تعلم أن السورتين كلتيهما مختمتان بنفس الختام، واستمع: ﴿لَهُ الْخُكْرُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [القصص: ٨٨]. ﴿بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [يس: ٨٣].
- ٥- كلتا السورتين تشتركان في خانة العشرات من رقم الجزء وعدد الآيات: فالأولى في العشرين والثانية في الجزء الثاني والعشرين. والأولى (٨٨) آية والثانية (٨٣) آية.
- ٦- (مرسلين)، (المرسلين) فاصلتان مشتركتان بين السورتين.
- ٧- وردت كلمة (جنود) مرتين في القصص وكلمة (جند) مرتين في سورة يس.
- ٨- الليل (٣) مرات في القصص و(٢) في يس.
بينهما (النهار) يتردد مرتين في كل من السورتين.
- ٩- في القصص: ﴿لِنُنْذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَتْهُمْ مِّنْ نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [٤٦] وفي يس: ﴿لِنُنْذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَوْهُمْ فَأَتَوْهُمْ فَهُمْ يَغْفُلُونَ﴾ [٦].

- ١٠- في القصص: ﴿حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ﴾ [٦٣].
 وفي يس: ﴿حَقَّ الْقَوْلُ عَلَىٰ أَكْثَرِهِمْ﴾ [٧].
- ١١- وفي القصص: ﴿وَمَنَّا رَفَعْنَاهُمْ نُفُوفًا﴾ [٥٤]، وفي يس: ﴿أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُم﴾ [٤٧].
- ١٢- وفي القصص: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [٦٠].
 وفي يس: ﴿أَفَلَا يَعْقِلُونَ﴾ [٦٨] ﴿أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ﴾ [٦٢].
- ١٣- في القصص: ﴿فَمَا كَانَ لِمَنْ فِيهِ فِتْنَةٌ يَصْرُوهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ﴾ [٨١]. وفي يس: ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُصْرُونَ﴾ (٧٦) لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ [٧٤-٧٥].
- ١٤- ومن الصور المشتركة صورة الشجرة التي تنقد فيها النار ففي يس: ﴿جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا﴾ [٨٠]، وفي القصص الشجرة التي رأى فيها موسى النار مشتعلة.

ومن الكلمات المشتركة بين القصص ويس

- (أهلكنا)، (سلام) ٥٥ قصص، ٥٨ يس.
 (المحضرين) القصص، ٦١، (محضرون) يس ٣٢، (الشجرة) القصص ٣٥، (الشجر) يس ٨٠.
 (المجرمون) القصص ٧٨ فاصلة آية، ويس ٥٩ فاصلة آية.
 (يرجعون) فاصلة آية في القصص ٣٩، وفاصلة في يس (يرجعون) ٥٠.
 ومن الكلمات المشتركة بين السورتين: ناراً، الوعد، متاع، وأعظم مشترك (القرآن) فهو لفظ ورد في السورتين.

التناسق بين سورة القصص وأخر سورة من ذوات حرف السين في القرآن الشورى

هل يمكن لمجرد التقاء السورتين في حرف السين أن يكون هناك تناسق بين السورتين؟

سنحاول أن ننظر بلا تعمل ولا تمحل ولا تكلف فما أغنى القرآن عن كل ذلك لنرى إن كان ثمة عناصر التقاء:

١- السورتان مكيتان من ذوات الحروف وتلتقيان في حرف السين، في القصص يأتي ثانياً وفي الشورى يأتي رابعاً. وكلتا السورتين في رقم الجزء تشتركان في العشرين، القصص في العشرين والشورى في الخامس والعشرين (وهي خمس حروف).

٢- انظر في قوله تعالى في سورة الشورى: ﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ﴾ [٢٧]، ألا يذكر هذا بقارون في سورة القصص الذي بسط له في الرزق فبغى في الأرض: ﴿إِنَّ قَرُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآيَيْنَاهُ مِنَ الْكُفْرِ﴾ [القصص: ٧٦].

٣- (الظالمين) وردوا في القصص (٤) مرات، وفي الشورى (٥) مرات.

٤- (الكتاب) في القصص ورد (٥) مرات وفي الشورى (٤) مرات.

٥- (الحق) في القصص ورد (٦) مرات وفي الشورى (٤) مرات.

٦- لفظ الجلالة في الشورى (٣٢) مرة وفي القصص (٢٧). بفارق (٥) لصالح الشورى. علماً بأنها من ذوات خمسة حروف.

٧- الأرض في الشورى وردت (١٥) مرة وفي القصص (٨) مرات.

- ٨- كلمة (آيات) وردت في القصص (٦) مرات وفي الشورى (٤) مرات.
- ٩- ﴿وَمَاعِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ [القصص: ٦٠]، [الشورى: ٣٦].
- ١٠- ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ [القصص: ٦٨]، [الشورى: ٤٩].
- ١١- ﴿وَمَا كَانَ لِإِسْرَافِ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا﴾ [الشورى: ٥١] وقد كلم الله موسى في سورة القصص.
- ١٢- من فواصل القصص (السيبل) ٢٢، ومن فواصل الشورى (سيبل) ٤١، ٤٤، ٤٦.
- ١٣- ذكر موسى في الشورى في آية (١٣) وذكر في القصص ١٨ مرة.
- ١٤- (الظالمين) فاصلة في القصص آية ٢١، ٢٥، ٣٧، ٤٥، ٥٠، ٥٩. وفي الشورى وردت هذه الكلمة فاصلة في الآية ٤٠.
- ١٥- كلمة (كبير) فاصلة في القصص آية ٢٣.
- و(الكبير) فاصلة في الشورى آية ٢٢.
- ١٦- مادة (البغي) وردت مرتين في كل من السورتين.
- ١٧- وتأمل هذا النص من سورة القصص:
- ﴿يَسْطُرُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ﴾ [القصص: ٨٢].
- ﴿يَسْطُرُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾ [الشورى: ١٢].
- ١٨- في سورة القصص ﴿فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُعِطُونَ أَهْوَاءَهُمْ﴾ [٥٠].
- وفي الشورى: ﴿وَلَا نَنْبَغُ أَهْوَاءَهُمْ﴾ [١٥].
- ١٩- في القصص قوله تعالى: ﴿وَمَا أَوْتَيْنَا مِنْ شَيْءٍ وَمَنْعَ الْحَيَوةِ الدُّنْيَا وَزِينَتِهَا﴾ [٦٠].
- وفي الشورى: ﴿فَمَا أَوْتَيْنَا مِنْ شَيْءٍ وَمَنْعَ الْحَيَوةِ الدُّنْيَا﴾ [الشورى: ٣٦].
- زيدت في القصص (وزينتها) لتتناسق مع قصة فارون.
- في القصص: ﴿فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ﴾ [٧٩].

كلمات محورية أو محاور بارزة في سورة القصص

- (الله): ورود لفظ الجلالة في السورة الكريمة: ٢٧ مرة وتفصيل ذلك: (الله ١٢ مرة)، (الله ٩ مرات)، (الله ٦ مرات).
- (الأسماء الحسنى): الغفور، الرحيم، رب العالمين، وكيل، الوارث. ﴿وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ﴾ مرة واحدة لكل واحد من هذه الأسماء.
- (موسى): ورد في هذه السورة (١٨) مرة وهي من أكثر سور القرآن في هذه الناحية.
- (فرعون): ورد في السورة (٨) مرات وهي كذلك من أكثر السور إيراداً لهذه الكلمة.
- (الأرض): وردت في السورة (٨) مرات.
- (خير): وردت في السورة (٥) مرات.
- (الدنيا): وردت في السورة (٥) مرات.
- (القيامة): وردت في السورة (٥) مرات.
- (والآخرة): وردت في السورة (٣) مرات.
- (والحياة): وردت في السورة (٣) مرات.
- (الكتاب): ورد في السورة (٥) مرات.
- كلمة (رب): وما تصرف عنها وردت ما مجموعه: (١٦) مرة وتفصيل ذلك: (ربك ٧ مرات)، (رب ٥ مرات)، (ربنا ٣ مرات)، (رب مرة واحدة).
- مادة (علم) وما تصرف وتفرع عنها: وردت (١٣) مرة وتفصيل ذلك: (علموا مرة واحدة، (تعلم مرة واحدة)، (يعلم ٢ مرة)، (يعلمون ٢ مرة)، (اعلم مرة واحدة)، (أعلم ٣ مرات)، (العلم مرتان)، (علماً مرة واحدة).

- مادة (أراد) وما يتصل بالإرادة: ٩ مرات. تفصيلها: (أريد ٢ مرة)، (تريد ٣ في آية واحدة)، (نريد ١ مرة)، (أراد ١ مرة)، (يريدون ٢ مرة).
- مادة (رسل) وردت (٧) مرات، تفصيلها: (رسولاً ٢ مرة)، (مرسلين ١ مرة)، (مرسلين ٢ مرة)، (فأرسله ١ مرة)، (أرسلت ١ مرة).
- مادة (ظلم): (٥) مرات وتفصيلها: (ظالمين ٤ مرات)، (ظلمت ١ مرة).
- (يتربص) وقد وردت (٢) مرة.
- مادة (خوف) وردت (٧) مرات. فكأن الظلم والخوف قسيما قرينان. وتفصيل هذه المادة: (أخاف ٢ مرة)، (تخافي ١ مرة)، (تخف ٢ مرة)، (خائفاً ٢ مرة). ويمكن أن نضيف إلى ما هنا كلمة (يتربص) وقد وردت (٢) مرة فيصبح المجموع (٩) مرات.
- مادة (الحق): وردت (٦) مرات.
- مادة (قول) ومشتقاته وردت (١٥) مرة. وهي مادة مهمة جداً في الربط القصصي.
- مادة (بين) مبين: وردت في القصص (٤) مرات.
- (آيات): وردت (٦) مرات (آياتنا ٤ مرات)، (آيات ٢ مرة).
- مادة (أتى) وما اشتق منها: (١٧) مرة (١٣) صيغة.
- مادة (حسن) وما اشتق منها (٦) مرات: (أحسين ١ مرة)، (أحسنَ ١ مرة)، (حسناً ١ مرة)، (الحسنة ٢ مرة)، (المحسنين ١ مرة).
- مادة (هلك) وردت (٧) مرات في السورة.
- مادة (هدى): وردت (٥) مرات.
- مادة (فسد) وما اشتق منها وردت (٤) مرات.
- كلمة (يوم): وردت (٨) مرات ومرة (يومئذ) فالمجموع (٩) مرات.
- (عاقبة): وردت (٣) مرات.
- (خرج): وردت (٣) مرات.
- (حكم): وردت (٣) مرات.

- مادة (ذكر): يتذكرون (٣) مرات.
- مادة (فلح): وردت (٣) مرات (يفلح، يفلحون، المفلحين).
- مادة (النداء) وردت (٥) مرات مرة (نادينا)، و٣ مرات (يتاديههم) ومرة (نودي).
- (كان): وردت (٧) مرات.
- (قرون): وردت (٣) مرات (قرون ٢)، (قروناً ١).
- (القرى): وردت (٣) مرات (قرية ١)، (القرى ٢).
- (قارون): ورد مرتين.
- مادة (خسف): وردت مرتين (خسف ١)، (خسفنا ١).
- (أئمة): وردت مرتين من خمس مرات في القرآن كله.
- (لعلي): وردت مرتين.
- (أكثرهم): وردت مرتين.
- (زين): وردت مرتين.

مفردات تفرّدت بها سورة القصص

- (فوكزه): لم ترد المادة إلا هنا.
- (حجج): لم ترد إلا هنا.
- (شاطئ): لم ترد إلا هنا.
- (ردءاً): لم ترد إلا هنا.
- (المقبوحين): لم ترد إلا هنا.
- (سرمداً): لم ترد إلا هنا.
- (ويكأن): لم ترد إلا هنا (مرتين).
- (فتطاول): لم ترد إلا هنا. والمادة موجودة.
- (ثاوياً): لم ترد إلا هنا. والمادة موجودة.

- (بظرت): لم ترد إلا هنا. والمادة لم ترد إلا مرة: بظراً.
- وهذه صيغ وردت مادتها لكن لم ترد صيغتها إلا في القصص:
- (لرأدك): بهذه الصيغة لم ترد إلا هنا. والمادة موجودة.
- (فأرغأ): المادة في القرآن موجودة لكن هذه الصيغة لا توجد إلا هنا.
- (استحياء): المادة موجودة والصيغة لم تأت إلا هنا.
- (أنس): لم ترد إلا هنا.
- صيغة: فاستغاثه. لم ترد إلا هنا.
- صيغة: لاقيه. لم ترد إلا هنا.
- صيغة: أقبل (فعل أمر) لم ترد إلا هنا (والمادة موجودة في القرآن).
- صيغة: (أتاك).
- صيغة: يأترون.
- صيغة: يبطش.
- صيغة: وأتبعناهم.
- صيغة: أثبعكما.
- صيغة: ثمانى.
- صيغة: وجاعلوه.
- صيغة: أجبتهم.
- صيغة: أرضعيه.
- صيغة: المراضع.
- صيغة: زيته.
- صيغة: سحران.
- صيغة: سقى.
- صيغة: نسقي.
- صيغة: عضدك.
- صيغة: الغربي.

الأفعال في سورة القصص

الفعل الماضي في سورة القصص

- (آية ٤): علا، وجعل، كان.
- (آية ٥): استضعفوا.
- (آية ٦): كانوا.
- (آية ٧): وأوحينا، خِفْتُ.
- (آية ٨): فالتقطه، كانوا.
- (آية ٩): وقالت.
- (آية ١٠): وأصبح، كادت، ربطنا.
- (آية ١١): فبصرت.
- (آية ١٢): وحرمنا، فقالت.
- (آية ١٣): فرددناه.
- (آية ١٤): بلغ، واستوى، آتيناه.
- (آية ١٥): ودخل، فوجد، فاستغاثه، فوكزه، فقضى.
- (آية ١٦): ظلمت، فغفر.
- (آية ١٧): أنعمت.
- (آية ١٨): فأصبح، استنصره، قال.
- (آية ١٩): أراد، قال، قتلت.
- (آية ٢٠): وجاء، قال.
- (آية ٢١): فخرج.
- (آية ٢٢): توجه، قال.
- (آية ٢٣): ورد، وجد، ووجد، قال، قالتا.
- (آية ٢٤): فسقى، تولى، قال، أنزلت.
- (آية ٢٥): فجاءته، قالت، سقيت، جاء، وقص، قال، نجوت.

- (آية ٢٦): قالت، استأجرت.
- (آية ٢٧): قال، أتممت.
- (آية ٢٨): قال، قضيتُ.
- (آية ٢٩): قضى، وسار، أنس، أنست.
- (آية ٣٠): أتاها، نودي.
- (آية ٣١): ولى.
- (آية ٣٢): كانوا.
- (آية ٣٣): قتلت.
- (آية ٣٦): جاءهم، قالوا، سمعنا.
- (آية ٣٧): وقال، جاء.
- (آية ٣٨): علمت.
- (آية ٣٩): واستكبر، وظنوا.
- (آية ٤٠): فأخذناه، فنبذناهم.
- (آية ٤١): وجعلناهم.
- (آية ٤٢): وأتبعناهم.
- (آية ٤٣): آتينا، أهلكنا.
- (آية ٤٤): كنت، قضينا، كنت.
- (آية ٤٥): أنشأنا، فتطاول، كنت، كنا.
- (آية ٤٦): كنت، نادينا، أتاها.
- (آية ٤٧): قدمت، أرسلت.
- (آية ٤٨): جاءهم، قالوا، أوتي، أوتي، أوتي، تظاهرا.
- (آية ٤٩): كنتم.
- (آية ٥٠): اتبع.
- (آية ٥١): وصلنا.
- (آية ٥٢): آتيناهم.

- (آية ٥٣): قالوا، كنا.
- (آية ٥٤): صبروا.
- (آية ٥٥): سمعوا، أعرضوا، وقالوا.
- (آية ٥٧): وقالوا.
- (آية ٥٨): أهلكنا، بطرت، وكنا.
- (آية ٥٩): كان، كنا.
- (آية ٦٠): أوتيتم.
- (آية ٦١): وعدناه، مَتَّعْنَاهُ.
- (آية ٦٣): وقال، أغويننا، أغويناهم، تبرأنا.
- (آية ٦٤): وقيل، فدعوههم.
- (آية ٦٥): أجبتم.
- (آية ٦٦): فعميت.
- (آية ٦٧): تاب، وآمن، وعمل.
- (آية ٦٨): وتعالى.
- (آية ٧١): أرأيتم، جعل.
- (آية ٧٢): أرأيتم، جعل.
- (آية ٧٣): جعل.
- (آية ٧٤): كنتم.
- (آية ٧٥): ونزعنا، وضل، كانوا.
- (آية ٧٦): كان، فبغى، وآتيناه، قال.
- (آية ٧٧): أحسن.
- (آية ٧٨): قال، أوتيته، أهلك.
- (آية ٧٩): فخرج، قال، أوتي.
- (آية ٨٠): وقال، أوتوا، آمن، وعمل.
- (آية ٨١): فخشفنا، كان، كان.

- (آية ٨٢): وأصبح، تمنوا، من، لحسف.
- (آية ٨٤): جاء، جاء، عملوا.
- (آية ٨٥): فرض، جاء.
- (آية ٨٦): كنت.
- (آية ٨٧): أنزلت.

ملاحظات:

- ١- عدد مرات ورود الفعل الماضي في سورة القصص (١٧١) مرة.
- ٢- عدد مرات الفعل الماضي المبني للمجهول (١١) مرة ثلاثها تقريباً أفعال من مادة الإيتاء: أوتي، أوتيت، أوتيته.
- ٣- الأفعال الماضية المشتقة من (كان) ١٨ مرة.
- ٤- الأفعال الماضية من مادة (قول) ٢٧ مرة.

الفعل المضارع في سورة القصص

- (آية ٣): نتلو، يؤمنون.
- (آية ٤): يستضعف، يذبح، يستحي.
- (آية ٥): ونريد، نمن، ونجعلهم، ونجعلهم.
- (آية ٦): ونمكن، ونري، يحذرون.
- (آية ٧): تخافي، تحزني.
- (آية ٨): ليكون.
- (آية ٩): تقتلوه، ينفعنا، نتخذ، يشعرون.
- (آية ١٠): لتبدي، لتكون.
- (آية ١١): يشعرون.
- (آية ١٢): أدلكم، يكفلونه.

- (آية ١٣): تقرر، تحزن، ولتعلم، يعلمون.
- (آية ١٤): نجزي.
- (آية ١٥): تقتلان.
- (آية ١٧): أكون.
- (آية ١٨): يترقب، يستصرخه.
- (آية ١٩): يبطش، تقتلني، تكون، أتريد، تريد، تكون.
- (آية ٢٠): يسعى، يأثمرون، ليقتلوك.
- (آية ٢١): يترقب.
- (آية ٢٢): يهديني.
- (آية ٢٣): يسقون، تذودان، نسقي، يصدر.
- (آية ٢٥): تمشي، يدعوك، ليجزيك، تخف.
- (آية ٢٧): أنكحك، أريد، تأجرني، أريد، أشق، ستجدني.
- (آية ٢٨): نقول.
- (آية ٢٩): آتيكم، تصطلون.
- (آية ٣١): تهتز، يعقب، تخف.
- (آية ٣٢): نخرج.
- (آية ٣٣): فأخاف، يقتلون.
- (آية ٣٤): يصدقني، أخاف، يكذبون.
- (آية ٣٥): سنشد، ونجعل، يصلون.
- (آية ٣٧): تكون، يفلح.
- (آية ٣٨): أطلع، أظنه.
- (آية ٣٩): يرجعون.
- (آية ٤١): تدعون، يُنصرون.
- (آية ٤٣): يتذكرون.
- (آية ٤٥): تتلو.

- (آية ٤٦): لتنذر، يتذكرون.
- (آية ٤٧): تصيهم، فيقولوا، فنتبع، ونكون.
- (آية ٤٨): يكفروا.
- (آية ٤٩): أتبعه.
- (آية ٥٠): يستجيبوا، يتبعون، يهدي.
- (آية ٥١): يتذكرون.
- (آية ٥٢): يؤمنون.
- (آية ٥٣): يتلى.
- (آية ٥٤): يؤتون، ويدراؤون، ينفقون.
- (آية ٥٥): نبتغي.
- (آية ٥٦): تهدي، يهدي، يشاء.
- (آية ٥٧): نتبع، نتخطف، نمكن، يجبى، يعلمون.
- (آية ٥٨): تسكن.
- (آية ٥٩): يبعث، يتلو.
- (آية ٦٠): تعقلون.
- (آية ٦٣): يعبدون.
- (آية ٦٤): يعبدون.
- (آية ٦٥): يناديهم، فيقول.
- (آية ٦٦): يتساءلون.
- (آية ٦٧): يكون.
- (آية ٦٨): يخلق، يشاء، ويختار، يشركون.
- (آية ٦٩): يعلم، تكن، يعلنون.
- (آية ٧٠): ترجعون.
- (آية ٧١): يأتاكم، تسمعون.
- (آية ٧٢): يأتاكم، تسكنون، تبصرون.
- (آية ٧٣): لتسكنوا، ولتبتغوا، تشكرون.

- (آية ٧٤): يناديهم، فيقول، تزعمون.
- (آية ٧٥): يفترون.
- (آية ٧٦): لتنوء، تفرح، يحب.
- (آية ٧٧): تنس، تبغ، يحب.
- (آية ٧٨): يعلم، يُسأل.
- (آية ٧٩): يريدون.
- (آية ٨٠): يُلقاها.
- (آية ٨١): ينصرونه.
- (آية ٨٢): يقولون، يبسط، يشاء، ويقدر، يفلح.
- (آية ٨٣): نجعلها، يريدون.
- (آية ٨٤): يجزى، يعملون.
- (آية ٨٦): ترجو، يلقي، نكون.
- (آية ٨٧): يصدنك، تكون.
- (آية ٨٨): تدع، ترجعون.

ملاحظات:

مجموع الأفعال المضارعة في السورة (١٦٨) فعلاً بينما الماضي (١٧١).

في الأفعال المضارعة (١٣) فعلاً وردت كلها مبنية للمجهول وتوزيعها في الآيات:

٣٩، ٤١، ٥٣، ٥٤، (٥٧، ٥٧)، ٥٨، ٧٠، ٧٨، ٨٠، ٨٤، ٨٦، ٨٨.

والملاحظة الأولى أن الثماني والثلاثين آية الأولى خلت من الفعل المضارع المبني للمجهول. والملاحظة الثانية أن تكثف المضارع المبني للمجهول في الآيات من (٥٣-٥٨) وهي ليست قصصية وإنما آيات تحاج وتخاطب كفار مكة. والملاحظة الثالثة أنه تكثف مرة أخرى في خواتيم السورة وهي توجيهات للنبي ﷺ في التعامل مع قومه الكافرين.

فعل الأمر في سورة القصص

- (آية ٧): أَرْضِعِيهِ، فَالْقِيهِ.
 - (آية ١١): قَصِيهِ.
 - (آية ١٦): فَاغْفِرْ.
 - (آية ٢٠): فَاخْرُجْ.
 - (آية ٢١): نَجِّنِي.
 - (آية ٢٦): اسْتَأْجِرْهُ.
 - (آية ٢٩): امْكُتُوا.
 - (آية ٣١): أَلْقِ، أَقْبِلْ.
 - (آية ٣٢): اسْلُكْ، وَاضْمُمْ.
 - (آية ٣٤): فَارْسِلْهُ.
 - (آية ٣٨): فَأَوْقَدْ، فَاجْعَلْ.
 - (آية ٤٠): فَانْظُرْ.
 - (آية ٤٩): فَاتُوا.
 - (آية ٥٠): فَاعْلَمْ.
 - (آية ٧٥): هَاتُوا.
 - (آية ٧٧): وَابْتَغِ، وَأَحْسِنْ.
 - (آية ٨٧): وَادْعِ.
- ومجموع أفعال الأمر (٢٢) فعلاً.

ملاحظات على الأفعال في سورة القصص:

- ١- في الآية رقم (٩): ٩ أفعال ست منها مضارعة، وثلاث ماضية.
- ٢- في الآية (٢١) اجتمعت الأفعال الثلاثة.
- ٣- في الآية (٢٣): ٩ أفعال، خمس منها ماضية، وأربع منها مضارعة.

- ٤- في الآية (٢٥): اجتمع أحد عشر فعلاً سبع منها ماضية، وأربع مضارعة.
- ٥- في الآية (٢٧): ٨ أفعال ست منها مضارعة، واثنان ماضية.
- ٦- في الآية (٣١، ٣٢) اجتمعت الأفعال الثلاثة في كل.
- ٧- عند الآية (٣٩) تساوت الأفعال المضارعة والماضية، والملاحظ أنها ضعف رقم الآية لكل. فالمضارعة بلغت (٧٨) والماضية (٧٨).
- ٨- في الآية خمسين اجتمعت الأفعال الثلاثة.
- ٩- عند الآية (٧٧) اجتمعت الأفعال الثلاثة، وتساوت الأفعال المضارعة والماضية مرة أخرى (١٤٧) لكل. وبلغت أفعال الأمر (٢١) فعلاً وبلغت الأفعال المبنية للمجهول الماضية (٧) أفعال. وبلغت المضارعة المبنية للمجهول (٨).
- ١٠- في الآية (٨٢) اجتمعت (٩) أفعال خمس مضارعة وأربع ماضية.
- ١١- يكون مجموع الأفعال على هذا: $١٧١ + ١٦٨ + ٢٢ = ٣٦١ = ١٩ \times ١٩$.

الالتفات في سورة القصص

الالتفات في سورة القصص

قال ابن عاشور في التحرير والتنوير في المقدمة العاشرة، وهي عن الإعجاز قال: «من أفانين الكلام الالتفات، وهو نقل الكلام من أحد طرفي التكلم أو الخطاب أو الغيبة إلى طريق آخر منها. وهو بمجرد معدود من الفصاحة، وسماء ابن جني شجاعة العربية، لأن ذلك التغير يحدد نشاط السامع، فإذا انضم إليه اعتبار لطيف يناسب الانتقال إلى ما انتقل إليه صار من أفانين البلاغة، وكان معدوداً عند بلغاء العرب من النفائس، وقد جاء منه في القرآن ما لا يحصى كثرة مع دقة المناسبة في الانتقال»^(١).

وهو لون من ألوان الصباغة يعين ذا الموهبة الصادقة على الإيجاء بكثير من اللطائف والأسرار، ويلفت النفس المتلقية الواعية إلى كثير من المزايا، وكلما أمعنت النظر في مواطنه من الكلام الرفيع بانت لك وجوه من الحسن تزيدك إحساساً بقدرته. وأقوال العلماء فيه كثيرة كثيرة تدل على أهميته وعنايتهم به.

وابن الأثير يبين لنا علاقة التسمية بالموضوع فيقول بعد إشارة إلى أنه خلاصة علم البيان: «وحقيقته مأخوذة من التفات الإنسان عن يمينه وشماله فهو يقبل بوجهه تارة كذا، وتارة كذا، وكذلك يكون هذا النوع من الكلام خاصة لأنه ينتقل فيه من صيغة إلى صيغة، كانتقال من خطاب حاضر إلى غائب، ويسمى شجاعة العربية، وإنما سمي بذلك لأن الشجاعة هي الإقدام وذلك أن الرجل الشجاع يركب ما لا يستطيعه غيره، ويتورد ما لا يتورده سواه، وكذلك هذا الالتفات في الكلام، فإن اللغة العربية تختص به دون غيرها من اللغات»^(٢).

(١) التحرير والتنوير، ج ١، ص ٩٦، ط ١، عيسى الحلبي، القاهرة، ١٣٨٤/١٩٦٤.

(٢) د. محمد محمد أبو موسى، خصائص التراكم، ص ٢٤٩-٢٥٠، ويراجع شوقي ضيف: البلاغة، وفضل عباس: البلاغة، وابن جني وابن الأثير.

«وتفسير الشجاعة هنا بإقدام اللغة العربية على طريق من التعبير لم تقدم عليه غيرها من اللغات فيه شيء من المجازفة، لأن هذه الخصوصية تصف حالة أو شعوراً إنسانياً عاماً، والقول! بأن المتكلمين بغير العربية لم يجدوا في نفوسهم هذه الحالة التي تدعو الإنسان إلى مخاطبة نفسه، أو تدعوه إلى أن يصرف القول عن مخاطبه، أو أن يقبل بالخطاب على من ليس في حضرته، قول بعيد، والذي نراه أن الشجاعة هنا إقدام على أنماط من التعبير مخالفة لما يقتضيه الأصل، لأنها تعبير بأسلوب الخطاب في سياق الغيبة، وذكر الغيبة في سياق الخطاب، وهكذا، والمعتمد عليه في ذلك سياق الكلام وشفافية الدلالة.

وهذا إن تأملته ضرب من الشجاعة واقتحام سبيل غير السبيل المألوف، وتفسيرنا هذا لشجاعة العربية هو ما يتلاءم مع ما ذكره ابن جني في باب سماه: (شجاعة العربية)، وأراد به الحذف والتقديم والحمل على المعنى وغير ذلك مما هو خلاف الأصل، ولا ضير أن يقودنا هذا التفسير إلى أن نعد كثيراً من فنون التعبير من شجاعة العربية، والمهم في كلام ابن الأثير أنه يقول: إنك ترى الكلام بهذا الفن البلاغي يلتفت ههنا وههنا وكأن الأسلوب حي يتحرك، ونشاط اللغة وحيويتها عند ابن الأثير باب واسع تراه يصف الكلمات أحياناً بأنها جيش له جلب، وأحياناً بأنها حسان رود لها دل إلى آخره.

وهذا وقد اشتهر في تحديد الالتفات مذهبان:

مذهب الجمهور، ومذهب السكاكي.

أما الجمهور فيقولون في تحديده: إنه التعبير عن معنى بطريق من الطرق الثلاثة بعد التعبير عنه بطريق آخر منها. والطرق الثلاثة هي: التكلم والخطاب والغيبة. وواضح من قولهم: بعد التعبير عنه بطريق آخر منها أنه لا يكون في أول الكلام، سواء وافق مقتضى الظاهر أو خالفه، فقول القائل، وهو يعني نفسه: ويحك ما

فعلت، وما صنعت، ليس التفتاً عند الجمهور، وإن كان مقتضى الظاهر أن يقول: ونحي ما فعلت وما صنعت، ومثل هذا كثير في الشعر وخاصة في مطالع القصائد، وهذا يعد التفتاً عند السكاكي لأنه يعني به أن يعبر بطريق من هذه الطرق عما عبر عنه بغيره، أو كان مقتضى الظاهر أن يعبر عنه بغيره، وهذا القسم الأخير هو ما خالف فيه الجمهور ويشمل ما ذكرناه من قول القائل: ويحك ما فعلت، لأنه عبر عن المتكلم بطريق المخاطب، وكان مقتضى الظاهر أن يعبر عنه بطريق التكلم، ولهذا قالوا: إن كل التفت عند السكاكي التفت عند الجمهور، من غير عكس^(١).

قال نظاماً في معنى الالتفات، في «مجموع المتون في مختلف الفنون»:

والالفتات وهو الانتقال من بعض الأساليب إلى بعض قمن^(٢)
والوجه الاستجلاب بالخطاب ونكتة تختص بعض الباب
وصيغة الماضي لآت أوردوا وقلبوا لنكتة وأنشدوا
ومهمه مغبرة أرجاؤه كأن لون أرضه سماؤه^(٣)
هكذا: والالفتات وهو الانتقال من بعض الأساليب إلى بعض قمن.

وتحت عنوان بعض الحروف التي اختصت بها العرب، قال السيوطي في المزهري: ومن سنن العرب مخاطبة الواحد بلفظ الجمع: (رب ارجعون).

ومن سنن العرب أن مخاطب الشاهد، ثم تحول الخطاب إلى الغائب، أو مخاطب الغائب، ثم تحوله إلى الشاهد، وهو الالتفات، وأن مخاطب المخاطب، ثم يرجع الخطاب لغيره. وأن يتبدئ بشيء ثم يخبر عن غيره.

(١) أبو موسى: خصائص، ص ٢٥٠-٢٥١.

(٢) قمن: يعني حري وقمين.

(٣) مجموع المتون، ص ٤٢٢-٤٢٣، تحقيق عبد الله الأنصاري، قطر: الشؤون الدينية، ١٤٠٢هـ / ١٩٨١م.

ومن سنن العرب أن تنسب الفعل إلى اثنين وهو لأحدهما: (مرج البحرين...) (يخرج منهما...) وإلى الجماعة وهو لأحدهم: (قتلتم نفساً...) وإلى أحد اثنين وهو لهما: (والله ورسوله أحق أن يرضوه...) ومن سنن العرب أن تأمر الواحد بلفظ أمر الاثنين: (ألقيا في جهنم). ألا ترى الشعراء أكثر من: يا صاحبي، ويا خليلي. ومن سنن العرب أن تأتي بالفعل بلفظ الماضي، وهو حاضر أو مستقبل: (أتى أمر الله). وأن تأتي بالمفعول بلفظ الفاعل: (ماء دافق) (حروماً آمناً)^(١).

والالتفات عند الجمهور يتضمن ست صور:

الأولى: الانتقال من التكلم إلى الخطاب: مثاله: ﴿وَمَا لِي لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾.

الثانية: من التكلم إلى الغيبة، مثاله: ﴿إِنَّا آَعَطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ۖ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَأَنْحَرْ﴾ ومن أمثلته: ﴿أَمْرًا مِنْ عِنْدِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ۗ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ﴾ هذا الانتقال هيا لخطاب الرسول ﷺ.

الثالثة: من الخطاب إلى التكلم.

طحا بك قلب في الحسان طروب بعد الشباب عصر حان مشيب

الرابعة: من الخطاب إلى الغيبة. ﴿كُنْتُمْ فِي الْفُلِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ﴾ ﴿إِنْ هَذِهِ أَمْتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ ۚ وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ﴾ كأنه ينعي ما أفسدوه إلى آخرين، وفيه أيضاً غياب من يفعل التقطيع عن مشهد الحياة.

الخامسة: الانتقال من الغيبة إلى التكلم: ﴿وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ فَثِيرُ سَحَابًا فَسَقْنَهُ﴾ ﴿حَتَّى إِذَا أَفَلَّتْ سَحَابًا نَفَا لَا سَقْنَهُ﴾ ﴿فَقَضْنَهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ

(١) الزهر للسيوطي، ج ١، ص ٣٣٣-٣٣٦، تحقيق جاد المولى وآخرين، القاهرة، عيسى الحلبي.

أَمْرَهَا^٤ وَزَيْنًا أَلَسَّمَاءَ الَّذِي نَامِسُصِيحَ ﴿٥﴾ جاء الكلام على طريق الغيبة في قصة خلق السماوات والأرض وهي أخبار تروى من الغيب ثم انتقل إلى التكلم وأوضح الآيات التي تشير إلى القدرة.

السادسة: الانتقال من الغيبة إلى الخطاب: ﴿٦﴾ أَلَعَمَدُ اللَّهِ رَبِّ الْقَلَمِيتِ... إِيَّاكَ تَبْدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِيثُ ﴿٧﴾ والالتفات يشير إلى تصاعد الإحساس بالجلال ﴿٨﴾ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا ﴿٩﴾ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِذَا ﴿١٠﴾ فيه مجابهة لهم بباطلهم^(١).

ميزة أسلوب الالتفات

قال الدكتور أبو موسى في بيان مزية الالتفات:

(مزيتة البلاغية تختلف من أسلوب إلى أسلوب ولا يمكن أن نضبطه ونحدد مزاياءه، والمهم في إدراكه هو حسن التأتي، وصدق النظر، والوعي بسياق الكلام ونوع المعنى، نعم هناك فائدة عامة لهذه الخصوصية تتحقق أينما وجدت، وقد أحسن الزمخشري بيانها بقوله:

«إن الكلام إذا نقل من أسلوب إلى أسلوب كان أحسن نظرية لنشاط السامع وإيقاظاً للإصغاء إليه من إجراءاته على أسلوب واحد...».

وقد كرر هذا المعنى كثيراً كما كرره البلاغيون بعده، وهي فائدة ذات قيمة كبيرة في الأسلوب لأن إيقاظ الحس وإثارة الملكات من أبرز العناصر التي تتوفر في الكلام المختار، وينبغي أن نذكر هذه المزية في كل صورة من صور الالتفات، والدلالات الخاصة ولائد السياق، وتختلف تبعاً لذلك، ولا يجوز أن نغفل هذا الأصل مع كل شاهد.

وقد ألحق بعض الدارسين التعبير عن الماضي بالمضارع، والتعبير عن المضارع بالماضي أو بالأمر، وما شابه هذا التصرف بباب الالتفات.

ومن أمثلته: ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ﴾ [الأعراف: ٢٩]، ﴿إِنَّا سَخَرْنَا لِجِبَالٍ مَعَهُ يَسَّخُنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ﴾ [ص: ١٨]، ﴿وَيَوْمَ يُنْفَعُ فِي الصُّورِ فَنُزِعَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ﴾ [النمل: ٨٧]، ﴿وَيَوْمَ نُسِيرُ لِلْجِبَالِ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْتَهُمْ﴾ [الكهف: ٤٧]، ﴿وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ ... وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجَاءَتْ ... وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ ... وَوُفِّيَتْ ... وَسِيقَ﴾ [الزمر: ٦٩] أفعال لم تقع بعد عبر عنها بالمضارع. ومن ذلك: ﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾ [ق: ١٩] ^(١).

وهذا الأسلوب لا يهتدي إلى مواقفه الشريفة إلا من مهر في سياسة الأساليب، وقلما تعثر عليه في كلام القوم الذين نزل فيهم القرآن، لأنني لم أجده بهذه الغزارة وهذه الإصابة، وهذا السخاء وهذا الزخم ^(٢).

قال ابن الأثير:

«واعلم أيها المتوشح لمعرفة علم البيان أن العدول عن صيغة من الألفاظ إلى صيغة أخرى لا يكون إلا لنوع خصوصية اقتضت ذلك، وهو لا يتوخاه في كلامه إلا العارف برموز الفصاحة والبلاغة الذي اطلع على أسرارها وفتش عن دفائنها ولا تجد ذلك في كل كلام فإنه من أشكال ضروب علم البيان وأدقها فهماً وأغمضها طريقاً» ^(٣).

(١) أبو موسى: خصائص التراكم، ص ٢٥٩-٢٦٨.

(٢) أبو موسى: خصائص التراكم، دراسة تحليلية لمسائل علم المباني، ص ٢٦٩، القاهرة: طه، مكتبة وهبة، ٢٤٢١/٢٠٠٠، والصواب أن يقول بدل: بالماضي أو بالماضي بدل قوله: بالمضارع.

(٣) المثل السائر.

ضمير المتكلم، نون العظمة المتعلقة بالله في سورة القصص

(آية ٣) (نتلو)	(آية ٥) (ونريد، نحن، ونجعلهم، ونجعلهم)
(٤)	
(آية ٦) (ونمكن، ونري) (٢)	(آية ٧) (وأوحينا، إنا)
(آية ١٠) (ربطنا)	(آية ١٢) (وحرمنا)
(آية ١٣) (فرددناه)	(آية ١٤) (آتيناه، نجزي) (٢)
(آية ٣٥) (سنشد، ونجعل، بآياتنا) (٣)	(آية ٣٦) (بآياتنا)
(آية ٣٩) (إلينا)	(آية ٤٠) (فأخذناه، فنبذناهم)
(آية ٤١) (وجعلناهم)	(آية ٤٢) (وأبعناهم)
(آية ٤٣) (آتيناه، أهلكنا)	(آية ٤٤) (قضينا)
(آية ٤٥) (ولكننا، أنشأنا، آياتنا، ولكننا، كنا، وصلنا)	(آية ٥١) (وصلنا)
(مرسلين) (٥)	
(آية ٤٦) (نادينا)	(آية ٥٤) (رزقناهم)
(آية ٤٨) (عندنا)	(آية ٥٨) (أهلكنا، وكنا، نحن) (٣)
(آية ٥٢) (آتيناهم)	(آية ٦١) (وعدناه، متعناه)
(آية ٥٧) (نمكن، لدنا)	(آية ٧٦) (وآتيناه)
(آية ٥٩) (آياتنا، كنا)	(آية ٨٣) (نجعلها)
(آية ٧٥) (ونزعنا، فقلنا)	
(آية ٨١) (فخسفنا)	

ما ورد بصيغة الجمع بغير نون العظمة:

(آية ٧) (رادوه، جاعلوه)

وردت نون العظمة (٥٠ مرة)

(٩٣) مرة ورد الحديث عن الله تعالى بصيغة المفرد في سورة القصص سواء أكان بصيغة لفظ الجلالة: الله، أو رب بلا إضافة، أو ربك، أو ربنا، أو ضميره تعالى: إليه.

وقد ورد ضمير هو (٣) مرات في السورة، فقط.

مجموع الصيغتين: $٩٣ + ٤٨ = ١٤١$ مرة.

الحديث عن الله تعالى بصيغة المفرد لفظ الجلالة، ربك، أو ضمير المفرد في سورة القصص

آية (١٣): وعد الله	آية (١٦): فاغفر لي، فغفر له، إنه، هو
آية (١٧): رب، أنعمت	آية (٢١): رب، فنجي
آية (٢٢): ربي، يهديني	آية (٢٤): رب، أنزلت
آية (٢٧): إن شاء الله	آية (٢٨): والله
آية (٣٠): إني، أنا، الله، رب العالمين	آية (٣٢): ربك
آية (٣٣): رب	آية (٣٤): فأرسله
آية (٣٧): ربي، عنده	آية (٣٨): إله موسى
آية (٤٦): ربك	آية (٤٧): ربنا، أرسلت، آياتك
آية (٤٩): من عند الله	آية (٥٠): هدى من الله، إن الله، لا يهدي
آية (٥٣): ربنا	آية (٥٦): الله، وهو (أعلم)
آية (٦٠): عند الله	آية (٦٢): يناديهم، أين شركائي؟
آية (٦٣): ربنا، إليك	آية (٦٥): يناديهم
آية (٦٨): وربك، يخلق، يشاء، يختار، الله،	آية (٧٠): الله، هو، له، وله، وإليه

وتعالى (٦)

- آية (٦٩): وربك، يعلم
 آية (٧١): الله، الله، يأتيكم
 آية (٧٣): رحته، جعل، فضله
 آية (٧٥): الله
 آية (٧٧): الله، الله، لا يجب (٤)
 آية (٧٨): الله
 آية (٨٠): الله
 آية (٨١): الله
 آية (٨٢): الله، يبسط، يشاء، ويقدر، الله،
 لحسف (٦)
 آية (٨٥): فرض عليك، لرادك، ربي
 آية (٨٦): ربك
 آية (٨٧): الله، ربك
 آية (٨٨): الله، هو، وجهه، له، وإليه (٥)

استمر الحديث في سورة القصص بنون العظمة من بدء السورة إلى الآية (١٣)، حيث جاء قوله تعالى: ﴿فَرَدَّدْنَاهُ إِلَىٰ آثِمِهِ كَي نَقْرَعِيْنَهَا وَلَا نَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

والالتفات كما هو ظاهر إنما هو في الانتقال من: فرددناه... ضمير المتحدث بنون العظمة، إلى التعبير بـ(وعد الله).

ولا شك أن الحديث بنون العظمة يورث مهابة من خلال هذا التحكم في الكون، وسير الأحداث فيه، والمن على المستضعفين، وتحويل حالهم، والإيحاء إلى أم موسى.. والربط على قلبها إلى أن جاء (وعد الله).

لينتقل السياق إلى تربية المهابة من طريق آخر يكون بالتصريح بالاسم العظيم، وإنما كانت الكلمة في محلها تماماً لأن الكلام عن وعد محدد، وعهد محدد، فناسب أن

يضاف إلى اسم الله ليكتسب عظمة من خلال إضافته، أما الحديث منذ بدء السورة فكان عن ناموس عام وقانون عام، فناسب أن يكون الحديث بنون الجمع المفيدة للعظمة والتعظيم: ونريد أن نمن.. ونجعلهم..

وتأمل المنهجية القرآنية العظيمة أن (وعد) في القرآن لم تأت مضافة إلى نون العظمة^(١)، إنما جاءت دائماً مضافة إلى اسم الله العظيم أو ضميره، وهذه أول مرات الورد: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ﴾ [آل عمران: ١٥٢].

وثانيها: ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخَلِّفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ﴾ [إبراهيم: ٤٧]، ﴿إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًا﴾ [مريم: ٦٤]، ﴿وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ﴾ [الحج: ٤٧]، ﴿وَعَدَ اللَّهُ لَا يَخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ﴾ [الروم: ٦]، ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ﴾ [الزمر: ٧٤]، ﴿كَانَ وَعْدُهُ مَقْعُولًا﴾ [المزمل: ١٨] هذه كل مرات (الوعد) في القرآن.

فإذا انتقلنا من الوعد إلى العهد فإننا سنجد الظاهرة نفسها.

فهذه هي مرات الورد بالترتيب، أو جلها ﴿الَّذِينَ يَقْضُونَ عَهْدَ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٧]، ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ﴾ [آل عمران: ٧٧]، ﴿وَيَعْهِدُ اللَّهُ أََوْفُوا﴾ [الأنعام: ١٥٢]، ﴿الَّذِينَ يُؤْفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ﴾ [الرعد: ٢٠]، ﴿وَالَّذِينَ يَقْضُونَ عَهْدَ اللَّهِ﴾ [الرعد: ٢٥]، ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ﴾ [النحل: ٩١]، ﴿وَلَا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ﴾ [النحل: ٩٥]، ﴿وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا﴾ [الأحزاب: ١٥].

(١) ورد مرة واحدة وعدناه وهي في سورة القصص آية [٦١]: ﴿أَفَنَنْتَ وَعْدَهُ نَدَا حَسَنًا فَنُفِيقِي﴾ وورد مرتين عهدنا: ﴿وَعِدْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ إِسْمَاعِيلَ آلَ كَهْرَآبِيقَ﴾ [البقرة: ١٢٥] ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلِ فَنُفِيقِي﴾ [طه: ١١٥]، وكل ما تبقى فقد جاء على ما بيناه مسنداً إلى لفظ الجلالة أو ضميره تعالى المفرد، والملاحظ أيضاً أن المرات الثلاث التي ذكرت آنفاً كلها في الصيغة الفعلية، فلم تأت وعداً أو عهداً بصيغتها الاسمية مسندة إلى نون العظمة، هذا وبالله التوفيق..

وقد لاحظت ملاحظة على مرات ورود العهد، أنه كان يتعاقب الوفاء والنقض، مرة، فمرة...

ومما ورد كذلك: ﴿قُلْ أَخَذْتُ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ﴾ [البقرة: ٨٠]، ﴿وَمَنْ أَوْفَ بِعَهْدِهِ مِنْ اللَّهِ﴾ [التوبة: ١١١]، ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِي﴾ [البقرة: ٤٠]، ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ١٢٤].

الذي أردت أن أصل إليه من هذا الاستطراد التأكيد على منهجية الأسلوب والتعبير القرآني في مفردة الوعد، ثم استطراداً قلت وفي مفردة العهد، فالتعبير في سورة القصص جاء منسجماً مع هذه المنهجية الأسلوبية المطردة. وأما سر إضافة الوعد والعهد إلى الله فهو يفيد مزيد التحديد والتوثيق من أجل إتمام الوفاء.

وفي الآية (١٤) عاد والتفت وعاد السياق إلى نسقه من التعبير بنون التعظيم والجمع: ﴿أَذِنتُهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾. ففي ميدان التعبير عن الفضل والمن اختلف الكلام عن العهد والوعد فلذا عاد التعبير إلى التعظيم من جديد والجمع مرة أخرى.

وفي الآية (١٦) عاد التعبير إلى صيغة المفرد من جديد، لأن المقام مقام انكسار العبودية المعترفة بالذنب أمام الله، وقبول التوبة من العبد، قبولها تفضلاً من الله عز وجل:

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَهُ إِنَّكَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾.

هذا مقام مناجاة من العبد للرب، واستجابة من الرب لدعاء العبد. في حالة من الخصوصية.

فإذا تجاوزنا الموقف لنرى المنهجية في التعبير المتعلق بالتوبة وقبولها فماذا نحن واجدون؟

﴿فَلَلْقَوْمُ إِدْرَءٌ مِنْ رَبِّهِمْ كَمَا كَانَتْ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ٣٧] ﴿فَتَابَ عَلَيْهِ﴾
 إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ [البقرة: ٥٤] ﴿فَتَابَ عَلَيْهِمْ وَعَفَا عَنْهُمْ﴾ [البقرة: ١٨٧]،
 ﴿فَاتَّكَبَ عَلَى السُّجُودِ﴾ [المائدة: ٣٩] ﴿ثُمَّ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ [المائدة: ٧١]،
 ﴿ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [الأنعام: ٥٤] ﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى
 آلِ نُوْحٍ﴾ [التوبة: ١١٧] ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُمْ بِهِمْ رُءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [التوبة: ١١٧]،
 ﴿وَأَنِّي لَغَفَّارٌ لِمَن تَابَ﴾ [طه: ٨٢] ﴿ثُمَّ أَجَبْنَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى﴾ [طه: ١٢٢]،
 ﴿وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ [المجادلة: ١٣] ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ﴾ [النساء: ١٧] ﴿ثُمَّ
 يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾ [التوبة: ٢٧] ﴿فَأُوْلَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ [النساء: ١٧]،
 ﴿وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾ [النساء: ٢٧].

وهكذا إن تتبع مفردات التوبة وجدتها تسير على منهجية مطردة أنها تضاف دائماً إلى لفظ الجلالة مفرداً أو ضميره مفرداً، ولم ترد فيما استقرت بنون العظمة والجمع.

الذي نريد أن نصل إليه هنا أيضاً أن سورة القصص وما في الآية (١٦) سائر على النسق التعبيري، ومن هنا جاء الالتفات. ويستمر نسق المناجاة بصيغة "رب" فيما يلي من الآيات: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي مَنَعْتُ آلِيَّ﴾ [١٧]، ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي مَنَعْتُ آلِيَّ﴾ [٢١]، ﴿قَالَ عَسَى رَبِّي أَن يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ [٢٢]، ﴿فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لَمَّا أَتَيْتُكَ بِخَبَرِ فَقِيرٍ﴾ [٢٤]، ﴿سَتَجِدُنِي إِِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [٢٧]، ﴿وَاللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ [٢٨].

ويستمر النسق حتى عندما يفاجأ موسى بتكليم الله له، فإنه يكلمه بصيغة المفرد، وذلك المناسب قطعاً، قطعاً لموضوع الالتباس أو الشرك، ﴿ثُوْدَى ... أَن

يَمُوسَىٰ إِيَّتَا أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٣٠﴾ ﴿فَذَلَّلْنَاهُ نَاوِيًا﴾ ﴿٣١﴾ ﴿فَدَلَّلْنَاهُ عَلَىٰ نَارِكَ﴾ ﴿٣٢﴾
 ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ﴾ ﴿٣٣﴾ ﴿وَأَخِي هَارُونَ هُوَ أَفْضَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسَلْهُ﴾ ﴿٣٤﴾.

ثم التفت السياق بعد كل هذه الآيات ليعود إلى نون العظمة والجمع من جديد، وبعد أن اطمأن موسى إلى الموقف وأنه بتقدير من الله وتقدير وحسم الأمر وابتدأ التكليف وظهرت الحاجة الآن إلى النصرة، عاد الخطاب بنون العزة والعظمة والكبرياء، بعد المؤانسة للأحبة والأولياء الأخلاء.

قال في الآية (٣٥): ﴿قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِأَيِّدِنَا أَنْشَأَ مِنَّا مَنِ اتَّبَعَكَ الْغَالِبُونَ﴾ ﴿٣٥﴾^(١).

لقد عادت نون الجمع والعظمة بعد (١٨) آية لم تكن فيها.

عادت لتظهر بقوة (٣) مرات في آية واحدة سنشد، ونجعل، بأيادنا. واستمر

النسق القرآني بنون العظمة في الآية التالية: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُم مُّوسَىٰ بِآيَاتِنَا﴾ ﴿٣٦﴾.

فإذا جئنا للآية التالية والتي فيها نوع من الضراعة ورد الأمر إلى الله تكلم موسى عن الله عز وجل باسم ربوبيته التي هي عنوان رحمته، ثم عبر بضميره المفرد سبحانه، إذ قال: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّيَ أَعْلَمُ بِمَنِ جَاءَ بِالْهُدَىٰ مِنْ عِندِي﴾ ﴿٣٧﴾، وعبر فرعون في الآية التالية بـ﴿إِنِّي مُوسَى﴾ ﴿٣٨﴾.

ثم عادت نون العظمة إلى السياق من جديد في الآية (٣٩): ﴿وَوَضَعُوا أَيْدِيَهُمْ إِلَيْنَا لَآ يَرْجِعُونَ﴾ ﴿٣٩﴾. وإنما كان هذا الالتفات إلى نون العظمة أنسب لأنه في مقام التهديد، والوعيد، وهذا يناسبه التعبير بالتعظيم والجمع.

(١) ورد في القرآن: ﴿وَلَقَدْ جُئْنَاهُم بِالنَّبِيِّ﴾ وورد: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَعْلَيْنَا أَنَا وَرُسُلِي﴾.

فإذا جئنا إلى الآية (٤٠) وجدنا التهديد ارتفعت وتيرته، وتكشف بالتالي ظهور نون العظمة: ﴿فَأَحَذَتْهُ وُجُوهُهُ، فَبَدَنَتْهُمْ﴾ [٤٠]، ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَيْمَةً يَكْذِبُونَ إِلَى الْكَارِ﴾ [٤١]، ﴿وَاتَّبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَنَكْفَنَّ﴾ [٤٢]، ﴿وَلَقَدْ مَآلَيْنَاهُمُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَى﴾ [٤٣].

وتستمر نون العظمة في الظهور في الحديث عن منة الله بإرسال هذا الرسول، وذلك بالاستدلال من خلال هذا القصص في هذه السورة: ﴿وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الْأَمْرَ﴾ [٤٤]، ﴿وَلَكِنَّا أَنشَأْنَا قُرُونًا... تَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَاتِنَا وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾ [٤٥].

في الآية (٤٥) تكررت صيغة الجمع ونون العظمة (٥) مرات. وفي ضراعة الكافرين المتوقعة جاء هذا النص تالياً لما سبق: ﴿رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَاتِكَ﴾ [٤٧]. وهذا التفات ليتناسب الأفراد مع مقام الضراعة مع العباد. فلما جاء رد الجواب عاد والتفت إلى السياق والنسق، عاد إلى نون العظمة من جديد: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا﴾ [٤٨].

وفي الآية (٤٩) وهي في مقام الحاجة والتحدي، عاد والتفت وعبر بلفظ الجلالة صريحاً، إذ قال: ﴿قُلْ فَأَنُؤَايِكُنَّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا أَتَّبِعُهُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [٤٩]. واستكمالاً للحجاج والمحاجة، والجدال والمجادلة، وحسماً لموضوع النزاع، قال، وقد حافظ على النسق السابق: ﴿فَإِنْ لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ اتَّبَعَ هَوَاهُ يَفْزِعْهُ إِلَىٰ مَرَكٍ لَّهُ إِنْ لَمْ يُهْدِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [٥٠].

حتى إذا حسم النقاش في الآية السابقة، وافتتح مجموعة جديدة من آيات السورة، وشوطاً جديداً منها، وموجة من موجاتها، عاد إلى سياق نون العظمة، فقال: ﴿وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَذْكُرُونَ﴾ [٥١].

ثم قرر السياق أن الهدى ليس إلى الرسول أمره، ولكنه إلى الله مرده، وهذا يناسبه نسبة الأمر صريحاً إلى الله عز وجل، حسماً وتحديداً، فعاد والتفت ليعبر بلفظ الجلالة، فقال: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ [٥٦].

ولا بأس أن نعود إلى القرآن للاستقراء الأسلوبى، ورؤية المنهجية والاطراد في التعبير، فلنراجع إذاً مادة هدى في كتاب الهدى، فماذا نجد؟ هذه النصوص على سبيل الاستقراء: ﴿وَلَا تَكُنْ مِنَ الْكَافِرِينَ ۚ لَا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ﴾ [البقرة: ١٤٣]، ﴿هَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [البقرة: ٢١٣]، ﴿فَرِيقًا هَدَى﴾ [الأعراف: ٣٠]، ﴿لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهْدَى النَّاسَ جَمِيعًا﴾ [الرعد: ٣١]، ﴿فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ﴾ [النحل: ٣٦]، ﴿قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ حَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾ [طه: ٥٠]، ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ۝ الَّذِي خَلَقَ فَسُوَّى ۝ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى﴾ [الأعلى: ١-٣]، ﴿وَلَوْ تَكْبَرُوا عَلَى اللَّهِ عَلَى مَا هَدَيْتَكُمْ﴾ [البقرة: ١٨٥]، ﴿قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَلِيغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهْدَيْتُكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الأنعام: ١٤٩]، ﴿قُلِ اللَّهُ يَسُنُّ عَلَيْهِمْ أَنْ هَدَيْتُكُمْ﴾ [الحجرات: ١٧]، ﴿أَتَمْتَعْتُمُونِي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَيْتُنِي﴾ [الأنعام: ٨٠]، ﴿بَعْدَ إِذْ هَدَيْنَا اللَّهَ﴾ [الأنعام: ٧١]، ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا﴾ [الأعراف: ٤٣].

لكن ورد في سياق المن والفضل الهدى منسوباً إلى نون العظمة، في مرات معدودة: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا﴾ [الأنعام: ٨٤].

﴿وَمِنْ ذُرِّيَةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَءِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا﴾ [مريم: ٥٨].

﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ﴾ [الإنسان: ٣]، ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾ [البلد: ١٠] ﴿وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الصفات: ١١٨].

أما صيغة (يهدي) وقد وردت (٥١) مرة، فواضح أنها لا تكون إلا منسوبة إلى لفظ الجلالة المفرد أو كتابه.

فهي على هذا سمة أسلوبية كذلك، فباستثناء مرات محدودة تعد على أصابع اليد، وفي سياق المن، فإن عشرات المرات من هذه المادة لم ترد إلا منسوبة إلى الله تعالى باسمه الجليل، والسياق هنا في القصص سياق تقرير وحسم، لا سياق من كما هو الشأن في قصص الأنبياء، بل هو يقرر هنا حقيقة دينية يلزم فيها التحديد والتدقيق في نسبة أمر الهدى إلى الله عز وجل باسمه العظيم وضميره المفرد، لا ضمير الجمع: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ [٥٦].

ثم عادت والتفت في قوله تعالى في الآية التالية مباشرة:

﴿وَقَالُوا إِنَّا نَتَّبِعُ الْهُدَى الْمَهْدَى مَعَكَ نُنْخِطُفُ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَمْ نُمْكِنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجِىءُ إِلَيْهِ شَرٌّ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقًا مِنْ لَدُنَّا﴾ [٥٧]، ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا... وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ﴾ [٥٨].

وقد تكشف نون العظمة في هذه الآيات بشكل ملفت، ذلك أنها تتكلم عن العزة التي هبات حرماً آمناً، والقدرة التي قصمت أمماً ظالمة، فناسب التعبير بما تم التعبير به من صيغة الجمع والتعظيم.

فإذا جاءت الآية التالية وجدنا السياق يلتفت، لأن الكلام عن قرية النبي ﷺ، أم القرى، ثم التفت في نفس الآية إلى نون العظمة من جديد لما تكلم عن قانون إهلاك الأمم، وذلك تطفأً بالنبي ﷺ إذ قال: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولًا﴾. وكيف لا وهو الرحمة المهداة. وتامل ما تبقى من الآية كيف عاد إلى الجمع والتعظيم. ﴿وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلَّا وَأَعْلَاهَا ظَالِمُونَ﴾ [٥٩].

ثم عاد في الآية التالية ليلفت من جديد ويعبر بلفظ الجلالة ليقرر حقائق، ويحسم قضايا في التصور والاعتقاد والتكليف: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ شَيْءٍ فَتَنَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [٦٠].

وفي الآية التالية التفات من جديد، وعود إلى نون العظمة، ليتكلم عن قانون عام، وامتياز المؤمنين على الكافرين بما أنعم عليهم من فضل، وأكرمهم به من وعد حسن ورزق حسن: ﴿أَفَنَنْعِدْنَهُ وَعَدًا حَسَنًا فَهُوَ لَظِيهٍ كَمَنْ مَنَعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [٦١]. ثم التفت في المشهد التالي من جديد، في مشهد من مشاهد القيامة، يسأل فيه الله عز وجل عن ما ادعاه المشركون من شركاء، فناسب أن يسأل بالإنفراد، بضمير المتكلم، منعاً للالتباس، ودفعاً للتوهم فقال: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ [٦٢]. واستمرت صيغة المفرد في إجابة الكافرين عن سؤال رب العالمين آية (٦٣): ﴿رَبَّنَا هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ﴾ [٦٣].

واستمر كذلك في الآية (٦٥): ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ﴾. واستمر كذلك بعد أن خرج من موضوع القيامة ليعود إلى الدنيا من جديد، ويتحدث عن قصة الخلق، وطلاقة المشيئة في هذا الخلق: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ ... سُبْحَنَ اللَّهِ وَعَلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [٦٨]، ﴿وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ [٦٩]، ﴿وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْخُسُوفُ فِي الْأُولَىٰ وَالْآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [٧٠].

وتستمر صيغة المفرد فيما يلي من حاجة: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَمَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾ [٧١]، ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَمَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ﴾ [٧٢]، ﴿وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [٧٣].

ثم عاد إلى حديث القيامة، ولكنه استمر في الحديث بصيغة المفرد في الآية الأولى من آيتين تتحدثان عن القيامة وفي الثانية منهما عبر بنون العظمة، قال في الأولى وهي الآية [٧٤]: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَاءِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾.

وفي مقام تقرير التوحيد، ونفي الشرك، يناسب التعبير بالمفرد. وفي الآية التالية تقرير لعزته وقهره سبحانه، فقال: ﴿وَنَزَعْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ﴾.

وتأمل ختام الآية، فإنه بعد أن قرر العزة والجبروت، عاد إلى تقرير التوحيد، فعاد إلى إسناد الحديث إلى لفظ الجلالة، فالتفت في ثانيا الآية، وهذا هو ختام الآية: ﴿فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَآكَأُ نُوحُوا﴾ [٧٥].

وفي قصة قارون نهج النهج ذاته في الآية الأولى منها، كما كان في اختها الآية السابقة، فقد ابتدأ بتقرير طلاقة مشيئته سبحانه بنون العظمة في إيتاء قارون من الكنوز ما شاء. ﴿وَأَنبِئْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ﴾. وفي ختام الآية التفت من جديد: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾ [٧٦]. واستمر على ما في ختام الآية في الآية التالية: ﴿وَأَسْبَغَ فِي مَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ﴾. ﴿وَأَحْسَنَ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾. ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ [٧٧].

استمر على هذا المنوال إلى الآية (٨٠) حتى إذا جاء الحديث عن خسف قارون برزت نون العظمة، والتفت السياق الكريم ليتحدث عن العزة القاهرة بما يناسبها من أسلوب، فقال: ﴿لَنُخَسِفَنَّهُمْ فِي الْآرْضِ﴾ [٨١]. ثم عاد في ختام الآية ليعبر عن لفظ الجلالة وكذا صنع في الآية (٨٢)، حتى إذا جاء ليقرر معنى هو تعبير عن العزة يجعل الدار الآخرة لأصحابها الذين يستحقونها رجع التعبير بنون العظمة: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ﴾ [٨٣]. ثم تكف في ختام

السورة إبراز لفظ الرب فلم يغب هذا اللفظ الكريم في الثلاث آيات المتتالية (٨٥، ٨٦، ٨٧) وذلك لهدمة النبي وطمانته في ختام هذه السورة المؤنسة.

وهذه آية الختام والتعبير ما زال فيها بالمفرد مبرزاً لفظ الجلالة وضميره سبحانه، إذ قال: ﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾.

وناسب هذا لأنه الأنسب في مقام تقرير التوحيد، وفي ختام السورة ناسب تقرير التوحيد.

هذه لمحة جد موجزة عن الالتفات، هذا الأسلوب العربي المدهش المعجب، وكيف كان في هذه السورة المدهشة المعجبة، وأن كل لفظ كان في محله بحيث يستحيل أن يكون ثم تعديل أو تبديل.. وكيف.. وهو تنزيل من أحكم الآيات وفصلها بعد الأحكام أروع تفصيل...

الإشارات الزمنية في سورة القصص

سورة القصص سورة قصصية، والزمن عنصر مهم من عناصر القصة. وكثيراً ما كان القرآن يطوي زمناً متطاولاً من القصة بكلمة، كأن ينتقل من مرحلة رضاعة موسى إلى بلوغه أشده، بكلمة ولما... وهكذا تكثر الإشارات وهذه محاولة يسيرة لخصر بعض الإشارات الزمنية في السورة، ولسنا نقول إن الزمن متعلق بالقصة فقط، فمشاهد القيامة كذلك تقوم على الزمن.. والزمن المستقبلي، على كل حال، وهذه لمحة عما في السورة من إشارات تتعلق بالزمن:

﴿إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [٤] والإشارة الزمنية الماضية لإثبات حدوث الشيء. ﴿وَرُئِدَ أَنْ تُمْنَ... وَتُمْكِنَ...﴾ [٥-٦] إشارات إلى التغير الذي سيحدثه الله في المستقبل في أوضاع المجتمع المصري. ﴿فَإِذَا خَفَتْ عَلَيْهِ كَالْفَيْهِ﴾ [٧]، فيها تهيئة ذهن أم موسى للخطر القادم، والمتوقع في آية لحظة. ﴿لِيَكُونَ لَهُمْ عَذَابٌ... كَأَنَّهُمْ خُطِفُوا﴾ [٨]، جمعت الآية بين المستقبل الذي سيكون لهذا الولد، والماضي السيئ الذي كان عليه فرعون وأتباعه. ﴿عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا﴾ [٩]، إشارة كذلك إلى ما تتوقعه المرأة الطيبة من مستقبل لهذا الولد. ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ... كَادَتْ لَتُبْدَى... لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [١٠]، وصف لحالة أم موسى وقت إلقاء ولدها وبعده بقليل ثم ما دبره الله من تثبيت لتكون من المصدقين بوعد الله الموقنين الثابتين.

﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ﴾ [١٢]، والقبلية هنا مفتوحة، فهي زمن مطلق، والذي نميل إليه أنها قبلية تشير إلى تقدير المقادير، ولكنها تشير كذلك إلى ما حدث للولد من رفض للمرضعات في زمن محدد.

﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ﴾ [١٤]، هنا نقلة واسعة تقارب العشرين سنة طواها السياق بكلمة، وإنما طويت لعدم اشتغالها على أحداث مهمة تستحق التسجيل.

﴿فَلَنَأْكُتَ ظَهْرَهُ لِلْمُجْرِمِينَ﴾ [١٧]، وعد يقطعه موسى على نفسه أنه لن يكون حتى آخر يوم في مهلته نصيراً لأي مجرم أباً كان أصوله وعرقه.

﴿فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ﴾ [١٨]، وصف للحالة التي آل إليها موسى بعد مقتل القبطي. ﴿فَإِذَا الَّذِي اَسْتَنْصَرَهُ بِالْأَمْسِ﴾ [١٨]، وهنا طي يسير فليس الحادث في اليوم التالي، ولكنه بعد أيام معدودة... والله أعلم. وذلك بدلالة التعبير والتذكير، كما هو معروف ومعلوم وشهير.

﴿فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ... كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ﴾ [١٩]، هنا جملة إشارات زمنية، ففي أول الآية التقاط للحظة معينة أراد فيها موسى البطش بالظالم.. ثم إشارة القبطي إلى مقتل القبطي الآخر بالأمس.. ثم نفي لإرادة موسى أن يكون مصلحاً مستقبلياً كما كان يؤمل.. وإنما بزعمه هو يريد أن يكون من المفسدين.

﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَى رَبِّي﴾ [٢٢].

﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ﴾ [٢٣].

﴿ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ﴾ [٢٤].

﴿فَلَمَّا جَاءَهُ، وَفَضَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ﴾ [٢٥].

﴿عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَنِي حِجَّاجٍ فَإِنْ أَتَمَمْتَ عَشْرًا﴾ [٢٧]، ﴿أَيُّهَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ﴾ [٢٨].

﴿فَلَمَّا فَصَّي مُوسَى الْأَجَلَ﴾ [٢٩].

﴿فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ﴾ [٣٠].

﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ [٣٢].

﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا ... فِي آيَاتِنَا الْأُولَى﴾ [٣٦].

﴿وَمَنْ تَكُونُ لَهُ عَقِيبَةُ الدَّارِ﴾ [٣٧]، هذه الإشارة هنا لا تقتصر على الآخرة فقط، ولكنها تشملها وعاقبة هذه الدار أيضاً.

﴿وَعُظُّوا أَنَّهُمْ إِنَّمَا يُرْجَعُونَ﴾ [٣٩]. إشارة إلى كفر فرعون وملئه بالآخرة.

﴿فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَتْ عَقِيبَةُ الظَّالِمِينَ﴾ [٤٠].

﴿وَيَوْمَ الْقِسْمَةِ لَا يُنصَرُونَ﴾ [٤١].

﴿وَيَوْمَ الْقِسْمَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ﴾ [٤٢].

﴿مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَى﴾ [٤٣]. والمقصود من القرون الأمم التي كانت في تلك القرون.

﴿وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ [٤٤]. في

هذه الآية وما بعدها من آية [٤٤-٤٦]، توظيف للفواصل الزمنية بين الواقع وقصصها على لسان النبي في هذا القرآن لإثبات نبوته عليه الصلاة والسلام.

﴿وَلَكِنَّا أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ وَمَا كُنْتَ ثَابِتًا ...

وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾ [٤٥].

﴿وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ ... مَا أَنْتُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ﴾ [٤٦].

﴿فَنَنْبِئُكَ آيَاتِنَا وَكُنُوتِ﴾ [٤٧].

﴿فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ ... أَوْفَى مُوسَى مِنْ قَبْلُ﴾ [٤٨].

﴿وَأَيِّنُّهُمْ أَلِكْتَبَ مِنْ قَبْلِهِ﴾ [٥٢]، استشهاد بأهل الكتاب السابق على حقيقة الكتاب.

﴿إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ﴾ [٥٣].

﴿مَسَرَّكُهُمْ لَمْ تَسْكُنْ مِنْ بَعْدِهِ... وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ﴾ [٥٨].

﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى... وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى﴾ [٥٩].

إشارة إلى ثبات قانونه تعالى.

﴿فَمَتَّعَ الْحَيَوةَ الدُّنْيَا... وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ [٦٠]. في آية جمع الدنيا والآخرة.

﴿أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا... كَمْ مَنَعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَوةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ [٦١].

﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ... كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ [٦٢].

﴿مَا كَانُوا إِلَّا يَتَّبِعُونَ﴾ [٦٣]. تنصل في الآخرة عما كان في الدنيا من شرك.

﴿لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ﴾ [٦٤].

﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ﴾ [٦٥].

﴿فَعَمِيَّتْ عَلَيْهِمُ الْأَنْبَاءُ يَوْمَئِذٍ﴾ [٦٦].

﴿فَعَسَىٰ أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ﴾ [٦٧].

﴿مَا كَانَتْ لَهُمْ الْخِيرَةُ﴾ [٦٨].

﴿لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَىٰ وَالْآخِرَةِ... وَلِلَّهِ تُرْجَعُونَ﴾ [٧٠].

﴿إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَمَةِ﴾ [٧١].

﴿إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَمَةِ... يَلِيلٌ تَسْكُنُونَ فِيهِ﴾ [٧٢].

- ﴿الْبَلَوَّانَ النَّهَارَ﴾ [٧٣].
- ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ... كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ [٧٤].
- ﴿وَصَلَّ عَنْهُمْ مَأْكَاؤُا وَلَقَرَّوْا﴾ [٧٥].
- ﴿كَانَ مِنْ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ﴾ [٧٦].
- ﴿الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾ [٧٧].
- ﴿أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ﴾ [٧٨].
- ﴿الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ [٧٩].
- ﴿فَمَا كَانَ لَهُ... وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنْتَصِرِينَ﴾ [٨١].
- ﴿وَأَصْبَحَ... بِأَلْأَمْسِ﴾ [٨٢].
- ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ... وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [٨٣].
- ﴿مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [٨٤].
- ﴿لَرَأَيْدُكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ [٨٥].
- ﴿وَمَا كُنْتَ تَرْجُو... فَلَا تَكُونَنَّ﴾ [٨٦].
- ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الشَّرِِكِينَ﴾ [٨٧].
- ﴿وَالَّذِينَ يُرْجَعُونَ﴾ [٨٨].

ورد (١٠) مرات تماً في سورة القصص.

تبتدئ من الآية (١٤) وتنتهي بالآية (٤٨) أي دون ٤٠٪ من مجموع الآيات (٣) منها ولما هي الآيات ١٤، ٢٢، ٢٣ وسبع فلما جاءت تماً في فاتحة الآيات في

(٨) آيات. وثنان جاءتا في ثنايا الآيات. كلها مرتبطة بقصة موسى، والأخيرة منها اقترنت بقصة موسى:

﴿ فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا لَوْلَا أَوْفَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِيَٰ مُوسَىٰ ﴾ [٤٨].

ومما يتعلق بموضوعنا الزمن: الأفعال.

والفعل كلمة تدل على حدث في زمن معين.

وقد جاء في السورة (١٧١) فعلاً ماضياً.

وجاء فيها (١٦٨) فعلاً مضارعاً.

وجاء فيها كذلك (٢١) فعل أمر.

الاستقطاب الاجتماعي كما تشير إليه سورة القصص

الاستقطاب الاجتماعي أو الفرز الاجتماعي أو تمزق النسيج الاجتماعي، أو ما شئت من الأسماء والمصطلحات، من أخطر ما يواجه التجمع الإنساني من آفات، ويتهدده من تهديدات، ويمر به من ظاهرات.

والاجتماع الواعي والراقي هو الذي يبحث الأخطار ويتلافها، ويحذر من المشكلات ويتجنبها قبل وقوعها، أو يسارع في حلها فور وقوعها.

ومجتمعات التخلف والانحطاط الساعية في تدمير الذات، توفر المناخات التي تقسم المجتمع إلى شيع وتجزئات، وعصبيات وعنصريات، وإقليميات ونعرات، ومستويات وطبقات، وفئات وتجمعات.

ولكم حذر القرآن الكريم، كتاب وحدة الأمة وتوحيدها، وجمع شملها وتجديدها، كم حذر من كل ما يثير النزاع والفرقة، ويغري الصراع والعداوة... ولا مجال للتفصيل، بل يكفي الإشارة العابرة إلى أن الدين جعل تمزيق الشمل من ألوان الكفر، وصور الارتداد:

﴿وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ۚ مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيعًا كُلٌّ

حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرَحُونَ﴾ [الروم: ٣١-٣٢].

﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيعًا لَّسَتْ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ١٥٩].

وإذا علمت أن سورة القصص فيها ربع مادة شيع في القرآن، أدركت طرفاً مما نرمي إليه.

وفي السورة ثلثا مادة شيعته فقد وردت (٣) مرات ثنتان في القصص. وربع مادة شيعاً فقد وردت (٤) مرات في القصص إحداها.

أما المادة كلها فقد وردت مرة تشيع فعلاً، والباقي بالصورة الاسمية مفردة ومجموعة، ومموج ذلك كله (١٢) مرة، في القصص كما سلف (٣) منها أي بنسبة الربع من المجموع.

تبتدى السورة بذكر عبث فرعون بالنسيج الاجتماعي، وأن ذلك أحد تجليات علوه واستكباره، بل قل هو أحد ركائزه وأسبابه. فهو مظهر لاستكباره نعم، لكنه في الوقت ذاته مصدر هذا الاستكبار. لأن استعلاءه قرين استضعاف الجماهير. وتمزيقها أحد أهم أسباب ضعفها واستضعافها، فهي تلازمة اشتراكية.. التمزيق والاستضعاف. فقالت الآية الرابعة من السورة الكريمة في الموجز الافتتاحي للسورة العظيمة، قالت:

﴿إِنْفَرَعْتَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضِعُّ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَدَّيْحُ أَبْنَاءَهُمْ
وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [٤].

وقوله تعالى في الآية بعدها: ﴿وَرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ
وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾ [٥].

هذا النص الكريم يكشف عن حرمان هؤلاء من أي مظهر تمثيل سياسي أو اجتماعي لهؤلاء المستضعفين المظلومين، ومن هنا فإن الله سبحانه، سينصرهم من ظلمهم الواقع عليهم، ويرفع عنهم الضيم الذي لحق بهم، ويمكن لهم من بعد حرمانهم من حكم أنفسهم أو تمثيل أنفسهم في الحكم على الأقل:

﴿وَنُكَيِّنْ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَرِثَةً وَنُؤْتِهُمْ مَّا كَانُوا يَعْبُدُونَ﴾ [٦].

فالنص أشار إلى نصرة المظلوم، وأشار إلى الانتصار من الظالم. وهناك إشارة لطيفة إلى حذر فرعون ونظامه من البشر الذين يستضعفونهم. وهذا أمر طبيعي، فالظلم قرين للشعور بالخوف من تظلمه، لأنك لا تدري متى ينفجر المظلوم. ومتى ينتصر الله له ويتنقم من الظالم.

هذه الإشارة إلى حذر المستضعفين من المستضعفين مهمة في تحليل نفسية الطغيان وطباع الاستبداد والاستكبار.

وكم كانت ذكية لفئة ذاك الفارسي الذي زار المدينة فوجد عمر مضطجعاً في ظل شجرة بلا حرس ولا عسس ولا شرط ولا قوة، فقال: (عدلت فأمنت فمنت). إن من الطبيعي ألا تنام عين الظالم، ومن الطبيعي أن يظل قلقاً، لكن المصيبة أن قلقه يحمله على مزيد من إجراءات الظلم التي تزيد الموقف اضطراباً واشتعالاً، وقابلية للتفجر إن حالاً أو مآلاً.

وفي قوله تعالى: ﴿فَالْفَقَطَةُ آَلَ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَمَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ﴾ [٨]. أكثر من إشارة.

فالولاً: قوله سبحانه ﴿آَلَ فِرْعَوْنَ﴾ يدل على أن، أو يشير إلى أن المقربين منه والمحيطين به هم من خاصته وذويه وآله الأقربين الموثوقين، لأن هؤلاء الظلمة لا يثقون إلا في الحلقة الضيقة المحيطة بهم من أقرب المقربين، ومن أخلص من يصطفونهم، فلا يقربون ولا يسلّمون المراكز العليا إلا لمن كان في هذه المرتبة... قرابة وولاء.

وأما ثانياً:

فإن قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَمَانَ وَجُنُودَهُمَا﴾ رسم هيكلية المجتمع والعلاقات، فرأس النظام يلزمه رجل ذو قبضة قوية يسند إليه الإدارة التنفيذية ومن هنا ذكر اسم هامان ست مرات في القرآن في القصص وحدها نصف هذه المرات الست. وهذا يلزمه جند يهرب بهم في غالب الأوقات، ويستخدمهم للبطش في بعض الأوقات ليرهب بهم في سائر الأوقات.

ثم بعد ذلك هؤلاء شعب لا يعامل على أنه فئة أو كتلة أو أمة أو مجتمع ولكن على أنه أوزاع وشيع، وعزبات وضيع، وقد شرح ذلك الآية رقم (٤)، فهي القاعدة في مسألة العلاقات في المجتمع.

ثم تجلّى هذا المعنى الذي جاء مجملًا، بشكل أجلى عندما عرضت القصة مشاهدتها وأحداثها عرضاً مفصلاً. فقد تكلمت الآية الخامسة عشرة، والغريب أنها أطول آية في السور على الإطلاق، إذ مجموع كلماتها (٣٨) (٢×١٩) كلمة.. تحدثت بجلاء عن هذه الظاهرة، وبلا مبالغة، في كل كلمة منها، وقرأ:

﴿وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينٍ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا﴾. هذا الجزء من الآية غني الدلالة عظيمها، وسجله القرآن بأسلوبه الجامع المانع الرائع.

والسؤال: ما الذي يجعل رجلاً في مثل وضع موسى وموقعه من القصور وأربابها يدخل المدينة على حين غفلة من أهلها؟

الذي نعتقه والله أعلم أن موسى عليه السلام قد انحاز إلى الشعب، وبات بالتالي بعيداً عن القصور وأهلها، بل نظن أن الآية إشارة إلى كونه بات مطلوباً للنظام في مصر.. ولذلك دخل المدينة على حين غفلة من أهلها. وباقي الآية يؤكد هذا المعنى الذي فهمناه، واستمع قوله تعالى:

﴿فَوَجَدُ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَةِ هَٰذَا وَمِنَ الْآخَرَةِ﴾. أن يختصم رجلان في مجتمع، هذا أمر طبيعي. وإنما الأمر غير الطبيعي أن يكون الاختصام على أساس الانقسام العرقي والعنصري "والأثني".. وحتى هذا يمكن أن يدخل في نطاق المتصور، وإنما الأخطر أن تكون مثل هذه الخصومات شرارات من شأنها أن تحدث في المجتمع أعظم الحرائق، لوجود حالة الاستقطاب والأجواء السامة، فمثل المجتمع في مثل هذه الحالة كمثل بيدر من القش اليابس في أجواء حارة ملتبهة، إن شرارة كفيلة بإحراق لا البيدر وحده، وإنما لامتداد ألسنة اللهب إلى سائر البلد والمجتمع. وتأمل الفرز والانحياز، إذ ينضم كل فرد إلى القطب الذي ينتمي إليه، وإلى العنوان الاجتماعي الذي يمثله.

فالإسرائيلي شعر تلقائياً بالانحياز إلى موسى، وشعر أن من الطبيعي أن يستنجد بموسى، وأن يسارع موسى لنجده.

إن الاستقطاب مرتبط بحالة من العداوة:

﴿فَاسْتَعْتَبْهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ﴾.

إن المجتمع السليم السوي يطوق حالات الاختلاف، ويحتوي المشكلات، ويصغر ما يبدو كبيراً من التناقضات، على عكس المجتمع المنحرف غير السوي فهو يضخم المشكلات ويسفر الخلافات ويوججها نتيجة حالة الاستقطاب التي ندندن من حولها.

ومع أن الله تعالى أثنى على موسى بالعلم والحكمة، إلا أنه نتيجة الاحتقان الاجتماعي الموجود وجد نفسه مندفعاً في نصرة المستضعف المظلوم، ربما بأكثر مما يقتضيه الموقف: ﴿فَوَكَرَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ﴾.

إنه الاحتقان المزمّن الذي يجعل رد الفعل عنيفاً شديداً وربما متطرفاً. إنه الضغط الاجتماعي الذي يفجر الأوضاع ويقودها إلى هاوية الاحتراب الداخلي الذي هو أخطر على المجتمع من كل العداوات الخارجية.

وموسى الحكيم عليه السلام يدرك للوهلة الأولى أن هذا الفعل العنيف منه لا يمكن إلا أن يكون نزغة من نزغات الشيطان:

﴿قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ﴾ [١٥].

ثم يسارع بعد هذا الاعتراف إلى الاستغفار:

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾.

وإن القرآن ليقر أن هذا الفعل غير شرعي ولا صحيح بدلالة أن الله قال:

﴿فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ ولا مغفرة على لا ذنب. وإنما المغفرة عن ذنب.

ثم يأخذ موسى على نفسه العهد ألا يكون يوماً من الأيام ما عاش، نصيراً أو ظهيراً للمجرمين وهذا تأكيد على أنه سيظل نصيراً للمظلومين والمستضعفين.

ولا ينتهي الموقف عن هذا الحد، فقد أصبح موسى مطلوباً بشدة هذه المرة، فزاد تخفياً وترقباً، وإذا الذي كان في المشكلة أمس يستصرخه اليوم، ولاحظ أنه هناك في الموقف السابق قال: (فاستغاثه). وهنا قال: (يستصرخه).

يعني أنه بحماقته يعرض موسى للخطر، وهو زعيمه الذي إن فقدته الشعب فقد طاقة التجميع وقوة الدفع والثبور، ولهذا يقول له موسى: ﴿إِنَّكَ لَمَوْتٌ مُّيِّنٌ﴾

ومع هذا لا يجد موسى بداً من التدخل في نصرة المظلوم والضعيف، لتستشعر جسامه المظالم، وشراسة التحيز، الذي يجعل موسى ينسى العهد الذي قطعه بالأمس، ومع هذا يهم أن يطال الرجل القبطي بالتأديب وإلزامه الحد:

﴿فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَنْ يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا﴾

كل هذا نتيجة هذا الذي نتحدث عنه من الفرز والاستقطاب والانحياز والاصطفاف الاجتماعي.. وانقسام المجتمع إلى معسكرات مشحونة محتربة، وأوضاع مضطربة، واجتماعيات ونفسيات ملتهبة، تنتظر شرارة لتستعر الأوضاع ناراً.. وكل هذا من أجل أن يستقر فرد على جماجم شعب وعلى احتراق مجتمع، واحتراب أمة.

وتأتيه النصيحة بالخروج، من رجل من علية القوم، بعد شيوع الأخبار بقتله أحد المواطنين، وصراخ ذلك الإسرائيلي عليه، فتصبح الهجرة أمام مؤامرة القتل تصبح أمراً مفروضاً واجباً. والذي يثير المشكلة على صعيد المجتمع كله آمن مطمئن.. والأجهزة التي تشعل الحرائق آمنة لا تساءل.

ويمضي موسى في رحلة الاغتراب عشر سنوات، يعود بعده إلى موطنه الذي تربى فيه وترعرع وعاش، يعود محملاً بأمانة الرسالة.. رسالة إنقاذ شعب من براثن الطغيان، حمله إياها ربه في رحلة عودته، وقبل أن يصل إلى بلده..

فييدي موسى مخاوفه من هذه المهمة، فيزوده الله بآيتين حاضرتين وسبع تالية، في ما مجموعه تسع آيات إلى شخص واحد هو فرعون.. ليستنقذ شعباً هم بنو إسرائيل.

وهذا يريك جسامه الخطر وفداحة المهمة، فبينما كل رسول زود بأية ليواجه قوماً، أرسل الله رسولين بتسع آيات إلى شخص واحد..

وهذا مؤشر أن البشرية تسير نحو أخطر ظواهر الاستبداد وتركز السلطة في يد واحد من العباد، واستثاره دونهم بكل شيء مما استدعى هذه الرسالة وهذا الرسول... لأن الله سبحانه لا يقبل الظلم الواقع على عباده.. فهيا الأسباب للتغيير.

قصة قارون مثل آخر على الاستقطاب الاجتماعي في سورة القصص

تعود السورة في خواتيمها لتكلمنا عن قصة أخرى مرتبطة بقصة موسى وبني إسرائيل، إنها قصة قارون. وهو مثال لطغيان المال والاستكبار الناشئ عن الثروة، كما كان فرعون مثلاً للاستكبار الناشئ عن القوة السياسية.

تقول الآية الكريمة الأولى في قصة طغيان أصحاب رأس المال، وقارون على

رأسهم: ﴿إِنْ قَرْنُونَ كَانَتْ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَعَثْنَا عَلَيْهِمْ﴾ [القصص: ٧٦].

وعجيب التعبير القرآني في إيجازه وإعجازه وإيجائه، وكم هو مدهش القول

الكريم: ﴿كَانَتْ مِنْ قَوْمِ مُوسَى﴾، فمعلوم أن العرق ملازم، فأن تكون عربياً أو إسرائيلياً تماماً كما تكون أسمر أو أسود أو أبيض، إنها صفة ثابتة، فما معنى

﴿كَانَتْ مِنْ قَوْمِ مُوسَى﴾ في ضوء ما قيل؟ تفسيره ما جاء بعد قليل: ﴿فَبَعَثْنَا عَلَيْهِمْ﴾،

لقد كان منهم لكنه خرج عليهم، وانشق عنهم، واستكبر على شعبه، وحقر جماعته، والتحق بقوى الاستكبار، واستصغر شأن أمته، فقاده هذا إلى الانضمام إلى عدو أمته... الذي يراه ظاهراً قاهراً.

وهنا وقفة مهمة لا بد منها، تدور حول ما الفترة الزمنية في حياة موسى عليه

السلام التي حدثت فيها قصة قارون؟

القرآن هنا لم يدخل في التفاصيل ولا في مثل هذه التحديدات، ولا قال كما قالت روايات بني إسرائيل أنه ابن عمه، فمثل هذا لا ينفعنا في كثير ولا قليل.

إنما الذي نبحت عنه الآن هو: هل حدثت قصة قارون زمن موسى؟ وإذا كان الجواب نعم^(١)، فهل حدثت قبل الهجرة أو بعد الهجرة؟

والقرآن هنا لم يحددنا. لكننا نستطيع استشفاف ذلك من السياق. وخلاصة ما توحى به الآيات فيما أرى أن القصة وقعت قبل هجرة موسى ببني إسرائيل، إذ ترك قارون شعبه والتحق بما يعتبره القوة الظاهرة والقاهرة، لقد قفز إلى القطار الموصل إلى الشهرة والمجد والعظمة والقوة. فالتناس لا تطيق الركوب في القطارات المتوقفة. وكثير من هؤلاء الذين لا يثقون بربهم ولا بشعبهم يقفزون إلى القطارات المتحركة ولو إلى الجحيم.

المهم أن قارون مزامن موسى ييقين. وأن أحداث قصته حدثت قبل خروج شعب إسرائيل، لأن مثل هذه الثروات التي تنوء مفاتها بعصبة الرجال الأشداء لا تتصور في التيه ولا في المهجر، وإنما تتصور في مجتمع مستقر مزدهر كمصر.

ثم أين يبغي قارون على قومه في التيه؟

لا بد من مجتمع يلحق به المنشق على مجتمعه. ولا يتصور هذا إلا إذا كانت القصة ووقائعها حدثت في مصر. ثم إن الأمر الحاسم نص القرآن إذ جمعهم جميعاً في سلسلة واحدة: ﴿وَقَرْنُوْا وَفِرْعَوْنَ وَهَمَزَ﴾، ﴿فِرْعَوْنَ وَهَمَزَ﴾، ﴿وَقَرْنُوْا وَفِرْعَوْنَ وَهَمَزَ﴾. وهل لاحظت تقدم قارون؟ وإذا كانت هذه المجموعة في المرحلة المصرية من دعوة موسى.

فما معنى بغي قارون على قومه؟

(١) الجواب حتماً نعم، وإليك الدليل، فقد ورد هذا صريحاً في القرآن فقد ورد اسم قارون في القرآن (٤) مرات، ثتان في القصص ثم ذكرنا صراحة هذا التزام، ولكن الموضعين الآخرين في العنكبوت وغافر ذكرنا، وقرأ: ﴿وَقَرْنُوْا وَفِرْعَوْنَ وَهَمَزَ﴾، ﴿وَقَرْنُوْا وَفِرْعَوْنَ وَهَمَزَ﴾، ﴿وَقَرْنُوْا وَفِرْعَوْنَ وَهَمَزَ﴾. وهل لاحظت تقدم قارون؟ وفي غافر: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٢٣﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَمَزَ وَقَرْنُوْا فَقَالُوا سِحْرٌ كَذَّابٌ ﴿٢٤﴾﴾.

إنه فيما أتصور انقلاب على قومه، والتحاق بآخرين وولاء لخصوم شعبه وأمه في مقابل ما كَوْن من ثروة. فلا يعقل أن يسمح له بالولاء لأُمته ووطنه ودينه ثم حيازة مثل هذه الثروات.

ولا داعي لضرب الأمثال من واقع الحال، وكيف أن ضريبة جمع الأموال والسماح لبعض هؤلاء من بني جلدتنا بتجميع أو تكديس المليارات، يقتضي انسلاخهم من دينهم وقومهم وقضايا أمتهم. إن الضريبة للسماح لهم بذلك غالية جداً.. في كثير من الأحيان.

ولاحظ ترتيب النص: ﴿فَبَعَثَ عَلَيْهِمْ وَعَائِنَهُ مِنَ الْكُؤُورِ﴾ يعني كان البغي على قومه والانشقاق عنهم والانسلاخ من الولاء لهم هو مقدمة أو مقدمات لجمع الثروات وانهيال المليارات، ثم وصف القرآن ضخامة ثروة قارون بما لا مزيد عليه إذ قال: ﴿وَعَائِنَهُ مِنَ الْكُؤُورِ مَا إِنَّ مَفَاحِهِمْ لَسَنُوءٌ بِالْعُصْبَةِ أُولَى الْقُوَّةِ﴾.

ثم إشارة معبرة في النص بشكل واضح تأتي هذه الإشارة في نهاية الآية الأولى من قصة قارون وهي الآية (٧٥)، إذ قال في ختامها: ﴿إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾.

إن الذين تولوا مراجعته إنما هم قومه، ولم يصفهم القرآن بصفة الإيمان مثلاً، وإن كان تركنا نستنتج ذلك من خلال الآية التالية. لكن الآية الأولى ركزت على صفة اتحاد الهوية العرقية: (قومه)، ولم يكون قومه هم الذين يوجهون له هذه الرسالة؟ إن هذا لأمر طبيعي لأن قومه هم المتضررون من انشقاق قارون عنهم، واستكباره عليهم، والتحاقه بعدوهم الديني والتاريخي والحضاري. ثم إن قومه هم الذين فيهم بقية الدين.

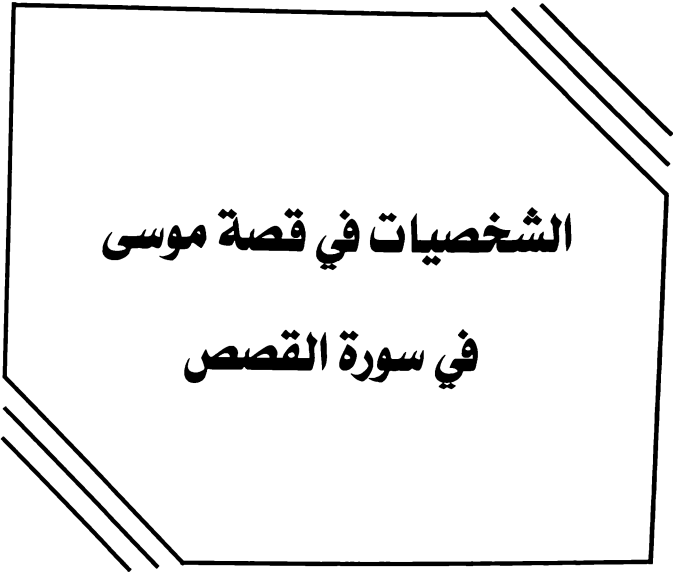
وفي الآية الثانية من القصة ذات السبع آيات نجد إشارة موحية هي: ﴿وَلَا تَبِعْ أَفْسَادَ فِي الْأَرْضِ﴾. وفي ختام الآية أي بعد النص السابق مباشرة: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ [٧٧]. وهي تذكرنا بما ورد في فاتحة السورة في وصف فرعون في الآية التي تكلمت عن تصديق وحدة الشعب: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ... إِنَّهُ كَانَتْ مِنْ الْأُمُفْسِدِينَ﴾ [٤].

وليس في السورة غير هاتين الآيتين مختمة بكلمة المفسدين.. مما يوحي باتحاد نهج الفساد ووجهته وغاياته بين فرعون وقارون، من خلال اتحاد الكلمة مع افتراق القصتين في الشخوص وفي موضعهما من سياق السورة.. وإن اتحدتا في المقاصد.

كانت هذه وقفة مع 'موضوع' مركزي محوري، من موضوعات سورة القصص ذاك الذي سميناه: الاصطفاف أو الفرز الاجتماعي أو.. الاستقطاب الاجتماعي، وبعض أوجه دلالات هذا الاصطفاف، وأوجه خطره فيما يعنينا نحن، وهذه عبرتنا من القصة، فالعدو اليوم يكرر معنا نفس التجربة، ولا داعي لتحديد الأمكنة، وإنما المثالان الظاهران فلسطين والعراق. في فلسطين السلطة والمصطفون حولها ومعها، ومعهم المال والثروات والإعلام العالمي والشهرة والمكاسب. والشعب المقموع المغلوب على أمره المقهور في حله وترحاله، الباحث بصعوبة عن لقمة عيشه وعيش أولاده، بينما المصطفون مع أعداء الأمة ينعمون برغد العيش وهناءة الحياة، وحرية الانتقال.

وفي العراق قريب من قريب.. سلطة معينة ورموزها ورجلها، والمصطفون من حول المحتل وشعب مروع مضطربة معاشه، مضيق الخناق عليه ناهيك عما تحاول القوات المحتلة إحداثه من شروخ مذهبية، وشروخ عرقية تصب دائماً في خدمة قوة المحتل وإدامة الاحتلال وتيسير تبعات احتلال هذا المحتل.

إن الاختلال الاجتماعي يصب في خدمه الاحتلال. والاستقطاب مقدمة طبيعية للاستلاب، فاعتبروا يا أولي الأبواب.



الشخصيات في قصة موسى

في سورة القصص

الشخصيات في قصة موسى في سورة القصص

مقدمة:

الشخصيات هي العنصر الأساس من عناصر القصة (في كل قصة). وفي القصص القرآني كذلك. وفرق القصة القرآنية أن الأحداث والشخصيات والمصائر يرسمها القدر ويهيئ الله تعالى لها الأجواء المواتية والمناسبة. بينما القصة العادية تسير فيها الأحداث والشخصيات على عواهنها وعلى هواها وكما تشتهي.. أو لا تشتهي.

وفي قصة موسى في سورة القصص تنوع في الشخصيات ربما لا يتفوق عليه إلا ما كان في قصة يوسف على الأنبياء جميعاً السلام.

- والأبرز بالقطع شخصية موسى فقد ذكر في سورة القصص (١٨) مرة، ولا يفوقها إلا ما كان في سورة الأعراف فقد ورد فيها (٢١) مرة، وقد عرضت السورة قصته مذ كان رضيعاً يلقي به في اليم إلى نبوته إلى نجاته بقومه وغرق فرعون ودخوله النار.

- والشخصية المرافقة والملازمة لموسى في الدعوة إلى الله وحمل الرسالة إلى فرعون: هو هارون عليه السلام. ولم تشر القصة لا إلى مولده ولا فتوته، ولكن بدأت بإرساله مع موسى إلى فرعون.

- والشخصية الثالثة هي فرعون فقد ذكر في القصص (٨) مرات، وتفوق عليها سورة غافر (٩) مرات، ومثلها الأعراف (٩) مرات.

- ثم شخصية قارون وهو يمثل القوة الاقتصادية إذ كان فرعون يمثل القوة السياسية. والقوتان غالباً ما تتحالفان لتشكل أخطر زواج وأسوأ زواج في التاريخ. وقارون من بني إسرائيل لكنه انشق عنهم وبتعبير القرآن العظيم ﴿فبغى عليهم﴾

ولئن افتتحت السورة بقصة فرعون، فقد اختتمت بقصة قارون وركزت على قاسمين يجمع كل منهما بينهما: العلو والفساد.

وقد ذكر قارون (٤) مرات، نصفهما في سورة القصص ومرة في العنكبوت تالية القصص ومرة أخرى وأخيرة في سورة غافر أو المؤمن.

- ثم هامان وهو مثال للذراع التنفيذي للطاغية. وقد ذكر في القرآن (٦) مرات نصفها في القصص وفي السورتين ذاتهما النصف الآخر، أعني العنكبوت وغافر وذكر في هذه مرتين.

- ثم أم موسى، ولم يتجلّ دورها كما تجلّى في هذه السورة ثم سورة طه. وبينما لم يذكر القرآن كلمة واحدة عن والده فإنه أفاض في دور الأم. ثم أخته وكان لها دور في وصل الأم بولدها عن طريق الاقتراح على آل فرعون بمرضعة ترضع لهم الولد، ولولا حسن التصرف لأفسدت الخطة كلها.. إلا بتدبير من الله بالطبع.

- ثم شخصية السحرة وهي تمثل الشعراء عند العرب زمن الدعوة الأول، وتمثل الإعلام في العصر الراهن. وتطور شخصيتهم نموذج في سرعة التحول.

- ثم الملأ من قوم فرعون وهم قطعاً غير السحرة، فهؤلاء مستشاروه وملازموه، وهم الذين أشاروا عليه باستقدام السحرة، والعجيب أن الرسم القرآني لملأ فرعون كان دائماً على هذه الصورة «الملأ» بينما في سورة النمل وهم ملأ سليمان وملأ ملكة اليمن حيث هم مستشارون حقيقيون فرسمت كلمة الملأ على هذا النحو: «الملؤا» فتأمل عجائب فروق الرسم القرآني في المعاني.

- ثم الرجل الناصح لموسى ولعله هو مؤمن آل فرعون الذي جاء من أقصى المدينة ليبلغ موسى خبر تأمر الملأ عليه.

- وبعد رحلة موسى إلى مدين ستتعرف إلى شخصية الرجل الصالح ثم ابنتيه.

- وهناك شخصيات ثانوية لا تحتاج إلى توقف عندها كالإسرائيلي الذي استغاث بموسى وكاد يورطه، والقبطي الذي قتل موسى، وغيرهم بالطبع من الجند والجمهور الكبير الحضور لمبارزة السحرة مع موسى..

١. شخصية موسى عليه الصلوات

لعل التصوير الفني في القرآن من أول من نبّه إلى هذه النواحي الفنية في القصة القرآنية. وقد تكلم عن شخصية موسى، ولسنا نقرّ ما قاله عنه من أنه نموذج أو مثال للزعيم العصبي المزاج المندفع.. فالأنبياء لا تحكمهم أمزجتهم ولا يتصرفون من هذه الخلفية أو بهذه الدوافع. على أن سيّدًا لم يكن، وحاشاه، يقصد من قريب أو بعيد، أن يسيء، وعلى كل حال فإنّنا لا نقر هذا الوصف لنبي الله الكريم عليه الصلوات والتسليم، وهو أكثر الأنبياء ذكرًا في القرآن الكريم، وذلك فيما أرى لأنه خاض أعنى مواجهة مع طاغية إلى زمنه عليه السلام.

والعجيب في الترتيب الإلهي لصياغة هذه الشخصية أن يكون عنده نقطتا ضعف، ومع هذا لم يتأثر خط سير الدعوة، أما أولاها فقتله القبطي أو الفرعوني أو المصري أو ما شئت سمّه. وهذه سيستغلها فرعون في مهاجمة موسى، وتنفير الناس منه ومن دعوته، ويذكرها موسى أكثر من مرة في تكليف الله بالذهاب إلى فرعون فيقول، كما أوردت سورة القصص: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي قُلْتُ إِنَّهُمْ نَفْسًا فَآخَأَفُ أَنْ يَقْتُلُونِ قَالَ رَبِّ إِنِّي قُلْتُ إِنَّهُمْ نَفْسًا فَآخَأَفُ أَنْ يَقْتُلُونِ﴾ [القصص: ٣٣]. وفي الشعراء: ﴿وَكَمْ عَلَى ذَنْبٍ فَأَخَأَفُ أَنْ يَقْتُلُونِ﴾ [الشعراء: ١٤].

وأما عن النقطة الثانية فهي حبسة لسانه، وفي هذا يقول عليه السلام كما أوردته سورة طه ﴿وَأَحْلَلْ عَقْدَهُ بَيْنَ لِسَانِي ﴿٢٧﴾ يَقْفَهُوا قَوْلِي﴾ [٢٧ - ٢٨]، وكما أوردته سورة القصص أيضاً: ﴿وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسَلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي

أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ ﴿[القصص: ٣٤]. ويستغلها فرعون مثلما هو متوقع أو مفترض فيقول: ﴿أَرَأَيْتُمْ مَنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَعِي وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾ [الزخرف: ٥٢].

فما الحكمة من هذا الترتيب الإلهي؟ ما الحكمة من أن يرسل موسى إلى أعنى طاغية في التاريخ إلى ذلك الزمن ثم يكون عند موسى نقطتا ضعف وهو الذي يحتاج إلى القوة المضاعفة لا إلى نقاط الضعف؟

أقول في محاولة فهم: إنه منتهى التحدي لطغيان هذا الطاغية أن يكون الرسول مع هذه الحشيات.. وسينصره الله. لأن النصر ليس بالحشيات التي تشد الأزر، وانعدام الحشيات التي تشد إلى الوراء، وإنما النصر من عند الله.. هذا أمر، والأمر الثاني أن عتو الطاغية ونقص وسائلك يزيد من التجاؤك إلى الله، وهو عين المطلوب، والله أعلم.

ولعلنا نضيف نقطة ضعف إضافية هي تربيته في قصر فرعون واستغلها هذا وفندها موسى كما في الشعراء، لكن الله يميز موسى في المقابل بالقوة البدنية المضاعفة الهائلة. نأخذ هذا ليس من الوكزة التي قتل بها القبطي فقط، وإنما أيضاً من إشارات أخرى، لا من إشارة واحدة، وأولها قول الله عنه بالنص الصريح لا الكناهي: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَىٰ﴾

بينما قال عن يوسف: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ﴾ ولم يذكر واستوى. والاستواء إشارة أو تصريح بالقوة أو إلى القوة. والله أعلم.

وثانياً: أن يقطع المسافة بين مصر ومدين أي ما بين قارة إفريقيا وآسيا.

فمصر هي مصر النيل ودع عنك الأقاويل والأضاليل فالقرآن عندما قال: (مصر) مرات، هل يحيلك إلى مجهول لا تعلمه أم إلى معلوم منضبط محدد لديك؟ والجواب فيما أظن لا يحتاج إلى راسخي أولي الألباب.

ثم الإشارة الواضحة ﴿وَرَعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ﴾ والأوتاد فيما أرى إشارة إلى الأهرام. ثم أوضح من الواضح أن فرعون لم يسم بهذا الاسم إلا في مصر. فلم المكابرة والمغالطة..؟

من مصر هاجر موسى عليه السلام إلى مدين، وهي جنوب الأردن فيما عليه الراجح بل الأرجح إن لم نقل المتعين. وهي مسافة ليست بالهينة. ولعله خرج دون احتياطات مسبقة لضرورات الإسراع في الخروج مثلما نصحه المؤمن أو الناصح الذي جاءه يسعى.

ولتكتمل الصورة بعد هذه الهجرة المضنية أنه يسقي للفتاتين وهو الغريب وسط جمهرة من الرعاة، ولك أن تتصور أن غريباً يتحدى أعراف بلد وأبناء البلد ويسقي دون أن يتعرض له أحد! فبالله ما الذي يمنعهم وهم الكثرة وهو الوحيد الغريب المفرد المنفرد؟ أظن أنها هبة القوة البادية.. المفصحة عن ذاتها هي التي ردعتهم أن يفكروا في الرد على من ازدري أعرافهم بل كسرهما وحطمها وخط خطأ جديداً!

وقد استنتج بعض الكتاب من كثرة تردد كلمة الخوف ومشتقاتها في قصة موسى أنه ممن يخاف. وليس كذلك. ولكنه في النهاية بشر يخاف الخوف الطبيعي الذي يعتري أشجع الشجعان. فالخوف ليس من رؤية حية، هذا أمر على ابن الأسفار والبراري والرعي معتاد يومي. إنما الذي يخيف بل يخلع القلب: هذا التحول من عصا ألفها لسنين تتحول في ثوان إلى حية تتحرك. فقل بالله من يصمد لهذا المنظر؟ ثم حق له أن يخاف وفي ملفه جريمة قتل، وحق له أن يخاف خوف الشجعان، بالطبع، وهو ذاهب ليواجه سكيناً حادة، ونفساً مجرمة، وطاغية فاداً في طغيانه فائقاً في عدوانه، قد ذبح من شعبه جماعات..

فهذا لا يتنقص ذرة من كون الكليم الكريم من أشجع الأنبياء، ولكنه يفصح عما في نفسه من تحسبات وكيف يواجهها، فلما وجهه الله، مضى كالسيف لا يلتفت..

وهل أحسست تردداً أو تلكؤاً وهو يقول لفرعون: ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَنْفِرْعَوْتُ
مُتَّبِعُوا﴾ [الإسراء: ١٠٢]، أو وهو يقول له: ﴿هَلْ لَكَ إِلَهٌ أَن تَزُكِّيَ﴾ (١٨) وَأَهْدِيكَ إِلَىٰ رَبِّكَ
فَنَخْسِئْ﴾ [النازعات: ١٨ - ١٩]، أو وهو يقول: ﴿قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا
إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [الشعراء: ٢٨].

أو وهو يقول للسحرة ﴿وَيَلِكُمْ لَاسِحْرَةٌ لَا تَفْتَرُوهَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذَابٍ﴾ [طه: ٦١].

فمثل هذا الرسول الكريم الذي انتدبه الله واختاره واصطفاه لمجابهة ومواجهة
أعتى طاغية مر على الأرض في عهد النبوات،

أفمثل هذا المختار للمهمات الكبار يقال عنه إنه يخاف؟

هذا سوء فهم لكلام الله وسوء ظن برسل الله!

٢- شخصية هارون عليه السلام:

الشخصية الثانية في قصة موسى في مواجهة فرعون هو هارون.

والطريف الملفت للأنظار أنه لأول مرة وآخر مرة في النبوات يرسل رسولان

إلى شخص: ﴿أَذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ﴾ وليس بآية واحدة كما هو الشأن في كل
الرسالات، وإنما «في تسع آيات».

ولن نخوض في كيفية نجاته من الموت، فما لم يقله القرآن ليس بموثوق،
والإسرائيليات لا يعول عليها بشيء قط، ولا نتكلم في أكبر أو أصغر من موسى
فلا يبنني على هذا شيء، وقد قال في هذا الذي لا طائل تحته كثير من المفسرين
والقصاصين.

ولكن الملاحظ أن فرعون كان يهمشه في خطة - فيما أرى - متقصدة متعمدة

فلم يخاطبه أبداً، وإنما كان يقول مثلاً: ﴿فَمَنْ رَبُّكُمَا يَمُوسَىٰ﴾ [طه: ٤٩]، ولكن

السحرة - كما ورد في سورة طه - قدموه، وهو - فيما أرى - رد على خطة التهميش فقالوا: ﴿رَبِّ هَرُونَ وَمُوسَى﴾ [طه: ٧٠]، وأرى - والله أعلم - أن السورتين المتاليتين مريم وطه والمحتويتين على حرف الهاء في فاتحتهما، وهما - بالمناسبة - الوحيدتان اللتان فيهما حرف الهاء أبرزتا هارون. فقد مرت بنا آية طه قبل سطور، وأما في مريم فجاء قوله تعالى على لسان بني إسرائيل أي أهل مريم وقومها: ﴿يَتَأَخَذَ هَرُونَ﴾ [مريم: ٢٨]، وصحيح أن موسى هو الذي طلبه أن يكون معه، وأن الله استجاب دعاءه، ولكنه في أقدار الله التي لا تتغير أحد المرسلين.

وقد ذكر موسى لأخيه هارون بعض مهماته: ﴿وَإِخَى هَرُونَ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسَلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنْ أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ﴾ [القصص: ٣٤].

وفي الشعراء قال: ﴿وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَبْدُلُنِي لِسَانِي فَأَرْسَلْ إِلَى هَرُونَ﴾ [١٣]، وقد ذكر هارون في القرآن (٢٠) مرة في (١٣) سورة كلها مكية عدا البقرة والنساء. وأكثر سورة ورد فيها ذكر هارون هي سورة (طه) ٤ مرات. ثم مرتين في كل من الأعراف ومريم والشعراء والصفاء، ومرة في كل من: البقرة والنساء والأنعام ويونس والأنبياء والمؤمنون والفرقان والقصص.

ولم ينفرد هارون عن موسى إلا قليلاً. وذلك حين ذهب موسى للميقات لتلقي الألواح وترك هارون خلفه وتمرد بنو إسرائيل على هارون وعبدوا العجل الذي ألفوه من مقامهم في مصر، وأشربوه في قلوبهم. وسجلت هذه الأحداث سورة الأعراف وطه.

فجاء في الأعراف: ﴿وَقَالَ مُوسَى لِإِخْوِهِ هَرُونَ أَخْلَقَنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلَحَ وَلَا تَنْتَجِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [١٤٢]. إلى أن قال مولانا في كتابه العزيز: ﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَنَ أَيْسًا قَالَ يَنْتَسِمَا خَلَقْتُونِي مِنْ بَعْدِي أَعْجَلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَأَلْقَى الْأَلْوَحَ وَآخَذَ بِرَأْسِ

أَخِيهِ بِحَرْهٍ إِلَيْهِ قَالَ ابْنَ أُمِّ إِنْ الْقَوْمَ اسْتَضَعُّونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿١٥٠﴾ قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِإِخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿١٥١﴾ [الأعراف: ١٥٠-١٥١].

ونقف عند قوله تعالى: ﴿إِنْ الْقَوْمَ اسْتَضَعُّونِي﴾ فهل كان هارون ضعيفاً؟ والجواب: لا. ولكن القوم المتمردين الهائجين المتفلتين كالسيل قد يكتسح أقوى السدود. لكن المشكلة أنهم لم يتعودوا على هارون رجلاً وإنما تعودوه دائماً الرجل الثاني.

هذا أمر. والأمر الثاني أن موسى بالقطع أقوى شخصية من هارون، لكن هذا لا يعني ضعف هارون.

وعلي رضي الله عنه لم يكن ضعيفاً ولكن كما قال هو: أفسدتم علي رأيي بالعصيان!

وهذه بعض الآيات المتحدثة عن هارون عليه السلام.

ذكرت سورة البقرة «آل هارون» وهي المرة الوحيدة في القرآن، وقد جاءت في ثانيا قصة طالوت فقد قال النبي لقومه عن طالوت وعلامة ملكه من الله: ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَىٰ وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ﴾ [البقرة: ٢٤٨] ولا ندري لم خص هذا الموقع بآل هارون.. وماذا كان الذي تركوه؟ كل ذلك لا تفصيل عندنا عنه.

وفي سورة النساء عدت مجموعة من الأنبياء في قائمة طويلة، وهذه المجموعة التي ورد فيها هارون: (وعيسى وأيوب ويونس وهارون وسليمان). فما الرابط وما الجامع الذي يجمع هذه المجموعة؟

وهل هم مرتبون زمنياً أم رتبياً؟ كذلك لا تفصيل عندنا!

وواضح أن ثلاثة منهم هم بالتأكيد من بني إسرائيل: الأول وهو عيسى والأخيران وهما هارون وسليمان. ولسنا ندري من أي الأقوام أيوب، ولا يونس، لكننا نرجح أنه ليس من بني إسرائيل. والله أعلم.

وفي الأعراف على لسان السحرة: ﴿قَالُوا أَمَّا رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ (١٢١) رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ ﴿فلم إضافة ﴿رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ﴾ إلى ﴿أَمَّا رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾؟ فقد تؤمن برب العالمين لكن بتصور مختلف عن المطلوب. من هنا كانت الإضافة، وذكروا الرسلين لأنهما رسولا رب العالمين لزمانهما المحدد في مكانهما المحدد مصر، من هنا وجب الإيمان بهما معاً.

٣- شخصية فرعون

ذكر فرعون في القرآن (٧٤) مرة في (٢٧) سورة كلها مكية عدا أربع هي: البقرة وآل عمران والأنفال والتحريم.

وأكثر سورة ذكرت فرعون هي الأعراف فقد ورد فيها (٩) مرات وغافر كالأعراف (٩) مرات ثم القصص (٨) مرات ثم يونس (٦) مرات والشعراء (٦) مرات ثم طه (٥) مرات ثم الأنفال (٣) مرات وهود (٣) مرات وورد مرتين في كل من: البقرة، والإسراء، والزخرف، والدخان، والتحريم، والمزمل.

ومرة في كل من: آل عمران، إبراهيم، المؤمنون، النمل، العنكبوت، ص، ق، والذاريات، والفجر، والحاقة، والنازعات، والبروج، والفجر.

وخلاصة القول إنه ذكر كثيراً في القرآن وتكرر في عدد من السور كبير وما ذاك إلا لخطورة هذا النموذج من الشر ولتكرره في الواقع ولقابلية المجتمعات لنشوء مثل هذه الظواهر.

وكلما كان الجهل فاشياً كان تأله الأفراد أشيع.

(في مقالة سابقة في مجلة الفرقان كنت تكلمت عن خطة فرعون في استبعاد قومه فستعاد هنا)..

وفرعون ليس اسمه وإنما هو لقبه أو منصبه كما يقال:
كسرى وهرقل، فهذه مناصب وليست أسماء، أو وظائف وليست علماً على الشخص.

وقد حذر القرآن في أول الوحي نولاً سورة اقرأ من طغيان الإنسان وتوعده، إذا قال مولانا سبحانه: ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَّاظٍ ۚ (١) أَن رَّاهُ أَشْتَقَى ۚ (٢) إِنَّا إِلَىٰ رَبِّكَ الرَّجُوعُ ۚ (٣)﴾ [العلق: ٦ - ٨]. وكذا حذر ختام سورة الأحزاب وهي السورة المتحدثة عن أخطر تحدّ واجه المسلمين، حذرت من الظلم والجهل في قوله تعالى عن الأمانة: ﴿وَحَلَّلَهَا لِإِنْسَانٍ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب: ٧٢].

وقد جسّد فرعون بشخصيته ونمط سلوكه هذه التحذيرات تماماً، فقد كرر القرآن: ﴿أَذْهَبَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ﴾ [طه: ٢٤ / والنازعات: ١٧]. ﴿أَذْهَبَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ﴾ [طه: ٤٣] ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُقْرَطَ عَلَيْنَا أَوَّانٌ يَّطْغَىٰ﴾ [طه: ٤٥].

ولا شك أن ظاهرة التفرعن تنشأ من مرض نفسي أو من تعقيدات نفسية ولوثة عقلية وأخلاقية، وإلا فكيف يستجيز إنسان أن يتأله على إنسان مثله؟ أو أن يقتله خشية على سلطانه لو كان سوي النفس؟

وأسوأ سمات هذه الشخصية المريضة والمشوهة هو التأله. بمعنى أن يدعي تصرّيحاً أو تلميحاً وكناية عن انسلاخه من أفق البشرية والتحاقه بأفق أعلى وهو التأله على الخلق، فهو ليس من معدنهم ولا من طبيعتهم وجبلتهم، وقد سجّل القرآن هذه النوبات من الغلو في تقدير الذات أو تضخم الذات، التضخم المرضي

في قوله تعالى في سورة القصص: ﴿مَا عَلَّمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي﴾ [القصص: ٣٨] وقوله يتضمن جريمتين أولاهما التأله بل الانفراد بالالوهية ولا ندري أعناه مطلقاً أم من بين البشر؟

ثم إن منتهى العلم ينتهي عنده، فإذا كان هو لا يعلم لهم من إله غيره، فإذا.. وهو منتهى العلم، فلا إله لهم سواه.. تعالى الله عما يقول الجرمون الظالمون علواً كبيراً.

وجريمة ثالثة مترتبة على هاتين الكبيرتين، هي جريمة احتقار البشر والاستعلاء عليهم واستجازه أن يصنع بهم ما يشاء من قتل ونفي وسجن وتعذيب..

وفي سورة النازعات: ﴿فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى﴾ [النازعات: ٢٤].

ولا ندري أقصد الرب بمطلق معانيه، أم الرب بمعنى من يملك أمركم ويملك مقدراتكم كما في سورة الزخرف:

﴿أَلَيْسَ لِي مُلْكٌ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الزخرف: ٥١].

وفي سورة الشعراء يصرح فرعون برفض ما يدعو موسى إليه وأن اعتراضه بل استهزاءه مصرح برده ورفضه على تعريف موسى له من هو ربه إذ قال موسى عليه السلام: ﴿رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ فيرد باستنكار واستهجان ﴿قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ لَا تَسْمِعُونَ﴾ وعندما قال موسى ﴿رَبِّكُمْ رَبِّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ﴾ يعرف بالله عز وجل، قال فرعون: ﴿إِنَّ رَسُولَكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾.

وعندما قال موسى عن الله معرفاً به وأنه هو لا سواه الرب والمعبود ﴿قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾.

قال فرعون مهتداً متوعداً رافضاً: ﴿قَالَ لِيْنِ أَخَذَتْ إِلَهَا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ﴾.

وفي سورة طه عندما عرّف موسى بربه جواباً على سؤال فرعون ﴿فَمَنْ رَبُّكَمَا يَمْشُونَ﴾ قال موسى ﴿رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ حَلْقَهُ، ثُمَّ هَدَى﴾ وأردف بما سجلته سورة طه كان رد فرعون ﴿أَجِئْتَنَا بِخُرَافَاتٍ آُرْسِنَا بِسِحْرِكَ يَمْشُونَ﴾ اعتبر هذه الدعوة سحراً. وبلغ من جنونه وكبره ورفضه لآلوهية الله أن قال كما في سورة غافر: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَهْمَنُ إِنِّي فِي صَرَحًا لَعَلِّي أَتْلُغُ الْأَسْبَابَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَبَ السَّمَوَاتِ فَأَطْلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا﴾.

وفي سورة القصص قال في ذات السياق أو ذات الموضوع: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَتَأَتُّهَا الْمَلَائِكَةُ لَعَلَّكُمْ مِنْ إِلَهِ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَهْمَنُ عَلَى الطَّيْنِ فَأَجْعَلَ لِي صَرَحًا لَعَلِّي أَطْلُغُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ [القصص: ٣٨].

هذا بعض ما سجله القرآن من دعوى تأله فرعون نكتفي بهذا وفيه كفاية للتدليل على مستوى ما بلغ إليه هذا العاتي من دعوى تأله وادعاء الربوبية والاستكبار عما خلقه الله عليه من العبودية.. وهذا قد عبر عنه القرآن بالإسراف ووصف صاحبه بالمسرف وعبر عنه بالطغيان وصاحبه بأنه طغى..

٢- الاستعلاء

وهذا ما نص عليه القرآن بقوله: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ وقال في ختام السورة نفسها التي منها النص السابق وتعقيماً على قصة قارون الذي يمثل الطغيان الاقتصادي، قال: ﴿تِلْكَ الْأَمْثَالُ لِنَعْلَمَ لِمَ تَعْبُدُونَ إِلَّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فُسَادًا﴾.

وقد قال الله عنه في سورة يونس: ﴿وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَمَالٍ فِي الْأَرْضِ﴾ وفي سورة المؤمنون جمع له صفتي الاستكبار والعلو كما جمعهما للشيطان ﴿أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْغَالِينَ﴾ [ص: ٧٥].

فقال عن فرعون: ﴿إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ﴾ .

وقال في الدخان عن فرعون: ﴿إِنَّهُ كَانَ عَلِيًّا مِنَ الْمُتْرَفِينَ﴾ [الدخان: ٣١].

وقال في النمل عن فرعون وقومه: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل:

[١٤].

وقال عن السحرة المستمدين استعلاءهم من استعلائه: ﴿وَقَدْ أَقْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَى﴾ [طه: ٦٤].

وقالوا: ﴿وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ﴾ [الشعراء: ٤٤].

ولاحظ أنه جمع العلو مع الاستكبار ومع الظلم ومع الإسراف ومع الفساد وتقطيع الناس شيعاً، والشيء بقرينه، فالعلو سوء مطلق وقرينه كذلك!

٣- الاستكبار

معلوم أن أول من استكبر في هذا الكون هو إبليس. وبالتالي فإن كل مستكبر مؤتم بإبليس ويكفيه هذا شؤماً.

والاستكبار أن يرى المرء نفسه كبيراً وهذا يقتضي أن يستصغر شأن الآخرين ويستخفّ بهم.

وأخطر من هذا بما لا يقاس أن يستكبر على من خلقه ورزقه. وإن لم يستكبر على عبادة الإله العظيم خالق الأكوان، وفي ذات الوقت يطلب إلى الناس أن تعبدوه وهو

المخلوق الصغير المحدود الضعيف المأسور بقوانين هذا الوجود التي أودعها الله فيه وقال: ﴿نَحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ﴾ [الإنسان: ٢٨]، فكيف يستكبر من هذا شأنه؟ فنقص الطعام والشراب يهزله ونقص النوم يفقده توازنه ونقص الضوء يجعله كالأعمى... وهكذا دواليك.

وقد قال الله عن فرعون وقومه: ﴿فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٣٣].

ومعلوم أن فرعون مستكبر على ملته ومستشاريه ومقربيه، وهؤلاء مستكبرون على بقية الشعب.

والشعب الفرعوني مستكبر على المستضعفين من بني إسرائيل، ولو كانت أمريكا موجودة لكان فرعون مستضعفاً أمام جبروت أمريكا المستكبرة عليه، وهذه أمريكا المستكبرة مستضعفة أمام جبروت الصهيونية.. وهكذا دواليك.

فالاستكبار تفاعل تسلسلي، كل طبقة تستكبر على من دونها، وكل فرد يستكبر على من دونه، والشفاء من هذا يقتضي أن يرجع الإنسان إلى حدوده وحجمه وما خلقه الله عليه وأن يلزم حدّ العبودية له التي كل الناس فيها سواء المرسلون ومن أرسلوا إليهم، ولا علاج من هذا الداء الدوي إلا الإيمان القوي. فالإيمان يحرك من تضخم الذات والاستكبار باستحضار عظمة الإله سبحانه واستصغار شأنك بالغاً ما بلغت فأولك معلوم وانتهاؤك محتوم وما تؤول إليه كذلك معلوم فقيم الاستكبار يا ظلم!

والإنسان المؤمن مهما بلغ به الضعف يأبى أن يستضعف أو يستذل لمخلوق مثله. فالإيمان يحور الإنسان..

وقال في سورة المؤمنون وقد مرّ بنا آنفاً: ﴿إِلَىٰ رُفُوتٍ وَمَلَأَ بِهِ فَاَسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ﴾ [المؤمنون: ٤٦].

وفي العنكبوت عن قارون وفرعون وهامان: ﴿وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ [العنكبوت: ٣٩].

﴿وَقَالَ مُوسَى إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَا يُؤْمِنُ بَيُّورِ الْحِسَابِ﴾ [غافر: ٢٧].
وهو تعريض بفرعون واضح لا يحتاج إلى توضيح.

وفي غافر نفسها في سياق مرافعة مؤمن آل فرعون ضد فرعون: ﴿كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبٍ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾ [غافر: ٣٥].

وكيف لا يكون المتكبر بغضاً عند الله، وهو يخرج عن طوره وما خلق عليه ويستعلي على أقرانه في الإنسانية، ويحاذ الله في أسمائه وينازعه فيها وفي صفاته؟
فالكبير الله، والمتكبر الله وحق له فهو العظيم المطلق والقوي المطلق.. سبحانه.. تقدست أسماؤه وتزهت صفاته..

وقد جمع الله تعالى في قرآنه المبين بين الاستكبار والعلو، مما يقتضي تغيرهما ولو من وجه.

وأحاول أن أفرق بين الاستكبار والعلو، وكما تشابه النباتات في الشكل أحياناً وتختلف في المذاق والطعم، فكذا الكلمات قد تلتقي في بعض الأوجه ولكنها تفرق في أوجه أخرى.

فما من شك أن الطغيان والاستكبار والعتو والعلو تلتقي في قواسم وقواسم ولكنها تفرق في معناها في المعاجم.

فقد قال ابن فارس^(١) في معنى هذه المفردات:

كبر: الكاف والباء والراء أصل صحيح يدل على خلاف الصُّغُر، يُقال: هو كبير، وكَبَّار، وكُبَّار، قال تعالى: {وَمَكْرُؤًا كَبَّارًا}، والكِبَرُ: معظم الأمر. قوله

(١) معجم مقاييس اللغة، ابن فارس، تحقيق: عبد السلام هارون، دار الفكر - ج ٥، ص ١٥٣.

عز وجل: {وَالَّذِي تُوَلَّى كِبْرَهُ} أي معظم أمره، ويقولون: كَبُرُ سياسة القوم في المال، والكِبَرُ: العظمة، وكذلك الكبرياء، ويُقال: اكْبُرْتُ الشيء: استعظمته.

وجاء في اللسان في الجذر (كبر) :

الكبير في صفة الله تعالى: العظيم الجليل. والمتكبر الذي تكبر عن ظلم عباده، والكبرياء: عظمة الله - قال ابن الأثير في أسماء الله تعالى : المتكبر والكبير أي العظيم ذو الكبرياء. وقيل: المتعالي عن صفات الخلق. والكبرياء العظمة والملك، وقيل هي عبارة عن كمال الذات وكمال الوجود ولا يوصف بها إلا الله.

واستكبر الشيء: رآه كبيراً وعظم عنده. ويقال: سادوك كابراً عن كابر. وورث المجد كابراً عن كابر..

٤ - التآله واستعباد الخلق

يلزم لصفة الاستكبار أو الوجه الآخر لها كما يقال أن يستصغر المتفرعن الناس ويزدريهم ويحتقر شأنهم ويرى نفسه عليهم إلهاً ورباً يملك لهم الحياة والموت كما قال الطاغية لإبراهيم عليه الصلوات: ﴿قَالَ أَنَا أُتِي وَأُمِيْتُ﴾ [البقرة: ٢٥٨].

لقد استعظم فرعون نفسه فما عاد يراها هو ولا عاد يقبل أن يراها غيره في عداد البشر، وكما توهم مستكبرو أوربا من رجال الحكم ورجال المال ورجال السلطة المدنية إذ زعموا أو توهموا أنهم لا تجري في عروقهم مثل الدماء التي تجري في عروق البشر... وإنما هم بشر سوير دماؤهم غير دماء البشر.

من هنا ما سجله القرآن في حجاج موسى وفرعون عندما قال فرعون له:

﴿أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ﴾ [الشعراء: ١٨]، فرد عليه موسى:

دعواه بأن تربيتي في قصرِكَ ليس نتيجة إحسانك وإنما نتيجة استعبادك لشعبي:

﴿وَلَبَّكَ بِرَبِّكَ تَتَّبَعُونَ أَن عَبْدْتُ بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ [الشعراء: ٢٢].

ومن هنا سجل القرآن زاوية أخرى لهذا المشهد الاستعبادي في قول موسى: ﴿فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ [الأعراف: ١٠٥]، ﴿إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿١٣﴾ أَنَا أَرْسِلُ مَعًا بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ [الشعراء: ١٦ - ١٧]، أي أطلق سراح شعبي، وحررهم من استعبادك.. وهنا صرخة رباعي الصحابي وقد فهم روح الإسلام: (الله ابتعثنا لنخرج العباد من عبادة العباد إلى عبادة الله رب العباد).

وهذا الذي سجله القرآن كذلك من زاوية ثالثة إذ قال:

﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضِعُّ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُدِيحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ﴾ [القصص: ٤].

٤- فاستخف قومه

قَصص القرآن خلاصة التاريخ الإنساني، اصطفاها الحق سبحانه، ولخص فيها مسيرة البشر من لدن بدء الإنسان بآدم وانتهاءً ببعثة النبي الخاتم ﷺ.

وقَصص القرآن أحسن القصص موضوعاً ومضموناً ومنهجاً في القصص، وليس من قصص القرآن أي كلمة لم ترد في القرآن، ولم تأت قصة طويلة في سورة واحدة إلا قصة يوسف.

أما أكثر القصص دوراناً في القرآن فهي قصة موسى ﷺ، وقد ذكر في القرآن من سورة البقرة إلى سورة الأعلى، أي على مدى ثلاثين جزءاً لا يكاد يغيب، وذكر ضيف ما ذكر خليل الله وأبو الأنبياء إبراهيم عليه الصلوات والتسليم.. وما ذاك إلا لأهمية قصة موسى ﷺ، وهذه الأهمية تتجلى من عدة وجوه:

- قصة موسى تتضمن المواجهة مع أعنى طاغية، إلى زمانه، ولو جئنا نرسم التاريخ الإنساني في خط بياني لوجدناه نازلاً منحدرًا إلى قصة فرعون التي تمثل أشد نقطة المحدار؛ فقد كان كل نبي يُبعث بآية إلى قوم، أما فرعون فقد بعث الله له

نَبِّينَ رَسُولِينَ فِي تِسْعِ آيَاتٍ، إِلَى شَخْصٍ وَاحِدٍ: ﴿فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ﴾ [النمل: ١٢]،
﴿أَذْهَبَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ﴾ [النازعات: ١٧].

- موسى أول نبي يقيم أمة ويهاجر بأمة ويطبقها على منهج الله.
- الصراع الوجودي سيكون بين أمة النبي الخاتم نبي الإسراء وبين أمة إسرائيل، فافتضى معرفتهم بالتفصيل أكثر من غيرهم.
- هم السابقون لنا مباشرة؛ فما عيسى إلا أحد أنبياء بني إسرائيل، وهو السابق المباشر لبنينا -عليهما وعلى الأنبياء السلام- وهم مجاورونا في الأرض، لكن بالعداء.

- لشدة تعقيد شخصية بني إسرائيل ذكرت بهذه الكثرة، ومن هنا قال النبي ﷺ: «وَحَدَّثُوا عَنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا حَرْجَ؛ لَا لِنُرُوي عَنْهُمْ، مَعَاذَ اللَّهِ، وَلَكِنْ لَنَعْرِفَ مَكْنُونَهُمْ وَخَبْوَهُمْ، فَهُمْ شَخْصِيَّةٌ مَلْتَوِيَّةٌ مَعْقَدَةٌ شَدِيدَةُ التَّعْقِيدِ، اتَّعَبْتُ الْأَنْبِيَاءَ وَقَتَلْتُ مِنْهُمْ عَدَدًا بِشَهَادَةِ اللَّهِ: ﴿وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ [آل عمران: ١١٢] وتكررت مثل هذه العبارة.

نعود إلى قصة موسى وفرعون.. ولتعلم أن فرعون ليس اسم الحاكم الذي واجهه موسى ﷺ، ولكنه وصفه، مثل: كسرى وهرقل.. في الفرس والروم، وهذا في القبط، أو شعب مصر.

واعلم أن بذرة التفرع موجودة في كل نفس، فإن وانتهت الظروف أنبتت نبتها الخبيث.. ومنذ أول الوحي قال الله تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَّاظٍ﴾ ﴿٦﴾ ﴿أَن رَّاهُ اسْتَغْنَى﴾ ﴿٧﴾ [العلق: ٦-٧].

وطغيان فرعون تملكه أسباب القوة، أو ما يسمى بلغة العصر: إقامته للنظام الشمولي، وجمعه كل الصلاحيات والسلطات في قبضة واحدة؛ فالسياسة،

والعسكرية، والأمن، والقضاء، والإعلام، والاقتصاد.. كلها في يده: ﴿أَلَيْسَ لِي مُلْكٌ مِصْرَ﴾ [الزخرف: ٥١]، ﴿مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى﴾ [غافر: ٢٩].

وقصته تحتاج إلى مجلدات، ولكني سأقف وقفة عجلية عند جزء من آية: ﴿فَأَسْتَحَفَّ قَوْمَهُ﴾ [الزخرف: ٥٤]، وهاتان الكلمتان تحتاجان كتاباً لتجليتهما، وإني بصدده إن شاء الله. لكننا الآن نورد الموجز ونسال: ما الخطوات، وما المنهجية المتبعة للوصول إلى مثل هذه النتيجة: الاستخفاف بالقوم واستضعافهم؟ وهذه فيما أرى بعض الخطوات:

- تمزيق نسيج الشعب وتفريقه والعبث بوحدته، على مقولة الاستعمار قديماً وحديثاً: ﴿فَرَّقْ تَسُدْ. وَمَنْ هُنَا قَالَ الْقُرْآنُ: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضِعُّ مِنْهُ خَلَيْفَةً مِنْهُمْ﴾ [القصص: ٤].

- البطش والتهديد والوعيد والضرب بيد من حديد، على طريقة أبطش بواحد تُرعب مئة، ﴿فَشَرِدَ بِهِمْ مَنْ خَلْفَهُمْ﴾ [الأنفال: ٥٧]، ومن هنا كثر في قصة فرعون ذكر القتل وتقطيع الأعضاء والسجن والذبح: ﴿يَذِيحُ أَبْنَاءَهُمْ﴾ [القصص: ٤]، ﴿يُسْأَلُونَكَ سَوْءَ الْعَذَابِ وَيَدْحُوتُ أَبْنَاءُكُمْ﴾ [إبراهيم: ٦]، ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكَ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُؤُونَكَ سَوْءَ الْعَذَابِ يُدْحُوتُ أَبْنَاءُكُمْ﴾ [البقرة: ٤٩]، وفي [الأعراف: ١٤١]: ﴿يَقْتُلُونَ أَبْنَاءَهُمْ﴾.. وعندما قال له قومه: ﴿أَنْتَ ذُرِّيَّتُنَا وَمُؤْمِنُ الْآلِ فِي الْأَرْضِ وَيَذَرُكَ وَآلِهَتَكَ قَالَ سَنْقِيلُ أَبْنَاءَهُمْ﴾ [الأعراف: ١٢٧]، وعندما آمن السحرة، انطلق الوعيد والتهديد من فم فرعون قائلاً لهم: ﴿لَأَقْطِعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خَلْفٍ ثُمَّ لَأَقْصِيَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٤]، وفي [طه: ٧١] قال: ﴿فَلَأَقْطِعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خَلْفٍ وَلَأَقْصِيَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَنَعْلَمَنَّ إِنِّي أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى﴾.

- استحياء النساء: والمفهوم واسع؛ بمعنى: استبقاؤهنَّ للضغط على الآباء والأبناء والأزواج والإخوة من خلال النسوة، فالمرأة نقطة ضعف لأهلها، وما يخشى الناس شيئاً قدر ما يخشون على أعراضهم أن تُنتهك، وحوادث الاغتصاب من أسف تكاد تكون ديدناً ودأباً عند كثيرين.

وقد ذكر استحياء النساء عدة سور؛ كالبقرة، والأعراف، والقصص، وطه، وغيرها.. فمن كانت جميلة أُخذت للمتعة، ومن كانت غير ذلك اتخذت للخدمة.

- الإغداق على الأولياء وشراء الذمم: ومن هنا فإن السحرة بدأوا بطلب الثمن والأجر مسبقاً:

﴿أَيْنَ لَنَا لَآخِرٌ إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ ۝١١٤﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذَا لَئِنَّمُ الْمَقَرِّينَ ﴿[الشعراء: ٤١-٤٢]،
﴿إِن كُنَّا لَآخِرٌ إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ ۝١١٥﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَئِنَّمُ الْمَقَرِّينَ ﴿[الأعراف: ١١٣-١١٤].

- الاستعانة بالملأ، وهُم قادة المؤسسات والتَّحَبُّبُ المستفيدة والمرتبطة بالنظام، وبخاصة القوة الاقتصادية، من هنا ذكر القرآن قصة (قارون) في ختام سورة القصص وفي تاليها سورة العنكبوت، وذكره قبل فرعون: ﴿وَقَدْ رَئَوْكَ فِرْعَوْنَ وَهُمْ نَكِرَ﴾ [العنكبوت: ٣٩]، وقد بدأ ذكر الملأ من قصة نوح، لكن تكثف ذكرهم في قصة موسى وفرعون.

ومن أشهر رجال فرعون هَامَانُ، وذكره القرآن بالاسم، أو أنَّ هذا وصفه لما يملك من قدرات ودهاء.

- إنجاز بعض المعالم الحضارية كشواهد على القوة والعظمة والأبهة والمجد؛ فالأهرام -وهي مجرد قبور- قد مات في بنائها عشرات الألوف إن لم يكن المئات من الألوف ﴿وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَارِ﴾ [الفجر: ١٠]، ﴿فَأَوْقَدْ لِي يَهْنَكُنَّ عَلَى الْطَلْحِ فَاجْعَلْ لِي

صَرَخَا ﴿[القصص: ٣٨]، ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَهْمُنُ آيُنِي صَرَخًا لَعَلِّي أَنْبُغُ الْأَسْبَابَ ﴿٣٩﴾: أَسْبَبَ
الْأَسْمَاتِ ﴿[غافر: ٣٦-٣٧].

- التجرد من الرحمة، والامتلاء بالكبر والقسوة والشدة: ﴿كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى
كُلِّ قَلْبٍ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴿[كذلك يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبٍ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ {غافر: ٣٥}.

- استغلال الإعلام في رسم الهالة، وتضخيم الصورة، وصناعة البطل: وهذا
غدا فتأ له أصوله وقواعده، والسحرة في ذلك الزمان كانوا جزءاً من آلة الإعلام
تناسب بدائية وسائل ذلك الزمان، ولكن الوظيفة واحدة: ﴿وَأَرْسَلَ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ
﴿٣٧﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَابٍ عَلِيمٍ ﴿[الأعراف: ١١١-١١٢]، ﴿وَأَبْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ﴿٣٨﴾
يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَابٍ عَلِيمٍ ﴿[الشعراء: ٣٦-٣٧].

- لا بد من نصر عسكري ولو وهمي حتى تكتمل صناعة البطل.. وقد أراد
فرعون في الفصل الأخير من قصته أن يُتَوَّج القصة بهذا النصر العسكري الذي
يحسم الصورة، ويقطع التردد في التبعية له، فقال عندما خرج بنو إسرائيل من مصر:
﴿فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾ وَلَهُمْ لَنَاظِرُونَ ﴿٥٥﴾ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ
حَاشِرُونَ ﴿[الشعراء: ٥٣-٥٦].

- بثّ العيون وسط الناس لنقل كل شاردة وواردة، وإن آية في سورة يونس
كشفت عن مثل هذا المخطط: ﴿فَمَا أَمْنٌ لِمُوسَى إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّنْ قَوْمِهِ عَلَى خَوْفٍ مِّنْ فِرْعَوْنَ
وَمَلَائِكَةٍ أَن يَقْنَنَهُمْ ﴿[يونس: ٨٣].

دراسة حروف المعاني في سورة القصص

خطر لي أن أحصي حروف المعاني في سورة القصص وحروف المعاني في معانيها كتبت كتب، وفي أسلوب التعبير بها لعل أفضل من درسها المرحوم محمد عبد الخالق عزيمة، في كتابه: (دراسات لأسلوب القرآن).

وفي هذا العمل حاولت أن أقدم المادة الخام لمن يواصلون الدراسة التفصيلية الأكثر تقدماً من هذه الدراسة، والأبعد مرمى، والأسد نظراً والأشد إحكاماً من هذه الأوراق والنظرات.

وصحيح أنه يلزم ما قيل الكثير من الجهد لإنضاجه، لكن العلم خطوات تبتدئ وثيدة ثم تتسارع، ويبدأ جهوداً ناقصة ثم تتلاحق.. وتتواصل وتتكامل. ونحن قوم لم تبلغنا تكنولوجيا العصر بعد فاعتمدنا العد المباشر والإحصاء بالتحقق. وفي سبيل إحصاء كل حرف كنت أقرأ السورة مرة جديدة، وأحياناً أكثر من مرة، ونسأله أن يتقبل منا ويجعل العمل لوجهه الكريم العظيم وفي سبيله، وخدمة لكتابه، وأن يسدد قولنا ويصوب قصدنا، ويخلص نياتنا.

هذا، ولا بد أن يكون وقع سهو ونقص، فهو من نقص جهد البشر وكل يستدرك عليه، إلا من عصمه الله وكمله ﷺ.

حروف المعاني في سورة القصص

حرف (من)

آية (٤)	آية (٤) منهم	آية (٣)
آية (١٠)	آية (٧)	آية (٦) منهم
آية (١٥)	آية (١٥)	آية (١٢)
آية (١٥)	آية (١٥)	آية (١٥)
آية (٢٠)	آية (١٩)	آية (١٥)
آية (٢٣)	آية (٢١)	آية (٢٠)
آية (٢٥)	آية (٢٤)	آية (٢٣)
آية (٢٩)	آية (٢٧)	آية (٢٧)
آية (٣٠)	آية (٣٠)	آية (٢٩)
آية (٣٢)	آية (٣٢)	آية (٣١)
آية (٣٤)	آية (٣٣)	آية (٣٢)
آية (٤٢)	آية (٣٨) ٢	آية (٣٧)
آية (٤٦) ٣	آية (٤٤)	آية (٤٣)
آية (٤٩)	آية (٤٨) ٢	آية (٤٧)
آية (٥٣) ٢	آية (٥٢)	آية (٥٠)
آية (٥٨) ٢	آية (٥٧) ٢	آية (٥٤)
آية (٦٧)	آية (٦١)	آية (٦٠)
آية (٧٦)	آية (٧٥)	آية (٧٣)
آية (٨١) ٣	آية (٧٨)	آية (٧٧)
	آية (٧٨)	آية (٨٦)

عدد كبير من مرات (من) تأتي في ختام الآيات: من المؤمنين، من المرسلين. وردت (من) ٧٣ مرة في سورة القصص.

أعلى تردد لها في الآية رقم (١٥) ٦ مرات وهي أطول آيات السورة. أعلى تردد لها بعد ذلك في آية واحدة (٣) مرات، وقد تكرر ذلك في كل من الآية (٣٢، ٤٦، ٧٨، ٨١).

آيات ورد فيها هذا الحرف مرتين هي: ٢٠، ٢٣، ٢٧، ٢٩، ٣٥، ٣٨، ٤٨، ٥٠، ٥٣، ٥٧، ٥٨، ٧٣، ٧٦.

أعلى انقطاع بين الآيات دون ورود (من) فيها من الآية (٦٧ - ٧٣)، (٨١ - ٨٦) (الأرقام المذكورة فيها من والذي ليس فيه ما بينها).

ذكر الشيخ عزيمة من معاني (من) كونها لابتداء الغاية، وعد من أمثله:

﴿نُودِيَ مِنْ سَطْحِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبْرَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ﴾ الثتان لابتداء الغاية والثانية بدل من الأولى. (راجع البحر ١١٦:٧ والجمل ٣٤٦:٣ وعزيمة ٣٣٠:٢).

وعد من هذا القبيل ﴿قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ﴾ من قبله ظرف لأهلك، من القرون متعلق بأهلك، و (من) لابتداء الغاية أو حال من المفعول وهو (من) العكبري ٩٤:٢ والجمل ٣٦٠:٣ وعزيمة ٣٣٠:٢. راجع في (من) عزيمة ج ٢، ص ٣٢٣ - ص ٤٢٤.

حروف المعاني

حرف (اللام) بأنواعه

آية ٦ (لهم)	آية ٣ (القوم)
آية ٩ (لي، ولك) مرتان	آية ٨ (ليكون)
آية ١٠ (لتكون)	آية ١٠ (لتبدي)
آية ١٢ (لكم، له) مرتان	آية ١١ (لأخيه)
آية ١٦ (لي، له) مرتان	آية ١٣ (ولتعلم)
آية ٢٠ (لك)	آية ١٨ (له)
آية ٢٥ (ليجزيك، لنا) مرتان	آية ٢٤ (لهما، لما) مرتان
آية ٣٨ (لكم، لي، لي، لأظنه) ٤	آية ٢٩ (لأهله)
آية ٥٠ (لك)	آية ٣٥ (لكما)
آية ٥٥ (لنا، ولكم) مرتان	آية ٤٣ (للناس)
آية ٦٨ (لهم)	آية ٥١ (لهم)
آية ٧٣ (لكم، لتسكنوا، ولتبتغوا) ٣	آية ٥٧ (لهم)
آية ٧٦ (لتنوء، له) مرتان	آية ٧٠ (له، وله) مرتان
آية ٨٠ (لمن)	آية ٧٥ (لله)
آية ٨٢ (لمن، لحسف) مرتان	آية ٧٩ (لنا، لذو) مرتان
آية ٨٤ (فله)	آية ٨١ (له)
آية ٨٦ (للكافرين)	آية ٨٣ (لللذين)
آية ٨٦ (للكافرين)	آية ٨٥ (لرادك)

- لعلي، لعلكم، غير محسوبة في العدد.
- عدد مرات ورود اللام بكل أنواعها (٥١) مرة.

- أكثر تكرار لها في آية واحدة آية ٣٨ وردت ٤ مرات. وفي آية ٧٣ ورد ٣ مرات، وأما ما ورد مرتين ففي الآيات: ٩، ١٢، ١٦، ٢٤، ٢٥، ٥٥، ٧٠، ٧٦، ٧٩، ٨٢.
- أطول انقطاع من الآية (٥٧-٦٨)، (٤٣-٥٥).
- قال الشيخ عضيمة في قوله تعالى: ﴿قَرَأْتُ عَلَيْكَ وَلَكَ﴾ (٩)، قال تحت عنوان: اللام صفة. قال: لي صفة لقرة. ونقله عن العكبري، ج ٢، ص ٤٥٤. وقد ذكر الشيخ سبعة عشر معنى للام. فراجع ج ٢، ص ٤٣٣ - ص ٤٥٥.

(ما) النافية والمصدرية والموصولة والاستفهامية والكافة

آية ٦ (موصولة)	آية ١٧ (مصدرية)
آية ١٩ (مصدرية)	آية ١٩ (نافية)
آية ٢٣ (استفهامية)	آية ٢٤ (موصولة)
آية ٢٥ (مصدرية أو موصولة)	آية ٢٧ (نافية)
آية ٣٦ (ما نافية) ٢	آية ٣٨ (نافية)
آية ٤٣ (مصدرية)	آية ٤٤ (نافية) ٢
آية ٤٥ (نافية)	آية ٤٦ (نافية) ٢
آية ٤٧ (مصدرية أو موصولة)	آية ٤٨ (موصولة) ٢
آية ٥٠ (كافة داخلية على أن)	آية ٥٤ (مصدرية أو موصولة)
آية ٥٤ (موصولة)	آية ٥٩ (نافية) ٢
آية ٦٠ (موصولة) ٢	آية ٦٣ (موصولة أو مصدرية)
آية ٦٣ (نافية)	آية ٦٨ (موصولة)
آية ٦٨ (نافية)	آية ٦٨ (موصولة أو مصدرية)
آية ٦٩ (موصولة أو مصدرية) ٢	آية ٧٥ (موصولة)
آية ٧٦ (موصولة)	آية ٧٧ (موصولة)
آية ٧٨ (كافة داخلية على إن)	آية ٧٩ (موصولة)
آية ٨١ (نافية) ٢	آية ٨٤ (موصولة)
آية ٨٦ (نافية)	

- لم نعد (أيما) آية ٢٨. ولم نعد (ماذا) آية ٦٥.
- اجتمع في السورة ٤٣ (ما) بكل أنواعها. (١٦) من بينها نافية. والكافة الداخلة على أن، إن (٢).

- أعلى تردد (لما) في آية هو في الآية (٦٨) فقد اجتمعت (٣) منها. إحداها نافية وواحدة موصولة، والأخرى موصولة أو مصدرية.
- الآيات التي اجتمع فيها أكثر من (ما) واحدة هي: ١٩ (نافية ومصدرية)، ٣٦ (نافية)، ٤٤ (نافية)، ٤٦ (نافية)، ٤٨ (موصولة)، ٦٠ (موصولة)، ٦٩ (موصولة أو مصدرية)، ٨١ (٢) نافية.
- الانقطاعات بين الآيات لورود ما: (٦-١٧)، (٢٧-٣٦)، (٣٦-٤٣).
- تكثفت (ما) ما بين الآيات (٧٥-٨٦) فقد وردت في هذه العشرية من الآيات (٩) مرات (ما).
- قال الشيخ عزيمة: السهلي ذهب إلى ما ذهب الأخفش من أن (ما) المصدرية اسم لا حرف. ج ٢، ص ٢٢.
- ونحت عنوان: وصل (ما) المصدرية بالفعل المبني للمفعول (للمجهول) ذكر الشيخ مثلاً الآية: (لولا أوتي مثل ما أوتي موسى) (٤٨)، (يا ليت لنا مثل ما أوتي قارون) ج ٢، ص ٢٦.
- وعد من المصدرية: (أجر ما سقيت لنا) (٢٥) ج ٢، ص ٣٥ وعد كذلك: (بما أنعمت علي فلن أكون...) (١٧) ج ٢، ص ٣٤. و (كما قتلت نفساً بالأمس) (١٩)، و (كما أحسن الله إليك) ج ٢ ص ٣٨.
- ثم وضع الشيخ تحت قاعدة: إذا كان في خبر كان فعل متعد لم يتصل به ضمير يعود على (ما) ولم يأخذ مفعوله كانت (ما) محتملة للمصدرية و للموصولة، وضع من أمثلة هذه القاعدة: ﴿وَضَلَّ عَنْهُمْ مَأْكَلُوا يَفْتَرُونَ﴾ [٧٥]. ﴿فَلَا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [٨٤]. راجع ج ٢، ص ٧٥.

ونحت عنوان صلة (ما) المصدرية ماضٍ مثبت، وضع مثلاً: ﴿أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾ [٢٥] ﴿مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَى﴾، ﴿قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ...﴾ [١٧]، ﴿كَأَفَلَنْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ﴾ [١٩]، ﴿أَغْوَيْنَهُمْ كَمَا غَوَيْنَا﴾ [٦٣]، ﴿وَأَحْسِنَ كَمَا أَحْسَنَ﴾ [٧٧]. راجع ج ٢، ص ٥٩. وعد من المحتمل المصدرية والموصولة آية ٨٤، ٤٧، ٦٩.

ثم ذكر أنه كثر في أسلوب القرآن وصل الأسماء الموصولة بالجملة الفعلية، وهذه ظاهرة تشيع في أسلوب القرآن.

وجاء وصل (ما) اسم الموصول بالجملة الاسمية وذكر من أمثلته: ﴿مَا إِنْ مَفَاتِحَهُ﴾، راجع ج ٢، ص ٦٨.

ثم ذكر من أنواع (ما) ما يحتمل الشرطية والموصولية، وذكر من أمثلته: ﴿وَمَا أَوْثَقُ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَّعُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ (٦٠)، ج ٢، ص ٨٨.

ومن أمثلة (ما) الاستفهامية ذكر: (ما خطبكم). وقد وقعت مبتدأ خبره معرفة. ج ٢، ص ١٠٢.

ومن أمثلة (ما) النافية ذكر: (ما هذا إلا سحر) (٣٦). وقد وقعت الجملة مفعول القول. ج ٢، ص ١٢٤.

ومن أمثلة (ما) النافية الداخلة على الأفعال: (وما كنت، ما أناهم) (٤٦)، (كما غوينا، ما كانوا) (٦٣). راجع ج ٢، ص ١٢٩. راجع في (ما) ما كتبه الشيخ عزيمة، ج ٢، ص ٣ - ص ١٤٢.

(إن) و (أن) في سورة القصص

آية ٤ (مرتان)	آية ٧٨	آية ١٥
آية ٨	آية ٨٥	آية ١٨
آية ١٦ (مرتان)	آية ١٣ (أن)	آية ٢٤
آية ٢٠	آية ٢٠	آية ٢٧
آية ٢٥	آية ٢٦	آية ٣١
آية ٢٩	آية ٣٠	آية ٣٤
آية ٣٢	آية ٣٣	آية ٣٩ (أنهم)
آية ٣٧	آية ٣٨	آية ٥٠
آية ٤٨	آية ٥٠ (أفما)	آية ٥٦
آية ٥٣ (مرتان)	آية ٧٥ (أن)	آية ٧٧
آية ٦٤ (أنهم)	آية ٧٨ (أن)	آية ٧٩
آية ٧٦ (٣مرات)	آية ٧	

وردت (إن) في ٤٥ موضعاً في سورة القصص ٦ منها أن.

أكثر تكرار لها في آية ٧٦ في قصة قارون ٣ مرات في الآية.

الآيات التي حوت أكثر من مرة آية ١٦، ٢٠، ٥٣، ٧٨.

لم نحسب ويكان و/ ويكأنه وقد وردت مرتين في آية ٨٢.

للشيخ عزيمة دراسة مفصلة عن (إن) و (أن)، وما تكلم فيه: جواز وقوع

الجملة الإنشائية خبراً لأن، وجواز وقوع اسم إن نكرة، وجواز حذف خبر إن،

وقضايا أخرى، من مثل كسر همزة إن في الابتداء كالواقعة بعد النداء.

وبعد القول ومن أمثله من آيات القصص: آية ٢٧، ٣٣، ١٦، ٢٤. وكسر همزة إن في مقام التعليل، وهو كثير: ومنه آية ٧ في القصص.

ومما عده الشيخ عضيمة مما يحتمل أن يكون خبر إن المكسورة متعدياً، ﴿إِنَّ خَيْرَ مَنْ آسْتَجَرْتَ الْقَوَى الْأَمِينُ﴾^(١).

(لا) النافية و (لا) الناهية

آية ٩ (ناهية)	آية ٧ (ناهية) ٢
آية ١١ (نافية)	آية ٩ (نافية)
آية ١٣ (نافية)	آية ١٣ (ناهية)
آية ٢٥ (ناهية)	آية ٢٣ (نافية)
آية ٣١ (نافية)	آية ٢٨ (نافية)
آية ٣٧ (نافية)	آية ٣٥ (نافية)
آية ٥٠ (نافية)	آية ٤١ (نافية)
آية ٥٦ (نافية)	آية ٥٥ (نافية)
آية ٧١ (نافية)	آية ٦٦ (نافية)
آية ٧٦ (ناهية)	آية ٧٢ (نافية)
آية ٧٧ (ناهية)	آية ٧٧ (ناهية)
آية ٨٠ (نافية)	آية ٧٨ (نافية)
آية ٨٣ (نافية)	آية ٨٢ (نافية)
آية ٨٦ (ناهية)	آية ٨٤ (نافية)
آية ٨٨ (ناهية)	آية ٨٧ (ناهية) ٢

في السورة الكريمة (٣٢) لا نافية وناهية عشر منها ناهية وبقيتها نافية.

اجتمع في الآية رقم (٧) و(٧٧) مرتان من (لا) الناهية، وكذا في الآية (٨٧).

ولسنا بحاجة لملاحظة رقم (٧) فيها جميعاً.

في الآية (٩) اجتمعت لا ناهية ولا نافية وكذا في الآية (١٣).

غابت عن آيات السورة إلا النافية من الآية (٢٥) إلى الآية (٧٦) وهو أطول انقطاع.

أما الانقطاعات لإل نافية الملفة فهى من الآية (١٣-٢٣)، (٥٦-٦٦).

قال الشىخ عضية: (كثر فى القرآن النهى عن الكون على صفة من الصفات، وهو أبلغ من النهى عن تلك الصفة. وذكر من شواهد وأمثلته: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِلْكَافِرِينَ﴾ [٨٦]. ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [٨٧] ^(١).

وبعد أن ذكر الشىخ معاني لإل نافية أحصى مواضعها فى القرآن بصيغة لإ، فلا، وإلا ومنها فى القصص: لإ: ٩، ٢٥، ٧٦. فلا: ٨٦، وإلا: ٣١، ٧٧(٢)، ٨٧، ٨٨ ^(٢).

ثم حصر الشىخ مواضع لإل نافية للجنس وذكر منها فى سورة القصص آية ٢٨، ٥٠. وقد ذكر معاني لإل نافية للجنس وشواهدا من ص ٥٣١ - ص ٥٥٢، ج ٢. وإلا النافية عموماً ^(٣).

ومما ذكره شاهداً على لإل نافية للمضارع: ﴿وَهُمْ لَا يَسْعُرُونَ﴾ [٩] ^(٤).

ومما ذكره شاهداً على لإل الزائدة المسبوقه بالنفى بلا قوله تعالى فى آية ٨٣: ﴿لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فسادًا﴾ ^(٥).

(١) ج ٢، ص ٥٢٠ - ص ٥٢١

(٢) راجع عضية، ج ٢، ص ٥١٧، ص ٥٣٠.

(٣) من ص ٥٥٤ - ص ٥٨٠، ج ٢

(٤) ج ٢، ص ٥٥٧

(٥) ج ٢، ص ٥٧٩

حروف المعاني في سورة القصص (على)

آية ١٠	آية ٧	آية ٥
آية ١٥	آية ١٢	آية ١٢
آية ١٧	آية ١٥	آية ١٥
آية ٢٥	آية ٢٥	آية ٢٣
آية ٣٨	آية ٢٨ (٢)	آية ٢٧ (٢)
آية ٥٥	آية ٥٣	آية ٤٥ (٢)
آية ٧١	آية ٦٦	آية ٦٣
آية ٧٨	آية ٧٦	آية ٧٢
	آية ٨٥	آية ٧٩

وردت 'على' ٢٩ مرة في سورة القصص.

أعلى تردد لها (٣) مرات في الآية ١٥.

أطول انقطاع بين الآيات التي ليس فيها 'على' ما بين (٤٥-٥٣)، (٥٥-٦٣).

قال الشيخ عزيمة: ﴿وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينٍ غَفْلَةٍ﴾ آية ٢٨، 'على' هنا بمعنى 'في'،

ج ٢، ص ١٩٨.

وقال في بيان أنواع 'على' أنها تأتي متعلقة بمحذوف حال، ومن الأمثلة: ﴿فَجَاءَتْهُ

إِحْدَاهُمَا تُنَبِّئُ عَلَىٰ آسَتَيْهِمَا﴾ [٢٥]، ﴿عَلَّ أَنْتَ أَجْرِي﴾ [٢٧]، ج ٢، ص ٢٠٤. راجع

معاني 'على' عند عزيمة في الجزء ٢، من ص ١٩٥ - ص ٢٠٨، وقد ذكر لـ 'على'

أكثر من عشرة معانٍ.

حروف المعاني في سورة القصص (إلى)

آية ٧ (إلى أم)	آية ١٣ (إلى أمه)
آية ٢٤ (إلى الظل)	آية ٢٤ (إلى)
آية ٣٢ (إلى فرعون)	آية ٣٥ (إليكما)
آية ٣٨ (إلى إله موسى)	آية ٣٩ (إلينا)
آية ٤١ (إلى المنار)	آية ٤٤ (إلى موسى)
آية ٤٧ (إلينا)	آية ٥٧ (إليه)
آية ٦٣ (إليك)	آية ٧١ (إلى يوم)
آية ٧٢ (إلى يوم..)	آية ٧٧ (إليك)
آية ٨٥ (إلى معاد)	آية ٨٦ (إليك)
آية ٨٧ (إليك)	آية ٨٧ (إلى ربك)
آية ٨٨ (وإليه)	

- عدد مرات ورود "إلى" في سورة القصص (٢١) مرة.
- عدد الآيات التي تكرر فيها ورود "إلى" ثنتان (٢٤)، (٨٧).
- "إليك" أكثر مرات ورود "إلى" في سورة القصص. وقد وردت (٤) مرات. إلى يوم القيامة وردت مرتين، وإليه وردت مرتين، وإلينا مرتين.
- أطول انقطاع في ورود هذه الكلمة من (١٣-٢٤)، (٢٤-٣٢)، (٤٧-٥٧)، (٦٣-٧١)، (٧٧-٨٥).

قال الشيخ عزيمة في معانيها واستخداماتها:

"إلى" تفيد انتهاء الغاية زمانياً أو مكاناً. (هذا هو معناها). بل إن سيويوه والمبرد لم يذكر غير هذا المعنى. وذكر ابن مالك أنها تأتي بمعنى "في". وذكر ابن هشام مثلاً

له: ﴿لِيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ﴾ [النساء: ٨٧]، وتأتي إلى مرادفة اللام. مثل: ﴿وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ﴾ [النمل: ٣٣]، ﴿وَأَخْبَتُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ [هود: ٢٣]. وذكر الشيخ لها معاني واستخدامات أخر. راجع دراسات، ج ١ ص ٢٨٨ - ص ٢٩٥.

حروف المعاني في سورة القصص

حرف (أ) المصدرية

آية ٥	آية ٧	آية ٩
آية ١٠	آية ١٩	آية ١٩
آية ١٩	آية ١٩ (٥) مرات تكررت	آية ٢٢
	أن	
آية ٢٧	آية ٢٧	آية ٢٧
آية ٣٠	آية ٣١	آية ٣٣
آية ٣٤	آية ٤٧	آية ٦٧
آية ٨٢	آية ٨٦	

- تكررت "أن" (٢١) إحدى وعشرين مرة في سورة القصص.
- اجتمع في الآية رقم (١٩) خمس منها، ولعله من أعلى الأرقام في آية في القرآن الكريم.
- في الآية (٢٧) اجتمعت ثلاث من "أن".
- لم ترد "أن" بعد هذا في سورة القصص إلا منفردة في باقي آيات السورة.
- أعلى انقطاع لـ "أن" في آيات السورة ما بين (٤٧ - ٦٧) يليه ما بين الآية (٦٧ - ٨٢) ويليه ما بين الآية (٨٢ - ٤٧) ويليه ما بين الآية (٤٧ - ٣٤) ويليه ما بين الآية (٣٤ - ١٩).

وقد تكلم الشيخ عزيمة على "أن" في كتابه: دراسات....، ج ١، ص ٣٤٣ - ص

حروف المعاني في سورة القصص

حرف (في)

آية ٤ (في الأرض)	آية ٥ (في الأرض)	آية ٦ (في الأرض)
آية ٧ (في اليم)	آية ١٨ (في المدينة)	آية ١٩ (في الأرض)
آية ٣٠ (في البقعة)	آية ٣٢ (في جيبك)	آية ٣٦ (في آبائنا)
آية ٣٩ (في الأرض)	آية ٤٠ (في اليم)	آية ٤٢ (في هذه الدنيا)
آية ٤٥ (في أهل مدين)	آية ٥٩ (في أمها)	آية ٧٢ (فيه)
آية ٧٣ (فيه)	آية ٧٧ (في الأرض)	آية ٧٩ (في زنته)
آية ٨٣ (في الأرض)	آية ٨٥ (في ضلال)	

- وردت في سورة القصص في (٢٥) موضعاً. لم تجتمع ثنتان منها في آية.
- وردت في قبل الأرض في (٧) مرات، أي ثلث مرات الورد و في اليم مرتين، وفيه وردت مرتين.
- ثم وردت مرة واحدة في كل من (البقعة، المدينة، في هذه الدنيا، في أهل مدين، في أمها أي أم القرى، وهذه كلها في الأرض).
- وردت في جيبك، في زنته، في ضلال، في آبائنا، وهذه كلها من أشياء الأرض وعلائقها واعتباراتهما.

قال الشيخ عزيمة:

بعد أن ذكر الشيخ من معاني في: الظرفية، من، على، مع، أي المصاحبة. ذكر على هذا المعنى مثلاً: فخرج على قومه في زنته (٧٩)، ج ٢، ص ٢٩٠. وذكر من معانيها: إلى، عند، للسبب، للتبيين، للمقايسة، حال. وذكر مثلاً عليه الآية السابقة نفسها، وذكر كذلك: ﴿مَآسِقَنَا يَهْدَا فِي مَآبِئِنَا الْأُولَى﴾ [٢٤]. راجع عزيمة ج ٢، ص ٢٨٣ - ص ٣٠٢.

حروف المعاني في سورة القصص

حرف (إن)

آية ١٠ (إن كادت)	آية ١٩ (إن تريد)	آية ٢٧ (فإن أتممت)
آية ٢٧ (إن شاء الله)	آية ٤٩ (إن كنتم)	آية ٥٥ (إن لم يستجيبوا)
آية ٥٧ (إن نتبع)	آية ٧١ (إن جعل)	آية ٧٢ (إن جعل)

- وردت إن ٩ مرات في سورة القصص.
- اجتمعت ثنتان منها في الآية رقم ٢٧.
- أعلى انقطاع ما بين الآيتين (٢٧-٤٩). وغابت كذلك من الآية (٧٢) إلى آخر السورة. ثم من (٥٧-٧١).
- وقد تكلم الشيخ عزيمة عن إن في كتابه دراسات...، ج ١، ص ٥٤٦ - ص ٥٦٦.

حروف المعاني في سورة القصص

(لم)، (لن)، (كي)

آية ١٣ (كي تقر) آية ١٧ (فلن أكون)

آية ٣١ (ولم يعقب) آية ٥٧ (أولم نمكن)

آية ٥٨ (لم تسكن) آية ٦٤ (فلم يستجيبوا)

آية ٧٨ (أولم يعلم)

مجموع هذه الحروف الثلاثة (٧) مرات. مرة واحدة كي ومرة لن وخمس منها

لم، مرتان منهما مسبوقتان بالاستفهام: أولم...

وقد درس الشيخ عضيمة في كتابه دراسات...، ج ٢، ص ٦٣٢ - ص ٦٣٩.

ودرس لم في ج ٢، ص ٦٠٣ - ص ٦١٩.

حروف المعاني في سورة القصص

حرف النداء (يا)

آية ٢٠ (يا موسى)	آية ٢٦ (يا أبت)
آية ٣٠ (يا موسى)	آية ٣٨ (يا أيها الملائ)
آية ٣٨ (يا هامان)	آية ٧٩ (يا ليت)

- وردت "يا النداء" في سورة القصص في (٦) مواضع. اثنتان منها في آية (٣٨) على لسان فرعون ينادي الملائ، ثم يخص هامان بنداء بعد نداء الملائ.
- وورد نداء "يا موسى" في موضعين (٢٥)، (٣٥).

قال الشيخ عزيمة:

جاءت "يا" للتنبيه قبل "ليت" عند الجمهور في (١٣) موضعاً. ولم يقع نداء في القرآن بغير يا، ووقع المنادي بالياء في أثناء الجملة وفي ختامها. وقد وقع نداء فرعون في موضعين من موسى عليه السلام. ونداء هامان في موضعين من فرعون عزيمة، ج ٢، ص ٦٢٤ - ص ٦٢٧.

أعاد الشيخ التنبيه إلى أن "يا" قد تأتي للتنبيه ولا تكون للنداء، إن وليها ليت وجعلها للنداء الانباري. وإذا دخلت ألا على يا خلصت ألا افتتاحاً وخص التنبيه بيا، كقول نصيب:

ألا يا صَبَاً نَجِدَ متى هَجَّتْ من نَجْدٍ فقد زَادَنِي مَسْرَاكُ وَجَدَاً على وَجْدٍ

وتحت عنوان: ما الذي ولي المنادي، قال الشيخ: وليه فعل الأمر، وذكر من

أمثلته: ﴿يَتَابَتِ اسْتَفْجِرُهُ﴾ [٢٦]. ووليه استفهام مرة. ومن أمثلته: ﴿أَتَرِيدُ أَنْ

تَقْتُلَنِي ﴿ [١٩]. وولي النداء الجملة الاسمية المؤكدة بأن، ومن أمثلته: ﴿يَمْوِسَّىٰ
إِبْنُ الْمَلَأَ...﴾ [٢٠]، ﴿يَمْوِسَّىٰ إِفْت...﴾ [٣٥].

ووقع المنادى في أثناء الجملة: ﴿فَأَوْقَدَ لِي يَهْمَنُّ عَلَى﴾ [٣٨]. راجع في النداء:
عضيمة، ج ٣، ص ٦٢٦ - ص ٦٤٢.

حروف المعاني في سورة القصص (عن)

آية ٥٥	آية ١١
آية ٧٨	آية ٦٨
	آية ٨٧

- وردت "عن" (٥) مرات فقط في سورة القصص.
- وأطول انقطاع لها ما بين الآية (١١ - ٥٥).

قال الشيخ عزيمة:

﴿فَبَصَّرْتَهُ بِهٖ عَنْ جُنْبٍ﴾ [١١]. تحت عنوان: عن حال، قال: عن جنب: حال من الضمير في به، أو من الفاعل في بَصَّرْتُ، أي مستخفية، وقد نقل ذلك عن العكبري وعن الجمل.

وقد ذكر الشيخ عزيمة عشرة معاني ل(عن).

راجع: دراسات لأسلوب القرآن الكريم، القسم الأول: الحروف والأدوات، ج ٢، ص ٢٠٩ - ص ٢١٠.

همزة الاستفهام في سورة القصص

آية ٢٠ (أتريد)	آية ٤٨ (أولم يكفروا)
آية ٥٧ (أولم نمكن)	آية ٦١ (أفمن وعدناه)
آية ٧١ (أرأيتم)	آية ٧١ (أفلا تسمعون)
آية ٧٢ (أرأيتم)	آية ٧٢ (أفلا تبصرون)
آية ٧٨ (أولم يعلم)	

▪ ورد الاستفهام بالهمزة في سورة القصص (٩) مرات.

الاستفهام عامة

ما خطبكما (آية ٢٣)	ومن أضل (آية ٥٠)
وكم أهلكنا (آية ٥٨)	أين شركائي (آية ٦٢)
ماذا أجبتهم (آية ٦٥)	من إله (آية ٧١)
من إله (آية ٧٢)	أين شركائي (آية ٧٤)

▪ ورد الاستفهام بغير الهمزة ثمانين مرات. فيكون مجموع مرات الاستفهام في السورة (١٧) مرة.

ملاحظات حول ورود الاستفهام في سورة القصص

معلوم أن الاستفهام من أساليب لفت الانتباه، وإثارة العقول والأفهام، لما يساق من خطاب وكلام. وفي الاستفهام تشويق، وتنشيط وتحريك لطاقات العقل والمدارك. وليس الآن مجال الكلام على دور الاستفهام في بلاغة الكلام، وإنما المجال لتسجيل بعض الملاحظات حول ما ورد في خير الكلام في القرآن الكريم، وتحديدًا في السورة محل الدراسة سورة القصص.

الملاحظة الأولى:

وردت واو العطف بعد همزة الاستفهام في (٣) مرات، ووردت الفاء بعد همزة الاستفهام في (٣) آيات كذلك. ورد في (٣) مرات كذلك دون حروف عطف بعد همزة الاستفهام.

الملاحظة الثانية:

ورد الاستفهام بمن في (٣) آيات.

الملاحظة الثالثة:

في الآية (٧١) ٣ مرات استفهام.

الملاحظة الرابعة:

في الآية (٧٢) ٣ مرات استفهام.

الملاحظة الخامسة:

الآيات الـ (١٩) الأولى ليس فيها استفهام، والآيات التي فيها الاستفهام بغير الهمزة محصورة ما بين (٢٣ - ٧٤).

حرف (قد) في سورة القصص

آية [٤٣]: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا نُوحَىٰ الْكِتَابَ﴾، آية [٥١]: ﴿وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ﴾
 آية [٧٨]: ﴿قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ...﴾.

وردت قد في ثلاثة مواضع فقط في السورة (كما أحصيت). واثنان منهما: ولقد، وواحدة قد.

قال في معناها الشيخ عزيمة، وفي استعمالاتها:

(لا يفصل بين قد والفعل إلا بالقسم. وليس لقد صدر الكلام. لا تدخل قد على الماضي الجامد. جاء المضارع بعد قد في ثماني آيات ست منها يعلم تجاوزت قد في القرآن أربعمئة موضع. وقد أكثر مواقعها في صدر الجملة الحالية).

جعل أبو حيان اللام في لقد محتملة أن تكون جواب القسم، ولام التوكيد. وقال: وقعت قد في صدر جملة خبر أن المفتوحة المشددة في قوله تعالى:

﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً﴾ [٧٨].

راجع ما كتب الشيخ عزيمة عن قد في كتابه: دراسات لأسلوب القرآن، ج ٢،

ص ٣٠٣ - ٣٢٠.

القراءات في سورة القصص

القرئات في سورة القصص

(طسم)

قال مكّي: (كل القراء أدغم النون من طس في الميم التي بعدها إلا حمزة وأبو جعفر لأنه يسكت بين حروف الفواتح فإنه أظهر، (ومثله في أول القصص).

وحجة من أدغم أن هذه الحروف لما كانت متصلة بعضها ببعض، لا يوقف على شيء منها دون شيء، ولا يفصل في الخط شيء عن شيء، أدغم لاشتراك النون مع الميم في الغنة، ولأنه يدغم في غير هذا، فأجرى هذا على كل ما تلقى في النون الساكنة الميم.

وحجة من أظهر أن هذه الحروف المقطعة مبنية على الانفصال والوقف عليها ولذلك لم تعرب، فجرت في الإظهار على حكم الوقع عليها، وانفصلها مما بعدها. ثم فرق مكّي بين الإدغام في طسم والإخفاء في عسق. ثم تكلم عن إمالة الطاء^(١)

﴿وَرَىٰ فِرْعَوْنُ وَهَنَكُمْ وَخُودَهُمَا﴾

قراءة حمزة والكسائي: "ورى" بالياء المفتوحة، وفتح الراء مالة، ورفع الأسماء الثلاثة، أضافا الفعل إلى فرعون ومن بعده، فارتفعوا به، لأنهم هم الراءون وأضرابهم. وقرأ الباقر بنون مضمومة، وكسر الراء، على الإخبار عن الله جل ذكره، ونصب الأسماء الثلاثة بعده بالفعل، لأنه يصير رباعياً، يتعدى إلى مفعولين، وهما فرعون ومن عطف عليه، والفاعل هو المخبر عن نفسه بالفعل، وهو الله جل ذكره. وحسنت القراءة بالنون على الإخبار عن الله تعالى ذكره عن نفسه، لأن قبله أخباراً عن الله جل ذكره وعز، في قوله: ﴿نَتْلُو عَلَيْكَ﴾، فهم أروه، وإذا أروه راوه، فالقراءتان ترجعان إلى معنى.

(١) مكّي بن أبي طالب: الكشف عن وجوه القراءات السبع وحججها وعللها، ج ٢، ص ١٥٠ تحقيق عبي الدين رمضان، ط، دمشق: مجمع اللغة العربية، ١٣٩٤ / ١٩٧٤.

قوله: ﴿وَحَزَنًا﴾ قراءة حمزة والكسائي بضم الحاء، وإسكان الزاي، وقرأ الباقون بفتحهما، وهما لغتان كالعرب والعرب.

وقوله: ﴿يُصَدِّرُ الرِّعَاءَ﴾ قرأه أبو عمرو وابن عامر بفتح الياء وضم الدال. وقرأ الباقون بضم الياء، وكسر الدال. وحجة من فتح الياء أنه جعله ثلاثياً غير متعد، من صدرت الرعاء تصدر، إذا رجعت من سقيها، دليله قوله: ﴿يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا﴾. وحجة من ضم الياء أنه جعله رباعياً متعدياً إلى مفعول محذوف فهو من أصدرت الإبل إذا رددتها من السقي، وتقديره: حتى يصدر الرعاء مواشيهم من الشقي، فهو الاختيار لأن الأكثر عليه. ^(١)

قوله: ﴿حَذَوْفٍ﴾ قرأ حمزة بضم الجيم، وقرأ عاصم بالفتح. وقرأ الباقون بالكسر، وهي لغات كلها في الجذوة من النار، وهي للقطعة الغليظة من الحطب، فيها نار ليس فيها هب.

قوله: ﴿مِنَ الرَّهْبِ﴾ قرأ الحرميان وأبو عمرو بفتح الراء والهاء، وقرأ حفص بفتح الراء وإسكان الهاء. وقرأ الباقون بضم الراء، وإسكان الهاء، وهي لغات بمعنى واحد. والرهب والرهبة والخوف، وجناحا الرجل يده، وقيل عضداه.

قوله: ﴿رَدًّا يُصَدِّقُنِي﴾، قرأه عاصم وحمزة بالرفع (يعني القاف). وقرأ الباقون بالجزم. وحجة من رفعه أنه جعله صفة لـ 'رَد' فهو صفة لنكرة وكذلك الأفعال لا يكون إلا صفة لنكرة، وتكون حالاً من المعرفة، كذلك الجمل، تكون صفة للنكرة وحالاً من المعرفة والتقدير: رداً مصداقاً لي، والردء المعين، سأل موسى ربه أن يرسل معه معيناً مصداقاً له.

وحجة من جزم أنه جعله جواباً للطلب وهو فأرسله كأنه قال: أن ترسله معي يصدقني وهو الاختيار، يقول مكي رحمه الله، لأن الأكثر عليه. ^(١)

وقوله: ﴿لَا يُرْجَعُونَ﴾، قرأه نافع وحزمة والكسائي، بفتح الباء، وكسر الجيم، وقرأ الباقون بضم الباء، وفتح الجيم.

قوله: ﴿قَالُوا سِحْرَانِ﴾ قرأه الكوفيون بغير ألف بعد السين، وتشنية سحر جعلوه إشارة إلى الكتابين، ودل ذلك قوله تعالى: ﴿قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِّنْ عِندِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا﴾ أي أهدى من هذين الكتابين، وإنما جاز أن تنسب المظاهرة للكتابين، لأنه على معنى يقوي أحدهما الآخر بالتصديق، فهو على الاتساع. وقرأ الباقون بألف بعد السين، تشنية سحر، يريدون به أن موسى وهارون تعاونوا، وقيل لموسى ومحمد عليهما السلام. ويقوي ذلك أن بعده تظاهرا بمعنى تعاوننا، ولا تأتي المعاونة على الحقيقة من السحرين، إنما تأتي من الساحرين، وهو الاختيار، لأن الأكثر عليه. ^(٢)

قوله: ﴿يُجِىءُ إِلَيْهِ﴾ قرأه نافع بالتاء لتأنيث الثمرات. وقرأ الباقون بالياء، لأنه قد فرق بين المؤنث وفعله بـإليه، لأنه تأنيث غير حقيقي، ولأن معنى الثمرات الرزق فحمل على المعنى فذكر، وقد مضى له نظائر، والياء الاختيار لأن الجماعة على ذلك. ^(٣)

قوله: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [٦٠]، قرأه أبو عمرو بالياء على لفظ الغائب، رده على ما قبله من لفظ الغيبة في قوله: ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [٥٧]، وقوله:

(١) الكشف، ج ٢، ص ١٧٣ - ص ١٧٤. وورث في قراءته ردهً ألقى الحركة على الدال، ولم يفعل ذلك في غير هذا الحرف موافقةً قالون فيه كما قال مكي.

(٢) الكشف، ج ٢، ص ١٧٤ - ص ١٧٥، وراجع: الحجة في القراءات السبع، ص ٢٥٣، وزاد المسير ٦/٢٢٧ وتفسير ابن كثير ٣/٣٩٢. والنسفي ٢٣٩.

(٣) الكشف، ج ٢، ص ١٧٥.

﴿فَإِنَّكَ مَسْكُونُهُمْ﴾ وقوله: ﴿مَنْ يَعْزِرْهُ﴾ وقوله: ﴿عَلَيْهِمْ﴾ وقوله: ﴿وَأَهْلُهَا ظَلُمُونَ﴾. وقرأ الباقون بالتاء، وهو الاختيار، ردوه على ما هو أقرب إليه من الخطاب، في قوله: ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ﴾. وروي عن أبي عمرو أنه خير فيه، والمشهور عنه الباء.

قوله: ﴿لَخَسَفَ يَنَّا﴾، قرأه حفص بفتح الخاء والسين، بناء للفاعل، لتقدم ذكره في قوله: ﴿لَوْلَا أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ يَنَّا﴾، وقرأ الباقون بضم الفاء وكسر السين، على ما لم يسم فاعله، وهو الاختيار، لأن الجماعة عليه.

والاختيار في الوقف على ﴿وَيَكُنَّ﴾ بالوصل غير مقطوعة اتباعاً للمصحف، وقد روي عن أبي عمرو أنه يقف (ويك) على معنى أعلمك، فتعمل أعلمك في أنه، وتبتدى أنه، وروي عن الكسائي أنه يقف على (وي) على معنى التنبيه، على التعجب مما عاينوا من خسف الله لقارون ويبتدى (كأنه) والمشهور عنهما مثل الجماعة، ومعنى (ويكان): أما ترى، ألم تعلم. وقيل معناها ويلك. قال الفراء: هي كلمة استعملت للتقرير غير مفصلة، بمعنى أما ترى. وقال أبو عمرو: معناها: أعلمك، وقال الأخفش معناها: ألا ترى، ألم تر. وأوصلها عند الخليل منفصلة من كان، كأنهم كانوا في غفلة فانتبهوا. فقالوا: ويك أن الله، قال قطرب: العرب تقول: وي ما أعقله، والصواب فيها اتباع الخط، وأن لا يفصل بعضها من بعض.^(١)

قال مكِّي: في السورة اثنتا عشرة ياء إضافية، قوله: ﴿عَسَىٰ رَبِّي﴾، ﴿إِنِّي﴾، ﴿مَا أَتَتْ نَارًا﴾، ﴿إِنِّي أَخَافُ﴾، ﴿رَبِّي أَعْلَمُ﴾، ﴿عِنْدِي أَوْلَمُ﴾. قرأ الحرميان وأبو عمرو بالفتح (أي في الباء) في السبع. (أي السبعة مواضع). قرأ حفص: ﴿رَدَّأُ﴾ بالفتح.

قرأ نافع: ﴿سَجِدْتَ إِنَّ﴾، ﴿إِنِّي أُرِيدُ﴾ بالفتح.

قرأ الكوفيون: ﴿لَمْ يَأْتِ﴾، ﴿لَمْ يَأْتِ﴾، بالإسكان فيهما.

في السورة ياء زائدة واحدة قوله: (أن يكذبوني) قرأها ورش بياء في الوصل خاصة.^(١)

(أئمة):

قرأ نافع، وابن كثير، وأبو عمرو، بتسهيل الهمزة الثانية إبدال ياء خالصة مع عدم الإدخال، وهشام بالتحقيق مع الإدخال وعدمه، والباقون بالتحقيق مع عدم الإدخال، ووقف عليها حمزة بالتسهيل بين بين.

(امراة)، (قرة)، وقف عليهما ابن كثير وأبو عمرو والكسائي بالهاء والباقون بالتاء. وأماها الكسائي وفقاً بالخلاف.^(٢)

(١) الكشف، ج ٢، ص ١٧٦.

(٢) محمد محمد سالم عيسن: الإرشادات الجلية في القراءات السبع من طريق الشاطبية، ص ٣٥٣، ص ٣٥٤، القاهرة، الكليات الأزهرية، ١٣٨٩هـ / ١٩٦٩م.

من مباحث سورة القصص

الخوف كما ورد في سورة القصص

ورد الخوف في سورة القصص ضمن مادة (خوف) ومشتقاتها في الصيغ التالية في الآيات التالية:

١- في خطاب أم موسى

أ- ﴿فَإِذَا خِفتَ عَلَيْهِ فَالْقِيَةِ فِي الْيَمِّ﴾ [القصص: ٧].

ب- ﴿وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي﴾ [القصص: ٧].

٢- في خطاب موسى من قبل العبد الصالح ومن الله تعالى بصيغة: لا تخف

أ- ﴿فَلَمَّا جَاءَهُ، وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ﴾ [القصص: ٢٥].

ب- ﴿يَمْسُخِ أَقْبَلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْأَمِينِ﴾ [القصص: ٣١].

٣- وجاء في وصف موسى بعد قتل القبطي:

أ- ﴿فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفاً يَتَرَقَّبُ﴾ [القصص: ١٨].

ب- ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفاً يَتَرَقَّبُ﴾ [القصص: ٢١].

٤- وجاء في تحسبات موسى عندما حل أمانة الدعوة وتبليغها إلى فرعون:

أ- ﴿رَبِّ إِنِّي فَنَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ﴾ [القصص: ٣٣].

ب- ﴿فَأَرْسَلَهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ﴾ [القصص: ٣٤].

فهذه أربعة مواطن، ورد في كل منها الخوف مرتين فتلك ثمانية.

وورد الخوف تحت مادة (رَهَب) وذلك في قوله تعالى: ﴿وَأَضْمَمَ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ

مِنَ الرَّهَبِ﴾ [القصص: ٣٢].

وهذه الصيغة لم ترد إلا في هذا الموطن.

قال الزمخشري في معنى هذه المادة: (رهبته، وفي قلبي منه رهبة ورهب ورهبت. وهو رجل مرهوب، عدوه منه مرعوب).

قالت ليلي:

وقد كان مرهوب السنان وبيّن اللسان ومجذام السرى غير

ويقال: الرهباء من الله والرغباء إلى الله والنعماء بيد الله.

وأرهبته ورهبته واسترهته: أزعجت نفسه بالإخافة.

وتقول: يقشعر الإهاب، إذا وقع منه الإرهاب.

ومن الجاز: أرهب الإبل عن الحوض: ذاها. وأرهب عنه الناس بأسه

ونجذته.^(١)

وورد الخوف بصيغة مختلفة، قد لا تتبادر، وذلك في تحفظات أهل مكة على

دعوتهم إلى الإيمان في قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا إِن نَّبِيعَ أَهْدَىٰ مَعَكَ نُنْخِطِفُ مِنْ أََرْضِنَا﴾

[القصص: ٥٧]، وورد في الرد عليهم وإبطال منطقهم، وجاء في الرد لفظ (الأمن)

الذي يجزم بأن اعتراضهم كان ضمن التحفظات الأمنية، قال تعالى في رده عليهم

وتفنيدهم: ﴿أَوَلَمْ تُمْكِنُوا لَهُمْ حَرَءَاءَ إِنَّمَا يَخْشَىٰ إِلَهُهُم مَّا كَانَتْ كُلُّ شَيْءٍ﴾ [القصص: ٥٧].

فيكون مجموع مرات ورود الخوف بصيغ مختلفة عشر مرات، وورد مرة في

صورة مضادة لمادة الخوف وهي الأمن فهذه إحدى عشرة مرة.

وهو تكثيف ربما لم يتكرر في سورة أخرى في القرآن، وذلك ليصور من خلال

التكرار، ما ملأ القلوب من رعب ورهب وخوف وفزع من فرد طغى وبغى وتجبر

وتأله.

والخوف نفسياً غريزة إنسانية أودعها الله في الإنسان، ولكنه لم يردّها عقدة تسكنه فتذله وتستعبده لغير الله - من هنا فإن من مفارق الإيمان ودلائله أن توحّد جهة الخوف فلا تخاف إلا من الله: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُوا إِن كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٧٥]، والخوف قد يصبح لدى الأفراد أو الشعوب والأمم حالة مرضية، وهاجساً قاتلاً، وعامل إخضاع للقوى التي تمارس هذا التخويف، والحل يكمن في التحرر من الخوف ومقاومته، وليس أبداً في الاستسلام له. وكم هي عظيمة الآية الكريمة في توجيه أم موسى: والتي مفادها: واجهي الخوف بعدم الخوف. والتي نصّها: ﴿فَإِذَا خِفتَ عَلَيْهِ فَاتَّقِيهِ فِ الْيَسْرِ وَلَا تَخَافِ فِي﴾ [القصص: ٧].

مادة (خوف) في القرآن:

- ١- البقرة: ١٢ مرة.
- ٢- القصص: ٨ مرات.
- ٣- النساء: ٨ مرات.
- ٤- المائدة: ٦ مرات.
- ٥- الأنعام: ٦ مرات.
- ٦- طه: ٦ مرات.
- ٧- آل عمران: ٤ مرات.
- ٨- الأعراف: ٤ مرات.
- ٩- الشعراء: ٤ مرات.
- ١٠- الأنفال: ٣ مرات.
- ١١- النمل: ٢ مرتان.

سورة القصص هي أكثر سور القرآن التي تتردد فيها هذه الكلمة نسبياً إذ إن سورة البقرة التي عدد آياتها يفوق عدد آيات سورة القصص بحوالي مئتي آية جاء فيه هذه المادة ١٢ مرة أي بنسبة ٤٪ إلى عدد الآيات وأما القصص فنسبتها ٩٪ إلى عدد الآيات، ولكننا إذا استثنينا سورة البقرة فهي أكثر السور بلا منازع.

خلق الحياء في هذا الدين أخذاً من الآية:

﴿فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى أَسْتَحْيَاءٍ﴾ [٢٥]

اهتمت الآية بالحديث عن خلق عظيم وصفة مهمة هي مجيء هذه البنت الصالحة على كيفية معينة هي: ﴿تَمْشِي عَلَى أَسْتَحْيَاءٍ﴾، ولعل هذا المعنى من المعاني المهمة، والمباحث المحورية التي ينبغي التوقف عندها قليلاً لتتكلم عن خلق هذا الدين العظيم: الحياء.

وقد وردت هذه المادة في القرآن الكريم في (٤) مواضع في (٣) آيات من (٣) سور أولها: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا﴾ سورة (٢) [البقرة: ٢٦]. وثانيها: ﴿فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى أَسْتَحْيَاءٍ﴾ سورة (٢٨) [القصص: ٢٥]. وثالثها ورابعها: ﴿وَلَا تُسْتَفْسِنِينَ لِلْحَدِيثِ إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذَى النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِيهِ مِنْكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِيهِ مِنَ الْحَقِّ﴾ سورة (٣٢) [الأحزاب: ٥٣]^(١).

قال الأستاذ الدكتور فضل عباس - رحمه الله - في معنى الآية في كتابه قصص القرآن الكريم: (إن الحياء زينة المرأة. وللقراء طريقتان في الوقف على الكلمة. فبعضهم يقف على كلمة تمشي، ثم يكون بدء: (على استحياء قالت...) فيكون الاستحياء من القول. وبعضهم يقف على كلمة أستحياء فيكون المعنى جاءت تمشي مستحية).

(١) والملاحظ أن الحديث عن الحياء في القرآن ابتدأ بالحديث عن الله عز وجل، واختتم بالحديث عن الله تبارك ولو جمعنا رقم السورة ورقم الآية من سورة البقرة لكان المجموع (٢٨) وهو رقم السورة التالية سورة القصص فرقمها (٢٨). ولو جمعنا رقم الآية في القصص (٢٥) ورقم السور (٢٨) لكان مجموعهما مساوياً رقم الآية في سورة الأحزاب (٥٣). هذه لطيف خفيفة... فلا تتعامل معها بالتدقيق والتحقيق والمحاكاة.

وأقول: إن وضع كلمة على استحياء بين الجملتين، بين جملة المشي، وجملة القول، تلمح إلى أن الاستحياء ينبغي أن يكون طبيعة في المرأة الخيرة قولاً وعملاً.^(١)

الحياء خلق الإسلام

هذا الدين العظيم، والمنهج القويم، والصراط المستقيم، المتمثل في القرآن والإسلام وهو منهج لصياغة الحياة الفضلى والمجتمع الأمثل، والأخلاق الإنسانية وتزكيتها والارتقاء بها في كل ميدان من ميادين النفس والأخلاق.

وفي الأخلاق أمهات وركائز، والحياء واحد من أمهات الأخلاق وأعمدها الرئيسة. وإذا كان كل دين يتميز بخلق معين، فإن الخلق الذي يميز إسلامنا العظيم هو خلق الحياء. (وخلق الإسلام الحياء).

ولئن كان خلق الحياء قاسماً مشتركاً بين الرجال والنساء، فإن نصيب النساء منه أوفر وحظهن فيه أعظم، والله عز وجل في ذلك حكمة بالغة، فلئن لم يمنع المرأة حياؤها لتردن موارد الهلكة، ولتقعن فريسة الإغواء والإغراء، وهي التي تحمل وزر الجريمة إن وقعت، أقصد أنها هي التي تتضرر بحمل ثمرة وهي التي تحمل وزر الجريمة إن وقعت، أقصد أنها هي التي تتضرر بحمل ثمرة الخطيئة من الناحية المادية، أما الرجل فليس كذلك بل هو يحمل الخطيئة الإثمية لا الجسمية، وهي تحملهما معاً، فكان حفظها من الحياء أوفر ليكون الرادع أقوى والمانع أزجر. مثل ذلك السيارات، فكلما كبرت الحمولة احتجنا إلى كابح أشد.

الحياء خلق فطري

إن الحياء خلق فطري وليس المجتمع أو التنشئة والتعهد هو الذي أوجد هذا الخلق في النفس. بدلالة أن الطفل الصغير ابن الستين مثلاً يستحي أن تبدل أمه ملابسه أمام الأغيار فمن الذي علم الطفل هذا الحياء؟ إنها الفطرة.

(١) د. فضل عباس: قصص القرآن الكريم، ص ٤٨٨، ط ١، ١٤٢٠هـ / ٢٠٠٠م، دار الفرقان.

ولقد حاولت المناهج المادية الماركسية وغيرها أن توهم الناس أن الأخلاق كلها مما تواضع عليه المجتمع. وما أشبه مثل هذه الأخلاق بفطرة الإيمان. فالصدق والكذب مركز في الفطرة حب الأول منهما والنفرة من الثاني، بدلالة أن الطفل عندما يكذب يتغير لونه، وليس كذلك إذا روى الصدق. ولئن كان الحياء فطرة في الخلق جميعاً، فهو في النساء خلق أكثر تركيزاً. تماماً كالحنان، فالحنان صفة مشتركة، ولكن النساء فيه أضعاف الرجال وهو في الرجال أضعف.

أما كيف استطاعت الحضارة الغربية أن تجرد أفرادها رجالاً ونساء من خلق الحياء، وتجعله منقصة، ومذمة، وقيمة اجتماعية سلبية، فهذا ثمره جهد موصول، وعمل مبذول، وتخطيط مهول، وصل بالناس إلى هذه الحافة وإلى المصير المجهول. إن فساد الفطرة هدف استراتيجي للصهيونية المعادية للإنسان والدين، والله رب العالمين. فقد أفسدوا المجتمع وقيمه والجبل ونظمه، إلى أن وصلوا إلى نشر مدمر نتيجة التنشئة المدمرة والمدمرة. وهذه رسالتهم كما وصمهم بها القرآن: ﴿لَقَدْ فسدَ فِي الْأَرْضِ﴾ [الإسراء: ٤]، ﴿وَلَا تَعْتَوْنَ فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ [هود: ٨٥].

جاء في كتاب: الفكر العقدي والأخلاقي في الإسلام:

(الضمير هو بريد الشرع، وهذا الضمير حاسة فطرية عن كل الناس حتى قال الرسول ﷺ: «البر ما اطمأنت إليه النفس، واطمأن إليه القلب. والإثم ما حاك في النفس وتردد في الصدر، وإن أفتاك الناس وأفتوك».)^(١)

قلت: والحديث في مسلم بالنص التالي: «البر حسن الخلق، والإثم ما حاك في صدرك وكرهت أن يطلع عليه الناس».

(١) دراسات في الفكر العقدي والأخلاقي في الإسلام، ص ٢٤٣، ط ١، ١٣٩٦هـ / ١٩٧٦م. تأليف لجنة من قسم العقيدة والفلسفة بكلية أصول الدين بالأزهر بالقاهرة.

ويشير إلى هذا ضمناً كاتب غربي كبير ينقل عن كاتب غربي كبير، فقد قال وليم مكدوجل ينل عن وليام لكي: (إن هدف الحياة الإنشائية هو العمل على ترقية ما عسى أن يكون لدينا من قوى، ترقية كاملة، واستخدامه استخداماً مثمراً) (١). وتحت عنوان «طبيعتنا الفطرية» قال مكدوجل موضحاً هذه الطبيعة أنك لو سرت من الصين إلى بيرو ومن القطب إلى القطب فإنك ستجد الحقيقة المعترف بها عامة بأن الكثير مما نسميه بالطبيعة البشرية، أو طبيعتنا البشرية العامة، شائع في جميع الناس، فيسهل أن تشارك الناس بعواطفك، مع عدم وجود لغة واحدة للتخاطب، وحتى الأطفال وهم في سن لا تمكنهم من استعمال كثير من الألفاظ يدركون مدلول هذه الإشارات (الابتسام، الألم، الحزن، تعابير الوجه...) وسرعان ما يستجيبون لها بطريقة ملائمة... (٢).

تعريف الحياء في اللغة والاصطلاح

قال الراغب الأصفهاني:

(الحياء: انقباض النفس عن القبائح وتركه لذلك، يقال حيي فهو حي، واستحيا فهو مستحي، وقيل استحي فهو مستح، وقال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا﴾ [البقرة: ٢٦]، ﴿وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ﴾ [الأحزاب: ٥٣]، وروي: «إن الله يستحي من ذي الشبهة المسلم أن يعذبه»، فليس يراد به انقباض النفس، إذ هو تعالى منزّه عن الوصف بذلك، وإنما المراد به ترك تعذيبه، وعلى هذا روي: «إن الله حيي». أي تارك للقبائح فاعل للمحاسن. (٣).

(١) مكدوجل: الأخلاق والسلوك في الحياة، ص ٧، ترجمة جبران سليم، مكتبة مصر ١٩٦١. والإنشائية تصح لو كانت الإنسانية وما أثبتته الأصل والنص.

(٢) السابق، ص ١٩ - ٢٠، وفي الصفحات التالية تكلم مكدوجل عن النزعات الفطرية الرئيسية في الإنسان وأنه يصعب حصرها. ثم أشار إلى إمكانية تعديل الميول الأصلية، ص ٣٧.

(٣) الراغب الأصفهاني: المفردات في غريب القرآن، ص ١٤٠.

وقال في مختار الصحاح: (واستحياء، واستحيا منه بمعنى الحياء. ويقال: استحييت بياء واحدة، وأصله: استحييت، فأعَلَّوا الياء الأولى، وأَلَقُوا حركتها على الحاء فقالوا: استحييت لما كثر في كلامهم. وقال الأخفش: استحي بياء واحدة لغة تميم، وبياءين لغة أهل الحجاز، وهو الأصل. وإنما حذفوا الياء لكثرة استعمالهم لهذه الكلمة..)^(١)

قال صاحب المنار: قال صاحب الكشف: والاستحياء من الحياء وهو انكسار وتغير في النفس يلم بها إذا نسب إليها أو عرض لها فعل تعتقد قبحه، وفي الحالة الثانية يكون مانعاً من الفعل الذي يعرض، يقال: فلان يستحي أن يفعل كذا، أي أن نفسه تنكسر فتقبض عن فعله، وقال إنه استحيا من عمل كذا، أي أن نفسه انفعلت وتألّت عندما عرض عليه عمله فرآه شيئاً أو نقصاً..)^(٢)

ثم قال صاحب المنار: (والتحقيق أن الحياء انفعال النفس وتألمها من النقص والقيح بالغريزة الفضلى غريزة حب الكمال، فهو كمال لها خلافاً لأولي الوقاحة الذين يعدونه ضعفاً ونقصاً، وإنما النقص الإفراط في هذه الصفة بحيث تضعف عن الإقدام على الشيء الحسن النافع اتقاء الدم من قبل ما لا يعرف حسنه أولاً يعترف به). ثم أشار صاحب المنار إلى وصفه تعالى بالحياء وأنه مروى عن يعلى ابن أمية وسلمان الفارسي، أخرجهما أحمد وأبو داود، والأول النسائي والثاني الترمذي وابن ماجة والحاكم وحسنوهما.

قال في اللسان: (والحياء التوبة والخشمة، وقد حيي منه حياء، واستحيى واستحي حذفوا الياء الأخيرة كراهية التقاء الياءين، والأخيرتان تعديان بحرف وبغير حرف، يقولون: استحيا منك واستحياك، واستحي منك واستحاك، قال ابن ابري: شاهد الحياء بمعنى الاستحياء قول جرير:

لولا الحياء لهاجني استعبار ولزرت قبرك والحيب يزار

(١) محمد بن أبي بكر الرازي: مختار الصحاح، ص ١٦٦.

(٢) المنار، ج ١، ص ٢٣٥.

وروي عن النبي ﷺ أنه قال: (والحياء شعبة من الإيمان).

قال بعضهم: كيف جعل الحياء وهو غريزة شعبة من الإيمان وهو اكتساب؟ والجواب في ذلك: أن المستحي ينقطع عن المعاصي بالحياء.

قال ابن الأثير: وإنما جعل الحياء بعض الإيمان لأن الإيمان ينقسم إلى ائتمار بما أمر الله، وانتهاء عما نهى الله عنه، فإذا حصل الانتهاء بالحياء كان بعض الإيمان، ومنه الحديث: «إذا لم تستح فاصنع ما شئت». لأنه لا يكون له حياء يحجزه عن المعاصي والفواحش.

يقال: استحيا الرجل واستحييت المرأة.

وإنسي لأستحي أخى أن أرى له علي من الحق، الذي لا يرى ليا

ويقال: فلان أحى من الهدى، وأحى من كعاب، وأحى من مخدرة، ومن مخبأة، وهذا كله من الحياء، ممدود. وأما قولهم: أحى من ضب، فمن الحياة.^(١)

قال الزمخشري في أساس البلاغة بعد أن ذكر مادة حيي وما يتصل بالحياء والتحية: (وحييت منه أحيا حياء، واستحييته، واستحييت منه، واستحييت وأنا أستحي منه، وهو رجل حيي، وهو أحى من مخدرة، قالت ليلي:

أحى حياء من فتاة حياء وأشجع من ليث بخفان خادر)^(٢)

وقال في المصباح المنير:

(وحيي منه حياء بالفتح والمد فهو حيي على وزن فعيل، واستحيا منه وهو الانقباض والانزواء، قال الأخفش: يتعدى بنفسه وبالحر، فيقال: استحييت منه

(١) لسان العرب المحيط، ج ١، ص ٧٧٥-٧٧٦ باختصار. وفي مجمع الأمثال للعسكري: أحيا من بكر، أحيا من فتاة، أحيا من كعاب، أحيا من مخدرة، أحيا من مخبأة، أحيا من هدى، ج ١، ص ٤٠٠.

(٢) أساس البلاغة، ص ٢١١

واستحييته، وفيه لغتان إحداهما لغة الحجاز وبها جاء القرآن بياين والثانية لتميم بياء واحدة..^(١)

وقال العفيفي:

(الحياء بالمد: خلق يبعث على ترك القبيح، وفعل الملبح، ينشأ من علم القلب بأن الله رقيب عليه، فيحفظ ظاهره وباطنه من مخالفة الأحكام، ويستقيح ما صدر من الهفوات التي تباعد عن دار السلام).^(٢)

وفي رياض الصالحين: (قال العلماء: حقيقة الحياء خلق يبعث على ترك القبيح ومنع التقصير في حق ذي الحق).^(٣)

وقال ابن القيم في مدارج السالكين، ونأخذه عن التهذيب (اعني تهذيب المدارج):

(ومن منازل إياك نعبد وإياك نستعين) منزلة الحياء. قال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ

بَرُّهُ﴾ ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾.

وفي الصحيح من حديث ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ: «مرّ برجل يعظ أخاه في الحياء، فقال: دعه، فإن الحياء من الإيمان». وفيهما (أي الصحيحين) عن عمران ابن حصين رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «الحياء لا يأتي إلا بخير». وفيهما عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «الإيمان بضع وسبعون شعبة أو بضع وستون شعبة، فأفضلها قول لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان».

(١) أحمد محمد الفيومي، المصباح المنير في غريب الشرح الكبير للرافعي، ج ١، ص ٢٢٠، ط ١، القاهرة، المطبعة الأميرية، ١٩٢٦ .

(٢) طه العفيفي : حق الطريق، ص ٨٤.

(٣) رياض الصالحين، ص ٢٧٩ - ٢٨٠ ..

وفيهما عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أنه قال: (كان رسول الله ﷺ أشد حياء من العذراء في خدرها. فإذا رأى شيئاً يكرهه عرفناه في وجهه). وفي الصحيح عنه ﷺ: «إن مما أدرك الناس من كلام النبوة الأولى: إذا لم تستح فاصنع ما شئت».

وفي هذا قولان: أحدهما: أنه أمر تهديد. ومعناه الخبر، أي من لم يستح صنع ما شاء. والثاني: أنه أمر إباحة. أي انظر إلى الفعل الذي تريد أن تفعله، فإن كان مما لا يستحي منه فافعله. والأول أصح. وهو قول الأكثرين.

وفي الترمذي مرفوعاً: «استحيوا من الله حق الحياء، قالوا: إنا نستحي يا رسول الله. قال: ليس ذلكم. ولكن من استحيى من الله حق الحياء فليحفظ الرأس وما وعى، وليحفظ البطن وما حوى، وليذكر الموت والبلى ومن أراد الآخرة ترك زينة الدنيا فمن فعل ذلك فقد استحيى من الله حق الحياء»^(١).

قال عفيفي تعليقاً على حديث: والحياء شعبة من الإيمان:

(فالحياء كما هو واضح في هذا الحديث الصحيح: أهم شعبة من شعب الإيمان، ولهذا كان هو الخير كله، أو هو كل الخير، كما ورد في الحديث الذي رواه مسلم، والذي يقول فيه صلوات الله وسلامه عليه: «الحياء خير كله»^(٢).

وحسبك أن تعلم أن الحياء هو خلق الإسلام، ففي الحديث الشريف^(٣) يقول صلوات الله وسلامه عليه: «إن لكل دين خلقاً، وخلق الإسلام الحياء».

وحتى تعرف أهمية الحياء، وتذكر كذلك ضرورته، إليك هذه الأحاديث الشريفة:

(١) تهذيب مدارج السالكين، ص ٣٨٩، والمدارج، ج ٢، بتحقيق الفقي ١٣٧٥/١٩٥٥ مطبعة السنة.

(٢) قلت: الحياء شعبة مهمة من شعب الإيمان وليس أهم شعبة، فأعلى شعب الإيمان كما في الحديث: لا إله إلا الله.

(٣) رواه مالك..

عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما كان الفحش في شيء إلا شانه، وما كان الحياء في شيء إلا زانه».^(١)

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «الحياء والإيمان قرناء جميعاً، فإذا رفع أحدهما رفع الآخر».^(٢)

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «الحياء من الإيمان، والإيمان في الجنة، والبذاء ألفتش من الجفاء، والجفاء في النار».^(٣)

وعن أبي قتادة رضي الله عنه قال: كنا عند عمران بن حصين في رهط، وفينا بشير بن كعب، فحدثنا عمران يومئذ قال: قال رسول الله ﷺ: «الحياء خير كله، أو قال: الحياء كله خير». فقال بشير بن كعب: إنا لنجد في بعض الكتب أو الحكمة أن منه سكينه ووقاراً لله تعالى، ومنه ضعف، فغضب عمران حتى احمرت عيناه، وقال: ألا أراني أحدثك عن رسول الله ﷺ وتعارض فيه، قال: فأعاد عمران الحديث، قال: فأعاد بشير، فغضب عمران، فما زلنا نقول: إنه منا أبا نجيد، إنه لا بأس به».^(٤)

وبعد الآيات والأحاديث التي قيلت في الحياء، نذكر من أقوال العلماء في هذا الخلق، ومنزلته، وفضله، وكيفية تربيته: جاء في أدب الدنيا والدين.

(قال بعض الحكماء: من كساه الحياء ثوبه، لم ير الناس عيبه). وقال بعض البلغاء: حياة الوجه بجيائه، كما أن حياة الغرس بمائه).

(١) رواه ابن ماجه والترمذي، وقال: حسن غريب..

(٢) رواه الحاكم وقال صحيح على شرط الشيخين، ورواه الطبراني في الأوسط.

(٣) رواه أحمد وأحمد ورجاله رجال الصحيح والترمذي وابن حبان، وقال الترمذي حسن صحيح، طه العفيفي: حق الطريق في الإسلام، ص ٧٧-٧٨.

(٤) مختصر صحيح مسلم للحافظ المنذري، ص ١٥، تحقيق الألباني، الكويت، وزارة الأوقاف، ط ١، سنة ١٣٨٨هـ / ١٩٦٦م.

وقال صالح بن عبد القدوس:

إذا قل ماء الوجه قل حياؤه ولا خير في وجه قد قل ماؤه
حياؤه فاحفظه عليك وإغما يدل على فعل الكريم حياؤه
وقال الرياشي: يقال: إن أبا بكر الصديق رضي الله عنه كان يتمثل بهذا
الشعر:

وحاجة دون أخرى قد سنحت لها جعلتها للتي أخفيت عنواناً
وإنني لأرى من لا حياء له ولا أمانة وسط القوم عرياناً

وقال حكيم آخر:

ورب قبيحة ما حال بيني وبين ركوبها إلا الحياء
إذا رزق الفتى وجهاً وقاحاً تقلب في الأمور كما يشاء
وقال بعض الشعراء:

وإنني ليشنني عن الجهل والخنأ وعن شتم ذي القربى خلائق أربع
حياء وإسلام وتقوى وأنني كريم ومثلي من يضر وينفع
ومن أجل ذلك كان الأساس في كف الأذى هو الحياء.^(١)

حياة القلب في الحياء:

قال ابن القيم في المدارج:

(وألحياء من الحياة - ومنه ألحياناً للمطر، لكن هو مقصور. وعلى حسب حياة القلب يكون فيه قوة خلق الحياء. وقلة الحياء من موت القلب والروح. فكلما كان القلب أحيى كان الحياء أتم.

(١) أدب الدنيا والدين، وطه العفيفي: حق الطريق، ص ٧٩ - ٨٠ .

قال الجنيد رحمه الله: الحياء رؤية الآلاء، ورؤية التقصير، فيتولد بينهما حالة تسمى الحياء. وحقيقته خلق يبعث على ترك القبائح، ويمنع من التفريط في حق صاحب الحق.

وقال السري: إن الحياء والأنس يطرقان القلب. فإن وجدوا فيه الزهد والورع وإلا رحلا. وقال الفضيل بن عياض: خمس من علامات الشقوة: القسوة في القلب، وجود العين، وقلة الحياء، والرغبة في الدنيا، وطول الأمل.

وقال يحيى بن معاذ: من استحيى من الله مطيعاً، استحيى الله منه وهو مذب. ومعناه: أن من غلب عليه خلق الحياء من الله حتى في حالة طاعته. فقلبه مطرق بين يديه إطراق مستح خجل، فإنه إذا واقع ذنباً استحيى الله عز وجل من نظره إليه في تلك الحال لكرامته عليه، فيستحي أن يرى من وليه ومن يكرم عليه: ما يشينه عنده.

كما أنه حياء كرم وبر وجود وجلال. فإنه تبارك وتعالى حيي كريم يستحي من عبده إذا رفع إليه يديه أن يردهما صفراً. ويستحي أن يعذب ذا شبهة شابت في الإسلام.^{(٢)(١)}

أنواع الحياء

قال ابن القيم: (وقد قسم الحياء على عشرة أوجه: حياء جنائية، وحياء تقصير، وحياء إجلال، وحياء كرم، وحياء حشمة، وحياء استصغار للنفس واحتقار لها، وحياء محبة، وحياء عبودية، وحياء شرف وعزة، وحياء المستحي من نفسه.

فأما حياء الجنائية: فمنه حياء آدم^(٣). وحياء التقصير كحياء الملائكة يسبحون لا يفترون ويوم القيامة يقولون: ما عبدناك حق عبادتك، وحياء الإجلال: حياء

(١) تهذيب مدارج السالكين، ص ٣٩٠.

(٢) قال العجلوني في كشف الخفاء في ترجيح الحديث: (إن الله يستحي أن يعذب.. إلخ). رواه الغزالي في الدرة الفاخرة، والسيوطي في الجامع الكبير بسند ضعيف. ص ٢٤٤ من كشف الخفاء ومزيل الإلباس.

(٣) بنى ابن القيم والمروزي قبله هذا على الرواية الإسرائيلية أن آدم فرّ هارباً في الجنة، فسأله الله: أفرأيتني؟ قال لا يا رب، بل حياء منك. وهذا لا أصل له عندنا فيما أعلم.

المعرفة، وحياء الكرم: كحياء النبي في وليمة زينب، وحياء الحشمة: كحياء علي أن يسأل رسول الله لكان ابنته، وحياء استصغار النفس: كحياء العبد من ربه أن يسأله حوائجه استصغاراً لشأن نفسه، وحياء المحبة: وهو حياء المحب من محبوبه، حتى إنه إذا خطر على قلبه هاج الحياء. وإذا لاقاه فاجأه منه روعة.

وحياء العبودية حياء ممتزج بخوف، وحياء الشرف والعزة: حياء النفس العظيمة إذا صدر منها ما هو دون قدرها من بذل. وحياء المرء من نفسه: حياء النفوس الشريفة العزيزة، حتى كأن له نفسين يستحيي بإحدهما من الأخرى وهذا أكمل ما يكون من الحياء. فإن العبد إذا استحيى من نفسه فهو بأن يستحيى من غيره أجدر.^(١)

قال أبو بكر الرازي: (واعلم أن الحياء في الإنسان قد يكون من ثلاثة أوجه: أحدها: حياؤه من الله تعالى، والثاني: حياؤه من الناس، والثالث: حياؤه من نفسه)^(٢).

حديث: (إذا لم تستح فاصنع ما شئت)

روي عن أبي مسعود بن عقبة بن عمرو الأنصاري البري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن مما أدرك الناس من كلام النبوة الأولى، إذا لم تستح فاصنع ما شئت». (رواه البخاري) في هذا الحديث إعلام بأن الحياء من قضايا النبوة المجمع عليها. وقد قال أحد العلماء الأعلام في شرحه: معناه: (إذا أردت فعل شيء فإن كان مما لا يستحيى من الله في فعله فافعله وإلا فلا).

فصيغة الأمر للإباحة، ويحتمل أنها للتهديد، على حد قول بعضهم: إذا لم تصن عرضاً ولم تحش خالقاً وتستح مخلوقاً فما شئت فاصنع

(١) تهذيب مدارج السالكين، ص ٣٩٠ - ٣٩١ بتصرف واختصار.

(٢) طه العفيفي: حق الطريق، ص ٨٢.

وفي كتاب أدب الدنيا والدين يقول بعد ذكر هذا الحديث:

وليس هذا القول إغراء بفعل المعاصي عند قلة الحياء كما توهمه بعض من جهل معاني الكلام، ومواضع الخطاب. وفي مثل هذا الخبر قول الشاعر:

إذا لم تخش عاقبة الليالي ولم تستح فاصنع ما تشاء
فلا والله ما في العيش خير ولا الدنيا إذا ذهب الحياء
يعيش المرء ما استحيى بخير ويبقى العود ما بقي اللحاء

قال أبو بكر بن محمد في أصول الفقه في معنى هذا الحديث: إن من لم يستحي دعاه ترك الحياء إلى أن يعمل ما يشاء لا يردعه عنه رادع، فليستحي المرء فإن الحياء يردعه. ويقول: وسمعت من يحكي عن أبي بكر الرازي من أصحاب أبي حنيفة أن المعنى فيه: إذا عرضت عليك أفعالك التي هممت بفعلها فلم تستح منها لحسنها فافعل أو فاصنع ما شئت منها فجعل الحياء حكماً على أفعاله. وكلا القولين حسن، والأول أشبه، لأن الكلام خرج من النبي ﷺ مخرج الذم لا مخرج الأمر، لكن قد جاء الحديث بما يضاهي القول الثاني.^(١)

ويجوز أن يحملها الحديث على المعنى الصريح فيه، ويكون التأويل الأول في الحديث المتقدم أصح. ثم ذكر أنواع الحياء الثلاثة، وقال عن الحياء من النفس: ويكون بالعفة وصيانة الخلوات. قال بعض الحكماء: ليكن استحيائك من نفسك أكثر من استحيائك من غيرك. وقال بعض الأدباء: من عمل في السر عملاً يستحي منه في العلانية فليس لنفسه عنده قدر.

ودعا قوم رجلاً كان يآلف عشرتهم فلم يجيبهم وقال: إني دخلت البارحة في الأربعين وأنا أستحي من سني.

(١) قال العفيفي: جاء في الحديث: (ما أحببت أن تسمعه أذنك فاته، وما كرهت أن تسمعه أذنك فاجتنبه). وهو كما ترى!

وقال بعض الشعراء:

فسري كإعلاني وتلك خليقتي
وظلمة ليلي مثل ضوء نهاريا
وقال بشار:

ولقد أصرف الفؤاد
أمسك النفس بالعفاف وأمسي
عن الشيء وحبه في السواد
ذاكراً في غد حديث الأعادي^(١)

وفي البيان والتبيين للجاحظ، ذكر من شعر حاتم الطائي في الحياء:

وإنني لأستحي حياء يسرني
إذا كان أصحاب الإناء ثلاثة
فإنني لأستحي أكيلي أن يرى
أكف يدي من أن تمس أكفهم
وإنك مهما تعط بطنك سؤله
إذا اللؤم من بعض الرجال تطلعا
حياءاً ومستحيّاً وكتباً مجشعاً
مكان يدي من جانب الزاد أقرعا
إذا نحن أهوينا وحاجاتنا معا
وفرجك، نالا منتهى الذم أجمعاً^(٢)

وزاد في الديوان:

أبيت خميص البطن، مضطمر الحشا
وفيه:

أقصر كفي أن تنال أكفهم
إذا نحن أهوينا، وحاجاتنا معاً

(١) طه العفيفي: حق الطريق، ص ٨٠-٨٣ بتصرف.

(٢) أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ: البيان والتبيين، ص ٥٣١، الشركة اللبنانية للكتاب، وراجع ديوان حاتم الطائي، ١٠٠.

ظاهرة التفرعن

كَلَمْتَنَا سورة القصص عن قصة موسى، وأبرزت من مشاهد قصته: قصته مع فرعون، وقد ذكر فرعون في القرآن الكريم (٧٤) مرة. وفي سورة القصص وحدها (٨) مرات، ولم يتفوق عليها في هذا العدد إلا الأعراف وغافر جاء (٩) مرات في كل. وما كرر القرآن هذه الشخصية هذا التكرار إلا لأنها خطيرة جداً على الإنسانية وعلى الرسالة والدين.

فأحببت أن أقف قليلاً لا مكثياً عند هذه الظاهرة التاريخية الإنسانية أو اللإنسانية.

وقد ابتدأت هذا الحديث بمقدمة في اللغة أوجزت فيها بعض ما ورد في بعض القواميس.

(تفرعن) في اللغة:

قال الزمخشري في أساس البلاغة تحت مادة: (فرعن): (فيه فرعنة). قال: وقد يكون مرة ذا فرعنة.

وقد تفرعن علينا فلان، وما هو إلا فرعو من الفراعنة.

وتقول: (أعوذ بالله من تيه الفراعنة، ومن سفه الفراعنة).

ومن المجاز: تفرعن النبات إذا طال وقوي.^(١)

وقال في اللسان: (الفرعنة: الكبر والتجبر. وفرعونُ كلُّ نبي: ملك دهره.

قال القطامي:

وشق البحر عن أصحاب موسى وغرقت الفراعنة الكفار

(١) أساس البلاغة، ص ٧١١ وقال في المصباح المنير: فرعون فعلون أعجمي، والجمع فراعنة. قال ابن الجوزي وهم ثلاثة فرعون الخليل واسمه سنان، وفرعون يوسف واسمه الريان بن الوليد، وفرعون موسى واسمه الوليد بن مصعب أ. هـ. ص ٦٤٣.

وكل عاتٍ فرعون، والعناة الفراعة، وقد تفرعن وهو ذو فرعة، ذو تكبر.^(١)
وبعد فالحياة صراع، وصور هذا الصراع ومنطلقاته متعددة مختلفة، فأحياناً
يتمثل الصراع جلياً بين الإيمان والكفر، والهدى والضلال، والخير والشر، وعبادة
الرحمن وعبادة الشيطان.

وأحياناً يحدث الصراع في داخل معسكر الكفر نفسه، فيكون تدافع الباطل،
فيدفع باطل باطلاً.

وأحياناً يكون الصراع في المجتمع الواحد، بين من يملك ومن لا يملك بين
المترفين والمحرومين المستغلين والمستغلين (بالفتح والكسر) على أن من أجلى صور
الصراع، في الدوائر المتعددة المختلفة، ما يمكن أن نطلق عليه (ظاهرة التفرعن).

وتبتدئ الظاهرة بأن يجد شخص نفسه في موقع التحكم وصنع القرار، ثم يبدأ
بالاستئثار بكل مصادر القوة، فيجمع في يده السلطات كلها، ومصادر القوة كلها:
السياسية والاقتصادية والعسكرية والإدارية، والقضائية والإعلامية والمعلوماتية..
إلخ. ويتنزع كل هذه الأشياء من يد الشعب.^(٢)

وأدهى من هذا أن يكون هذا الفرد ملتاثاً بجنون العظمة أو (السادية) أو
مختلف العقد.. فيبدأ يتعامل مع الناس من منطلق عقده، وبمنطلق أمراضه، وأدهى
من كل ذلك أن تنضم حاشية تزين لها المصاب (بالبارانويا) تبدأ تزين له ما يفعل،
وهؤلاء مستفيدون.. فالمراكز والدعم المالي (من الفتات)، ثم ينضم هؤلاء ما
أسماء القرآن الملائكة.. ثم يستسلم الشعب لإرادة هذه الطغمة، ويصبح القهر سيد
الموقف، والعنف والبطش هو القانون السائد، والتخويف والإرهاب هما السياسة
المتبعة.

(١) لسان العرب المحيط، ج٢، ص ١٠٨٣ - ١٠٨٤

(٢) هذا هو الذي يسمى اليوم بمصطلحات العصر: الأنظمة الشمولية: التوتاليتارية.

فإذا ترسخت هذه الظاهرة عدة أجيال كانت الطامة، لأنها تطيع نفوس الشعب على هذا الخنوع، ويصبح الأمر واقعاً مألوفاً منكراً مستنكر مستهجن. فإذا انتقلنا إلى قصة موسى في سورة القصص، وفي غيرها، كطه والشعراء و.. إلخ.

فإننا نلاحظ أن القرآن كان يتدعى عدداً من السور بهذه القصة وما ذاك - فيما أتصور - إلا لخطورة هذه الظاهرة، ولك أن تقيس على هذا الأمر أن القرآن ابتداءً الوحي بالإشارة إلى هذه الظاهرة، وذلك قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ إِنَّا الْإِنْسَانَ لَطَفْنَا ۖ أَن رَّاهُ ۖ ائْتَنَّى﴾ [العلق: ٦ - ٧]، ولعل استغنى تشير إلى تملك أسباب وعناصر القو في مقابل حرمان الآخرين منها.

نعود إلى قصة موسى، ففي سورة طه، وفي الآيات الأولى منها يشير إلى أن الله تعالى أرسل موسى إنقاذاً للبشر الواقعين تحت قبضة الطغيان: ﴿أَذْهَبَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ﴾ [طه: ٢٤]، وكذا في فاتحة الشعراء، ولكنه وسع الدائرة لتشمل القوم، فهم بتواطؤهم أو سكوتهم ظالمون مثل ظلمتهم فالساكت عن الظالم ظالم وشريك في الظلم:

﴿وَلَا تَدْعُ رِبِّيَ أَنَّكَ مُوسَىٰ ۚ إِنَّكَ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ۝ قَوْمٌ فِرْعَوْنَ لَا يَسْقُونَ﴾ [الشعراء: ١٠ - ١١].

وإن رد الفعل الطبيعي من المكلف بهذه الأمانة الثقيلة أن يستشعر وطأة الحمل وثقله المسؤولية، ومن هنا يتردد مرات على سمعنا قول موسى عليه السلام: ﴿إِنِّي أَخَافُ﴾ ففي الشعراء: ﴿إِنِّي أَخَافُ﴾ [١٢] ﴿فَأَخَافُ﴾ [١٤]، وفي طه: ﴿فَالَا رَبَّنَا إِنَّا نَخَافُ﴾ [٤٥] ﴿فَالَا نَخَافُ﴾ [٤٦].

وفي القصص: ﴿فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِي﴾ [٣٣] ﴿إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِي﴾ [٣٤] إلخ، إن مهمة موسى عليه السلام صعبة وشاقة تحتاج إلى شرح صدر وتيسير أمر، وحل عقدة لسان، وتأيد بوزير من الأهل، وآيات معجزات تكون ظهيراً ومؤيداً شاهداً

بالصدق.. وتحتاج إلى نفوس كبيرة تتحمل وتصبر، ويقين كبير بأن النصر في نهاية المطاف للحق، وأن العاقبة - في خاتمة الأمر - للمتقين، ﴿وَاللَّهُ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ﴾ [الروم: ٤]، ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ﴾ [يوسف: ٢١]، إن مهمة موسى هي أن يبذر في القلوب اليقين والبشرى بالعاقبة، وأن الفرج من بعد الحرج، من هنا جاء في قصة موسى: ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿فَفِي يُونُسَ﴾ ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [٨٧]، وفي الأعراف: ﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اسْعَوْا بِأَرْصَادِكُمْ وَأَصْبِرُوا ۚ إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنَ عِبَادِهِ ۚ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [١٢٨].

إن من أول مهمات موسى عليه السلام هي أن يطرد الخوف من قلبه أولاً ثم من قلوب المؤمنين ثانياً، ومن هنا كان التوجيه لأمه من قبله من قبل الله تعالى ألا تخاف إذا واجهت المخاوف: ﴿فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَالْقِيَةُ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي﴾ [القصص: ٧]. إن ظاهرة التفرعن تقوم على القوة، وعلى زرع الخوف من هذه القوة في نفوس المستضعفين، فالعلاج يبدأ من حيث تخلقت المشكلة.

فالمشكلة في تجليها الأوضح والأشد هي الخوف، إذاً، فليكن العلاج السيطرة على الخوف والتحكم في الخوف وطرد هذا الخوف، ولكن كيف؟ يكون ذلك بتوجيه الخوف كله ليكون خوفاً من الله تعالى. فإذا توحد مصدر الخوف لم يعد العبد يخاف إلا ممن يستحق أن يخاف منه سبحانه: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُوا مِنِّي ۚ إِن كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٧٥]، فكم هم مجرمون أولئك الذين يصورون الإيمان وكأنه دعوة للخنوع أو للرضوخ، وهو في حقيقة الأمر دعوة لرفض الخنوع والخضوع والانعقاد من ربة الذل والاستضعاف.

إن الله لا يقبل للمؤمن، أو من المؤمن، أن يقبل لنفسه الاستضعاف مهما تعلل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّيْنَاهُم مِّنَ النَّاسِ كَانُوا بِآفَاتِهِمْ لَخَالِينَ أَنفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضَ اللَّهِ وَسِعَةً فَهَاجِرُوا فِيهَا قَالُوا لَئِكَ مَا نُنَاجِيهِمْ جَهَنَّمَ سَاءَتْ مَصِيرًا﴾ [النساء: ٩٧].

قال الكواكبي مبيناً فضل الإيمان، وفضل منهج الإسلام في الارتقاء بالإنسان والأمة من حضيض التخلف والذل، والرضوخ للاستبداد قال:

(وكفى بالإسلامية رقياً في التشريع، رقيها بالبشر إلى منزلة حصرها عبودية الإنسان في جهة شريفة واحدة وهي الله، وعتقها عقل البشر عن توهم وجود قوة ما في غير الله، من شأنها أن تأتي للإنسان بخير ما، أو تدفع عنه شرأ ما، فالإسلامية تجعل الإنسان لا يرجو ولا يهاب من رسول أو نبي، أو ملك أو فلك، أو ولي أو جني، أو ساحر أو كاهن، أو شيطان أو سلطان).

وأعظم بهذا التعليم الذي يرمي الإنسان (به ومن خلاله) عن عاتقه جبلاً من الخوف والأوهام والخيالات، أو ليس العتيق من الأوهام يصبح صحيح العقل، قوي الإرادة ثابت العزيمة، قائده الحكمة، سائقه الوجدان، فيعيش فرحاً صبوراً فخوراً، لا يبالي حتى بالموت لعلمه بالسعادة التي يستقبلها..).

ثم نعى الكواكبي على الذين ينكرون فائدة الدين، وأنهم ما قالوا ما قالوا إلا لعدم اطلاعه على الدين الحق.

ثم خاطب الأمة محرضاً إياها على اليقظة بكلمة تهز الجوامد، وتوقظ الراقدين حتى قال مخاطب المسلمين: إني أرى أشباح أناس يشبهون ذوي الحياة..

وقال: إن الغباوة تملأ القلوب رعباً من لاشيء، وخوفاً من كل شيء..^(١).

هذه الظاهرة لها أبعاد نفسية (سيكولوجية) واجتماعية (سوسيولوجية) ودينية وثقافية.

أما نفسياً، فإن النفس تعتل وتختل، وتعتورها الأمراض كما قال تعالى: ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا﴾ [البقرة: ١٠]، وقال عن النفس: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا﴾ ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾ ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا﴾ ﴿وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا﴾ [الشمس: ٧-١٠] ومن أخطر أمراض النفس: الظلم والجهل، كما قال المولى سبحانه في ختام سورة الأحزاب في التعنيف على من قصر في حل الأمانة معاً هذا التفسير: ﴿وَحَمَلَهَا آلِ انْسَانٍ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب: ٧٢].

ولعل أخطر الأمراض على الإطلاق: الكبر، فهو علة العلل وأسّ البلاء، وهو أول المعاصي المرتكبة حين استكبر إبليس وأبى السجود فقرر الله تعالى أنه استكبر، بعد أن سألوه وهو أعلم به، ﴿أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ﴾ [ص: ٧٥]، وقال عنه: ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٣٤] ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ [ص: ٧٤] وأهبطه الله جزاء كبره فقال: ﴿فَأَهْطِ يَمْنَاهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا﴾ [الأعراف: ١٣].

وهكذا كان الكبر قاسماً مشتركاً في نفوس الأقوام الكافرين أجمعين، ولذا كررتها أي هذه اللفظة: ﴿اسْتَكْبَرُوا﴾ سورة الأعراف مع كل قوم تقريباً..^(١) ولكن الذي يعيننا الآن هو الحديث عن فرعون، والاستكبار الذي هو علة نفسية دفعته إلى التآله، وأنشأ بالتالي ما أسميناه: ظاهرة التفرعن.

(١) وردت هذه المادة في سورة الأعراف وحدها: ١٠ مرات بل ختمت السورة بذكر هذه المادة..

وهذه بعض المواطن المتصلة بفرعون من مرات الاستكبار التي ذكرها القرآن الكريم: ﴿وَأَسْتَكْبَرُوا وَخَنَوْنَهُ فِي الْأَرْضِ يُعْذِرُ الْحَقُّ﴾ [القصص: ٣٩]، ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ يَتَابِعُنَا فَأَسْتَكْبَرُوا﴾ [يونس: ٧٥].

﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَأَسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ﴾ [المؤمنون: ٤٦].

﴿وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مُّوسَىٰ بِآيَاتِنَا فَأَسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ [العنكبوت: ٣٩].

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ﴾ [غافر: ٢٧].

وهذا من التعريض اللطيف.. ثم قال في السورة ذاتها بعد قليل مبيناً لإصرار فرعون وحاشيته على كبرهم وكفرهم: ﴿كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبٍ مُّتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾ [غافر: ٣٥]، ثم قررت السورة ذاتها سنة نفسية في تفسير كفر من كفر: ﴿إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُمْ بِيَلْفِيهِ﴾ [غافر: ٥٦].

وقد جاء الكبر في قصة فرعون ممارسة وسلوكاً وإن لم يشر إليه السياق بلفظة (الكبر)، فمثلاً في قوله تعالى: ﴿أَلَيْسَ لِي مُلْكٌ مِصْرَ وَهَٰذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الزخرف: ٥١] ويقارن نفسه بموسى ويفضل نفسه عليه، ويعرض بموسى إذ يقول: ﴿أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هَٰذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَاذِبُ يُونُسَ﴾ ﴿٥٢﴾ ﴿فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ﴾ [الزخرف: ٥٢-٥٣].

ويقول عنه القرآن وعن اعتزازه واعتزازه بجنده: ﴿وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ﴾ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ ﴿١١﴾ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفُسَادَ﴾ [الفجر: ١٠-١٢].

ولفظه (تولى) وهي مفيدة الكبر، تكررت في حق فرعون مرات: يقول له موسى وهارون معترضين به: ﴿إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَىٰ مَنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى﴾ [طه: ٤٨]، وفي السورة ذاتها بعد قليل: ﴿فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَى﴾ [طه: ٦٠]، وفي السورة الكريمة: الذاريات جاء قوله تعالى: ﴿فَتَوَلَّىٰ رِجْهٍ وَقَالَ سَجَرٌ أَوْ تَحْنُوتٌ﴾ [الذاريات: ٣٩].

هذا جزء من البعد النفسي: الكبر والتولي والظلم، وليس هذا البعد ساكناً أو سكونياً ولكنه بعد حركي اجتماعي يترجم علائق وممارسات وينفذ قوانين وسلوكات، ويعيشه الناس ظلماً صارخاً وتجاوزات. لقد ترجم هذا الكبر ظلماً لكل من الشعب المصري والإسرائيلي، لكن حصة هؤلاء من هذا الظلم كانت أكبر لأنهم كانوا في المجتمع هم الحلقة الأضعف، ومن عادة البطاشين هؤلاء أن ييطشوا بالحلقة الأضعف ليخيفوا حلقات المجتمع كلها والأقوى من بينها.

لقد كانت الدماء عنده هينة والأرواح سهل إزهاقها، وهدم بنيان الحياة ميسوراً لديه وفي نظره، من هنا فإنه ولغ في الدماء وبالغ في الولوغ. فصار يقتل، ثم صار كشارب الخمر، لا يعود يكفيه الكمية الأولى التي تعاطاها فصار يزيد ويبالغ، وهكذا فإنه كان كما وصفه القرآن مرات في علاقته ببني إسرائيل: ﴿سَنَقِيلُ آتَاءَهُمْ﴾ [الأعراف: ١٢٧]، ﴿يَذِيحُ آتَاءَهُمْ﴾ [القصص: ٤]، بل إن مادة (يذبح ويذبحون) لم ترد إلا في حقه مع بني إسرائيل.

هذه الشخصيات المريضة على درجة من التعقيد والتناقض يصعب تصورهما، فهو في جانب (سادي) يتلذذ بعذاب البشر، ويفعله ببساطة كأنه يتناول شرابه أو يأكل طعامه.. وهو جبار بطاش، لكنه قد يكون إلى جانب هذا الجانب، قد يكون خواراً جزعاً ضعيفاً سريع العطب متى واجه الحرج أو الصعوبات، فهذا المظهر

الخارجي القشري من القوة والجبروت كثيراً ما يخفي تحته ضعفاً، وهذا الضعف يتمظهر في مظهر مزيد من العنف، وهكذا تستمر السلسلة: ضعف مستبطن، وعنف مستعلن.. يخفي ما استبطن، ويواريه، وتستتر عليه، من هنا ترى في مشهد غرقه صورة متناهية لضعفه، أفصحت عنها كلمات القرآن التي تغوص في أغوار النفس وتستخرج مكنونها ومخزونها، فعندما يقين الهلكة وسقط عنه الزيف تعرى الضعف كأجلى ما يكون: ﴿وَجَوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَءِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدُوًّا حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ مَا مَتَّ لِي مِنَ الْإِلَهِ إِلَّا الَّذِي آمَنْتُ بِهِ، بَنُو إِسْرَءِيلَ أَنَا وَمِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [يونس: ٩٠]، ويرد عليه القرآن: ﴿مَالِكِمْ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ ١١ فالْيَوْمَ نُنَبِّئُكَ بِمَا كُنْتَ لِمَنْ خَلَقَكَ مَائَةً﴾ [يونس: ٩١-٩٢]، وهل لاحظت الانكسار في قوله: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنْتُ بِهِ، بَنُو إِسْرَءِيلَ﴾، إنه يعلن ليس عن مجرد إيمانه بالله فحسب، ولكن يتنازل عن كل كبريائه واعتداده الشخصي والديني والقومي ليعلن انحراطه ضمن بني إسرائيل ليؤمن باللههم، والآلهة - كما يتصور هؤلاء المجرمون - آلهة قومية إلى حد بعيد، ومن هنا يعتز كل قوم باللههم. كما قال المصريون له: ﴿وَبَدَّرَكَ وَءَالِهَتَكَ﴾ [الأعراف: ١٢٧]، فأن ينخلع عن كل هذا، فإن هذا يعني الكثير، وأن ينخرط فيمن قضى من عمره عقوداً يحترقهم ويضطهدهم ويستعبدهم ويستعبدونهم من الحياة ومن النشاط الاجتماعي، ثم الآن يعلن استعدادة للانحراط في معتقداتهم.. هذا الاستعداد للتقلب والانتقال من أقصى اليمين إلى أقصى اليسار والعكس، ومن النقيض إلى النقيض يشي بشخصية غير ذات قرار.. بل شخصية سريعة الانكسار والانهيال وكل هذا التجبر الظاهر قناع يخفي تحته أو وراءه كياناً هشاً ضعيفاً، يتلفع بالقوة ويتمظهر بالعنف ويتمترس بالبطش.

واستمع ما يقول الكواكي هذا العبقري في طبائع الاستبداد: خلق الله في الإنسان استعداداً للصالح واستعداداً للفساد..).

و(الإنسان لا حد لغايته رقياً ومخططاً، وهذا الإنسان الذي حارت العقول فيه، الذي تحمل أمانة تربية النفس، وقد أثبتنا العوالم، فآثم خالقه استعداداً، ثم أوكله لخيرته (اختياره)، فهو إن يشأ الكمال يبلغ فيه إلى ما فوق مرتبة الملائكة، وإن شاء تلبس بالردائل حتى يكون أحط من الشياطين..).

ثم قال: (ما وجد من مخلوقات الله من نازع الله في عظمته، والمستبدون من الإنسان ينازعونه فيها..)^(١)

أما البعد الاجتماعي لظاهرة التفرعن، فإن المجتمعات المتخلفة السلبية المسلوقة الإرادة، المستلبة الشخصية، المملوءة بالوهم والرعب والخوف، والمسلط بعضها على بعض، والفاصلة القيم، هذه المجتمعات تعيش فيها ظاهرة الفردية والتسلط والقهر والاستبداد، والتفرعن، بل إنها (تربي) النشء على هذه الروح من السلبية أمام المتسلطين، (تربي) في الأبناء الاستسلام لإرادة القاهرين.

واقراً ما يقول الكواكي، تحت عنوان: الاستعباد والتربية - بعد أن يتكلم عن التربية في المجتمعات السوية يقول: (أما المعيشة الفوضى في الإدارات المستبدة فهي غنية عن التربية، لأنها محض نماء يشبه الأشجار الطبيعية في الغابات والحرش، يسطو عليها الحرق والغرق، وتحطمها العواصف والأيدي القواصف، ويتصرف في مسائلها وفروعها الفأس الأعمى، فتعيش ما شاءت رحمة الخطابين أن تعيش، والخيار للصدفة تعوج أو تستقيم، ثمر أو تعقم..).

ثم ينتقل للحديث عن الإنسان في ظل العدالة، لينتقل بعد ذلك إلى نقيضه (وهو موضوعنا): الإنسان في ظل غياب العدالة، يقول: (أما أسير الاستبداد،

(١) الكواكي، عبد الرحمن: طبائع الاستبداد، ص ١٥٣ - ١٥٤.

فيعيش خاملاً ضائع القصد، حائراً لا يدري كيف يميت ساعاته وأيامه، كأنه حريص على بلوغ أجله ليستتر تحت التراب...).

وذكر الكواكي كيف يعمل هذا الإنسان: (بدون نشاط ولا إتقان)، إذ (النشاط والإتقان لا يتأتيان إلا مع لذة انتظار النجاح في العمل).

ثم يذكر كلاماً خطيراً مهماً عن الذي يعزي نفسه بعوض الآخرة، وأنه ربما يخنوعه خسر الدارين، يقول: (إن الدنيا عنوان الآخرة، وإنه ربما كان خاسر الصفتين)، ثم يذكر ما هو أدهى من كل ما سبق، من يرفعون المسؤولية عن المستبدين ويلصقونها بالقدر، ويتكلم عن نصوص من الكتب السابقة المحرفة - وإن وعاظ المسلمين أعادوا الدور إذ قالوا: السلطان ظل الله في الأرض)، (والطالم سيف الله يتقم به ثم يتقم منه). ثم يذكر الآية التي فيها فصل الخطاب: (الا لعنة الله على الظالمين).

وقال الكواكي:

(الاستبداد يضطر الناس إلى استباحة الكذب والتحيل والخداع والنفاق والتدلل، وإلى مراغمة الحس وأمانة النفس، ونبذ الجذّ وترك العمل... إلخ).

وينتج من ذلك أن الاستبداد المشؤوم هو يتولى بطبعه تربية الناس على هذه الخصال الملعونة، بناء عليه، يرى الآباء أن تعبهم في تربية الأبناء التربية الأولى على غير ذلك لا بد أن يذهب عبثاً تحت أرجل تربية الاستبداد، كما ذهبت قبلها تربية آبائهم لهم، أو تربية غيرهم لأبنائهم سدى.

ثم ن عبید السلطة التي لا حدود لها هم غير مالکین أنفسهم، ولا هم آمنون على أنهم يربون أولادهم لهم، بل هم يربون أنعاماً للمستبدین، وأعواناً لهم عليهم. وفي الحقيقة إن الأولاد في عهد الاستبداد، هم سلاسل من حديد يرتبط بها الآباء على أوتاد الظلم والهوان والخوف والتضييق، وقد قال شاعر:

إن دام هذا ولم تحدث له غير لم يُك منيت ولم يُفرح بمولود

وكما أخبر القرآن عن الفراعنة، فإنهم كانوا يأسرون الأولاد ويستحون النساء. حياة الأسير (الواقع تحت نير الاستبداد) تشبه حياة النائم المزعوج بالأحلام، ومن كان وجوده في الوجود بهذه الصورة وهي الفناء في المستبدين، حق له أن لا يشعر بوظيفة شخصية فضلاً عن وظيفة اجتماعية).

ويتابع الكواكبي مبيناً المخطاات الأمم بالاستبداد وجعل بأسها بينها: (ومن غريب الأحوال أن الأسراء (المستعبدين) ييغضون المستبد، ولا يقوون على استعاملهم معه البأس الطبيعي الموجود في الإنسان إذا غضب، فيصرفون بأسهم في وجهة أخرى ظلماً: فيعادون من بينهم فئة مستضعفة، أو الغرباء، أو يظلمون نساءهم ونحو ذلك، ومثلهم في ذلك مثل الكلاب الأهلية إذا أريد منها الحراسة والشراسة، فأصحابها يربطونها نهاراً ويطلقونها ليلاً فتصير شرسة عقورة.

وقد اتضح مما تقدم أن التربية غير مقصودة، ولا مقدورة، في ظلال الاستبداد، إلا ما قد يكون بالتخويف من القوة القاهرة، وهذا النوع يستلزم انخلاع القلوب لا تزكية النفوس، قال الحكيم العربي:

لا ترجع الأنفس عن غيها مالم يكن منها لها زاجر^(١)

وتحت عنوان: الاستبداد والترقي، قال الكواكبي:

(الاستبداد يقلب السير من الترقى إلى المخطاات، من التقدم إلى التأخر، من النماء إلى الفناء، ويلزم الأمة ملازمة الغريم الشحيح، ويفعل فيها دهرأ طويلاً أفعاله التي تبلغ بالأمة حطة العجماوات فلا يهتمها غير حفظ حياتها الحيوانية فقط.

وقد يبلغ الاستبداد بالأمة أن يحول ميلها الطبيعي من طلب الترقى إلى طلب التسفل، بحيث لو دفعت إلى الرفعة لأبت وتألّت كما يتألم الأجهر من النور، وإذا

ألزمت بالحرية تشقى، وربما تفنى كالبهائم الأهلية إذا أطلق سراحها، وعندئذ يصير الاستبداد كالعلق، يطيب له المقام على امتصاص دم الأمة، فلا ينفك عنها حتى تموت ويموت هو بموتها).^(١)

جوانب الفريدة في قصة موسى وفرعون وبني إسرائيل

١- تجربة موسى عليه السلام تجربة متفردة بكل معنى الفريدة، فهذان رسولان يرسلان معاً بتسع آيات لأول مرة في تاريخ الرسالات، لا إلى قوم أولاً، وإنما إلى شخص واحد، هو فرعون: ﴿أَذْهَبَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ﴾ [طه: ٤٣].

ثم من بعد فرعون إلى قومين لا إلى قوم مفردين. إلى المصريين وإلى بني إسرائيل.

٢- حجم البطش الذي واجهه الداعية وقومه غير مسبوق بهذه الحدة وهذا العنف.. من هنا سمى الله هذا الطاغية فرعون.

٣- بنو إسرائيل هم أول قوم يؤمنون ولا يؤمنون في آن معاً. فهم ظاهرياً آمنوا بموسى واتبعوه وخرجوا معه من مصر، وهذا بمجد ذاته آمنهم من الحق، والإزالة من الوجود، لا أن سنة الله تغيرت.

ولكنهم في الوقت ذاته كانوا غير مؤمنين، فمرة يطلبون إلهاً مثلما للقوم آلهة. ومرة يقولون: ادع لنا ربك...

ومرة يعبدون العجل... ومرة يقولون: أرنا الله جهرة...

٤- بنو إسرائيل هم أطول الأمم مدة وجود، وهم الأمة الواقعة في مواجهة النبي الكريم وأمته إلى يوم الدين.

٥- بنو إسرائيل هم أول أمة تقوم حياتها على كتاب ومنهاج، بقطع النظر عن مدى التزامهم بهذا الكتاب أو المنهاج.

٦- بنو إسرائيل هم أول من واجه النبي ودعوته وأمته بالكيد والكفر واحتضنوا الكفر والنفاق، كما يقول صاحب الظلال^(١).

(١) يراجع في هذه النقطة: في ظلال القرآن ج ٣، ص ١٣٢٨ - ١٣٢٩، وج ٢ ص ٨٦٨ - ٨٦٩..

٧- وكما قال الظلال أيضاً: (إن بني إسرائيل هم أصحاب آخر دين قبل دين الله الأخير، وقد امتد تاريخهم قبل الإسلام فترة طويلة، ووقعت الانحرافات في عقيدتهم ووقع منهم النقص التكرار لميثاق الله معهم، ووقع في حياتهم آثار هذا النقص وهذا الانحراف، كما وقع في أخلاقهم وتقاليدهم.. فاقترضى هذا أن تلم الأمة المسلمة - وهي وارثة الرسالات كلها وحاضنة العقيدة الربانية بمحملتها - بتاريخ القوم، وتقلبات هذا التاريخ، وتعرف مزالق الطريق وعواقبها، ممثلة في حياة بني إسرائيل وأخلاقهم، لتضم هذه التجربة إلى حصيلة تجاربها، وتتفع بهذا الرصيد على مرّ القرون).^(١)

٨- ومن جوانب هذه الحكمة أن تجربة بني إسرائيل ذات صحائف شتى في المدى الطويل، وقد علم الله أن الأمد حين يطول على الأمم تقسو قلوبها، وتنحرف أجيال منها، وأن الأمة المسلمة التي سيمتد تاريخها حتى تقوم الساعة، ستصادفها فترات تمثل فترات من حياة بني إسرائيل، فجعل أمام أئمة هذه الأمة ومجدي الدعوة في أجيالها الكثيرة، نماذج من العقابيل التي تلم بالأمم، يعرفون منها كيف يعالجون الداء بعد معرفة طبيعته. ذلك أن أشدّ القلوب استعصاء على الهدى والاستقامة هي القلوب التي عرفت ثم انحرفت، فالقلوب الغفل الخامة أقرب إلى الاستجابة، لأنها تفاجأ من الدعوة بمجديدها وينفض عنها الركام، لجذته عليها، وانبهارها بهذا الجديد الذي يطرق فطرتها لأول مرة، فأما القلوب التي نوديت من قبل، فالنداء الثاني لا تكون له جدته، ولا تكون له هزته، ولا يقع فيها الإحساس بضخامته وجديته، ومن ثم تحتاج إلى الجهد المضاعف، وإلى الصبر الطويل.^(٢)

(١) الظلال ج ٣، ص ١٣٢٨ - ١٣٢٩.

(٢) الظلال ج ٣، ص ١٣٢٨ - ١٣٢٩.

مشاهد القيامة في سورة القصص

مقدمة عامة من مشاهد القيامة

موضوع القيامة في القرآن العظيم ثاني أهم موضوع بعد التوحيد. بل إن القيامة هي الوجه الثاني للإيمان بالله تعالى. فمقتضى الإيمان بالله أن تؤمن أنك محاسب بين يديه على ما تعمل من خير أو شر، وأن مردّ الخلق جميعاً إلى الله وأن الله سيحكم بين العباد فيما كانوا فيه يختلفون، وينصف المظلوم من الظالم.

وقد جاءت عشرات السور في القرآن موضوعها - بالكامل - القيامة. وجزء عمّ على سبيل المثال كله في القيامة، وجزء تبارك في معظمه كذلك. وباقي سور القرآن لا تخلو سورة من حديث عن القيامة بدءاً من الفاتحة ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ [الفاتحة: ٤] إلى سائر السور، فإنها جميعاً تعرضت للقيامة.

وقد جاءت مشاهد القيامة في القرآن مفصلة دقيقة واضحة رائعة وليست مبهمة غامضة كما عند أصحاب الدينين السابقين (بعد تحريفهما طبعاً). ففصلت في سور القرآن مشاهد البعث وقيام الناس من قبورهم، وفصل بوضوح سؤال الناس ووزن أعمالهم، وبين تبرؤ الأتباع من المتبوعين، وهؤلاء من أولئك ليرتدع المخدوعون. وفصل نعيم أهل الإيمان، وشقاء وعذاب أهل النيران. وفصلت النداءات التي تكون في الآخرة بين أهل النار وأهل الجنة، وهؤلاء وأولئك، ونداءات المنافقين للمؤمنين: ﴿أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ﴾ [النساء: ١٤١].

ولعل خير من كتب عن مشاهد القيامة المرحوم سيد قطب في كتابه الذي مهد الطريق لكل من كتب بعده في هذا الموضوع في كتابه الجامع الرائع: مشاهد القيامة في القرآن. وهذا حديث مختصر عن مشاهد القيامة في سورة القصص:

الإشارة الأولى إلى القيامة أو الدار الآخرة وردت في الآية السابعة والثلاثين (٣٧) وهي قوله تعالى على لسان موسى في حجاجه مع فرعون وقومه:

﴿وَقَالَ مُوسَى رَبِّیْ أَعْلَمُ بِمَنْ جَاءَ بِالْهُدَىٰ مِنْ عِنْدِهِ ۖ وَمَنْ تَكُونُ لَهُ عَقِیْبَةُ الدَّارِ ۚ إِنَّهُ لَا یُقْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾

مع أن الآية تحتل أن ﴿عَقِیْبَةُ الدَّارِ﴾ تعني هذه الدار، أو تلك الدار، أو هذه وتلك. فهي إشارة محتملة على كل حال، مع أنه باستقراء آيات الكتاب الحكيم يتبين لنا التالي:

وردت العاقبة في القرآن (٣١) مرة، منها ما تكلم عن عاقبة الظالمين بمعنى أخذهم في الدنيا وهو مقدمة أخذهم في الآخرة، ومنها ما يشير إلى عاقبة الآخرة مباشرة، ومنها ما يتكلم أن عاقبة الأمور أي نهايتها إلى الله.

وقوله تعالى في الآية الأربعين يحتمل ذلك كقوله سبحانه في الآية (٣٧): ﴿فَنَبَذْنَاهُمْ فِي آيَةٍ ۖ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَتْ عَقِیْبَةُ الظَّالِمِينَ﴾ (٤٥). والعاقبة هنا - والله أعلم - هلاكه في هذه الدار الذي هو مقدمة البوار كما قال: ﴿فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَىٰ﴾ [النازعات: ٢٥].

وجاءت الإشارة الثانية في قوله تعالى في الآية (٣٩) في ثنايا قصة فرعون واستكباره وظنه أنه لا يرجع إلى الله ولا يحاسب على ما فعل: ﴿وَأَسْتَکْبِرْهُوَ وَجْهَهُ فِي الْأَرْضِ یَغْیِرِ الْحَقَّ وَطَنُوهَا أَنَّهُمْ إِلَیْسَ لَا یُرْجَعُونَ﴾.

وقوله تعالى في الآيتين (٤١ - ٤٢) مصرح بذكر القيامة، وقد توالى من بعد هاتين الآيتين الآيات المتحدثة عن القيامة بشكل متتابع ومكثف، قال: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَيْمَةً يَدْعُونَ إِلَى الْكُفْرِ وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ لَا يُنصُرُونَ﴾ [٤١]. ﴿وَاتَّبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ﴾ [٤٢].

وقوله تعالى في ختام الآية (٤٣) بعد حديثه عن رسالة موسى عليه السلام، وقوله: ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾. المقصود منه والله أعلم، يتذكرون حقائق إيمانية كثيرة وفي مقدمة المهم منها بعد توحيده تعالى: يتذكرون معادهم إليه سبحانه، والمثول بين يديه حين تقوم القيامة، وتحين ساعة الحساب.

ثم كرر ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ في ختام الآية (٤٦)، والآية (٥١) ثم جاءت لا أقول الإشارة وإنما التصريح بالآخرة في الآية (٦٥) وذلك قوله سبحانه: ﴿وَمَا أَوْتَيْنَاهُم شَيْءً فَتَمَتَّعَ الْحَيَوةَ الدُّنْيَا وَرَبَّتْهَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [٦٠]. وكانت تلك الآية (الستون) فاتحة لمشهد طويل من مشاهد القيامة، جاءت آياته دراكاً حتى الآية السبعين بالتمام: ﴿أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَئِيهِ كُنْتُمْ مَنَعَةً مَّتَّعَ الْحَيَوةَ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَمَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ﴾ [٦١].

تسأل الآية الكريمة سؤالاً يعتمد في جوابه على البدهاء وسلامة التفكير: هل من وعدناه وعداً حسناً لن نخلف فهو سيلاقه بالقطع والحتم، كالذي متعناه في هذه الحياة الدنيا، وهو متاع قليل بالغاً ما بلغ، محدوداً مهما طال، ثم يكون هذا الأخير الممتع في الدنيا من المحضرين يوم القيامة للحساب، هل يستويان أو هل يستوون؟ والبدهاء تجيب: بالقطع لا.

ثم ينتقل السياق من هذا الاستفهام إلى تصوير مشهد من مشاهد القيامة على طريقة التقرير: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ [٦٢]. إنه مشهد

من مشاهد المناادة يوم القيامة، وقد كثرت مشاهد المناادة في القرآن ضمن مشاهد القيامة، بل إن القرآن سماه أي سمى يوم القيامة ﴿يَوْمَ النَّدَاءِ﴾ [غافر: ٣٢]. يناديهم الله تعالى فيقول: أين الشركاء المزعومون الذين زعمتموهم لي؟ فيتصدى للجواب لا المسؤولون وإنما قادة الضلال في الدنيا، يجيبون فيقولون وكأنهم فهموا أنهم هم المعنيون والمقصودون، فيقولون: ﴿قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِنَاءً يُعْبَدُونَ﴾ [٦٣].

قال الذين حق القول عليهم بتعذيبهم لكفرهم وتعتهم، وهم أئمة الكفر، ومنظرو الإضلال والضلال، قالوا، وقد استشعروا أن السؤال عن الشركاء، وهم كانوا يمارسون هذا الدور، فيشرعون للناس كما يشاؤون، ويحللون ويحرمون، ويحرمون الناس من أن يروا سبيل الحق، ويتخذوه سبيلاً. المهم، أن هؤلاء وقد استشعروا جسامه ما اقترفوا يتبرون للجواب، فيعتفون أولاً بضلالهم، ويعترفون بضلالهم لأولئك المشركين، أما الذين يتصلون منه فالجرم الأكبر، ويعترفون بالأقل والأصغر، أما الجرم الأكبر فيتبرؤون من الشرك الأكبر، وأنهم كانوا شركاء لله، فإن هؤلاء الضالين ما كانوا يعبدون هؤلاء الأئمة الضالين. هكذا يجيبون ويتبرأ المتبوعون من الأتباع، ويتصلون منهم، والقرآن عدد هذه المشاهد ليتدارك الذين يتخذون أرباباً من دون الله، ليتداركوا أنفسهم. قبل أن لا ينفع الندم، وقبل أن يتخلى عنهم من اتبعوهم ويتبرأوا منهم على الملأ.

ويعود الكلام من الله الجليل تعالى، إلى المشركين يقول لهم: هيا نادوا وادعوا شركاءكم، والملاحظ أنه سبحانه قال في الآية الأولى: ﴿أَيْنَ شُرَكَائِي﴾ ثم بعد أن قطع بأنه لا شركاء له سبحانه، وتبرأ المتبوعون الذين كانوا يتخذون أنداداً لله وأرباباً مع الله أو من دونه سبحانه، لما اتصلوا، جاءت هذه الآية لتسألهم: ﴿أَيْنَ شُرَكَاءُكُمْ؟﴾

وصيغة: ﴿أَيْنَ شُرَكَائِيَ﴾ في القرآن وردت (٥) مرات في القصص اثنتان منهما، وفي النحل والكهف وفصلت.

وصيغة ﴿أَيْنَ شُرَكَاءُكُمْ﴾ وردت في الأنعام آية [٢٢]:

ومن غفلتهم وعبطهم ينادونهم: ﴿فَدَعَوْهُمْ﴾. ومن يستجيب لكم في ذلك اليوم؟ ﴿فَلَرَيْسَتَجِيبُوا لَهُمْ﴾ بطبيعة الحال. وهل ينفع أحد أحداً أو والد ولدأ؟ إن الحكم يومئذ لله، والأمر يومئذ كله لله. انتهت المهلة التي كان فيها بعض الناس يزعمون أنهم أنداد الله، وما دروا أنها كانت فرصة ليختبرهم الله، والآن وقت الجزاء المبني على النتائج!

﴿لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ﴾ إلى هذه الحقائق الإيمانية البديهية.

ويتواصل المشهد وتتوالى المساءلات. فبعد أن فرغ من قضية الشرك، عاد ليسألهم الآن عن قضية المرسلين. ماذا فعلتم بدعوة الرسل، وماذا كان جوابكم على إبلاغهم إياكم أنهم رسل الله، وإقامتهم الحجة على ذلك؟ ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ﴾ ولا جواب من المسؤولين، لقد وجدوا عقولهم فارغة من الجواب. أو لم يستطيعوا أن يردوا الجواب لأنهم يعلمون سوء جوابهم للرسل، والذي سترتب عليه سوء الحساب وسوء الجزاء، فلم يجيبوا، لكن النص القرآني اختار صورة بديعة عجيبة يعبر بها عن هذا المعنى إذ قال: ﴿فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الْأَنْبَاءُ يَوْمَئِذٍ...﴾ إن الإجابات قد ضلت عن المحتاجين لإجابات، لأن الإجابات والأنباء عميت عن الوصول إلى أصحابها والحصول في عقولهم، وهل يمكن أن يسأل بعضهم بعضاً فينقل بعضهم الإجابة عن بعض؟ إنهم لن يفعلوا. ﴿فَهُمْ لَا يَسْأَلُونَ﴾.

ثم عاد السياق إلى مشهد المناادة.. وكأننا لم نغادر ساحة الآخرة أصلاً. ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ [٧٤]. وهو النص عينه الذي تردد صدهاء في جنبات الآخرة في الآية (٦٢)، لا يزيد كلمة ولا ينقص كلمة، وهذا الثبات في النص مقصود! وعاد السياق إلى صيغة ﴿أَيْنَ شُرَكَائِيَ﴾ بعد أن تقرر في مشاهد القيامة ومشاهد الكون أنه سبحانه لا شريك له، يعود إلى السؤال بالصيغة ذاتها وبثبات النص ليكون أقطع في إقامة الحجة، وأبلغ في التكير على هؤلاء الذين قضوا الحياة بلا تفكير فوقعوا في سوء المصير.

ثم قال النص الكريم أنه استخرج سبحانه ونزع من كل أمة شهيداً، هو الرسول، والله أعلم^(١)، أو من يبلغ دين الله ودعوة الله، ويقوم بمهمة الرسول ووضيفة الرسول، ثم طلب من المرسلين والمرسل إليهم كل أن يقيم حجته، ويؤدي بيته ويدلي بدلوه، فتجلى أن الحق لله، وتفتدت دعاوى المظلمين: ﴿وَنَزَعْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ فَعِلْهُمْ أَتَانِ الْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتُرُونَ﴾ [٧٥].

وكما ابتدئت السورة بنموذج على شخصيات طاغية كافرة، ونماذج على الذين يكذبون بالله واليوم الآخر، هي نموذج فرعون، الذي ضربه الله مثلاً على المكذبين بالآخرة في سورة النازعات: ﴿يَقُولُونَ إِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ﴾ (١١) ﴿أَوَإِذَا كُنَّا عِظْمًا تَحَرَّةً﴾ (١٢) ﴿قَالُوا تِلْكَ إِذْ أَكْرَهْتُمْ عَلَيْهِ حَتْمًا فَاذْهَبْ إِلَىٰ رَجْرَجٍ﴾ (١٣) ﴿فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ﴾ (١٤) ﴿هَلْ آنَاك حَبِيبُ مُوسَىٰ﴾ (١٥) إِذْ نَادَتْ رَبَّهُ بِأَلْوَادِ الْمَقْدِسِ طُوًى ﴿١٦﴾ أَذْهَبَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ﴿١٧﴾ ﴿[١٠ - ١٧].

أقول: كما بُدِئت السورة بنموذج طاغ باغ مستكبر في الأرض مثاله على الخلق، لأنه لا يؤمن بيوم الحساب، حين يمثل الخلق بين يدي الخالق كما بُدِئت السورة بذلك النموذج تختم السورة بنموذج من نفس البيئة والجو يلتقيان لإبراز

(١) والنص يحتمل معنى آخر على النقيض، فالشاهد هنا المتهم بالشرك يطلب منه إقامة البينة. والله أعلم .

صورة الطغيان إذا أنكر الإنسان لقاء الديان. هذا النموذج الذي قصّه القرآن في ختام سورة القصص هو نموذج قارون الذي يمثل نموذج الطغيان الاقتصادي بينما مثل فرعون نموذج الطغيان السياسي، وطغيانهم مصدره واحد: نكران الآخرة.

ولسنا نقول ادعاء، ولا نبتعد عن النص وروح النص، فإن قصة قارون نختم بهذا القانون: ﴿تِلْكَ الْأَمْثَلُ الَّتِي جَعَلْنَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [٨٣]. ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [٨٤].

وقد ورد في ثانيا القصة اغترار المفتونين بالدنيا، اغترارهم بزيينة قارون وما أعطيه، أما الذين مدوا نظرهم إلى نعيم الآخرة وجزائها وثوابها، فما لغتهم بريق الذهب، ولا وهج نعيم الدنيا وزينتها: ﴿فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بَلِّغْ لَنَا مِمَّا آتَوْكَ قُتْرُونَ إِنَّهُ لَدُوْحَضٌ عَظِيمٌ﴾ (٧٩) وقال الذين أُوتُوا الْعِلْمَ وَيَلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلْقَاهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ﴾ [٧٩ - ٨٠]. ولا نتوقع ونحن نقرب من ختام السورة، إلا أن تتكشف الإشارة إلى الآخرة، فالختام مناسب للختام.

من هنا جاء هذا النص الكريم في الآية [٨٥] وإن كان قيل في معناه: أنه رده ﷺ إلى معاد العودة إلى مكة، ولكني أرى النص ملتحمًا بالسياق قبله فقد رأينا الآيتين (٨٣ - ٨٤) تتكلمان عن الآخرة وقانونها في الجزاء، والسياق لا شك أنه أحد محددات المعنى، ومحددات اتجاه السير في فهم المعنى، من هنا القول إن النص الكريم في الآية [٨٥] فيما أرى يتعلق بالآخرة، لتعاقبه حينئذ مع السياق، ولا يقين عندنا أن النص نزل في طريق الهجرة ليفيد العودة إلى مكة، بينما السياق يقين: ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ و ختام الآية يشهد لما أقول إن شاء الله ﴿قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ مَنْ جَاءَ بِالْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [٨٥].

وآية الختام أو مسك الختام تجمع القضيتين الرئيسيتين اللتين هما مدار الدين كله والحياة كلها والدنيا والآخرة: إنها قضية التوحيد والمعاد، وهما القضيتان اللتان إن غابتا عن أذهان العباد، وقعوا في شرّ الأعمال، وزعم البعض أنهم أرباب لبعض، وكان بالتالي الطغيان، وانعدام الرشاد، من هنا فإن النص الختامي جاء مذكراً بهما مقررأ لهما، ملخصاً السورة من خلاهما: ﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [٨٨].

ملاحظات عامة

على عدد كلمات آيات سورة القصص

- ١ - أطول آية في السورة (٣٨) كلمة (٢×١٩) وكذلك الحال في سورة النمل.
- ٢ - أقصر آية في سورة القصص عدد كلماتها: كلمة واحدة وهي الفاتحة بالحروف المقطعة 'طسم' وثاني آية في القصص (٤) كلمات وهي الآية رقم (٢).
- ٣ - عدد الآيات التي عدد كلماتها (١٩) ومضاعفاتها: (٧). بينما هي في النمل (٥).
- ٤ - عدد الآيات التي كلماتها زوجي (٤١) والفردى (٤٧).
- ٥ - عدد الآيات التي عددها زوجي ورقم الآية زوجي (١٩).
- ٦ - عدد الآيات التي عدد كلماتها فردي ورقمها فردي (٢٢).
- ٧ - عدد الآيات التي كلماتها زوجي ورقمها فردي (٢٢).
- ٨ - عدد الآيات التي عدد كلماتها فردي ورقمها زوجي (٢٥).

المجموع = (٨٨)

عدد كلمات آيات سورة القصص بالترتيب التنازلي

١	=	٣٨	آيات عدد كلماتها
١	=	٣٢	آيات عدد كلماتها
٣	=	٢٩	آيات عدد كلماتها
١	=	٢٨	آيات عدد كلماتها
٤	=	٢٧	آيات عدد كلماتها
٤	=	٢٦	آيات عدد كلماتها
١	=	٢٥	آيات عدد كلماتها
١	=	٢٣	آيات عدد كلماتها
١	=	٢٢	آيات عدد كلماتها
١	=	٢١	آيات عدد كلماتها
٣	=	٢٠	آيات عدد كلماتها
٦	=	١٩	آيات عدد كلماتها
٦	=	١٨	آيات عدد كلماتها
٧	=	١٧	آيات عدد كلماتها
٥	=	١٦	آيات عدد كلماتها
٨	=	١٥	آيات عدد كلماتها
٣	=	١٤	آيات عدد كلماتها
٧	=	١٣	آيات عدد كلماتها
٤	=	١٢	آيات عدد كلماتها
٢	=	١١	آيات عدد كلماتها
٦	=	١٠	آيات عدد كلماتها
٤	=	٩	آيات عدد كلماتها

الزمرة	عدد الكلمات	عدد التكرار
٢٢	٨	٣
٢٣	٧	٢
٢٤	٦	٢
٢٥	٤	١
٢٦	١	١
		٨٨

بلغت الزمر التي انقسمت إليها الآيات من حيث عدد الكلمات (٢٦) زمرة في سورة القصص، بينما كانت في النمل (٢٣) زمرة.

ملاحظات حول تكرارات أرقام الآيات في سورة القصص

- ١- تكرار (١) $٩ = ٩ =$ وفي النمل ٨
- أعني أرقام آيات أو عدد كلمات تكررت مرة
- ٢- تكرار (٢) $٦ = ٣ =$
- ٣- تكرار (٣) $١٢ = ٤ =$
- ٤- تكرار (٤) $١٦ = ٤ =$
- ٥- تكرار (٥) $٥ = ١ =$
- ٦- تكرار (٦) $١٨ = ٣ =$
- ٧- تكرار (٧) $١٤ = ٢ =$

القسم الثاني
تفسير سورة القصص

تفسير المقطع الأول

فاتحة ومقدمة

(الآيات ٦-١)

تفسير المقطع الأول فاتحة ومقدمة

الآية الأولى:

﴿طسّر﴾

حروف مقطعة، أو حروف نورانية، كما يُطلق عليها، تلفظ حرفاً حرفاً، ولذلك سميت مقطعة، فلا تتشكل منها كلمة (طسّم) مثلاً وإنما تقرأ (طا سين ميم). وهذه الحروف من أعجيب هذا الكتاب. وكله عجيب رائع معجب مبدع. والمقصود من هذه الحروف كما هو معروف، تحدي أهل الفصاحة واللسان، والبلاغة والبيان. من أمة العرب التي نزل فيها القرآن، تحديهم أن يأتوا بمثل القرآن، أو بمثل بعض سوره أو بعض آياته، فإن فعلوا فقد حُسمت مادة النزاع، وانقطع الجدل، وتوقف النقاش، وثبت لهم أن هذا القرآن ليس كلام الله، ومعاذ الله طبعاً، ولكن إن عجزتم عن مجاراته ومضاهاته، وهذه حروفه وحروفكم، وكلماته كلماتكم، ولكن تأليف كلمه بعضها إلى بعض ليس في مقدوركم، إن عجزتم - والأمر كذلك - فهو إذاً كلام الله.

وافتح هذه السورة الكريمة بهذه الحروف، لعل فيه إلماحاً إلى ما تتضمنه من قصة موسى، فكان الطاء والسين إشارة إلى طور سيناء وكان الميم إشارة إلى قصة موسى، وهذه مجرد ذوقيات لا مباحكة فيها ولا مماراة، فهي مما ينطبع في النفس ولا يخضع للفحص.

والعجيب أن سورة الشعراء التي جاءت فيها قصة موسى مفصلة جاءت طسم وكذلك القصص طسم والنمل التي جاءت فيها قصة موسى مجملة جاءت طس فحسب. فتأمل!

وكما هي عبارة الألويسي ذي الذوق: هذه أزهير ربيع تشم ولا تفرك. على كل حال في هذه الحروف من اللغات وإمكانات الدرس ما فيها. ففيها التنبيه للعقول الغافية، والنفوس الغافلة، والأفكار الراكدة، وفيها التحدي والإعجاز كما أسلفنا وأوجزنا. وفيها التناسق مع مضمون السورة، كما أشرنا. وفيها الإعجاز الحسابي والعدي، كما فصل كثير من الكتاب ومن أبرزهم الأستاذ بسام جرار في عديد من كتبه^(١).

قال في الظلال: «تبدأ السورة بهذه الأحرف للتنبيه إلى أنه من مثلها تتألف آيات الكتاب المبين، البعيدة الرتبة، المتباعدة المدى بالقياس لما يتألف عادة من هذه الأحرف، في لغة البشر الفانين»^(٢).

قال إسماعيل حقي البروسوي في روح البيان: «يشير إلى القسم بطاء طوله، وطاء طهارة قلب حبيبه عليه السلام من محبة غيره، وطاء طهارة أسرار موحدية عن شهود سواه، ويسين سره مع محبيه، ويميم منته على كافة مخلوقاته على قدر حاجاتهم كذا في التأويلات النجمية (إمام قشيري)^(٣).

قلت: وهذا كلام إشاري غير منضبط ولا يعول عليه، ومتناقض لا تقوم له قائمة. قال: هو قسم أقسم الله به، وهو من أسماء الله^(٤).

(١) ارجع إلى بسام جرار في: عجيبة تسعة عشر، وتعلموا عدد السنين والحساب.

(٢) الظلال، ج ٥، ص ٢٦٧.

(٣) البروسوي: إسماعيل حقي (ت: ١١٣٧هـ): روح البيان، ج ٦، ص ٣٨٠.

(٤) صحيفة علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في تفسير القرآن، ص ٣٩٤، الأثر رقم ٩٩٠، حققه: راشد الرجال، نشر: دار الجليل بيروت، ط ١٤١٤/١٩٩٤.

قال المحقق: أخرجه البيهقي في الأسماء والصفات، ص ١١٩، بسنده - وذكره - يقول: ق و ن وأشبه هذا قسم أقسم به الله وهو من أسماء الله. قلت: ومر نقاش مثل هذا القول وأنه لا يصح.

الآية الثانية:

﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾

وبعد الآية الأولى التي لم تحو إلا الحروف المقطعة، جاءت في هذه الآية الإشارة إلى الآيات، فكان الإشارة مرتبطة بتلك الحروف، فهذه الآيات هي النسيج المكون من تلك الخيوط أعني الحروف، فمن الحروف تتشكل الكلمة، ومن الكلمات تتشكل الآية، ومن الآيات تتشكل السورة، ومن السور يتشكل القرآن، فهذا البناء العظيم، من الحروف وهي المادة الخام المسورة الموفورة، من الحروف يتشكل.

كما أن الكون العظيم، وهو كتاب مولانا الثاني، والقرآن كتابه الأول، هذا الكون يتشكل من عنصر بسيط هو أبسط العناصر الكيميائية في الكون وهو الهيليوم، ومثلما هو الإنسان أعظم الموجودات مكون من أبسط المكونات وهي الطين.. لتتجلى العجزة، فمن أبسط العناصر والمكونات يخرج مولانا للناس أعظم ما يمكن، ومثلما هو الماس أغلى المعادن، فهو في الأساس كربون تزدريه العين.. والله المثل الأعلى فيما يخلق وينزل من كلام وفيما يختار من بديع النظام سبحانه.

ولام البعد التي في تلك مردها إلى أمور نوجزها فيما يلي:

- ١- بعد المنزلة لا بعد المنزل وبعد المكان لا بعد المكان، فالقرآن من القلب والعقل والفطرة والتطبيق.. قريب، فالبعد إذاً لشرفه وسموه وعلو منزلته وقدره، وهذا تماماً كما في فاتحة سورة البقرة ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَىكَ الْكِتَابَ لَذِكْرٍ لِبَعْضِ مَا قِيلَ﴾ [البقرة: ١-٢] وهذا فيما أرى أوجه ما قيل.
- ٢- أما الوجه الثاني فهو أن البعد إشارة إلى مصدر الكتاب الذي منه يتنزل وهو اللوح المحفوظ.
- ٣- والوجه الثالث: أن الإشارة إنما هي لما سبق نزوله، وهذا من حيث الزمان بعيد.
- ٤- والوجه الرابع أن الإشارة للبعيد يقصد بها ما لم ينزل من السورة بعد، وهو بعيد.

٥- والوجه الخامس أن تلك بمعنى هذا. وهذا أراه غير لائق ببلاغة القرآن ودقته المعجزة المتناهية وإن كان هذا القول استقطب الكثير من أقاويل أهل التفسير^(١).

﴿طَسَرَ ۖ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾

قال اطفيش في تأويلها: «أي هذه السورة، أشار إليها بالبعد (يقصد اللام في تلك) لغية أكثرها عنه ﷺ، قبل نزولها^(٢)، وللتعظيم، أو إلى الآيات مطلقاً (أي الإشارة إلى جميع الآيات، وليس آيات سورة القصص فحسب، كأنه يريد أن يقول أنه من هنا جاء معنى البعد، فهذه السور وآياتها ليست حاضرة الآن في وقت تنزل هذه الآيات من القرآن. والله أعلم».

﴿آيَاتُ الْكِتَابِ﴾:

أي القرآن، لأن السورة بعضه (يقصد أن الإشارة إلى البعض إشارة إلى الكل)، كما هو تلاوة السورة قبل هذه، (يقصد أن آيات تشمل الكتاب، والمقروء) أو اللوح المحفوظ لأن القرآن مكتوب فيه^(٣).

قلت: وهذا بعيد، والله أعلم، فكيف يشار إلى اللوح المحفوظ، إنما يشار إلى ما يتصور أو يشاهد. وصحيح أن اللوح المحفوظ وصف بالكتاب المبين، لكن هذا الوصف لا يبرر أن يكون المقصود به هنا اللوح، وإنما المقصود هذا الكتاب.

واسم الإشارة (تلك) فيه لام البعد، وهي إشارة إلى بعد المنزلة لا بعد المنزل، وبعد المكان لا بعد المكان.. وإلا فالقرآن في قلب كل مؤمن قريب منه.. وقد سمى الله تعالى نصوص كتابه الكريم الخاتم: آيات، وهي بمعنى المعجزات والدلالات

(١) ارجع مثلاً إلى: تيسير التفسير، ج ٩، ص ٣٦٩.

(٢) يقصد الشيخ اطفيش - رحمه الله - أن يقول: إن لام البعد إنما جاءت لأن أغلب السورة ما زال في عالم الغيب لما ينزل بعد، وقد بنى الشيخ قوله بناء على أن السورة تنزل تفاريق ومجوماً وأجزاء، وهو في نظرنا نظر لا نقره عليه. وإنما الأولى ما قاله هو بعد قليل إنها للتعظيم، فنحن لا ندري أنزلت متفرقة أم جملة. ومعنى التعظيم أعظم من معنى التقسيم.

(٣) تيسير التفسير، ج ٩، ص ٣٩٦، ط ١، طبعة وزارة الثقافة، عُمان، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م.

الدالة الواضحة الدلالة على المراد وأنه كلام الله، وسمى قوانين المعجزة في الكون آيات، ليفهم من هذا الإطلاق أن كتاب الأكوان المنظور محتو آيات، ومتضافر مع كتاب الكون والحياة المسطور، أعني القرآن... والكون يشهد للقرآن، والقرآن يرشد للآيات التي في الكون، فكل كتاب يصدق الآخر، ويدل عليه.

من هذه الآيات كان الكتاب المعجز الخاتم الخالد الين الواضح المفصل الذي لا تشيع منه العقول، ولا تمل من النظر فيه العيون. وغالباً ما تفتح السور القصصية بوصف الكتاب المين، لأن القصص يسيرة المأخذ سهلة المنال، سائغة للدارسين والمحللين، على تفاوت بطبيعة الحال.

وقد وصف الكتاب بالمين في الكتاب المين (٨) مرات، ووصف الكتاب المين في فاتحة السور (٦) مرات في (٦) سور هي: يوسف، الشعراء، النمل، والقصص، الزخرف، الدخان. من الجزء الثاني عشر إلى الجزء الخامس والعشرين.

ووصف الكتاب الذي هو اللوح المحفوظ بالمين (٤) مرات سوى الثماني. والست التي أشرنا إليها هي من بين الثماني. والمين، هو البين في ذاته المين لغيره. فهذا الكتاب في معانيه بين، وللحق وللباطل، وللخير والشر، مبين. والحق والخير محباً فيهما، والباطل والشر محذراً منهما. قال في الظلال: «فهذا الكتاب المين ليس إذاً من عمل البشر، وهم لا يستطيعون إنما هو الوحي الذي يتلوه الله على عبده، ويبدو فيه إعجاز صنعته، كما يبدو فيه طابع الحق المميز لهذه الصنعة في الكبير والصغير»^(١).

الآية الثالثة:

﴿نَتْلُو عَلَيْكَ مِنْ نَبَأِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾

انتقلت هذه الآية بعد عموم الحديث في الآية السابقة عن الكتاب، انتقلت للحديث عن خصوص قصة موسى وفرعون، وهي قصة صراع الحق والباطل، والمستضعف والمستضعف.. وسنة الله في مدافعة الظالمين بالمظلومين، والقاهرين بالمقهورين، ومن هذه القصة الحافلة ركز القرآن أو ركزت السورة على خلاصة القصة وملخصها، وموجزها، وعبرتها وحكمتها. وهي المن على المستضعفين.

نعود إلى الآية الكريمة، فقد افتتحت بالفعل المضارع (نتلو)، ثم خاطبت بهذا الفعل سيد النبيين، فالتلاوة عليه، ليتلو بدوره على أمته ثم على العالمين، من نبي موسى وفرعون، أي من شأنهما وخبرهما المهم. وكيف لا يكون مهماً، وهو كلام الله من ناحية، وهو عصارة تاريخ الإنسانية وقصة الصراع بين الإيمان والكفر، والطواغيت والرسول.

ثم وصف هذه التلاوة بأنها بالحق، فهي منطلقة منه، مبتدئة به، منتهية إليه، مختلطة ملتبسة به في كل كلمة وكل حدث.

والحق من معانيه أن يطابق الخبر الواقع المخبر عنه. وحاشا لكلام الله ألا يطابق الواقع.

هذه التلاوة بالحق نوصلها ونبينها لقوم يؤمنون، لأنهم هم الذين يستفيدون بها ومنها. ويتخذونها لهم إماماً يمثّلونه في صراعهم مع الباطل.. فالمطلوب من كل إنسان مؤمن أن يكون منحازاً إلى معسكر الإيمان، وجند الرحمن إذ يخوضون المواجهة مع الشيطان وحزب الشيطان وحلف الشيطان وأولياء الشيطان. وأعظم ما يرشد خطاهم في هذا الصراع هو القصص الحق في الكتاب الحق. ومن أهمه وأعظمه قصة موسى وفرعون. قال في الظلال: «فإلى القوم المؤمنين يوجه هذا الكتاب يريهم به، وينشئهم ويرسم لهم المنهاج، ويشق لهم الطريق. وهذا القصص المتلو في السورة، مقصود به أولئك المؤمنين، وهم به ينتفعون.

وهذه التلاوة المباشرة من الله، تلقي ظلال العناية والاهتمام بالمؤمنين، وتشعرهم بقيمتهم العظيمة، ومنزلتهم العالية الرفيعة، وكيف لا والله ذو الجلال يتلو على رسوله الكتاب من أجلهم، ولهم، وبصفتهم هذه التي تؤهلهم لتلك العناية الكريمة: ﴿لَقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾^(١).

قال ابن عاشور في التحرير والتنوير:^(٢)

وجملة ﴿تَتْلُوا...﴾ مستأنفة استئنافاً بيانياً. ومهد لنبا موسى وفرعون بقوله: ﴿تَتْلُوا...﴾ للتشويق لهذا النبا لما فيه من شتى العبر بعظيم تصرف الله في خلقه. والتلاوة: القراءة لكلام مكتوب أو محفوظ كما قال تعالى: ﴿وَأَن تَتْلُوا الْقُرْآنَ﴾ [النمل: ٩٢]، وهو يتعدى إلى من تبلغ إليه التلاوة بحرف (على)، مثل: ﴿وَإِذَا بُدِئَ قِطْعٌ مِنْهُ فَأَنصِتْ لَهُ﴾ [الأنفال: ٢]، ﴿وَاتَّبِعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيْطَانُ عَلَىٰ مِثْلِ سُلَيْمَانَ﴾ [البقرة: ١٠٢].

وإسناد التلاوة إلى الله إسناد مجازي لأنه الذي يأمر بتلاوة ما يوحى إليه من الكلام والذي يتلو حقيقة هو جبريل بأمر من الله، وهذا كقوله تعالى: ﴿تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ تَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ﴾ [البقرة: ٢٥٢].

وجعلت التلاوة على النبي ﷺ لأنه الذي يتلقى ذلك المتلو، وعبر عن هذا الخبر بالنبا لإفادة أنه ذو شأن وأهمية.

قال صديق حسن خان:

«أي نوحى إليك بواسطة جبريل من أمرهما..»^(١).

(١) الظلال، ج ٥، ص ٢٦٧٦.

(٢) التحرير والتنوير، ج ٢٠، ص ٧-٨.

قال الشيخ زادة في حاشيته على البيضاوي:

«قول البيضاوي: «نقرؤه بقراءة جبريل عليه السلام» فيكون إسناد التلاوة من قبيل إسناد الفعل إلى السبب الأمر إسناداً مجازياً. وعلى (التقدير) الثاني: يكون المجاز في المفرد، ويكون المجاز (نتلو) استعارة تبعية حيث شبه التنزيل بالتلاوة من حيث أن كل واحد منهما من قبيل التبليغ، فاستعير اسم التلاوة للتنزيل، استعارة أصلية، ثم اشتق منه نتلو»^(٢).

وواضح أن البيضاوي فسر نتلو بنقرأ بقراءة جبريل، ثم عقب أو علق عليه زادة بقوله: إن هذا الإسناد (لله) عز وجل (مع أن الذي يتلو على النبي ﷺ جبريل)، هذا الإسناد مجازي، فقد أسند الفعل إلى الأمر، وتجاوز المنفذ كما نقول: بنى الأمير المدينة.

وأما على التقدير الثاني فقد قدر زادة أن في الأمر استعارة تبعية، بمعنى أنه عبر بنتلو بدل (ننزل) على وجه الاستعارة.

فأل الأمر في قوله تعالى نتلو، كما يرى زادة إلى أحد أمرين: إما مجاز في إسناد الفعل، أو استعارة فيه.

واللام في قوله ﴿لَقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ لام التعليل، أي نتلو عليك لأجل قوم يؤمنون فكانت الغاية من تلاوة النبا على النبي ﷺ هي أن ينتفع بذلك قوم يؤمنون، فالنبي يبلغ ذلك للمؤمنين، والمراد بقوم يؤمنون: قوم الإيمان شأنهم وسجيتهم، وللإشارة إلى معنى تمكن الإيمان من نفوسهم أجرى وصف الإيمان على كلمة قوم ليفيد أن كونهم مؤمنين هو من مقومات قوميتهم، فالمراد المتلبسون

(١) فتح البيان في مقاصد القرآن، ج ١٠، ص ٨٧. راجعه: عبد الله الأنصاري، قطر: دار إحياء التراث، والمكتبة المصرية، بيروت ١٩٩٥.

(٢) زادة، محمد بن مصلح الدين (ت ٩٥١): حاشية عمي الدين شيخ زادة على تفسير القاضي البيضاوي، ج ٦، ص ٤٢٧، بيروت: دار الكتب العلمية، ط ١٤١٩ هـ/ ١٩٩٩ م.

بالإيمان. وجيء بصيغة المضارع للدلالة على أن إيمانهم موجود في الحال ومستمر متجدد.

وفي هذا إعراض عن العبء بالمشركون في سوق هذه القصة بما يقصد فيها من العبرة والموعظة فإنهم لم ينتفعوا بذلك، وإنما انتفع بها من آمن ومن سيؤمن بعد سماعها.

والباء في قوله (بِالْحَقِّ) للملابسة، وهو حال من ضمير (تُتْلُو) أو صفة للتلاوة المستفادة من (تُتْلُو).

والحق: الصدق لأن الصدق حق إذ الحق هو ما يحق له أن يثبت عند أهل العقود السليمة والأديان القويمة.

ومفعول (تُتْلُو) محذوف دل عليه صفته وهي ﴿مِنْ نَّبَأِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ﴾^(١) بالتقدير: نتلو عليك كلاماً من نبأ موسى وفرعون.

و(من) تبعيضية، فإن التلو في هذه السورة بعض قصة موسى وفرعون في الواقع، ألا ترى أنه قد ذكرت في القرآن أشياء من قصة موسى لم تذكر هنا مثل آية الطوفان والجراد.

وجعل الزمخشري (من) اسماً بمعنى بعض فجعلها مفعول (تُتْلُو).

وجعل الأخفش (من) زائدة لأنه يرى أن (من) تزداد في الإثبات فجعل (نبأ موسى) هو المفعول، جر بحرف الجر الزائدة.

والنبا: الخبر العظيم^(١).

قال القشيري:

«سماع قصة الحبيب من الحبيب يوجب سلوة القلب، وذهاب الكرب، وبهجة السر، وثلج الفؤاد - وقد كرر الحق قصة موسى تفخيماً لشأنه، وتعظيماً لقدره، ثم

زيادة في البيان. لبلاغة القرآن، ثم إفادة لزوائد في المذكور قوله في كل موضع يتكرر فيه^(١).

﴿نَتْلُوْا عَلَیْكَ مِنْ نَّبَاٍ مُّوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُوْنَ﴾

قال الشيخ اطفيش:

«نتلو: نقرأ، سميت القراءة تلاوة، لأن فيها تلو حرف لحرف، وتستعمل التلاوة بمعنى تتبع القرآن بالقول والعمل، وشهرت بمعنى القراءة، فيحمل عليها، فالتلاوة أعم من القراءة».

ويرى الشيخ أن إسناده التلاوة إلى الله (في قوله: نتلو) مجاز عقلي أو مجاز لغوي، أو مرسل، وإما استعاري.. (ولن نثقل بتفصيل ما قال ولا بمناقشته).

من نَبَأٍ: نعت لمفعول محذوف، أي شيئاً ثابتاً من نبأ.

مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ: أي خبرهما، ومن تبعيضية، أو ابتدائية، أو بيانية، نتلو عليك شيئاً هو نبأ موسى وفرعون، ويكفي في البيان ما ذكره منه بلا استقصاء.

بالْحَقِّ: بالصدق. لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ: نفع لهم أو لأجلهم، يؤمنون بعد التلاوة بقرب أو بعد، ولو بعد موته ﷺ^(٢).

(١) اللطائف، ج ٥، ص ٥٣.

(٢) تيسير التفسير: ج ٩، ص ٣٩٦.

الآية الرابعة:

﴿إِنْ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضِعُّ طَائِفَةً مِنْهُمْ يَتَّبِعُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾.

نتنقل الآية (من قصة موسى وفرعون) إلى إعطاء مركز لمعاني القصة وتلخيص وتكثيف، يتمثل هذا في أن فرعون علا في الأرض، وتعطينا الآية النتيجة وتصف الواقع، دون أن تفصل كيف وصل هذا الواقع إلى ما وصل إليه، فالحاصل أن فرعون علا في الأرض، والتكثيف القرآني العجيب للمعاني يعطيها في كلمة واحدة، ثم شغل قدراتك أنت، العقلية والنفسية والعلمية والتخيلية، والثقافية، والاجتماعية والسياسية، في تمثل هذه الكلمة، ولك أن تستفيد من خبرتك في دراسة التاريخ والتجمعات، في تصور معنى هذه الكلمة الموجزة الجامعة: ﴿عَلَا فِي الْأَرْضِ﴾.

ونعير ونكرر، كم هذا القرآن عجيب! فأنت تعلم أن القرآن في أول سورة نازلة منه حذر من الطغيان، الذي هو في أجلى صوره أن تتكسد القوة، وتتجمع مصادرها وعناصرها في قبضة واحدة، فتجمع السلطات في يد نكبة النكبات، وبلية البليات وكارثة الشعوب والمجتمعات، وسبب كل الأزمات، ووراء كل التخلف والانهيارات.

قال العلامة محمد حسين فضل الله:

«فرق كلمتهم، ومزق وحدتهم، وأثار النزاع والخلاف بينهم على مستوى علاقات الأفراد، من خلال المصالح والأطماع الذاتية، وعلى مستوى علاقات الجماعات، عبر الأوضاع العائلية والامتيازات الطبقية، وغير ذلك مما جعل المجتمع مستغرقاً في مشاكله وخلافاته، مشدوداً إلى الآفاق الصغيرة التي تحيط به، مبتعداً عن قضايا المصير المتمثلة بالإنسانية والحرية والعدالة، خاضعاً للقوة المستعلية المستكبرة التي يعمل على الخضوع لها، لتتدخل في شؤونها، ولتتحكم في حياته - وهذا هو

أسلوب الطغاة في كل زمان ومكان في إحكام سيطرتهم على الشعوب، بالعمل على إثارة الانقسامات والخلافات بين أفراد الشعب، لينشغلوا بمشاكلهم الذاتية عن التفكير في مواجهة الطغاة في مخططاتهم العدوانية - وهكذا كان أسلوب فرعون في هذا الجانب من خطته، حيث اختار قسماً من الناس ليكون فريقاً له واختار فريقاً آخر ليكونوا ساحة لتجربة ظلمه وتنفيس عقده»^(١).

وهل نسيت أن أول بلاء البشرية، وأول معصية وقعت في الكون كانت بسبب هذا العلو وهذا الاستكبار، فنفار إبليس عن السجود حصّره الله في هذين العنصرين اللذين هما من منبت واحد، وساق واحدة تفرعت إلى غصنين خيبيين: الاستكبار، والعلو: ﴿إِلَّا إِلِيلَسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ (٧٦) قَالَ يَا إِلِيلَسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِإِدْنِي اسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ ﴿[ص: ٧٤-٧٥].

ومن عجائب موافقات القرآن أن الآية المتكلمة عن استكبار إبليس هي الآية (٧٤) وأن مرات ورود (فرعون) في القرآن: (٧٤) مرة. وعلو فرعون في الأرض مقترن بخفض آخرين هم الشعب المصري.. فما ارتفع أحد إلا بانخفاض طرف آخر، وما شبع أحد وأتخم، إلا بتضرر آخر.. وما انتفع أحد إلا بتضرر آخر.

وكيف تهتمش الشعوب وتنكمش، وتقلص وتراجع، وتنكفي وتنحط؟ هذه قصة طويلة. كيف تنتقل من الفعالية والخيرية إلى الزيدية والغثائية كما حصل لأمة محمد ﷺ، هذا أمر ينبغي أن تتصدى له العقول بروية، علها تخرج بعلاج لأزمته المستعصية التي امتدت قروناً.

والقرآن العظيم أعطانا مفتاحاً مهماً للفهم، ونافذة على التاريخ لاستقراءه ببصيرة ووعي، من أجل فهم التاريخ أولاً وترشيد الواقع ثانياً، وتأمين المستقبل والأجيال من العثرات التي وقعت فيها الحضارات ثالثاً.

(١) فضل الله: من وحي القرآن ج ١٧، ص ٢٦١-٢٦٢، ط ٢ بيروت: دار الملاك ١٤١٩/١٩٩٨.

قلت: إن القرآن أعطانا قاعدة في الفهم والتصور إذ قال: ﴿وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضِعُّ طَائِفَةً مِّنْهُمْ﴾، فرعون حتى يتسنى له السيطرة على الشعب، خطأ الخطوة الأولى في غزيق نسيجه الاجتماعي والسياسي، وضرب بعضه ببعض، فأقصى طائفة وقرب طائفة، وحرّم طائفة وأغدق وأنعم على طائفة، وعذب طائفة بتذبيح أبنائهم واستحياء نسائهم وهو عذاب مزدوج لمن كان له قلب وكرامة. فقتل الأبناء عذاب، واستبقاء النساء للاستمتاع بهن أو لتسخيرهن في العمل الشاق المجاني عذاب آخر يتجرعه غصصاً كبار السن الذين أبقاهم فرعون، ليزوقوا على يديه الحسف والهوان.

هذا التعذيب سلاح مزدوج كذلك، فهو من ناحية يقمع طائفة هي بني إسرائيل، وهو من ناحية أخرى يردع طائفة أخرى هي شعب مصر. إذ يقول هؤلاء: اسكتوا وإلا حصل لكم وحل بكم ما حصل لهم وحل بهم. ثم استفيدوا من المصادرات التي يجرى بها النظام في أملاك بني إسرائيل ويرد بعضها إلى المصريين، واستفيدوا من تسخير العمال للعمل في مزارعكم ومصالحكم.. فهو بهذه الطريقة الشيطانية قسم المجتمع فأضعفه فصار عاجزاً عن مناجزته أو رفع الصوت في وجهه، وهذا العجز يتجلى أشد ما يتجلى إذا وقع المجتمع في مواجهات مع قوى خارجية غازية طامعة. إنه سينهار كبناء من قش، ليظهر العوار والتشوهات. التي خلفها الاستكبار على نفسية الفرد وعلى نفسية المجتمع ونسيجه الاجتماعي والسياسي والإنتاجي والوطني، وفعاليته الاجتماعية.

إن الفساد يسري من فرد ليصبح أمة ومجتمعاً. وإن ضعف مجتمع يغري ذا نفسية مريضة مصابة بجنون العظمة يغريه بممارسة هوايته في القمع والاستكبار. والأمر سهل، فما عليك إلا أن تقرب فئة من المنافقين تعلقهم، فيربطوا مصيرهم بمصيرك، لأن عزلتهم عن شعبهم تجعلهم يرقمون أكثر فأكثر على أقدام الجلاد. ولك أن تتصور من طريق المضاهاة والمماهة، من يربطون أنفسهم بالمستعمر، بإسرائيل على سبيل المثال، كيف تصبح خدمتها في نفوسهم عملاً يستमितون فيه!

إن الاستقطاب الذي أحدثه فرعون في المجتمع المصري جعله مجتمعاً برسم الانحلال والتمزق، قابلاً للتفجر في أي لحظة. وهذا الإذلال لبني إسرائيل طبعهم بالذل جيلاً بعد جيل إلى ما لا نهاية. فقال الله عنهم: ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ﴾ [آل عمران: ١١٢].

وقد صوّرت الآية من خلال الفعل المضارع: (يستضعف، يذبح، ويستحي) ممارسات هذا الطاغية.

إن القرآن يكشف طبائع الاستبداد في كلمات موجزة مركزة، وما على علماء الاجتماع والدين والاجتماع الديني والسوسيولوجي والأنثروبولوجي إلا أن يغرفوا من بحر معاني القرآن ويدرسوا ويحللوا.

ثم تحتّم الآية بتأكيد مضمونها من فساد فرعون بالنص عليه نصاً فتقول: ﴿إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾. وهي كلمات جاءت في جملة اسمية، تفيد استقراره في وصف الفساد، وتؤكد الجملة الكريمة ذلك بأن ثم تفيد (عراقته) في هذا الفساد ورسوخ قدمه فيه من خلال (كان) وتمكنه منه بقوله تعالى: ﴿مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [إنه من زمرة المفسدين المتصفين بهذه الصفة الراسخين في هذا الخلق].

ولنزيدك بصيرة - إن شاء الله - بخطورة هذا الأمر نقول إن مادة (فسد) وما يتصل بها وما يشتق منها وردت ستين مرة بالتمام في خير الكلام: في القرآن الكريم، أربع منها في سورة القصص وحدها.

والعجيب أن اليهود الذين عانوا من هذا الفساد (أعداؤا إنتاجه) بل تولوا هم هذا الإنتاج على مستوى العالم، فصاروا الوكلاء والمنتجين والموزعين لهذه البضاعة في العالم، وصار الفساد والإفساد رسالتهم: ﴿لَنُفْسِدَنَّ فِي الْأَرْضِ﴾ [الإسراء: ٤].

ونخرج من الآية الرابعة لتستقبلنا الآية الخامسة بنسائم نستروح منها البشائر بعد الاختناق والإظلام الذي يمارسه الطواغيت والذي لخصته الآية السابقة.

قال في الظلال: «وبعد هذا الافتتاح يبدأ في عرض النبأ - نبأ موسى وفرعون. يبدأ في عرضه منذ أول حلقة في القصة - حلقة ميلاده -، ولا تبدأ مثل هذا البدء في آية سورة أخرى من السور الكثيرة التي وردت فيها. ذلك أن الحلقة الأولى من قصة موسى والظروف القاسية التي ولد فيها، وتجرده في طفولته من كل قوة ومن كل حيلة، وضعف قومه، واستذلالهم في يد فرعون.. ذلك كله هو الذي يؤدي هدف السورة الرئيسي، ويرز يد القدرة سافرة متحدية تعمل وحدها بدون ستار من البشر، وتضرب الظلم والطغيان والبغي ضربة مباشرة، وتمكن للمعزيين الذين لا حيلة لهم ولا وقاية. وهو المعنى الذي كانت القلة المسلمة المستضعفة في مكة في حاجة إلى تقريره وتثبيته، وكانت الكثرة المشركة الباغية الطاغية في حاجة إلى معرفته واستيقانه.

ولقد كانت قصة موسى عليه السلام تبدأ غالباً في السور الأخرى من حلقة الرسالة لا من حلقة الميلاد، حيث يقف الإيمان القوي في وجه الطغيان الباغى، ثم ينتصر الإيمان وينخذل الطغيان في النهاية. فأما هنا فليس هذا هو المعنى المقصود، إنما المقصود أن الشر حين يتمحض يحمل سبب هلاكه في ذاته، والبغي حين يتمرد لا يحتاج إلى من يدفعه من البشر، بل تتدخل يد القدرة وتأخذ بيد المستضعفين المعتدى عليهم، فتنتقمهم وتستتقد عناصر الخير فيهم، وتربهم، وتجعلهم أئمة، وتجعلهم الوارثين^(١).

قال الشنقيطي - رحمه الله - في أضواء البيان:

«ولم يبين هنا السبب الذي جعلهم به أئمة (جمع إمام)، أي قادة في الخير، دعاة إليه، ولم يبين هنا أيضاً الشيء الذي جعلهم وارثيه، ولكنه تعالى بين جميع ذلك في غير هذا الموضع، فبين السبب الذي جعلهم به أئمة في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَيْمَةً يَهْتَدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ٢٤] فالصبر واليقين، هما السبب في ذلك، وبين الشيء الذي جعلهم له وارثين بقوله تعالى: ﴿وَأَوْزَنَّا الْقَوْمَ

الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضَمُّونَ مَشْرُوكَ الْأَرْضِ ﴿[الأعراف: ١٣٧]﴾ كَذَرَكُوا مِنْ جَنَّتٍ وَعُيُونٍ ... كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ ﴿[الدخان: ٢٥-٢٨]﴾ كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَءِيلَ ﴿[الشعراء: ٥٩]﴾^(١).

ونواصل مع الظلال بعد فاصل أضواء البيان:

فهذا هو الغرض من سوق القصة في هذه السورة، ومن ثم عرضت من الحلقة التي تؤدي هذا الغرض وتبرزه، والقصة في القرآن تخضع في طريقة عرضها للغرض المراد من هذا العرض. فهي أداة تربية للنفوس، ووسيلة تقرير لمعانٍ وحقائق ومبادئ. وهي تتناسق في هذا مع السياق الذي تعرض فيه، وتتعاون في بناء القلوب، وبناء الحقائق التي تعمر هذه القلوب.

والحلقات المعروضة من القصة هنا هي: حلقة مولد موسى عليه السلام، وما أحاط بهذا المولد من ظروف قاسية في ظاهرها، وما صاحبه من رعاية الله وعنايته. وحلقة فتوته وما آتاه الله من الحكم والعلم، وما وقع فيها من قتل القبطي، وتآمر فرعون وملئه عليه، وهربه من مصر إلى أرض مدين، وزواجه فيها، وقضاء سنوات الخدمة بها، وحلقة النداء والتكليف بالرسالة، ثم مواجهة فرعون وملئه وتكذيبهم لموسى وهارون. والعاقبة الأخيرة - الغرق - مختصرة سريعة.

ولقد أطلال السياق في عرض الحلقة الأولى والحلقة الثانية وهما الحلقتان الجديدتان في القصة في هذه السورة لأنهما تكشفان عن تحدي القدرة السافرة للطغيان الباغي. وفيها يتجلى عجز قوة فرعون وحيلته وحذره عن دفع القدر المحتوم، والقضاء النافذ: ﴿وَمَكَرَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَفَرَّقُوا رِجْلَهُمَا فَخَسَفَ وَهُمَا يَحْزَنُونَ﴾. وعلى طريقة القرآن في عرض القصة، قسمها إلى مشاهد

وجعل بينها فجوات يملؤها الخيال، فلا يفوت القارئ شيء من الأحداث والمناظر المتروكة بين المشهد والمشهد، مع الاستمتاع الفني بحركة الخيال الحية.

وقد جاءت الحلقة الأولى في خمسة مشاهد. والحلقة الثانية في تسعة مشاهد، والحلقة الثالثة في أربعة مشاهد، وبين الحلقة والحلقة فجوة كبيرة أو صغيرة، وبين كل مشهد ومشهد، كما يسدل الستار ويرفع عن المنظر أو المشهد.

وقبل أن يبدأ القصة يرسم الجو الذي تدور فيه الأحداث، والظرف الذي يجري فيه القصص، ويكشف عن الغاية المخبوءة وراء الأحداث، والتي من أجلها يسوق هذا القصص.. وهي طريقة من طرق العرض القرآني للقصة. تساوق موضوعها وأهدافها في هذا الموضع من القرآن^(١).

قال الباقلاني في إعجاز القرآن:

«هذه الآية تشتمل على ست كلمات، سناؤها وضياؤها على ما ترى، وسلاستها وماؤها على ما تشاهد، ورونقها على ما تعاین، وفصاحتها على ما تعرف.

وهي تشتمل على جملة وتفصيل، وجامعة وتفسير: ذكر العلو في الأرض باستضعاف الخلق بذبح الولد وسيي النساء، وإذا تحكّم في هذين الأمرين فما ظنك بما دونهما؟ لأن النفوس لا تطمئن على هذا الظلم، والقلوب لا تقر على هذا الجور. (أي مع هذا الظلم والجور).

ثم ذكر الفاصلة التي أوغلت في التأكيد، وكفت في التظلم، وردت آخر الكلام على أوله، وعطفت عجزه على صدره.

ثم ذكر وعده تخليصهم بقوله: «ونريد أن نمن... الوارثين».

وهذا من التأليف بين المؤتلف والجمع بين المستأنس^(٢).

(١) الظلال، ج ٥، ص ٢٦٧٧.

(٢) الباقلاني: إعجاز القرآن، ص ١٩٣ - ١٩٤..

الآية الخامسة:

﴿وَرِيدٌ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِيكُ اسْتَضِعُّنَا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَوْرَثِكُ﴾

الحمد لله أن الذي يمسك بزمام الأمور هو الله عز وجل، وأن الذي يدير دفة التاريخ هو مالك الملك، لا الطواغيت المستلطون المستطونون على البشر. من هنا فإن الله تعالى يعلن لنا عن إرادته في ألا يظل الحال على ذاك المنوال من الفساد والظلم والضلal والاضمحلال، فله الأمر، وله الإرادة المشيئة النافذة، لكن كل شيء عنده بمقدار، وله في الوجود والمجتمعات سنن وقوانين ونواميس، تنظمه - أي الوجود - في جزئه المادي الطبيعي، وفي جانبه البشري والاجتماعي.

ومن نواميسه في الوجود البشري: مداولة الأيام، وتغيير الأحوال فلا يظل حال على الدوام: ﴿وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نَدَاؤُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٤٠] وهنا في هذه الآية الخامسة في سورة القصص، يعلن لنا ربنا عن إرادته في المن على المستضعفين، وتحويلهم من التبعية والذيلية والانقيادية، إلى الرأسيّة والقيادية.. وتحويلهم من عبيد إلى أحرار، ومن مملوكين تحت الإلإار، إلى مالكيين لحرثهم بل ملوك كما عبرت سورة المائدة في قوله تعالى على لسان عبده موسى: ﴿وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا﴾ فالحر هو الملك، والملك هو الحر. وليس شيئاً آخر.

إن إرادة الله نافذة، وقدره ماض، ومشيتته قاهرة، وقضائه مبرم، وقوله فصل، محتم، ولن يغالبه أحد، فمغالاب الغلاب مغلوب.

وقد شاء هذا الإله القدير المالك الأمر في هذا الكون الكبير، شاء أن يجعل المملوكين ملوكاً، والعبيد سادة، والمضطهدين أحراراً مستقلين.. ويجعلهم وارثين للأرض من أيدي المستكبرين.

أما كيف تمت هذه المشيئة؟ وكيف نفذت هذه القدرة؟

وكيف وقع هذا القضاء؟

فهذا ما سيتحدث عنه المقطع التالي، من بداية لا تخطر ببال، قد تبدو بعيدة، أو متواضعة، لا يستطيع الخيال ابشري أن يربط مقدماتها بنتائجها، لكنها في حساب الله اللطيف الخبير موصلة نافذة.

إن هذا التغير الكبير يبدأ من عند طفل رضيع صغير.. فإليك القصة من مبادئها كما يفصلها أو يوجزها المقطع الثاني، وقبل ذلك ننقل ما قال الظلال:

«يعلن الله هنا إرادته هو، ويكشف عن تقديره هو، ويتحدى فرعون وهامان وجنودهما، بأن احتياطهم وحذرهم لن ينفعهم. فهؤلاء المستضعفون الذين يتصرف الطاغية في شأنهم كما يريد له هواه، فيذبح أبناءهم ويستحيي نساءهم، ويسومهم سوء العذاب. وهو مع ذلك يحذرهم ويخافهم على ملكه، فيثب عليهم العيون والأرصاد، ويتعقب نسلهم من الذكور. هؤلاء المستضعفون يريد الله أن يمن عليهم بهباته، من غير تحديد، وأن يجعلهم أئمة وقادة لا عبيداً ولا تابعين، وأن يورثهم الأرض المباركة التي أعطاهم إياها عندما استحقوها بعد ذلك بالإيمان والصلاح، وأن يَكُنْ لهم فيها فيجعلهم أقوىاء راسخي الأقدام مطمئنين وأن يحقق ما يحذرهم فرعون وهامان وجنودهما، وما يتخذون الحيلة دونه، وهم لا يشعرون.

هكذا يعلن السياق قبل أن يأخذ في عرض القصة ذاتها، يعلن واقع الحال، وما هو مقدر في المآل. ليقف القوتين وجهاً لوجه: قوة فرعون المتنفسة المتفخخة التي تبدو للناس قادرة على الكثير، وقوة الله الحقيقية الهائلة التي تتهاوى دونها القوى الظاهرية الهزلية التي ترهب الناس.

ويرسم بهذا الإعلان مسرح القصة قبل أن يبدأ في عرضها، والقلوب معلقة بأحداثها ومجرياتها، وما ستنتهي إليه، وكيف تصل إلى تلك النهاية التي أعلنها قبل البدء في عرضها. ومن ثم تنبض القصة بالحياة، وكأنها تعرض لأول مرة، على أنها رواية معروضة لفصول، لا حكاية غيرت في التاريخ، هذه ميزة طريقة الأداء القرآني بوجه عام»^(١).

الآية السادسة:

﴿وَنُفِخَ فِي الْأَرْضِ وَرُئِيَ فِرْعَوْنُ وَهَامَنْ وَجُنُودُهُمْ لَهُمْ مَأْكَلُوا وَبِحَذْرٍ﴾

المناسبة:

هذه الآية تمام الوعد الذي في سابقتها، فقد كانت سابقتها تتحدث عن إرادة الله بالمن على المستضعفين، وهذه تتكلم عن التمكين لهم بعد جعلهم الوارثين.

المعنى:

يبين الله تعالى إرادته الكونية في المجتمعات البشرية، وأنه يريد أن يمكن للذين كانوا يستضعفون، بينما نري فرعون وهامان، وجنودهما، من هؤلاء الذين كانوا يستضعفون، نريهم منهم ما كانوا يخشون ويتحسبون منه.

وأن الظالم بالغا ما بلغت قوته وبطشه، يظل مشفقاً على نفسه من انتقام المظلوم، فإن كان فيه بقية إيمان، خشي من انتقام المنتقم من الظالم للمظلوم. وقد وردت صيغة مكته، ومكن له في القرآن العظيم مرات، وهذه نظرة عجلية على هذه الصيغة ومرات ورودها:

﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ﴾ [يوسف: ٢١، ٥٦].

﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ﴾ [الكهف: ٨٤] من قصة ذي القرنين.

﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ١٠].

﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِن مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ﴾ [الأحقاف: ٢٦].

﴿أَمْ يَرَوْنَ أَنَّهُمْ إِذَا هُمْ قَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ يَكُنْ لَكُمْ﴾ [الأنعام: ٦].

هذه بعض موارد هذه المادة في القرآن الكريم، وكل هذه مكية ولكنها وردت في ندرة في القرآن المدني مثل قوله تعالى:

﴿وَلَيْمَكُنَّ لَهُمْ دِينٌ رَبُّهُمْ أَلَّا يَرْضَىٰ لَهُمْ﴾ [النور: ٥٥].

﴿فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ﴾ [الأنفال: ٧١].

ولم يرد في القرآن المدني غير هذين الموضعين:

وورد ﴿مَكِينٍ﴾ (٤) مرات في السور المكية^(١).

قال الزمخشري في الأساس في معنى مادة (مكن):

«مكنه من الشيء وأمكنه منه، فتمكن منه واستمكن. ويقول المصارع لصاحبه:

مكّني.. وهو مكين عند السلطان.

ومن المجاز قيل: الناس على مكيناتهم. أي مقارهم..^(٢).

(١) المعجم المفهرس، ص ٦٧٢.

(٢) الأساس، ص ٦١٠.

تفسير المقطع الثاني

موسى الرضيع في يد فرعون

الآيات (١٣-٧)

تفسير المقطع الثاني

موسى الرضيع في يد فرعون

الآية السابعة:

﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي ۗ إِنَّا رَأَيْنَاهُ إِلَيْنَا ۖ وَجَعَلْنَاهُ مِنْ أَمْرِنَا ۖ سَلَامٌ﴾

بعد الموجز يتدئ التفصيل، ومن النهايات نعود إلى البدايات، ومن الغايات نرجع إلى بيان أسباب تحقيق هذه الغايات. والبدايات كما أسلفنا متواضعة لا تنبئ عن النهايات العظيمة، مثلما كانت بدايات قصة يوسف من إلقاء في السجن، ومن كان يظن أن هذه البدايات ستؤدي إلى تلك النهايات، وأن هذا المتنقل من محنة إلى محنة، سيخرج المسؤول الأول في القطر الأول في العالم وتذاك. والبلد نفسه، تعاد فيه القصة، بالسير قدماً مع التاريخ. فقصة يوسف في الزمان قبل قرون من قصة موسى.

المهم أن هذا المقطع يتدئ بقصص ما كان من أمر الإحياء إلى أم موسى بأن أرضعيه. والمخاوف محدقة، فإذا صارت محققة، فآلقه في اليم، واليم هنا ماء النيل والله أعلم. والمصريون يسمون النيل البحر، لعظمه.

وقد قُصَّ علينا هذا المشهد في سورة طه، ولا تكرار بين المشهدين، فهنا في القصص رسم الخطأ، وهناك في طه التنفيذ. وهنا في القصص الحديث عن الخطر وهو متوقع، وفي طه الحديث عن الخطر وهو واقع لا متوقع، ومن هنا لا نجد في طه: أرضعيه. والكلمات تتغير في طه ﴿فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ﴾ المفيدة للهدوء، إلى ﴿أَن تَقْذِيفِيهِ فِي الْتَابُوتِ فَأَقْذِيفِيهِ فِي الْيَمِّ﴾. إن الخطر ماحق ومحدق، فلتأت الكلمات معبرة مصورة لهذا الخطر فكان هذا التغيير في التعبير، ولا تكرير.

والقرآن يطوي التفاصيل لكنه ترك لنا أن نتصور أن الولد لبث في رعاية أمه زمناً، لا ندري طال أم قصر، دل عليه ﴿أَرْضِعِيهِ فَإِذَا...﴾ وهذا الزمن مهم للربط بين الأم ووليدها، ونعلم أن تحريم المراضع قدر قديم لا يحتاج إلى أسباب، لكن بقاء الولد مع أمه عوّده على الرضاعة منها، فلم يعد يقبل سواها، ولاحظ التوجيه العظيم لدرء الخطر والخوف، والمتمثل في المواجهة لا الانسحاب ولا الهروب: ﴿فَإِذَا خِفْتِ ... فَكَلِّبِيهِ ... وَلَا تَخَافِي﴾. إذا خفتَ ببساطة لا تخف - يعني: واجه الخوف لتتغذى من مستنقع الخوف. أما الفرار من الخوف، والهروب منه بحثاً عن أمن، فهذا يوطئه في النفس، ويجعل الخوف عقدة مستدامة أو مستديمة، إن على صعيد علم النفس الفردي أو الاجتماعي.

ومن هنا كلمة الصديق الرائعة الجامعة الذائعة الماتعة النافعة: «اطلبوا الموت توهب لكم الحياة». وكلمة سيف الله: «جتكم بقوم يحبون الموت كما تحبون الحياة». ومن هنا وصف أصحاب النفسية الإيمانية الجهادية من صحابة وتابعيهم: «لا يبالون أسقط الموت عليهم أم سقطوا هم على الموت».

هذه فلسفة عظيمة لو نعيها ونعقلها. إن الغنى في الاستغناء. فالغنى من استغنى عن الأشياء، لا من احتاجها فكذسها وأكثر من اقتناها وجمعها. ومن هنا فإن النبي ﷺ أغنى الناس لأنه أكثرهم استغناء عن الأشياء.. وعن المتاع الدنيوي الذي لا بقاء له.

يا أم موسى: ألقي الولد في اليم، وكلّيه إلى الله، فهو نعم الوكيل، وثقي بحفظ الله وصدقي وعد الله، فلقد وعدك بأن يحفظه، ليس هذا فحسب، بل سيرده إليك ولن يفجعك بمفارقته، والله فيما يتلي حِكَم. ثم بشارة فوق الحفظ والجمع أن الله سيجعله نبياً من المرسلين يصلح به أمته ويستنقذها من برائن الاضطهاد.

وقد تكلم المفسرون كلهم عما حوت هذه الآية من صنوف القول، وضروب البيان، وجوامع المعاني، وصروف البلاغة، وتصريف التعبير، إذ قالوا: جمعت هذه الآية بين فعلين ماضيين، وأمرين، ونهيين، وبشارتين، وهي في سطرين.

أما الخوف فهو مما يستقبل الوليد من خطر وتوقعات، لعل الغرق أيسرها. وأخطرها أن يقع في يد فرعون، وهو الذي كان. ليقع التحدي، ليرينا الله تعالى كيف ينفذ قدره، وكيف يتم مشيئته، وكيف ينجز وعده. وأما الحزن فهو على ما يخلفه الفراق من حرقة وحنين وأوجاع وأنين، واشتياق مؤلم، يذكرنا ما حصل ليعقوب عليه السلام، وهو يعلم أن ابنه محفوظ لكنه الشوق يعتلج بين الضلوع فيكوي ويحرق، حتى لقد فقد من شدة الوجد بصره، مع علمه بأن ولده حي وفي الحفظ.

قال القاضي البيضاوي: وأوحينا إلى أم موسى بإلهام أو رؤيا.

قال زادة: ذهب عامة المفسرين إلى أن الوحي ههنا لم يكن بإرسال رسول إليها من الملائكة، وإخبارها بواسطتهم، لأنه لو كان وحي إرسال لكانت رسولاً وذلك لا يجوز كما قيل:

وما كانت رسولا قط أنسى ولا عبداً وشخص ذو افتعال

أي ولا رجل ذو كذب، لأنه يجب تصديق النبي ﷺ والكاذب لا يجب تصديقه ولا يجوز أن تكون المرأة نبيه إذ اتفق أهل السنة والجماعة أن الذكورة شرط للرسالة لقوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِي إِلَيْهِمْ﴾ [يوسف: ١٠٩].

وفيه بحث، لأنه وإن جاز أن تلهم هي إرضاعه وإلقاءه في اليم كيف يجوز أن تلهم: ﴿إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾، فإنه لا سبيل إلى معرفة ذلك إلا بطريق المشافهة، والقول الصريح من أحد. ويجوز أن يوحى إليها بإرسال رسول يخبرها بذلك مشافهة ولا يستلزم ذلك كونها رسولاً، كما في قصة مريم من أن

جبريل عليه السلام أرسل إليها وقال لها: ﴿قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا﴾.

فقد أوحى إليها بإرسال الملك إليها ولم تصر بذلك رسولاً، فلم لا يجوز أن يكون الوحي إلى أم موسى كذلك؟^(١)

قال البيضاوي: «ولا تخافي عليه ضيعة ولا شدة».

قال زادة: قوله هذا إشارة إلى الفرق بين الخوف والحزن، إذ الخوف غم يلحق الإنسان لمتوقع لم يقع بعد وهو بصدده، والحزن كالخزن لغتان بمعنى، غم يلحقه لواقع وهو فراقه والإخبار به. فنهيت عنهما جميعاً. وأومات بالوحي إليها ووعدت ما يسليها ويسكن قلبها، وهو قوله تعالى: ﴿إِنَّا رَأَوُوهُ إِلَيْكَ﴾^(٢).
الآية الثامنة:

﴿فَالْقَظَّةُ ۖ آلَ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَمَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ﴾

ويختصر علينا القرآن رحلة الصندوق المحتوي على الولد، فيسارع بنا إلى النتيجة، من خلال فاء التعقيب: (فَالْقَظَّةُ) فلم تطل الرحلة على ما يبدو، إذ سرعان ما وقع في يد أخصامه الذين يبحثون عن أمثاله، ومن يتلمظون لقتل أي وليد، كائناً ما كانت أصوله ومنابته ونشأته. ومن الذين التقطوه؟ إنهم ليسوا العسكر الذين قد يخلصون وقد لا يخلصون وإنما: آل فرعون! خلاصاؤه وصفوته الذين لا يفوتون فرصة في تنفيذ إرادته ومشيتته. ويسارع النص الكريم إلى طمأنتنا وهذه نائير نفوسنا، فلقد خطر بالبال أن هذا الالتقاط مقدمة الإهلاك، ولكن

(١) حاشية زادة علي البيضاوي، ج ٦، ص ٤٢٩.

(٢) حاشية زادة، ج ٦، ص ٤٢٩-٤٣٠.

القرآن طمان البال إذ قال: ﴿لَيْسَ كُنْ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ فالولد سيعيش إذا حتى يكون مصدر إقلاق لهؤلاء المجرمين.

واللام في قوله تعالى: (ليكون) هي لام العاقبة، أي لتكون عاقبة هذا الالتقاط حزنهم ومثار غمهم. ولا يتصور أن تكون لام التعليل، فما أحد يلتقط ما يكون فيه ضرره! ثم علل كيف يكون هذا الوليد الصالح مصدر إزعاج أنه مصدر قلق لأن من يقلقهم هم مجرمون منحرفون، لا أنه هو المثير للإشكالات، والمهدد الاستقرار، والمقوض أركان الأمن والنظام، معاذ الله، فهو عدو ومصدر حزن لهم لأنهم هم يريدون دوام استعباد الشعب وهذا يعمل على تخليصه من نيرهم. من هنا سيقع الصدام الذي ستكون نتيجته نصر الإيمان ومن يمثله ليكون ذلك مصدر عنت لمن يحاد منهج الله. وما العيب إلا في النفس المجرمة - من هنا قال النص الكريم معللاً: ﴿إِنْفِرْعَوْنَ وَهَمْنٌ وَخُنُودُهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ﴾.

قال الطيبي في توجيه معنى اللام في قوله (ليكون):

«استبعاد لام كي لترتب وجود بين أمرين مطلوب الثاني بالأول لترتيب العداوة، والحزن على الالتقاط»^(١).

الآية التاسعة:

﴿وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرْتُ عَيْنِي لِي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَن يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ

لَا يَشْعُرُونَ﴾

هذه الآية تبين الوسيلة التي نجي الله بها موسى، ومولانا لا يحتاج الأسباب ولا الوسائل، معاذ الله، وإنما هي الأسباب لنا نحن لنفهم، وقد شرحت هذه الآية أختها في سورة طه: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي وَلَوُضَعُ عَلَىٰ عَيْنِي﴾ [طه: ٣٩]. فهذه المحبة التي

ألقاها الله على هذا الصبي، وأوقعها في قلب امرأة فرعون، حفظه الله، إذ جعلها تقف حائلاً دون موته، إذ قالت ما قالت وسجله القرآن: ﴿فَرَّتْ عَيْنِي إِلَى وَلَدٍ﴾ أي سبب استقرار وهناء لي ولك وقد صدق حدسها فيه بالنسبة لها، فكان لها قرة عين ونجاة من النار، إذ كانت من ضمن من آمن بموسى عليه السلام، ثم أردفت لتجعل ما سبق علة في منع ما سيلحق أو ما سيأتي، وهو القتل، فقالت: لا تقتلوه. ونفهم من قولها هذا أن القوم شرعوا سكاكينهم لذبحه، على ما هو ديدنهم ودأبهم، ثم بررت مرة أخرى بعد قولها لا تقتلوه، بقولها: ﴿عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا﴾، أي بالخدمة والمعونة، أو نتخذه ولداً بتبنيه إن رأينا فيه النجاة ومخايل الذكاء. ثم ختم النص الكريم الآية بقوله تعالى: ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾.

أي أن قوم فرعون لا يعلمون ولا يحسون بتدبير الله وتقدير الله، لا يعلمون ولا يشعرون أن هذا الولد سينقض ملكهم وينهي ظلمهم الذي طالت شكاية الناس منه. إن تدبير الله من اللطف بمكان بحيث لا يحس به أحد ولكن المؤمن يوقن بأن الله يقدر الأمور، ويدبر الأحداث، وإن كانت مبادئ الأمور وظواهرها لا تشير إلى شيء من ذلك.

الآية العاشرة:

﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أَرْمُوسَى فَزِعًا إِنَّ كَادَتْ لِتُبَدَّى بِهِ لَوْلَا أَنْ رَظُنَّا عَلَى قَلْبِهَا

لِتَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾

ويترك السياق الولد، وقد آمنه التدبير الإلهي بأن عطف عليه قلب هذه المرأة الصالحة: امرأة فرعون، ويا لعجيب التقادير! فمن كان يظن أن في بيت فرعون وبيته الطاغية، مثل هذه المشاهر الحانية؟!

أقول يعود النص بنا إلى الأم الفاقدة ولدها، والموقنة بصدق وعد ربها، ولكن مشاهر الفراق، ليست بالأمر الهين، فيقول النص الكريم: إن قلب أم موسى أصبح

فارغاً.. وهو نص عجيب. فالفؤاد أولاً قلب القلب، أي أن المأساة في الأعماق.. عميقة الغور نافذة إلى الصميم. مثلما هو اللب عقل العقل أو مركزه، فكذا الفؤاد بالنسبة إلى القلب، وأما وصف فارغاً، فهو كذلك عجيب. فهل هي تعني زوال ما يمسك القلب من التداعي؟ أو هي تعني أنه متفرغ من كل شيء إلا من شيء واحد وهم واحد هو همّ الولد؟ النص مطلق. والفراغ شامل. والمعنى عام.

ثم ذكر من علامات هذا الفراغ ومؤثراته أنها أوشكت أن تخرج إلى الشارع صائحة نائحة معلنة عن مشاعرها مفصحة عن مأساتها بفقد ولدها، مظهرة فجيعتها، ولو كانت فعلت لقتلت وليدها، لأنه سيقطع يقيناً بأنه من بني إسرائيل، وهذا كفيل بقتله. إنها كادت أن تفعل ذلك، لولا أن الله ربط على هذا القلب فلم تندلق منه مشاعره، ولم تنفلت منه أحاسيسه وهذا من تعهد الله لأوليائه، وحفظه للمصطفين من خلقه وخاصته. لقد ربط الله على قلبها لتكون بهذا الربط من المؤمنين.

فكان من علامات الإيمان أن يتحكم الإنسان في مشاعره وخاصة الأحزان. وهذا بفضل الرحمن ظاهر للعيان، في ما نشاهده من صبر الآباء والأمهات على استشهاده أبنائهم ونسف دورهم فوق قدحهم لأحبائهم - فتجد في البيت الواحد: الشهيد والجريح والسجين والمطارد، والبيت المنسوف. والسكينة مع كل هذا. فما التفسير إلا أنه الربط على القلب، والسكينة التي يقذفها الله في النفس!!

إنه الإيمان الذي يسكب راحة النفس وهدوء البال وسكينة القلب وامتلاء الفؤاد بالمعاني واليقين.

قال الدكتور شوقي ضيف:

«فارغاً: لا يشغله أمر سوى أمر موسى».

إن كادت لتبدي به: وإن كادت من شدة خوفها على موسى وقلقها عليه لتظهر أمره وتفتشي سره.

لولا أن ربطنا على قلبها: وشددنا عليه بالصبر والثبات^(١).

(١) شوقي ضيف: الوجيز في تفسير القرآن الكريم، ص ٦٢٦، ط ١ القاهرة: دار المعارف ١٩٩٥.

الآية الحادية عشرة:

﴿وَقَالَتِ الْاُخْتِيْهِ قُصِيْهٖ فَبَصَّرَتْ بِهٖ عَنْ جُنْبٍ وَهَمْ لَا يَشْعُرُوْنَ﴾

وقالت الأم للأخت تبعي أثر الوليد، والبنت والأم في منتهى الحكمة وحسن التدبير، وقد ألمح القرآن إلى ذلك أو صرح بذلك في قوله تعالى: ﴿فَبَصَّرَتْ بِهٖ عَنْ جُنْبٍ وَهَمْ لَا يَشْعُرُوْنَ﴾ وكم هي موحية مصورة معبرة هذه الكلمة العجيبة ﴿فَبَصَّرَتْ بِهٖ﴾ ثم كلمة ﴿عَنْ جُنْبٍ﴾ ثم ﴿وَهَمْ لَا يَشْعُرُوْنَ﴾.

وأظن أن تعبير بصرت به لا يعني أبصرته فحسب، وإنما يعني التمكن من هذا الإبصار والمتابعة الدقيقة والحثيثة. والعظمة أن كل ذلك تم، وهي متشاعلة في الظاهر عن الولد، كأنما تلتقط بعض أعشاب الأرض لتعد طعام أهلها. فهذه بعض ظلال (عن جنب)، لأنها لو أبدت اهتماماً للفتت إليها الأنظار، ولكشفت الأمر كله ولأودت بأخيها. ثم يؤكد القرآن هذا المعنى بقوله تعالى: ﴿وَهَمْ لَا يَشْعُرُوْنَ﴾ وهي المرة الثانية التي يتكرر فيها التعبير في غضون الآيات ما بين (٩-١١).

إن الدول تعيش بالهاجس الأمني، وقد غما عندها الحس الأمني، وتضخم لديها الإجراء الأمني والوقاية.. وهي قادرة على التحليل والربط، فأي خطأ جسيم وهو في العواقب وخيم فهذه بعض ظلال هذه الكلمات القرآنية المعجبة.

الآية الثانية عشرة:

﴿وَحَرَمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ

نَصِيحَةٌ﴾

يقص علينا القرآن في آيات قليلة قصة رحلة هذا الصبي في الصندوق، وقصة نجاته، وتدبير الله، ثم تدبير الأم، وتدبير البنت، وكيف أحبط الله تدبير فرعون، بمشاعر امرأة من قلب البيت الفرعوني. ومن يظن أن هذه المرأة لن تكون إلا مع

زوجها وهو أعظم ملوك الزمان في ذلك الزمان؟! تقص علينا الآية هنا طرفاً من تدبير الله في إرجاع الولد إلى أمه، فقد تم إنقاذه، وتمت نجاته، فتحقق شطر الوعد، فبقي أن يعود إلى حضن أمه، فكيف يتم ذلك؟

لقد دبر الله تدبيراً خفياً لطيفاً أن يحرم المراضع على هذا الولد، فلا يقبل منها واحدة، وحار القوم الذين تبنيه كيف يتقذونه، فصاروا يتطلعون إلى من يخلصهم من ورطتهم.. خاصة وأن الولد صار أثيراً عند امرأة فرعون، والعزيز على المرأة، عزيز بالتبع على زوجها، على الأقل لكسب رضاها، إن لم يكن يشاظرها مشاعرها نحوه.

هنا تتدخل البنت النبيهة عارضة خدماتها: هل أدلكم وأرشدكم إلى أهل بيت، ولم تقل إلى أم، وإنما عممت القول: أهل بيت، يتكفلون الولد، وعممت مرة أخرى ولم تقل يرضعونه لكم. إن الكلمة محسوبة، واللفظة قد تتبعها من الأجهزة توريطات، فلتكن البنت حذرة، وقد كانت، فطنة، وقد كانت يقظة واعية، وقد كانت، محسوبة الكلمات وقد فعلت! فبلغت رسالة أمها بأدق صورة، ولم تُثر ريبة احد. ثم لم تنس أن تصفهم بالإخلاص في العمل والنصح، إذ قالت: ﴿وَهُمْ لَمْ تَنْصَحُوا﴾.

ولك أن تتصور تفصيلات كثيرة، وتخيّل بعقلك فراغات تركها النص قصداً لا سهواً ولا نسياناً، من مثل الإجابة عن أسئلة: كيف ترضع هذه المرأة ولا ولد لها؟ أين ذهب ولدها؟ إن الأجهزة لا تقبل الأمور بهذه السذاجة والبساطة، لكن القرآن يدع لعقلك أن يغطي هذه التفاصيل الصغيرة المهمة.

الآية الثالثة عشرة:

﴿فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ۚ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾

وينجز الله وعده، فيرد الولد إلى حضن أمه، كي تقر عينها، ويهدأ فؤادها وتبرد نارها، ولا تحزن على فراق فلذة كبدها، ولتعلم علم اليقين، بل عين اليقين عن ذوق ومعايشة وممارسة، لا عن وعظ وقول ومدارسة، لتوقن أن وعد الله ناجز نافذ، ووعد

حق لا يخلف، لأنه القادر على إنفاذ ما وعد، لا يعوق نفاذ إرادته شيء ولا أحد، ولا يغلبه ظرف ولا مشغلة ولا طارئ غير متوقع، معاذ الله.

لقد نفذ وعد الله، وأنجز للأمم ما أوحاه إليها أول ابتلائها بالقاء ولدها، فالآن تأتي جائزة اليقين بعد الامتحان غير الهين. وهو درس كبير في الإيمان والتسليم.

وتختتم الآية بأن أكثر من تدور الأحداث أمام أعينهم لا يعلمون ما يجري ولا يدرون ما يدبر. ولا يعلمون كيف تجري المقادير.

تفسير المقطع الثالث

موسى يَقْتُلُ الْقِبْطِي وَيُهَاجِرُ

(الآيات ١٤-٢٢)

تفسير المقطع الثالث

موسى يقتل القبطي ويهاجر

الآية الرابعة عشرة:

﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَىٰ ءَاتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾

في هذه الآية نقلة واسعة في حياة موسى، لا أقصد المكان، وإنما أقصد النقلة الزمنية - فقد طوت كلمة (ولما) من عمر موسى عليه السلام ما لا يقل عن سبعة عشر عاماً، فبينما كانت الآية السابقة تتحدث عن المراضع، تتحدث هذه الآية عن بلوغ الأشد، وهو في حدود العشرين أو قبلها بقليل أو حوالها.. وهذه طريقة القص القرآني في طي المراحل العمرية التي لا أحداث مهمة فيها، وصولاً إلى الأحداث المهمة.

ففي هذا المشهد الذي انتقل إليه السياق سيحدث حدث يكون له في حياة موسى أبلغ الأثر، فسيترتب عليه انتقاله من مصر إلى مدين، وغيباه عن مكانه مولده، عشر سنين. ثم إن هذا الحدث الذي قصه المشهد الذي نحن بصدد الآن فيه قتل القبطي، وهو الموقف الذي ظل هاجساً مؤرقاً لموسى، خوفاً من ربه، وظل نقطة استغلال يحاول فرعون من خلالها تأليب الشعب عليه.

على كل حال، نعود إلى النص الكريم، حيث طويت السنين، لنقف عند مرحلة الرجولة بعد الطفولة، يقول النص: إن موسى عندما بلغ أشده واكتملت قوته (واستوى). وهذه الكلمة لم تقل في سرد قصة يوسف، بل قيل هناك ما قيل هنا باستثناء هذه الكلمة، فقد قيل: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ ءَاتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي

الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٢٢] لأن موسى اكتملت له القوة، بينما تم ليوسف الجمال عليهما السلام. لما بلغ موسى مبلغ الرجال تفضلنا عليه وأنعمنا عليه بإعطائه

الحكمة. وهي خير ما يزين أخلاق الرجال، وأكرمناه بالعلم، وهذا جزاؤنا لعبادنا وأحبابنا من المحسنين، وهذه سنتنا فيمن كان من هؤلاء الكرام الذين أخلصوا عملهم لربهم وأتقنوه.

الآية الخامسة عشرة:

﴿وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينٍ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِنْ شِيعَةِ ۖ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِ ۖ فَاسْتَغْنَتْهُ ٱلَّذِي مِّنْ شِيعِهِ ۚ عَلَى ٱلَّذِي مِّنْ عَدُوِّهِ ۖ فَوَكَرَهُ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ۖ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ ۖ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ۝﴾

في المشهد الذي تعرضه هذه الآية طي مقصود، ولو أراد أن يفصله لفعل، لا أقصد بالطي اسم المدينة، فهذا مما درج القرآن على إغفاله عن قصد تام، وما كان يذكر بعض الأماكن - في ندرة تامة - إلا ليقيم الحجة على العرب بالقصص التي حدثت في بلادهم، وذكر بعض أماكن التعذيب، كالأحقاف، مثلاً. أقول: لست أتكلم عن هذا، وإنما أتكلم عن طي ما هو أهم: لماذا يدخل موسى المدينة على حين غفلة من أهلها؟ وأما الغفلة هذه، فإما أن متخفٌ متنكر حتى لا يُعرف، وإما في الأوقات التي تخف فيها الحركة وقت اشتداد الحر مثلاً، وإما غير ذلك.

والذي يثير السؤال أن موسى الآن بالنسبة للبلاط هو ولي العهد وريبب القصر، ألم تقل المرأة في مشهد سابق: ﴿أَوَلَمْ تَتَّخِذْهُ وَلَدًا﴾، فكنا نتوقع أن نراه يعامل على هذا الأساس، والذي طواه القرآن مع السنين التي طواها وترك للعقل والخيال أن يستنتج، وأن (يجسّر) المنطقة المزروعة من القصة. والذي أظنه أن موسى عليه السلام بدأت مواقفه تنفرج عن مواقف القصر والرسميين، وتنحاز بالتدريج يوماً بعد يوم للشعب المضطهد المقهور، فما كان لموسى أن يقر الظلم مطلقاً، فكيف يقره وهو واقع على شعبه؟ ومن حكمة الله في تربية أمه له، لا أن يحفظ فحسب، وإنما أن تحفظ ذاكرته وولائوه وانتماؤه، وتبنيه لقضية شعبه.

لقد أصبح موسى معروفاً على مستوى القطر المصري أنه نصير المظلومين والمضطهدين والمقهورين. ولسنا نقول هذا رجماً بالغيب وإنما نقوله استشفافاً من النص الكريم. كيف هذا؟ إن الرجلين المقتلين، بمجرد أن رأى المظلوم منهما موسى عليه السلام استنجد به، واستغاثه، وما كان ليفعل لو لم يكن يعلم أنه نصيره وأنه وليه وولي كل منتقصة حقوقه.

وقول القرآن: ﴿هَذَا مِنْ شِيعِنِهِ وَهَذَا مِنْ عُدُوِّهِ﴾ واضح في هذه المسألة. حاسم في الدلالة على ما نقول، إن شاء الله. لقد اغاز موسى، لا نقول للشعب، فحسب، وإنما اغاز للحق، نصرة للمظلوم، وانتصافاً من الظالم. ولئن لم تكن دعوة الدعاة في صميمها حركة تحرير للمستضعفين، فلعمر الحق إنهم ما وعوا رسالتهم، ولا عقلوا ما يحملون.

ونحن لا نتصور أن المظلوم إلا من الشعب المستضعف، ألم يمهّد القرآن لنا من أول السورة سبل الفهم إذ قال: ﴿يَسْتَضَعِفُ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَشْيَاءَهُمْ﴾؟ وإن هذه السياسة تسري من الرأس إلى القاعدة، ومن قمة الهرم إلى أسفله، ومن الحاكم إلى المحكوم. وهل إذا رأيت اثنين يشتجران اليوم في فلسطين، كنت تظن أن المعتدي من الشعب الفلسطيني؟ إنها سنة الحياة أن من يملك القوة هو يبدأ العدوان، ومن يملك النفسية الاستكبارية هو الذي يمارس الطغيان، وأن الآخرين يبحثون عن (الستر) وعن لقمة العيش، وأن يمر يومهم بسلام، حتى لا يؤخذوا بالنواصي والأقدام.

وفيم كان الرجلان يقتتلان؟ هذا ليس من دأب القرآن ولا من منهجه أن يدخل في مثل هذه التفاصيل. هذا نهج التوراة المزورة، ومن ينقلون عنها. لكن النهج القرآني العظيم في القصص لم يفته أن يشير إلى الفرز الاجتماعي أو السياسي، سمه ما شئت: ﴿هَذَا مِنْ شِيعِنِهِ وَهَذَا مِنْ عُدُوِّهِ﴾ لقد ترسخت روح الفصل بين الفئات بدل التعايش، وروح الاستقطاب وانغلاق المجموعات على بعضها، وعن

بعضها، بدل الانفتاح والاندماج. لقد تمزق النسيج الاجتماعي وضربت شبكة العلاقات ليتم لفرد ممارسة طغيانه، وهو لا يرى ذلك متاحاً وممكناً إلا بسياسة: (فرّق تسد)، وتقسيم الشعب وإلهائه ببعضه وإشغاله بمشكلاته الداخلية، لأن الشعب إن اتحد وتفرّغ نهش في الحكم، فليظل منشغلاً بلقمة الخبز أولاً، ثم بالصراع البني ثانياً. ولتصدع رؤوس الناس من أجل أن ترتاح من الصداق رؤوس من في القمة. المهم أن الرجل المستضعف بمجرد أن لمح موسى فكأنما هبط عليه من السماء، نجدة أرسلها الله، وغيثاً إلهياً جاء به القدر فاستغاث الإسرائيلي بنصيره، فتدخل موسى لنصرة الضعيف وتخليص المظلوم، فدفع الظالم دفعة قضت عليه. شاء الله أن يتزامن انتهاء أجله مع دفعة موسى: ﴿فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ﴾ لكن هذا العبد الصالح الذي يأبى الظلم يأبى أن يوقعه على الناس، ولا يقدر طعم الحرية للآخرين كرجل حر عانى من استعباد شعبه. إن موسى لم يقصد من قريب ولا من بعيد قتل المصري. لكن هذا الذي حدث. فما كان من هذا العبد الأبواب الرجاء إلى الحق، إلا أن وصف العمل فوراً بأنه من عمل الشيطان، وهنا مفرق الشخصية الإيمانية التي ترجع إلى الحق وتعترف بالذنب، بينما الشخصية الطاغوتية تأخذها العزة بالإثم، وتعالج الخطأ بمزيد من الأخطاء، مثلما (عالج) إبليس إباء السجود، بتعهده وتوعده بإضلال الخلق جميعاً كما ضل هو.

ثم واصل موسى تبرؤه من الشيطان وعمله بأن وصف الشيطان بأنه: ﴿عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ﴾ فهو ليس بالعدو السليبي الساكن، ولكنه عدو متحرك ذو مخططات في رأسها الإضلال، وهو ليس بالعدو المستكن المستخفي ولكنه العدو المستعلن البين.

الآية السادسة عشرة:

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾

يواصل موسى في هذه الآية اعترافه بذنبه، أمام ربه تبارك وتعالى، فيناجيه في خشوع، ويعترف بين يديه في خضوع، قائلاً: رب إني ظلمت نفسي بارتكاب هذا الفعل الذي لا ينبغي لي، ولا يقره دينك، وتأباه شرائعك، وتكرهه رحمك بخلقك، فالدماء في دين الله من أعظم المحرمات المساس بها. وموسى المؤمن بربه يعلم هذا، وموسى المقتول شعبه خير من ينفر من هذا، لكن هذا الذي حدث، وما باليد الآن حيلة، إلا إصلاح ما بين العبد وربّه، فما تم قد تم، ثم يطلب من ربه بعد اعتراف موسى بذنبه أن يغفر هذا الذنب فيستره ويمحوه عنه ولا يقيدّه في صحائف عمله مئة منه سبحانه وتفضلاً، فاستجاب له ربه فغفر له، وكيف لا يغفر لعبده وقد جاءه مقرأ بالذنب مبادراً بالتوب خاضعاً للرب، كيف لا يغفر مولانا الذنب وهو الغفور الرحيم؟

الآية السابعة عشرة:

﴿قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيراً لِلْمُجْرِمِينَ﴾

ويحس موسى عليه السلام بأن الله غفر له، فيقول شاكراً لمولاه، قاطعاً العهد على نفسه ألا يعود: ﴿رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ﴾ يا ربي إني بمَنكَ عليّ وما أكرمتني من قبول توبتي، فلن أكون في يوم من الأيام ظهيراً ولا نصيراً للمجرمين.

لقد عمق الحادث انتماؤه، وعزز ولاءه، وزاده نفوراً من الظلم والظالمين وابتعاداً عن المجرمين. فكل الذي حدث من انقسام الشعب واحترابه المؤدي إلى خرابه، إنما سببه إجرام المجرمين، فيا رب بنعمتك عليّ فلن أكون في صفهم.

لقد تجاوز ببصره وفكره وبصيرته حدود مشكلته الراهنة إلى المتسبين فيها، وكثيراً ما ينشغل الناس بالتنازع وينسون الأسباب. والأعداء فنانون في الإلهاء. لم يصل موسى إلى قرار بالسلبية كرد فعل على الخطأ الذي حصل منه، معاذ الله، وإنما زاد إصراره على علاج المشكلة من جذورها.. وأول ذلك ألا ينخرط هو في صفوف

المجرمين وألا يؤازرهم. وكثيراً ما انخرط الذين يعانون ويعاني شعبهم من عدو، كثيراً ما انخرطوا في صفوف هذا العدو وبعض الناس يحبون جلاذيتهم. وهذا من أشد الأمراض. إنما الوضع السليم أن يكره الإنسان مستعمر شعبه، وأن يقاوم الظلم. إن ضرب مراكز الإحساس بالظلم يعني ركود التاريخ، واستمرار هيمنة قوى الاستكبار، والدين في صميمه رفض لعبودية البشر للبشر، واستعباد البشر للبشر.

وما أصدق كلمة ربي رضي الله عنه: «الله ابتعثنا لنخرج العباد من عبادة العباد إلى عبادة الله رب العباد» ويا سلام على الفهم الصحيح لروح الدين!

الآية الثامنة عشرة:

﴿فَأَصْحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اَسْتَنْصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِحُهُ قَالَ لَهُ مُوسَى إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ﴾

تكلمنا الآية الكريمة هذه عن الوضع النفسي والأمني الذي أصبح فيه موسى عليه السلام، فتقول: ﴿فَأَصْحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ﴾ وهذا يعزز ما قلناه من انفصال موسى عن ربه وعن بلاط فرعون. وانحيازه النهائي إلى الحق ثم قضايا الناس. ولو كان ما زال يُعامل معاملة الابن لما عنى قتل المصري شيئاً. (وليه يعني؟) ماذا يعني قتل فرد على يد ابن المسؤول؟ لكن الذي كان ابناً أصبح الآن في خندق الأعداء، ولذا بات خائفاً يتوقع ويحاذر ويلتفت بمنة ويسرة يترقب أن يأتيه الطلب أن تضبطه قوات التعقب المتخفية أو الظاهرة، ويرشد إليه العملاء والمنبثون من شعبه في شعبه. وقديماً وحديثاً تتحول شريحة من الشعوب المحتلة من الحثالة والسفلة، يتحولون إلى عيون وآذان لعدوهم على شعبهم، وإلى أيدي باطشة بشعبهم لحساب عدوهم لا جديد تحت الشمس. هذا مكرور مشهور، لا غرابة فيه.

المهم أنه بينما كان على حاله هذا من التخفي وتوقع الشر ومحاذرة رجال القصر، إذ بالذي استنصره وطلب معونته بالأمس يستصرخه اليوم، فقال له موسى: إنك لرجل ضال واضح الضلال، ولا يقصد أنه هو الذي ظلم المصري،

وإنما يقصد أنه كان ينبغي عليه أن يتجنب ما استطاع الدخول في مشكلات ومنازعات، خاصة وأنه تسبب أمس في قتل رجل، وتسبب اليوم في كشف موسى الذي يحرص على إخفاء نفسه. فقال موسى للإسرائيلي ما قال، ووصفه بالضلال وفساد الحال، وأنه بين الضلال لا خفيته.

الآية التاسعة عشرة:

﴿فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَنْ يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُمَا قَالَ يَمْوَسَّىٰ أَرِيدُ أَنْ نَقْتُلَنَّكَ ۖ كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ ۚ إِنَّكَ تُرِيدُ لَأَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمَصْلُحِينَ ۝﴾

ومع توجيه موسى من التقرع للإسرائيلي ما وجه، وقوله له ما قال، فإنه لا يطيق الظلم بحال، ولذا توجه في الحال لنصرة المظلوم، وأراد أن يضرب الظالم وأن يبطش به، وتعبير القرآن الموحى هو: ﴿بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُمَا﴾ وهو يشير إلى قضية الفرز التي أسلفنا الإشارة إليها. لما توجه موسى إلى القبطي ليردعه صاح القبطي بعد أن سمع نداء الإسرائيلي لموسى، صاح يريد أن يلفت الناس إليه، ويجمعهم عليه: ﴿يَمْوَسَّىٰ أَرِيدُ أَنْ نَقْتُلَنَّكَ ۖ كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ﴾ هل تريد أن تكرر جريمتك؟ هل استمرت قتل المصريين؟ إنك ما تريد الإصلاح في الأرض كما تقول، ويبدو أن شهرة موسى في المجتمع بهذا الوصف قد طبقت الآفاق، فيحاول المصري أن يقلب هذا الوصف، فيقول: إنك لا تريد أن تكون مصلحاً من المصلحين، وإنما تريد أن تكون جباراً من الجبابرة المستكبرين، شأنك شأن من تعترض عليهم من المصريين.

الآية العشرون:

﴿وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَمْوَسَّىٰ إِنَّكَ أَلَمَّا يَأْتِمِرُونَ بِكَ لَيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ ۚ إِنَّكَ مِنَ النَّاصِحِينَ ۝﴾

وكما أرسل الله لموسى من ينقذه طفلاً من بين يدي الموت، وكان المنقذ من آل فرعون يرسل الله لموسى هذه المرة من ينقذه من الموت، ويكون أيضاً من آل فرعون. وإلا فكيف عرف بتأمر الملاء؟ يقول النص الكريم مفتتحاً بالفعل الماضي

من أجل السرد ثم منتقلاً إلى المضارع من أجل التصوير بعد السرد، فقال:

﴿وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ يَسْعَى﴾ وتأمل نفس المشهد من سورة (يس) لكنه مؤمن آخر، والآية تحمل الرقم (٢٠) نفسه الذي تحمله آية القصص، والخلاف أن النص في يس قدم المكان على الشخص في قوله: ﴿وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى﴾. والقرآن الكريم لا يقدم ولا يؤخر إلا للمحظ. فقدم الرجل هنا في القصص على المكان مع أنه لم يقتل، وأخر الرجل في يس مع أنه قتل بدلالة: ﴿فَبَلَّغَ الْبَنَاتِ﴾ وبدلالة: ﴿وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ جُنْدٍ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُنْزِلِينَ﴾ (٢٨) إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ﴾ إنه أمر يستحق التوقف.

لكننا الآن نعود إلى سرد قصتنا، فهذا الرجل من علية القوم الذي اطلع على هذه المعلومة المهمة، جاء مهرولاً مسرعاً يبلغ ما علم لموسى، علّه بهذا ينقذ نفسه ونفس من؟ نفس موسى المتوقع له أن ينقذ أمة عليه السلام. وبعده أن قدم المعلومة لموسى قدم مطالعته تعليقاً عليها، وهي نصيحته لموسى بأن يخرج من البلد مهاجراً لأنه الآن مطلوب رأسه.

الآية الحادية والعشرون:

﴿خَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ وأخذ موسى بالنصيحة، لأنها كانت في محلها بالضبط. وكثيراً ما تكون الآراء مغالية، والاجتهادات مبالغاً فيها، مهولة..

المهم أن موسى خرج ولكنه ما زال خائفاً يترقب وهو الوصف الذي تكرر قبل قليل.. مما يؤشر على أن المواطن في ظل أنظمة الخوف والإرهاب لا يأمن على نفسه ولا على حريته.. ولا يعرف متى يؤخذ.

قال وهو يغادر المدينة: ﴿رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾. إن النجاة من قبضة المجرمين مئة عظيمة، والإفلات من أخذ الظالمين نعمة جليلة. فعند الظالمين لا قانون يحتكم إليه ولا شرعة تحترم ولا حقوق إنسان يوقف عندها، ولا رادع ولا زاجر.

الآية الثانية والعشرون:

﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾

ويبدو أن موسى يعرف وجهته قبل أن يخرج، ويبدو أنه كان يتوقع مثل هذا اليوم، فكان قد درّس، وأعد الاحتمالات، وحدّد وجهة الخروج، تماماً كما صنع الأصحاب في هجرة الحبشة.

فموسى يخرج من مصر، وهو قد حدّد الوجهة والغاية مسبقاً: الخروج إلى (مدین)، ولما توجه جهة (مدین)، و(مدین) هي مكان شعيب، ونظنها شمال الجزيرة جنوب الأردن، وهي قرية نسبياً من مصر.. ومصر التي حدثنا عنها القرآن هي مصر التي نعرف، لا مصر التي لا نعرف، والتي يتفلسف من يحاول أن يحددها جغرافياً في مناطق مجهولة غير مأهولة بزعم أن الجغرافيا والديموغرافيا والطوبوغرافيا، كل ذلك يتغير، وأن بني إسرائيل يلعبون بالتاريخ وكل ذلك صحيح. لا نماري فيه. ولكن القرآن إذ يحدثنا عن مصر ويعيد اسمها مرات لا يحدثنا بما لا نعلم ولا عما لا نعرف.

المهم أن موسى يدعو وهو خارج قد حدد وجهته يدعو ربه أن يهديه الطريق السوي الموصل إلى الهدف: ﴿عَسَى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ وما أحوجتنا إلى الهدى في دروب الحياة، سواء دروبها المادية الموصلة إلى الأمكنة، أو دروبها المعنوية الموصلة إلى الجنة.

تفسير المقطع الرابع

موسى في مَدْيَن

(الآيات ٢٣ – ٢٨)

تفسير المقطع الرابع

موسى في مدين

ست آيات هي عديد آيات هذا المقطع لكنها غطت من الزمن عشر سنوات هي طيلة مدة إقامة موسى في مدين.

(الآية ٢٤-٢٣)

﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةٌ مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمْ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي إِلَّا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾ فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾﴾

في هذه الآية يصل موسى عليه السلام الذي خرج من مصر خائفاً يترقب، يصل ماء مدين، ويبدو أنه عين ماء مشهورة وكبيرة خارج البلد، أما أنها كبيرة فهي تسقي البلدة ومواشيها، وأما أنها شهيرة فيكفي أن القرآن سماها: (ماء مدين)، أما قصة البئر والحجر الذي على بابه فهي إسرائيلييات لا تستحق النقاش، ولا مجرد الذكر، ولا يهم ماذا كان الماء عيناً أم بئر جمع، المهم أن موسى ورد هذا الماء، حيث وجد (أمة) بالتعبير القرآني، وهي مطلق الجماعة، هؤلاء الناس الذين وجدهم موسى عند البئر يسقون أغنامهم، ووجد في الموقف امرأتين تمنعان أغنامها عن ورود الماء، فتقدم منهما سائلاً ما الخطب؟ أي ما الشأن الجلل الذي يمنعكما من سقي أغنامكما، والأصل أن النساء تكرم؟ فأجابت المرأتان: لا نسقي أغنامنا حتى ينتهي الرعاة من سقي أغنامهم، فنسقي بعد ذلك وأبونا رجل مسن لا يستطيع القيام بهذه المهام. فما كان منه إلا أن بدأ بالسقي لهما وهو الغريب الوحيد المسافر من مكان بعيد. ولم يجرؤ أحد على الاعتراض، مما يؤشر على القوة والمهابة التي كان يتمتع بها عليه السلام.

وبعد أن أتم السقي لم يتكلم مع البنين فقد انتهت مهمته، ولكنه انصرف إلى ظل الشجرة يستظل به، ويدعو ربه تعالى قائلاً: رب إنني محتاج إلى أي خير تنزله إليّ. فأنا محتاج المأوى ولقمة الطعام..

قال عبد القاهر الجرجاني في كتابه: دلائل الإعجاز، تحت باب الحذف: القول في الحذف - المفعول به: قال:

وإن أردت أن تزداد تبييناً لهذا الأصل، أعني وجوب أن تُسقط المفعول لتتوفر العناية على إثبات الفعل لفاعله ولا يدخلها شوب، فانظر إلى قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمْ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ١٢﴾ فَسَقَى لَهُمَا ۖ

ففيها حذف مفعول في أربعة مواضع، إذ المعنى: ﴿وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ﴾ أغنامهم أو مواشيهم، و﴿امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ﴾ غنمهما، ﴿قَالَتَا لَا نَسْقِي﴾ غنمنا، ﴿فَسَقَى لَهُمَا﴾ غنمهما.

ثم قال عبد القاهر: ثم إنه لا يخفى على ذي بصر أنه ليس في ذلك كله إلا أن يترك ذكره ويؤتى بالفعل مطلقاً، وما ذاك إلا أن الغرض فيها كان يعلم أن كان من الناس في تلك الحال سقي، ومن المرأتين ذود، وأنهما قالتا: لا يكون منا سقي، حتى يصدر الرعاء، وأنه كان من موسى بعد ذلك سقي، فأما ما كان المسقي؟ أغنما أم إبلاً أم غير ذلك؟ فخارج عن العرض، وموهم خلافة: (١)

وذلك أنه لو قيل: وجد من دونهم امرأتين تذودان غنمهما أن يكون الذود من حيث هو ذود، بل من حيث هو ذود غنم، حتى لو كان مكان الغنم إبل لم ينكر الذود، كما أنك إذا قلت: مالك تمنع أخاك؟ كنت منكراً المنع، لا من حيث هو

منع، بل من حيث هو منع أخ، فاعرفه تعلم أنك لم تجد لحذف المفعول في هذا النحو من الروعة والحسن ما وجدت، إلا لأنه في حذفه وترك ذكره فائدة جلية، وأن الغرض لا يصح إلا على تركه.^(١)

قال في الظلال:

”مما يشهد بنبل هذه النفس التي صنعت على عين الله، كما يشي بقوته التي ترهب حتى وهو في إعياء السفر الطويل، ولعلها قوة نفسه التي أوقعت في قلوب الرعاة رهبتها أكثر من قوة جسمه، يتأثر الناس أكثر بقوة الأرواح والقلوب.“^(٢)

(الآية (٢٥))

﴿فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّكِ ابْنِي يَدْعُوكَ لِجَزْيِكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ حَبَّوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾

لقد أجيبت دعوة موسى عليه السلام، فبينما هو لا يزال جالساً تحت الشجرة التي دعا في ظلها، إذ بإحدى البنيتين تعود إليه ولم يفت النص القرآني وهو الذي يطوي التفصيلات، أنها جاءت تمشي على استحياء، وإنما ذكره القرآن لما لهذا الخلق من أهمية وخاصة إذا اتصفت به من فطرن عليه أعني النساء. فقالت هذه المرأة لموسى: إن أبي، فهي مجرد مبلغة رسالة، إن هذا الأب الذي ذكر قبل قليل في الآية السابقة يدعوك ليجزيك مقابل سقياك لنا، فانطلق معها إلى ديار أبيها، ودع عنك التفصيلات من الإسرائيليات وما جرى في الطريق، ومن تكلف لا تقر به ولا تقبله روح الإسلام العظيم. المهم أن موسى وصل الرجل الصالح، فلما جاءه وبلغ

(١). دلائل الإعجاز، ص ١٦٢، القاهرة: مكتبة الخانجي، ط ٥، ١٤٢٤هـ / ٢٠٠٤م. وذكر المثل نفسه: الطيبي في التبيان في علم المعاني والبدیع والبيان، ص ١٠٨، تحقيق د. هادي الحلالي، بيروت: عالم الكتب، ط ١، ١٩٨٧/١٤٠٧.

(٢). الظلال، ج ٦، ص ٣٣٦.

منزله وقص عليه قصته التي من أجلها كانت هجرته ولجوؤه إلى هذه الديار طمأنه الرجل الصالح قائلاً: لا تخف، لقد نجوت من قبضة القوم الظالمين، فأنت هنا من الآمنين، مما يدل على أن مدين كانت خارج سلطان المصريين.

قال في الظلال:

كان موسى في حاجة إلى الأمن، كما كان في حاجة إلى الطعام والشراب، ولكن حاجة نفسه إلى الأمن كانت أشد من حاجة جسمه إلى الزاد، ومن ثم أبرز السياق في مشهد اللقاء قول الشيخ الوقور: ﴿لَا تَخَفْ﴾ فجعلها أول لفظ يتعقب به على قصصه ليلقي في قلبه الطمأنينة، ويشعره بالأمان، ثم بين وعلل: ﴿لَا تَخَفْ تَجُوتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ فلا سلطان لهم على مدين، ولا يصلون من فيها بأذى ولا ضرار^(١).

ملاحظات على فهم النص القرآني

١ . الحاجة إلى الحصيلة اللغوية.

٢ . استحضار السياق التاريخي لنزول النص الكريم.

٣ . التفاعل مع النص بكامل الطاقة الإنسانية والكيبونية، فالروح لها دورها في الانفعال بالنص، والعقل له دوره، والنفس لها دور، والشعور له دور، والخيال له دور، وتقمص حال الشخصية ومشاعرها له دور.

ففي قصة موسى والعبد الصالح في سورة القصص بعد أن تعمل طاقة الروح في تعظيم كلام الله والتفاعل معه، وتعمل طاقة العقل في فهم أبعاد النص، وتشغل مصورة الخيال، وكاميرا التصور، لك أن تتصور مشاعر موسى في غربته عن وطنه عشر سنين.

باختصار، أريد أن أقول إنه كلما تعددت الأدوات وكانت عاملة بأقصى طاقتها كانت الشحنة قربية من كمالتها وتماها بإذن الله.

٤. الحصيلة المعرفية المتنوعة زاد مهم في تفهم النص ومعرفة آفاقه.

الآية (٢٦)

﴿قَالَتْ إِحْدَى الْبَتَيْنِ مَكَلَمَةَ أَبَاهَا: يَا أَبْتَ اسْتَجِرْهُ لِرْعِي أَغْنَانِي فَإِنْ خَيْرٍ مِنْ أَسْتَجِرْتَ الْقَوِيُّ الْآمِنُ﴾

قالت إحدى البنتين مكلمة أباهما: يا أبت استأجره لرعي أغنامنا فإن خير من يُستأجر، سواء للرعي أو لغيره من المهمات مَنْ جمع بين صفتي القوة والأمانة. أما كيف عرفت البنت قوته وأمانته؟ فاما أولاً فدع عنك جانباً حكاية البئر والحجر الذي يغطي البئر. ودع عنك ثانياً حكاية الرحلة والريح وسير موسى أمام البنت، وبالجملة وبغير هذه المناسبة دع عنك جانباً أن هذا العبد الصالح هو شعيب، وأن البنتين هما بنتا شعيب. فلو كان شعيباً لذكره القرآن. هذا أولاً، وأما ثانياً فإن الزمن بين شعيب وموسى بعيد وطويل. فشعيب قريب من لوط، ولوط مزامن لإبراهيم، وأين إبراهيم من موسى؟ هذا القول وأضرابه محض إسرائيليّات أو تلفيقات محلية. ودع عنك بالمرّة ما قال الأستاذ عبد الكريم الخطيب - رحمه الله - حيث حول المشهد إلى مشاعر وقصة حب...^(١)

نعود للآية الكريمة وللسؤال المطروح عن كيف عرفت البنت قوته وأمانته والجواب في نظرنا يكمن في سقي الرجل للبنتين، وهذا كان يمكن أن يجز عليه الإشكالات مع الرعاة، ولم يبال وهو الوحيد.

وأما الأمانة فإنه بعد سقي الغنم لم يكلم البنات. وإنما سألهما أولاً لأن وضعهما لم يكن طبيعياً. ولو تأملت هاتين الصفتين لوجدت أن البنت لخصت مواصفات القيادة، والشخصية الإدارية، وليس فقط من يصلح للاستئجار

(١). ارجع إلى التفسير القرآني للقرآن، ج ٢٠.

للرعي. والقوة والأمانة هنا هي المعادل للحفظ والعلم في قصة جده الأعلى يوسف، حين طرح هو مواصفات القائد إذ قال: ﴿إِنِّي خَفِيزٌ عَلَيْهِ﴾ [يوسف: ٥٥]. وحفيظ تعادل: (الأمين) وعليم توازي: القوي. وهي الصفات عينها التي قالها الله تعالى في سورة ص: ﴿أَوَّلَى الْآيَتِي وَالْأَبْصَرِ﴾ [ص: ٤٥].^(١)

مواصفات المسؤول سواء أكان راعي غنم أم قائداً من قادة الأمم ينبغي أن يتحلى برفع الخصال والصفات والشيم، والشهامة والشمم، كي تتسم المجموعة التي يقودها الذرى والقمم، تفلح وتغنى وتسلم، وتسعد وتهنا وتنعم، وتشتد منها العزائم وتقوى المهمم.

ليس العبد الصالح الذي في مدين شعياً، بل هو عبد صالح من بقايا المؤمنين بعد جيل الناجين مع شعيب، وذلك لأسباب:

١. أن القرآن لم يسمه، ولو كان هو لسماه.
٢. البعد الزماني بين موسى وشعيب.
٣. لو كان هو شعياً لكان المؤمنون الناجون معه هم قومه ولأكرموا بناته.
٤. لم يرد في السياق والحوار من قريب أو بعيد ما يشير إلى أنه هو.

(١) راجع للتوسع إن شئت الأستاذ جودت سعيد في كتابه العمل قدرة وإرادة: أبحاث في سنان تغيير النفس والمجتمع، ص ٣١ - ٣٣، دار الفكر، وراجع في ظلال القرآن، ج ٥، ص ١١، ص ٢٥، إحياء التراث. و لمحات في فن القيادة، ص ١٤، وارجع إلى سورة يوسف، دراسة تحليلية، ص ٤٥٢، ص ٤٥٤. وبحت لنا مطبوع كمبيوتر بعنوان: الإدارة الاستراتيجية، وراجع الدكتور جمال عبده: تنمية الموارد البشرية، ص ٢٦٠، والبهى الخولي: تذكرة الدعاة، ص ٢٤٤، والتحرير والتنوير، ج ١٣، ص ٨، ص ١٠.

الآية (٢٧)

﴿قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أَنْكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَنِي حَجَاجَ فَإِنْ أَمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾

ما أجل أن يجمع الإنسان بين الدين والحكمة، فهذا العبد الصالح قد حاز الحسنيين. وصاحب الدين لا يتعب من يعامله. وصاحب الحكمة يزيد مع التدين الأمور نوراً على نور. فهذا العبد الصالح يعرض على هذا الرجل الغريب عرضاً يحل مشكلة البيت، ويجعل هذا الرجل الغريب جزءاً من البيت في ذات الوقت، فكيف يكون ذلك؟ يكون ذلك بالمصاهرة. بأن يتزوج إحدى البنتين وترك له أن يختار، لم يحدد له صغيرة ولا كبيرة - وللبنت بطبيعة الحال أن توافق أو لا توافق.

ولما كان الغريب لا يملك مهرأ، فليكن المهر جهداً وعملاً يبذله. وهل تتصور أن المهر مشروط أولاً قبل الزواج أم هو دين يؤديه والزواج معجل؟ أظن أن المشكلة لا تحل إذا ظل الرجل غريباً. وهل تعتقد أن خطبة تستمر عشر سنين؟ العقل والحكمة والدين كل ذلك يجعلنا نقول: إن المهر دين مؤجل يؤديه والزواج حالاً، هذا ما العقل يقتضيه!

ولا مجال لبحث مسائل الفقه هنا. فهل يدفع المهر عملاً وجهداً؟ وهل يدفع للأب في هذه الحالة؟ وأين حق البنت؟ كل هذا ليس من همنا هنا. ولاحظ المصطلحات وتأثرها بالدين والمعتقدات: ﴿ثَمَنِي حَجَاجَ﴾ لقد اقترنت السنوات بالأركان والطاعات، فالحج مرة كل سنة لا على الفرد، وإنما الركن والفرض يتجدد على من لم يحج.. في كل سنة.

ثم لاحظ هذا التخيير بين الحق والفضل. الثماني حجج حق، والعشر فضل. فإن أتممتها فهو إحسان من عندك، ولا أشق عليك في إكمال العشر، ثم بين الرجل نيته وطويته حتى يطمئن من يقابله، وبعض الناس إن عاملته تكشف لك عن خير

كما تتوقع، وبعض الناس على النقيض. لكن هذا العبد الصالح يطمئنه بقوله: ستجديني إن شاء الله، حين الاختبار وحين الإسفار عن البواطن والخوافي والأسرار، ستجديني من الأخيار الأبرار، وهذا بمشيئة الله، وفضله وكرمه.. وقد أتم موسى أبر الأجلين وأوفاهما كما أخبرنا النبي ﷺ.

قال الخطيب: حجج جمع حجة، وهي السنة.

وعده الدكتور الخطيب من شواهد فعل جمع فعلته، وذكره تحت عنوان: جمع تكسير من جوع الكثرة، وذكر أن الفراء ذهب إلى هذا الوزن (فعل) اسم جمع، لأنه رأى أنه يجمع بالالف والتاء، فهو أقرب إلى المفرد، ورد هذا عليه^(١).

قال أبو بكر الجصاص في تفسير الآية واستخراج ما فيها من أحكام: .. فهو بمنزلة من تزوج امرأة بغير مهر مسمى وشرط لوليها منافع الزوج مدة معلومة، فهذا إنما يدل على جواز عقد من غير تسمية مهر، وشرطه للمولى ذلك، يدل على أن عقد النكاح لا تفسده الشروط التي لا يوجبها العقد، وجائز أن يكون قد كان النكاح جائزاً في تلك الشريعة بغير بدل تستحقه المرأة، فإن كان كذلك، فهذا منسوخ بشريعة النبي صلى الله عليه وسلم، ويدل على أنه قد كان جائزاً في تلك الشريعة أن يشرط للولي منفعة، ويحتج به في جواز الزيادة في العقود، لقوله تعالى: ﴿فَإِنْ أَتَمَمْتَ عَشْرًا﴾^(٢).

(١). د. عبد اللطيف محمد الخطيب: المستقصى في علم التصريف، ج ٢، ص ٧٩٠ - ٧٩١، ط ١ الكويت: دار العروبة ١٤٢٤ هـ / ٢٠٠٣ م.

(٢). الجصاص، أبو بكر أحمد بن علي الرازي: أحكام القرآن، ج ٥، ص ٢١٥. تحقيق محمد الصادق قمحاوي، القاهرة: دار المصنف، بلا تاريخ.

قلت تعقياً على قول الجصاص رحمه الله: قوله: لأنه شرط منافعه لشعيب... القرآن لم يسمه، وليس هو بشعيب عليه السلام يقيناً. وثانياً: المنافع عائدة على البنت بالدرجة الأولى قبل أبيها، فهي التي كانت تتجشم المشاق في الرعي والسقي، فجاء من يحمل عنها الأعباء. ثالثاً: ما ثم في الأحكام ناسخ ولا منسوخ، أقصد في هذا الموضوع، فلم تحمّل الأمر فوق طاقته؟

من عجائب الموافقات في (أشق) ومادة المشقة والعشر حجج

أن العبد الصالح الذي عرض استتجار موسى طلب منه أن يخدم عنده (١٠) سنين، وبين أنه ما يريد أن يشق عليه. والعجيب أن مادة (المشقة) في القرآن الكريم وردت (١٠) مرات.

عشر في القصص وفي القرآن:

وردت (عشر) ٤ مرات.

ووردت عشراً ٣ مرات (التي في القصص آخرها)

ووردت عشرة ٣ مرات

عَشَرَ ٤ مرات

عَشْرَة (٢) مرتان

فكلمة عشر (ة) مسكّنة وردت عشر مرات.

شَقَق في القصص وفي القرآن

(أشَق) لم يرد في القرآن إلا هذه.

وورد (شاقُوا) ٣ مرات.

وورد (تشاقُون) ١ مرة.

وورد (يُشاق) ١ مرة.

وورد (يُشاقِق) ٢ مرتين.

وورد (بشق الأنفس) [النحل: ٧].

وورد (أشَق) (١) مرة في الرعد (ولعذاب الآخرة أشَق) [الرعد: ٣٤]

١٠ مرات مشقة وما اشتق منها.

أما الانشاق ومادته فقد ورد:

شققنا (١) ؛ تشقق (٢) ؛ يشقق (١) ؛ انشق (١) ؛ انشقت (٣) تنشق (١) ؛

شقا (١) ؛ الشقة (١) ؛ شقاق (٦) ؛ شقاقي (١)

(١٨) شقاق وما اشتق منها.

ووردت مادة شقي: شقوا (١) ؛ تشقى (٢) ؛ يشقى (١) ؛ تشقى (٢) ؛ شقيا

(٣) ؛ الأشقى (٢) أشقاها (١) ؛ شقوتنا (١)

(١٤) شقاء وما اشتق منها.

المادة: مشقة ؛ شقاق ؛ شقاء ٤٢ مرة المجموع

الآية (٢٨)

﴿قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجَلِينَ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَةَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾

قال موسى في جوابه على عرض العبد الصالح معلناً موافقته قال: هذا العهد والميثاق والعقد بيني وبينك، أي الأجلين قضيت فلا تشديد عليّ ولا تقصير مني، ولا أعد معتدياً أو متقصصاً حقاً لأحد، والله على قولي وقولك وكيل والله خير ضامن لي ولك على حسن التنفيذ.

وكل العقود ما لم يكن الله هو الكفيل والوكيل فما أسهل ما يتملص الناس ويتخلص المتعاقدون من عقودهم فالعقد في القلب قبل أن يكون على الورق.

﴿وَاللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾

وردت (وكيل) (١١) مرة في القرآن في (٨) سور.

والموضع الذي في القصص هو رقم (٨).

(وكيل) متعلق بالله، ومقصوداً به هو سبحانه في (٦) مرات ونفي كون الرسول

هو الوكيل بصيغة بوكيل في (٥) مرات.

وأما وكيلاً فقد وردت في (١٣) مرة في (٥) سور.

وورد متعلقاً بالله ومراداً به الله سبحانه في (٧) مرات.

وورد مرتين ينفي أن يكون الرسول وكيلاً.

وقد وردت وكيلاً في النساء (٤) مرات والإسراء (٦) مرات والأحزاب مرتين

فهذه (٣) سور والمزمل والفرقان فهذه خمس سور.

وأما باقي المادة فقد وردت على النحو التالي: وكلنا (١)؛ وكل (٧)؛ توكلنا

(٤)؛ نتوكل (١)؛ يتوكل (١٢)؛ تتوكلون (٥)؛ توكل (٩) مرات، توكلوا (٢)؛

التوكلون (٣)؛ المتوكلين (١).

٤٦ مرة + ٢٤ = ٧٠ مرة.

تفسير المقطع الخامس

نبوة موسى ومعجزاته

(الآيات ٢٩-٣٥)

تفسير المقطع الخامس

نبوة موسى ومعجزاته

هذا المقطع سبع آيات في العدد، لكنه في عمر من الزمن لحظات، قد تكون ساعات، بينما المقطع السابق ست آيات وعشر سنوات. تحدث أحداث هذا المقطع في طريق عودة موسى من مدين إلى مصر. فيرى ناراً يكتشف من بعد أنه نور أرسله الله ليكون علامة له، حيث نبأ ثم، ويرسل إلى أطفئ طغاة العصر.. فرعون الذي رباه في القصر.

الآية (٢٩)

﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾

فلما قضى موسى مدة خدمته: العشر سنوات، وسار بأهله متوجهاً إلى بلده، مصر، آنس من جانب الطور ناراً، قال لأهله امكثوا مكانكم إني رأيت ناراً، فلعلي آتيكم منها بخبر يرشدنا إلى الطريق، أو لعلني آتي بشعلة من النار نوقد بها ناراً نستدفئ بها، وما أدراك ما برد الصحراء!

قال القشيري:

(آنس: أبصر ورأى، فكانه يشير إلى رؤية فيها نو أنس، وأن الله إذا أراد أمراً أجرى ما يليق به، ولو لم تقع تلك الحال لم يخرج موسى عندها بإيتاس النار... ويقال: الاح له ناراً ثم لوح له نوراً، ثم بدا ما بدا، ولا كان المقصود النار ولا النور وإنما سماع نداء: ﴿إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾^(١)).

(١) اللطائف ج ٥ ص ٦٤ - ص ٦٥ تحقيق د. إبراهيم بسيوني، ط ١ الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٣٩٠ /

الآية (٢٠)

﴿فَلَمَّا أَنْتَهَا تُوْدِي مِنْ شَطِطِ الْوَادِ الْآئِمِّنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبْنَرَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَنْمُوْسَىٰ إِيَّتَا أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِيْنَ﴾

فلما أتى موسى موضع النار، تودي من شاطئ الوادي الأيمن في البقعة المباركة من الشجرة، وإنما أعدنا الكلمات بنصها لأنه لا سبيل لمعرفة معناها على الحقيقة، نودي: إني أنا الله رب العالمين الذي سقت لك هذه الآية وأريتك هذه المعجزة.
قال القشيري:

(أخفى تعيين قدم موسى على الظنون بهذا الخطاب، حيث قال: ﴿مِنْ شَطِطِ الْوَادِ الْآئِمِّنِ﴾، ثم قال: في البقعة المباركة، ثم قال: من الشجرة. وأخلق بأن تكون تلك البقعة مباركة، فعندما سمع خطاب مولاه بلا واسطة، وأعز الأماكن في العالم مشهد الأحاب:

وإني لأهوى الدار ما يستعزني لها الود إلا أنها من ديارها
ويقال: كم قدم وطئت تلك البقعة، ولكن لم يسمع أصحابها بها شيئاً، وكم ليلة جئت تلك البقعة ولم يظهر من تلك النار شعلة.
ويقال: شتان بين شجرة وشجرة، شجرة آدم عند ظهور محنته وفتنته وشجرة وشجرة موسى وعندها افتتاح نبوته ورسالته!
ويقال: لم يأت بالتفصيل نوع تلك الشجرة، ولا يُدرى ما الذي كانت تثمره بل هي شجرة الوصلة، وثمرتها القربة، وأصلها في أرض المحبة، وفرعها باسق في سماء الصفوة، وأوراقها الزلقة، وأزهارها تتفتق عن نسيم الروح (بالبهجة...) (١)، (٢)

(١) قلت: وهذا من اللطائف التي لم أر بأساً بنقلها، وهي ليست معاني للآيات، وإنما هي أذواق ونفحات وشذى عبق من أجواء الآيات، وإن كنا ضد كثير من الإشارات.

(٢) لطائف الإشارات، ج ٥، ص ٦٥.

الآية (٣١)

﴿وَأَن آتَىٰ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تُهَاجِرُ كَانَتْهَا جَانٌّ وَلَّى مُدِيرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ

يَمُوسَىٰ أَقْبَلَ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ﴾

أمر الله موسى عليه السلام في هذه الآية بأن يلقي عصاه من يده، بمعنى أن يرميها على الأرض، وإذا بها تتلوى على الأرض كأنها جان، إما بمعنى الجن المعروف، أو بمعنى غير ظاهر من اللفظ، لكنه موجود في اللغة وهو فرخ الحيات، ولعله سمي بهذا الاسم تشبيهاً له بالجان، فما زلنا في نطاق المعنى الأصلي للفظ لم نعدنا. يقول النص الكريم: إن موسى لما رأى هذا المشهد أدار ظهره وولى هارباً ولم يلتفت وراءه، وهو الشجاع البطل، لكن المنظر يخلع القلب، من شدة غرابته. ولتصور الموقف ضع نفسك في المكان، صحراء ليل ووحدة موحشة، وعصا تتحول مجرد إلقاءها على الأرض إلى حية تتحرك حركة سريعة.. من يبقى في مكانه؟ ومن يحافظ على اتزانه؟ ثم ينابه الله تعالى قائلاً: يا موسى أقبل، ولا تخف إنك في كنف من لا يروّع الذين في كنفه.. إنك من الآمنين المطمئنين.

قال الشريف المرتضى في أماليه:

إن سأل سائل فقال: ماتقولون في قوله تعالى حكاية عن موسى عليه السلام:

﴿فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ﴾ [الشعراء: ٣٢] وقال في موضع آخر: ﴿وَأَن آتَىٰ

عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تُهَاجِرُ كَانَتْهَا جَانٌّ﴾ [القصص: ٣١].

والثعبان هو الحية العظيمة الخلقة، والجان الصغير من الحيات. ^(١) فكيف

اختلف الوصفان والقصة واحدة؟ كيف يجوز أن تكون العصا في حالة واحدة من

(١) قال الزخشري في الأساس: "ولخلة مجنونة: شديدة الطول. ونخل مجانين: ص ١٣٨.

قلت: لعل الملاحظ في وصفها بالجان هو الخفة وسرعة الحركة.

صفة ما عظم خلقه من الحيات، وبصفة ما صغر منها؟ وبأي شيء تزيلون التناقض عن هذا الكلام؟^(١)

الجواب: أول ما نقول: إن الذي ظنه السائل من كون الآيتين خبراً عن قصة واحدة باطل، بل الحالتان مختلفتان، فالحال التي أخبر عنها بصفة الجان كانت في ابتداء النبوة. وقبل مصير موسى عليه السلام إلى فرعون، والحال التي صارت فيها ثعباناً كانت عند لقائه فرعون وإبلاغه الرسالة، والتلاوة تدل على ذلك، وإذا اختلفت القصتان فلا مسألة^(٢).

على أن قوماً من المفسرين قد تعاطوا الجواب عن هذا السؤال، إما لظنهم أن القصة واحدة، أو لاعتقادهم أن العصا واحدة لا يجوز أن تنقلب في حالتين: تارة إلى صفة الجان، وتارة إلى صفة الثعبان، أو على سبيل الاستظهار في الحجة، وأن لحال لو كانت واحدة على ما ظن لم يكن بين الآيتين تناقض، وهذا الوجه أحسن ما تكلفوا الجواب لأجله، لأن الأولين لا يكونان إلا عن غلط أو غفلة، وذكروا وجهين نزول بكل واحد منهما الشبهة في تأويلها:

أحدهما: أنه تعالى إنما شبهها بالثعبان في إحدى الآيتين لعظم خلقها، وكبر جسمها، وهول منظرها، وشبهها في الآية الأخرى بالجان لسرعة لسرعة حركتها ونشاطها وخفتها، فاجتمع لها مع أنها في جسم الثعبان، وكبر خلقه نشاط الجان، وسرعة حركته، وهذا أبهر في باب الإعجاز، وأبلغ في خرق العادة، ولا تناقض معه بين الآيتين وليس يجب إذا شبهها بالثعبان أن يكون لها جميع صفات الثعبان، ولا إذا شبهها بالجان أن يكون لها جميع صفاته..

والجواب الثاني: أنه تعالى لم يرد بذكر الجان في الآية الأخرى الحية، إنما أراد أحد الجن، فكأنه تعالى خبر أن العصا صارت ثعباناً في الحلقة وعظم الجسم، وكانت مع

(١) قلت: ومثل هذه الأقوال تدل على أن الشغب قديم، والزندقة عتيقة. وليست أقوال المرتضى وغيره من فراغ. وإنما إجابات عن إشكالات تثار.

(٢) الأماشي، ج ١، ص ٢٥.

ذلك كأحد الجن في هول المنظر وإفزعها لمن شاهدها، ولهذا قال تعالى ﴿فَلَمَّا رَأَاهَا
نَهَزَتْ كَانَتْهَا جَانًّا﴾ (١٧) (٢).

ويواصل المرتضى القول دفع إبهام التناقض بين آيات الكتاب فيقول: "ويمكن أن يكون في الآية تأويل آخر استخرجناه، إن لم يزد على الوجهين الأولين لم ينقص عنهما، وهو أن العصا لما انقلبت حية صارت أولاً بصفة الجان وعلى صورته، ثم صارت بصفة الثعبان، على تدرّج، ولم تصر كذلك ضربة واحدة، فتتفق الآيتان على هذا التأويل، ولا يختلف حكمهما، وتكون الآية الأولى التي تتضمن ذكر الثعبان إخباراً عن غاية حال العصا، وتكون الآية الثانية تتضمن ذكر الحال التي ولى موسى فيها هارباً، وهي حال انقلاب العصا إلى خلقة الجان، وإن كانت بعد ذلك الحال انتهت إلى صورة الثعبان.

ثم يجيب المرتضى عن إشكال أو توهم إشكال، إذ يسأل سؤالاً ويوجب عنه، إذ قال: "فإن قيل على هذا الوجه: كيف يصح ما ذكرتموه مع قوله تعالى: ﴿فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّثِينٌ﴾، وهذا يقضي أنها صارت ثعباناً بعد الإلقاء بلا فصل؟ قلنا: تنفيذ الآية ما ظن، وإنما فائدة قوله تعالى: ﴿فَإِذَا هِيَ﴾ الإخبار عن قرب الحال التي صارت فيها بتلك الصفة، وأنه لم يطل الزمان في مصيرها كذلك، ويجري هذا مجرى قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرِ الْأِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْتَهُ مِنْ نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّثِينٌ﴾ [يس: ٧٧]، مع تباعد ما بين كونه نطفة وكونه خصيماً مبيناً... (٣)"

(١). قلت: لم يرد وصف الحية بأنها جان إلا في السورتين الجارتين التوأمين: النمل والقصص، وبفس النص، ووردت الجان خمس مرات أخرى مقصوداً بها الجن، ولعل هذا يؤيد ما يقوله المرتضى.

(٢). الأمالي، ج ١، ص ٢٥-٢٦.

(٣). الأمالي، ج ١، ص ٢٧. وأقول: إن الأمر أقصر من ذلك وأهون، فمرتاً وروود كلمة الجان وردتا وموسى عليه السلام عائد من مدين، في بداية الأمر وأما مرتاً وروود كلمة ثعبان فوردتا في مواجهة فرعون. فالقيام قطعاً مختلف. وهذه منهجية عالية، فالعصا إذ رآها موسى تتحول كانت جاناً. وهي أمام فرعون تتحول إلى ثعبان.

قال الشريف المرتضى في الأمالي:

لم يعقب: لم يرجع، وقيل: لم يلتفت، وقيل لم يعطف ولم ينتظر، يقال: كر على القوم وما عقب. ويرى أهل النظر أنه مأخوذ من العقب، وروي عن سفيان: لم يعقب: لم يمكث، وقال: عقب في الأمر: إذا تردد في طلبه مُجِدَّاءً..

وقوله تعالى: ﴿لَا مُعَقَّبَ لِحُكْمِهِ﴾ أي لا يحكم بعد حكمه حاكم، والمعقب: الذي يكر على الشيء، وقوله تعالى: ﴿لَهُ مُعَقِّبَتٌ...﴾ أي للإنسان ملائكة يعقب بعضهم بعضاً - وقال الفراء: ملائكة الليل تعقب ملائكة النهار، ويعني أنهم يتعاقبون ليلاً ونهاراً^(١).

قال الطيبي في معنى النداء هنا في هذه الآية وأنه:
لإظهار الحرص على إقبال المدعو نحو: يا موسى أقبل...
وكان الطيبي قال إن النداء بيا للبعيد، ومن هو بمنزلة^(٢).
وكان الذي في الآية للمحظ هو الذي ذكره الطيبي من الاهتمام.

الآية (٣٢)

﴿أَسْأَلُكَ بِكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجُ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ وَأَضْمَمَ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ فَذَلِكَ بُرْهَانًا مِنْ رَبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾

ثم يدهش الله تعالى عبده موسى بآية عجيبة أخرى، فيقول: له ضع يدك في جيبك ثم أخرجها، تخرج بيضاء من غير أن يمسه سوء، وثبت جنانك، وقو أركانك، فإن مكل براهين من ربك، هذا اثنان منها، لأننا سنرسلك إلى فرعون وملائته: وجماعته الذين يشدون بنيانه ويوطدون سلطانه، ويثبتون أركانه.. إنهم

(١) الشريف المرتضى: أمالي المرتضى، ج ١، ص ٢٥.

(٢) التبيان، ص ١٧٤.

كانوا قوماً فاسقين. والفسق هو الخروج عن منهج الله، خروجاً شائناً مفسداً.. والخروج عن الفطرة كذلك. وقوم فرعون خرجوا عن الملة التي نشرها يوسف في مصر، وخرجوا عن فطرة الله، وخرجوا عن العقل.. وخرجوا عن العدل.. كل ذلك صورته كلمة.

الآية (٣٣-٣٥)

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ ۖ (٣٣) وَإِخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسَلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي ۚ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ ۖ (٣٤) قَالَ سَنُنْذِرُكَ بِإِخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكَمُوسُلَانًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِأَيِّدِنَا أَنْتُمْ وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ ۖ﴾

فيجيب موسى قائلاً: أي رب إنني قتل منهم نفساً، فأخاف أن يقتلوني بهذه الجريمة وهذا الذنب. ثم إن أخي هارون هو أفصح لساناً مني، ودع عنك حكاية الجمره والتمره وتعليل الرواه بها سبب عي لسان موسى. فأرسل يارب أخي هارون معي ظهيراً ووزيراً ونصيراً يصدقني إذا كذبتني الناس، وينصروني إذا خذلني الناس، ويعبر عما يجيش في صدري إذا أصاب لساني احتباس..

ويجيب الله طلب موسى، ويحقق رجاءه ويقول له: سنشد ساعدك بأخيك، ونجعل لكما سلطاناً يحصنكما فلا تطالكم يد الظالمين بحمايه رب العالمين وتأمينه لكم من بطش المجرمين، وستكونون الغالبين أنتم ومن تبعكما، بهذه الآيات التي سأسلحكم بها.

قال الطيبي في التبيان:

"والذي عندي أن الفصاحة في اللغة الظهور والبيان، يقال: أفصح الصبح إذا ظهر، قال تعالى حكاية عن موسى عليه السلام: ﴿وَإِخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا...﴾ أي أبين قولاً."^(١)

(١). الطيبي: التبيان، ص ٤٦٧ ونقل عن صاحب المثل السائر قوله في هذا الموضوع:

والذي استفدته من معرفة اللوق أكثر مما استفدته من ذوق المعرفة. (المثل السائر، ج ١، ص ٦٤).

تفسير المقطع السادس
موسى في مواجهة فرعون
(الآيات ٣٦-٤٣)

تفسير المقطع السادس

موسى في مواجهة فرعون

يمتد هذا المقطع زمنياً من بدء دعوة موسى عليه السلام إلى انتهاء فرعون بالغرق في اليم والملا الذين كفروا. وهذا مدى واسع لا نحده، لأن القرآن لم يحده، لكنه في تصورنا يمتد عشرات السنين. بدلالة الآيات المفصلة التي أرسلها الله على مصر وهي ليست آيات متلاحقة في سنة، فكل آية قد تستغرق سنة أو أكثر، فالطوفان في موسم، ونقص الثمرات.. وهكذا.

الآية: (٣٦)

﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّقَرَّرٌ وَمَا سِعِينَا بِهِكَافٍ أَبَايْنَا الْأُولِينَ﴾

هذا هو المقطع الرابع المبتدئ ب (فلما) وهي تشير إلى زمن، والمقصود به أول حدوث الشيء. يقول النص الكريم: فلما جاء موسى فرعون وملاه بآياتنا المرسله من قبلنا، بينه واضحة قاطعة على أنها الحق من الله ﴿قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّقَرَّرٌ﴾ ليس هذا الذي نرى إلا السحر الذي نعرف، وما هو بالحق، وما قالوه وهم قد عقلوه، إلا مكابرة وتضليل للجماهير: ولقد شهد القرآن أنهم في قرارة أنفسهم يدركون الحق إذ قال: ﴿وَحَدِّثُوا بِهَا وَاسْتَفْتِنَا أَنْفُسَهُمْ ظَلَمُوا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: ١٤].

والسحر المفترى أي المخلوق اختلاقاً ولا حقيقة له، ومثل هذه الأوصاف والالتهامات تتكى على غفلة الجماهير، وتعتمد على عدم تمييزها، وعلى تزييف وعيها، وتغيب عقلها، وتضيب دربها، وتغيم آفاقها، وإلا كانوا يعلمون أن

الجماهير تميز ما قالوا، ما قالوا، ولا أشاعوا ما أشاعوا والذي يميز منهم فالتخويف يردعه عن قول الحقيقة، أو الشراء يقطعه عن التواصل مع الجماهير وتبصيرها.

ثم زاد فرعون وحاشيته والناطقون باسمه، زادوا على وصف الحق بالسحر المقتري، زادوا حيثية جديدة إضافية يظنون أنها تزيد مزيداً في إبعاد الجماهير عن الحق وتضليلهم عنه، فقالوا: ﴿وَمَا سَعَيْنَا بِهِذِهِ عَابَا إِنَّا لَا وَٰلِينَ﴾ ﴿٢٧﴾ إن الذي جاءنا به موسى أمر غريب، وعلامة ذلك أنه ليس في ثقافتنا المنقولة عن آبائنا، وليس في تراثنا الواصل إلينا عن أسلافنا، فمن أين أتى به، وهي محاولة كما ترى لوضع مقاييس للحكم بها على المبادئ والأفكار، ل يبدو الحكم عقلياً ومنطقياً وموضوعياً، ومن لا تضلله الفرية الأولى تصطاده التهمة الثانية، والحملة الأخرى على الحق لصد الناس عنه، وهكذا الباطل لا بد أن يفتح معركة مع الحق لأنه يستشعر ببداهته أنه نقيض الحق وأن الحق نقيضه، أن سكوته على الحق يعني أن الحق يمحسه من أرض الواقع لأن الحق يملك المنهج المقنع والباطل زيف لا يملك ما به يقنع، ولكنه يبطش ويُخضع.

الآية: (٢٧)

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَا جَاءَكَ بِٱلْهُدَىٰ مِن عِندِ رَبِّكَ وَمَن تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ ٱلْدَارِ ٱلْأُخْرَىٰ ۚ﴾

يُقْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٨﴾

وما كان لموسى عليه السلام أن يسكت على جملة الافتراءات، وأن يغضى أمام الباطل، بل جهر بحقه، ودافع شبهاتهم، فقال: إن الله ربي، هو أعلم بمن جاء الحق والهدى من عنده، وهو يعني نفسه بطبيعة الحال، وهذا يتضمن ضمناً قضية مسلمة أنه لا بد أن يكون لله رسالة في الناس، وأنه لا بد أن يكون للحق حملة بين الناس، وهذه المسلمة من البداهة العقلية، والقضايا الفكرية، ولذلك فلإن موسى إذ يحيل

هذه القضية لا يحيل إلى مجهول أو معتمى من القول، وإنما يحيل إلى معلوم عقلي وفطري وبديهي، ثم يلفتهم لفظة أخرى إلى النهايات والعواقب والمآلات إذ يقول: ومن تكون له عاقبة الدار، وكثير من الناس لا يميزون صدق الأفكار إلا بما تنجزه في الواقع من نتائج وتحديثه من آثار وهؤلاء عندما يرون الحق يرث الأرض سيتأكدون أنه الحق، وموسى يتكلم كلام الواثق، والذي يتكلم بهذا الأسلوب يستميل المخاطبين. وهنا درس للدعاة أن يكونوا مستيقنين بما معهم من حق وبما حملهم رب العالمين من أمانة الدين، وأن العاقبة للمتقين ووراثه الأرض للمؤمنين.

ثم لفتهم ثالثاً في هذا السطر الذي تكلمه، لفتهم إلى أن عاقبة الظالمين خسران، فلا يجتمع الظلم والفساد، وقانون الله أنه كتب أن لا يكون الفلاح للظالمين، وهو قانون عام يشمل المتكلم والمخاطب، ففرعون إن كان ظالماً فلن يكتب له الفلاح، وأنا إن كنت ظالماً لن يكون لي فلاح، وهو كلام الواعي على سنن التاريخ والواقع من دعوته وحقيقته رسالته.

الآية: (٣٨)

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ إِنِّي آتٍ بِكُم بِالْعَمَلِ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَهَنَمُنُ عَلَى

الطِينِ فَأَجْعَلَ لِي صَرْحًا لَّعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾

فرعون هو المتكلم الآن، وهو يحاول الرد على موسى، ولكنه لا يلتفت إلى ما قال، بل يخاطب الجماهير، يحاول تضليلهم باستمرار الحال على ما كان، والواقع أقوى سلاح في يد الطغاة، والواقعية هي الفخ الذي يحاولون به اقتناص ضعاف اليقين - ولسنا ننقض الواقعية ولكننا ننقض الوقوع في فخ الاستسلام للواقع بدعوى الواقعية.

نعود إلى فرعون الذي خاطب ملاء ويتجاهل موسى فيقول: يا أيها الملاء. وهو نداء فيه رائحة احترام واهتمام، وهو ضحك على الذقون، واستغلال ليستمر في مسلسل استغلالهم واستعبادهم، المهم أنه يقول لهم، إنه لا يعلم لهم إلهاً غيره، أي فمن أين جاء موسى بدعوى إله غير فرعون؟ والمقصود بالإله هنا الذي يأمر فيطاع لا الرب الذي خلق الكون، فهذا لا يدعيه فرعون. وليثبت فريته لجأ إلى التهريج والتضليل، وحملات الدعاية والإعلام فيما ظاهره منطق وحقيقته التخلي عن كل ذرة عقل أو منطق، إنه الاستخفاف البالغ في الجماهير وعقلها، فهو يقول لوزيره هامان: أوقد لي يا هامان على الطين، أي اصنع لي بناء من طوب مشوي بالنار، وهذا النوع أقوى بكثير من الطوب اللبن النئ أي غير المدخل في النار، فاصنع من هذا الطوب صرحاً أي بناء عظيماً عالياً لعلني أبلغ به ومن خلاله إلى المكان الذي يزعم موسى أن ربه فيه وموسى لم يقل هذا، ولكنه يقول عليه ويفتري، ومتى قال موسى أن الله يرى من برج ارتفاعه كيت وكيت؟! لكنه الاستخفاف البالغ بالناس وعقولهم والاستهتار بإنسانيتهم والتطاول اللاحدود على الإله الحق المعبود سبحانه. ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾.

قال الطبرسي:

الصرح: البناء العالي كالقصر، وأصله من الظهور، فالتصريح شدة ظهور المعنى^(١)

ثم يختم قوله بظنه أن موسى من الكاذبين. وحاشاء. وإن فرعون ليعلم علم اليقين أنه ما كذب إلا هو، وأن موسى الذي يقول الصدق والحق، ولكنه العمى

(١). الطبرسي، أبو علي الفضل بن الحسن (القرن السادس) مجمع البيان، ج ٧، ص ٣٤٦

تحقيق: إبراهيم شمس الدين، بيروت، ط ١، ١٤١٨هـ / ١٩٩٧م

والمرض والاستعلاء والاستخفاف وحب استمرار الأوضاع على ما هي عليه من استلاب لحقوق الناس وامتھان لكراماتهم.

الآية (٣٩)

﴿وَأَسْتَكْبَرُوا وَجُودُهُ فِي الْأَرْضِ يَكْبَرُ الْحَقِّ وَظَنُوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ﴾

تشير هذه الآية إلى الموقف النهائي لفرعون من قضية رسالة موسى ودعوة الحق التي حملها إليه، فتقول: ﴿وَأَسْتَكْبَرُوا وَجُودُهُ...﴾ أي أنهم أخذتم العزة، وشعروا أنهم فوق الحق، وأعلى منه، وأنه لا يليق بهم أن يغيروا ما هم فيه، وأن التغيير اعتراف بأن ما كانوا عليه من أوضاع اجتماعية وسياسية كان خطأ بالغا.. وأن الآباء كذلك. هذا الاعتراف ثقيل على نفس لم تدعن للحق، ولم تتطامن له. استكبر فرعون، وتبعه في الاستكبار من هم عبيد عنده وجند، استكبروا في الأرض، أي أرض مصر، وتمادوا في ظلمهم للمستضعفين، وظنوا أن لا عودة إلى الله، ولا حساب بين يديه على كل ما قدموا من ظلم وطغيان. وإن الإنسان متى اعتقد بأن لا رجعة إلى الله زاد ظلماً وفساداً وطغياناً. إن عقيدة الآخرة هي صمام الأمان من الطغيان، فإنسان يعتقد نفسه محاسباً على النقيير والقطمير والكبير والصغير يقاوم نفسه ويردع طغيان ذاته على الخلق ويتطامن للحق.

الآية (٤٠)

﴿فَأَخَذَتْهُ وَجُودُهُ، فَنَبَذْنَاهُ فِي الْيَمِّ فَأَنْظَرَ كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ﴾

تنتقل هذه الآية من حلقة التكبذب إلى حلقة التعذيب، فقد استكبر فرعون وظن أن الله لن يأخذه ولن يؤاخذه، فاتاه من الله ما لم يكن يحتسب، فأخذه الله هو وجنوده، فنبذهم في اليم كما تنبذ النواة، فتأمل وانظر يا أيها النبي ﷺ، ويا كل معتبر ومتعقل بعد النبي ﷺ، تأمل بعين بصيرتك وعين عقلك كيف كانت عاقبة الظالمين وكيف كيف يكون عاقبة أمثالهم في كل حين.

قال الطبرسي: النبذ: الإلقاء والطرح، والشيء منبوذ، قال أبو الأسود: نظرت إلى عنوانه فنبذته كنبذك نعلأً أخلقت من نعالكا^(١)

قال الطبري، ابن جرير:

يقول تعالى ذكره: فانظر يا محمد بعين قلبك: كيف كان أمر هؤلاء الذين ظلموا أنفسهم، فكفروا بربهم وردوا على رسوله نصيحته، ألم نهلكهم فنورث ديارهم وأموالهم أوليائنا، ونحولهم ما كان لهم من جنات وعيون وكنوز ومقام كريم. بعد أن كانوا مستضعفين، تقتل أبناؤهم وتستحيا نساؤهم، فإن كذلك بك وبمن آمن بك، وصدقك فاعلون، نحولك ولإياهم ديار من كذبك ورد عيك ما أتيتهم به من الحق وأموالهم ومهلكوهم قتلاً بالسيف، سنة الله في الذين خلوا من قبل^(٢)

الآية (٤١-٤٢)

﴿وَجَعَلْنَاهُمْ آيَةً يَدْعُونَ إِلَى الْكُفْرِ وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ لَا يُصْرُونَ ﴿٤١﴾ وَاتَّبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَنَكْفِيَنَّ وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ﴾

إن أخذ فرعون وآله في الدنيا وإغراقهم في البيم لم يكن نهاية المطاف في عقابهم، وإنما كان البداية في عذابهم، فهم منذ ذلك التاريخ لا يذكرون على لسان مشفوعاً ذكرهم باللعن، ومتابعين بذكرهم السيء، وأما يوم القيامة فهم من المقبوحين، بمعنى من قبحت وجوههم مجرقها في النار وابعدوا من رحمة الله.. وقد جعلهم الله أئمة وقادة في الدعوة إلى جهنم يحملون أوزارهم وأوزار كل من يتبعهم لثقل حملهم يوم القيامة ويزداد وزرهم ويكثر لاعنهم.

(١) مجمع البيان، ج ٧، ص ٣٤٦. وارجع إلى ديوان أبي الأسود، ص ١٠٦.

(٢) تفسير الطبري، ج ١٠، ص ٧٥.

قال الطبري:

يقول تعالى ذكره: وألزمنا فرعون وقومه في هذه الدنيا خزيًا وغضبًا منا عليهم فتحمتنا لهم فيها بالهلاك والبوار والثناء السيء، ونحن متبعوهم لعنة أخرى يوم القيامة، فمخزوهم بها الخزي الدائم، مصيرهم الهون اللازم وبخو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل: عن قتادة قال: لعنوا في الدنيا والآخرة..

وعن ابن جريج بقوله: وأتبعناهم.. القيامة لعنة أخرى، ثم استقبل فقال: هم من المقبوحين^(١)

وقوله: هم من المقبوحين . يقول تعالى ذكره: هم من القوم الذين قبحهم الله فأهلكهم بكفرهم بربهم، وتكذيبهم رسوله موسى عليه السلام، فجعلهم عبرة للمعتبرين وعظة للمتعظين.^(٢)

وقال ابن كثير:

أي: وشرع الله لعنتهم ولعنة ملكهم فرعون على السنة المؤمنين من عباده المتبعين لرسله، كما أنهم في الدنيا ملعونون على السنة الأنبياء وأتباعهم كذلك ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ﴾.

قال قتادة وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿وَاتَّبِعُوا فِي هَذِهِ لَعَنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُنْسَرَفُ الْمَرْفُودُ﴾^(٣).

قال الطبرسي:

"والقبح: الإبعاد، قبحه الله أي أبعده يقبحه قبحاً، ويقال: قبحه إذا جعله قبيحاً وقيل: قبحه فهو مقبوح أهلكه^(٣)."

(١) جامع البيان ج ١٠، ص ٧٦.

(٢) تفسير ابن كثير، ج ٦، ص ٢١٤.

(٣) جمع البيان، ج ٧، ص ٣٤٧.

الآية (٤٢)

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَىٰ بِصَاحِبِ النَّاسِ
وَهَدَىٰ وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾

في ختام هذه المجموعة من الآيات تقرر الآية الكريمة نبوة موسى عليه السلام، وأن الله آتاه الكتاب، من بعد ما أهلك القرون الأولى، والمقصود بهم من أهلكوا قبل نبوته، ومنهم قوم نوح وقوم هود وقوم صالح ... إلخ لقد آتاه الله الكتاب ليرعوي الناس فلا يكرروا ما به يستثيرون غضب الله، أعطاه الله النبوة رحمة ليمتنع عن الناس العذاب، ولكن طبائع الطغيان، وعتو الإنسان، جعلت فرعون وآله يكررون المأساة، فيحقيق بهم ما حاق بأسلافهم من الكافرين.

لقد آتينا موسى الكتاب ليكون بصائر للناس وهداية لقلوبهم وعقولهم ومنارة للسائرين وهدى في دروب الحياة، ومنقذاً من الضلال، ورحمة يتراحم به الناس بينهم ومنهجاً يقيم حياتهم على المودة والألفة واللين والتراحم، فبه يرحمون في الدنيا وبالكتاب يرحمون في الآخرة، ومع كل ذلك، وفوق كل ذلك، لعلهم يتذكرون والتذكر مهمة للعقل . فهو مرتبة ووظيفة متقدمة. وذاكرة الإنسان هي الإنسان، وذاكرة الأمة هي الأمة، ومهمة الكتاب حفظ هذه الذاكرة متوجهة حية .. لعلهم يتذكرون.

تفسير المقطع السابع
إثبات نبوة محمد
من خلال قصة موسى
(الآيات ٤٤ - ٥٠)

تفسير المقطع السابع

إثبات نبوة محمد من خلال قصة موسى

هذه الآيات السبع تتحدث كلها تعقيباً على قصة موسى عليه السلام، وثبتت نبوة هذا النبي عليه الصلوات والتسليم من خلال القصة الكريمة، فمن أين للنبي الكريم العلم بهذه القصص، وهذه الأحداث، بهذه التفصيلات؟ أما العرب فلا يعلمونها، إذ أقصى ما يعرفونه اسم موسى وبعض أخباره على الجملة أو على الإجمال. وأما ما عند أهل الكتابين السابقين فمختلف في منهج العرض، ومختلف في العديد من المضمونات أو المضامين، وإن اتفق في الخط العام للقصة، ولكن نظرة فاحصة في القصة في الكتابين، تقطع وتجزم أنها فيما روى القرآن كلمات الله، وأنها فيما روت التوراة من صنعة البشر، الذين عبثوا بكلام الله . وما أحوج هذا الأمر إلى دراسة تفصيلية!

الآية (٤٤-٤٥)

﴿وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَىٰ مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ ۖ وَلَكِنَّا أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ ۖ وَمَا كُنْتَ ثَاوِيًّا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ۝﴾

على كل حال تقول الآية (٤٤) موجهة الخطاب إلى سيد النبيين: وما كنت أيها النبي بجانب الطور من الجهة الغربية، إذ قضينا إلى موسى أمر تكليفه بالرسالة، وإرساله إلى فرعون، وما كنت من الشاهدين (المجاملين) المعاشين لتلك الأحداث، فمن أين نقلتها إذاً؟ والمعلومات بهذه الكيفية ليست عند أحد من البشر ولا في

مصدر من المصادر، ثم إن أصحابها أعني اليهود لا يستطيعون إنكارها ولا ردها. لأنها الحق الذي لا يستطيعون له رداً ولا دفعاً.

فهذه القصة بهذا العرض وهذا المنهج في العرض تثبت أنك رسول الله، وأن ما تملوه على الناس إنما هو وحي يوحيه الله إليك، ولكننا أنشأنا أجيالاً وراء أجيال، ومرت على هذه القصة قرون وقرون، وأمم بعد أمم، بحيث يفصلك عنهم، أزمنة متطاولة، وأيال وأقوام وأمكنة متباعدة، فكيف عرفت بهذه القصص وهذه الأخبار؟ ولتكن أيها النبي صلى الله عليه وسلم، لم تكن مقيماً في مدين ولا أنت من أهلها، وما كنت تلو عليهم آياتنا، ولكننا أرسلناك إلى هذه الأمة لتتلو عليها ما ننزله عليك من قصة موسى في مدين، بعدما انقضى عليها قرون طويلة، ولكننا كنا مرسلين، وكنا باعثيك إلى أمتك لتتقدها من الجهل والضلال والشرك، بآيات هذا الكتاب، وما فيه من قصص بين مفصل عظيم ..

قال صاحب الظلال:

«مضت قصة موسى عليه السلام بدلالاتها، فأما هنا فتبدأ التعقيبات عليها، ثم يمضي السياق في طريقه على محور السورة الأصيل، يبين أين يكون الأمن وأين تكون المخافة، ويمجول مع المشركين الذين يواجهون دعوة الإسلام بالشرك والإنكار والمعاذير. يمجول معهم جولات شتى في مشاهد الكون، وفي مشاهد الحشر، وفيما هم فيه من الأمر، بعد أن يعرض عليهم دلائل الصدق فيما جاءهم به رسولهم ﷺ وكيف يتلقاه فريق من أهل الكتاب، بالإيمان واليقين، بينما هم يتلقونه بالكفران والجحود. وهو رحمة لهم من العذاب، لو أنهم كانوا يتذكرون.

والتعقيب الأول على القصة يدور حول دلالاتها على صدق دعوى الوحي.

فرسول الله ﷺ يتلو عليهم تفصيلات الأحداث كما يقصد شاهد العيان، وما كان حاضر أحداثها، ولكنه الوحي يقصها عليه من لدن عليم خبير، ورحمة بقومه أن

يصيبهم العذاب، بما هم فيه من الشرك، فيقولوا: ﴿رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا
فَتَنبِّحَ بآيَاتِكَ وَتَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

والغربي هو الجانب الغربي من الطور الذي جعله الله ميقاتاً لموسى عليه السلام، بعد أجل محدد .. ثلاثين ليلة، أتمها بعشر، فكانت أربعين ليلة على ما ذكر في الأعراف، وفي هذا الميقات قضى الأمر لموسى في الألواح، لتكون شريعته في بني إسرائيل. وما كان رسول الله ﷺ شاهداً لهذا الميقات، حتى يعلم نبأه المفصل، كما ورد في القرآن الكريم، وأن بينه وبين هذا الحادث لقروناً من الناس أي أجيالاً متطاولة فتلك دلالة على أن الذي نبأ به وهو العليم الخبير، الذي يوحى إليه القرآن الكريم^(١).

قال ابن كثير:

يقول تعالى منبها على برهان نبوة محمد ﷺ حيث أخبر بالغيوب الماضية خبراً كان سامعه شاهد وراء لما تقدم، وهو رجل أُمي لا يقرأ شيئاً من الكتب، نشأ بين قوم لا يعرفون شيئاً من ذلك، كما أنه لما أخبره عن مريم وما كان من أمرها فقال تعالى: ﴿وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَقُولُ أَفْلَنَهِمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ [آل عمران: ٤٤].

أي: وما كنت حاضراً لذلك، ولكن الله أوحاه إليك، وهكذا لما أخبره عن نوح وقومه، وما كان من إنجاء الله له وإغراق قومه، ثم قال تعالى: ﴿تِلْكَ مِنْ آيَاتِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَذِيبَ لِلْمُنْفِقِينَ﴾ [هود: ١٠٦].

٤٩]، وقال في آخر السورة، ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْفَرَى نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ﴾ [هود: ١٠٠]. وقال بعد ذكر قصة يوسف: ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾ [يوسف: ١٠٢]. وقال في سورة طه: ﴿كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ﴾ [طه: ٩٩].

وقال ههنا بعدما أخبر عن قصة موسى من أولها إلى آخرها، وكيف كان ابتداء إحياء الله إليه وتكليمه له: ﴿وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْفَرَى إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الْأَمْرَ﴾ [القصص: ٤٤] يعني: ما كنت يا محمد بجانب الجبل الغربي الذي كلم الله موسى من الشجرة التي هي شرقه على شاطئ الوادي ﴿وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ لذلك، ولكن الله سبحانه وتعالى أوحى إليك ذلك، ليكون حجة وبرهاناً، على قرون قد تطاول عهدها، ونسوا حجج الله عليهم، وما أوحاه إلى الأنبياء المتقدمين.

﴿وَمَا كُنْتَ تَأْوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا﴾ . أي: وما كنت مقيماً في أهل مدين تتلو عليهم آياتنا حين أخبرت عن نبينا شعيب وما قال لقومه وما ردوا عليه^(١) ﴿وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾ أي: ولكن نحن أوحينا إليك ذلك وأرسلناك إلى الناس رسلاً.

وقوله تعالى: ﴿وَلَكِن رَّحِمَةً مِنْ رَبِّكَ﴾ أي: ما كنت مشاهداً لشيء من ذلك، ولكن الله تعالى أوحاه إليك وأخبرك به رحمة منه بك وبالعباد وبإرسالك إليهم ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مِمَّا أَتَتْهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [القصص: ٤٦] أي لعلهم يهتدون بما جتتهم به من الله عز وجل.

(١) قلت: أو يكون المعنى: ما كنت مقيماً في مدين وقت ورود موسى عليها.

﴿وَلَوْلَا أَنْ تُصِيبَهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا﴾ [القصص: ٤٧] أي: وأرسلناك إليهم لتقيم عليهم الحجة ولينقطع عذرهم إذا جاءهم عذاب الله بكفره فيحتجوا بأنهم لم يأتهم رسول ولا نذير، كما قال تعالى بعد ذكره إنزال كتابه المبارك وهو القرآن ﴿أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أُنْزِلَ الْكِتَابُ عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا وَإِنْ كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَغَفْلِينَ ﴿٥٦﴾ أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَى مِنْهُمْ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ﴾ [الأنعام: ١٥٦-١٥٧].

وقال تعالى: ﴿رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥].

وقال تعالى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ أَنْ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ﴾ [المائدة: ١٩]. والآيات في هذا كثيرة.^(١)

قال الطبرسي:

(أي خلقنا قرناً بعد قرن فطال عهدهم بالمهلكين قبلهم وفترة النبوة، فحملهم ذلك على الاغترار، وأنكروا بعثة الله رسله لجهلهم بأمر الرسل، فأرسلناك للناس رسولاً وجعلناك رحمة للناس كما جعلنا موسى رحمة ..)^(٢).

(١) تفسير ابن كثير، ج ٦، ص ٢١٦-٢١٧.

(٢) الطبرسي، أبو علي الفضل: مجمع البيان، ج ٥، ص ٣٠٠.

الآية (٤٦)

﴿وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَكِنْ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ لِتُنْذِرَ قَوْمًا مِمَّنْ أَنْتُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾.

هذه هي المرة الرابعة التي يكرر فيها النص الكريم ﴿وَمَا كُنْتَ﴾ خلال ثلاث آيات، مما يدل من خلال التكرار، على أن النص الكريم يستشهد بهذه القصة على نبوة النبي الكريم عليه الصلوات والتسليم، ومن هنا يكرر ليقرر ويعيد صيغة: ﴿وَمَا كُنْتَ﴾، ليصل إلى النتيجة المطلوبة.

يقول النص الكريم: إنك أيها النبي الكريم لم تكن بجانب الطور إذ نادينا موسى ولكن هذا الوحي الذي قص عليك القصة إنما هو رحمة من ربك، فالقصص رحمة، والكتاب رحمة، وأنت لهؤلاء القوم، بل للعالمين رحمة، هذه الرحمة تتمثل في إنذارك قوماً ما أتاهم من نذير من قبلك لعلهم يتذكرون حقائق غفلوا عنها، ومصيراً خطيراً ينتظرهم في الدنيا والآخرة.

قال صاحب الظلال:

«كذلك صَوَّرَ القرآن موقف المناداة والمناجاة من جانب الطور بدقة وعمق:

﴿وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا﴾ وما سمع رسول الله ﷺ النداء، وما سجل في وقتها تفصيلاته، ولكنها رحمة الله بقومه هؤلاء، أن قص عليه تلك الأنباء الدالة على صدقه ﷺ فيما يدعوهم إليه، لينذر هؤلاء القوم الذين لم يأنهم نذير من قبله،

فقد كانت الرسائل في بني إسرائيل من حولهم، ولم يرسل إليهم رسول منذ أمد طويل، منذ أبيهم إسماعيل: لعلهم يتذكرون^(١).

آية (٤٧)

﴿وَلَوْلَا أَنْ تُصِيبَهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ وَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾

إن الله لو لم يرسل إلى العرب رسولا ينذرهم ويذكرهم، ثم وقعت بهم المصائب التي يستحقونها نتيجة طبيعية لشركهم وما ينتجه الشرك في المجتمع من مظالم وفجور ومعاص، فيقولوا لو وقع بهم ذلك: ياربنا هلا أرسلت إلينا رسولا، فنتبع وحيك وتعليماتك، ونكون بهذا الرسول، وبالرسالة التي أرسل بها، نكون من المؤمنين.

قال في الظلال:

«فهي رحمة الله بالقوم، وهي حجة كذلك عليهم، كي لا يعتذروا بأنهم أخذوا على غرة، وأنهم لم ينذروا قبل أخذهم بالعذاب، وما هم فيه من جاهلية وشرك ومعصية يستوجب العذاب، فأراد الله أن يقطع حجتهم، وأن يعذر إليهم وأن يقفهم أمام أنفسهم مجردين من كل عائق يعوقهم عن الإيمان: ﴿وَلَوْلَا أَنْ تُصِيبَهُمْ مُصِيبَةٌ﴾ كذلك كانوا سيقولون لو لم يأتهم رسول، ولو لم يكن مع هذا الرسول من الآيات ما يلزم الحجة^(٢)»

(١) الظلال، ج ٥، ص ٢٦٩٨.

(٢) الظلال، ج ٥، ص ٢٦٩٩.

الآية (٤٨ - ٥٠)

﴿ فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا لَوْلَا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَىٰ أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ مِنْ قَبْلُ قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا وَقَالُوا إِنَّا بِكُلِّ كَافِرٍ ﴿٤٨﴾ قُلْ فَأَنُوتُوا بِكِتَابٍ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا اتَّبِعْهُ إِنَّ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤٩﴾ فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّهُمَا إِنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ اتَّبَعَ هَوَاهُ يَغْيِرْ هُدَىٰ مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾

إن الله تعالى قد قطع عذر العرب وحجتهم ألا يؤمنوا ويتبعوا هذا النبي الأمين، فأرسل لهم الحق من عنده سبحانه وتعالى، فلما جاءهم الحق جلياً واضحاً وعليه من الله برهان، وفطرتهم تعرفه، لو أدخلوا بينها وبينه، لما جاءهم الحق قالوا: هلا أعطي هذا الرسول من الآيات والبيانات مثل ما أعطي موسى؟ ويرد الله عليهم بقوله: أولم يكفر الكافرون بما أوتي موسى من قبل؟ وقد يقال: إن الذين كفروا بموسى هم من القبط وليسوا من العرب، والرد أن الكفر موقف واحد وملة واحدة وبواعث واحدة، قال الكافرون يومها لموسى وأخيه: سحران تأزرنا وتعاوننا، وقالوا إِنَّا كافرون بهذا وهذا.

ويواصل السياق قطع حجة الكافرين من العرب الذين يحاولون صد الناس عن الدين وصد أنفسهم، فيقطع عذرهم ويقول: إن كنتم تشكون أن هذا الوحي المنزل على رسولنا هو كلام الله فاتوا بكلام من عند الله أهدى من هذا القرآن الذين جتكم به، وهو عين الحال بالطبع، وأنا على استعداد لاتباعه ساعتئذٍ، وهذا شأن كل باحث عن الحق والهدى، فإن لم تفعلوا هذا فأنتم من الكاذبين. فإن لم يجيبوا طلبك فاعلم أنهم إنما يتبعون أهواءهم، والأهواء لا تستقر بأصحابها على

حال، ولا أحد أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله، ولن يكون الهوى والهدى مقترنين، إن الله لا يهدي إلى هذا الحق القوم المصرين على ظلمهم وكفرهم. قال في الظلال:

«حين جاءهم الرسول ومعه الحق الذي لا مرية فيه لم يتبعوه. ولم يدعنوا للحق، واستمسكوا بالتعلات الباطلة، (فطالبوا بمثل ما أوتي موسى) إما من الخوارق المادية، وإما من الألواح التي نزلت عليه جملة، وفيها التوراة كاملة. ولكنهم لم يكونوا صادقين في حجتهم ولا مخلصين في اعتراضهم ﴿وَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ﴾ مؤسرين قبل ﴿﴾، ولقد كان في الجزيرة يهود، وكان معهم التوراة فلم يؤمن لهم العرب، ولم يصدقوا ما بين أيديهم من التوراة. ولقد علموا أن صفة محمد ﷺ مكتوبة في التوراة، واستفتوا بعض أهل الكتاب فيما جاءهم به فأفتوهم بما يفيد أنه الحق، وأنه مطابق ما بين أيديهم من الكتاب، فلم يدعنوا لهذا كله، وادعوا أن التوراة سحر، وأن القرآن سحر، وأنهما من أجل هذا يتطابقان، ويصدق أحدهما الآخر»^(١).

فهو المرء إذاً واللجاجة، لا طلب الحق، ولا نقصان البراهين ولا ضعف الدليل ومع هذا فهو يسير معهم خطوة أخرى في الإفحام والإحراج، يقول لهم: إن لم يكن يعجبكم القرآن، ولم تكن تعجبكم التوراة، فإن كان عندكم من كتب الله ما هو أهدى من التوراة والقرآن فأتوا به أتبعه. وهذه نهاية الإنصاف وغاية المطاولة بالحجة، فمن لم يمنح إلى الحق بعد هذا فهو ذو الهوى المكابر الذي لا يستند إلى دليل.

(١) واضح أن صاحب الظلال ينحو في الفهم منحى غير الذي لحته في الصفحة السابقة.

إن الحق في هذا القرآن لبيّن، وإن حجة هذا الدين لواضحة، فما يتخلف عنه أحد يعلمه إلا أن يكون الهوى هو الذي يصده، وإنما لطريقان لا ثالث لهما: إما إخلاص للحق وخلوص من الهوى، وعندئذ لا بد من الإيمان والتسليم، وإما ممارسة في الحق واتباع الهوى فهو التكذيب والشقاق. ولا حجة من غموض في العقيدة، أو ضعف في الحجة، أو نقص في الدليل، كما يدعي أصحاب الهوى المغرضون.

إنها كلمة جازمة قاطعة من الله لا راد لها ولا معقب عليها: إن الذين لا يستجيون لهذا الدين مغرضون غير معذورين، متجنون لا حجة لهم ولا معذرة، متبعون للهوى، معرضون عن الحق الواضح. وهم في هذا ظالمون باغون.

إن هذا النص ليقطع الطريق على المعتذرين بأنهم لم يفهموا عن هذا القرآن، ولم يحيطوا علماً بهذا الدين، فما هو إلا أن يصل إليهم، ويعرض عليهم، حتى تقوم الحجة، وينقطع الجدل، وتسقط المعذرة، فهو بذاته واضح واضح، لا يحيد عنه إلا ذو الهوى يتبع هواه، ولا يكذب به إلا متجنن يظلم نفسه، ويظلم الحق البين، ولا يستحق هدى الله. إن الله لا يهدي القوم الظالمين»^(١)

﴿فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا لَوْلَا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَىٰ أُولَٰئِكَ لَا يَكْفُرُونَ إِلَّا بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾
 ﴿أُوتِيَ مُوسَىٰ مِنْ قَبْلُ قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا وَقَالُوا إِنَّا بِكُلِّ كَافِرُونَ﴾
 قال ابن جرير في تفسير هذه الآية:

«يقول تعالى ذكره: فلما جاء هؤلاء الذين لم يأتهم من قبلك يا محمد نذير فبعثناك إليهم نذيراً ﴿الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا﴾ وهو محمد ﷺ بالرسالة من الله إليهم، قالوا ترمداً على الله وتمادياً في الغي: هلا أوتي هذا الذي أرسل إلينا وهو محمد ﷺ مثل

ما أوتي موسى ابن عمران من الكتاب، يقول الله تبارك وتعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ
 قل يا محمد لقومك من قريش، القائلين لك ﴿لَوْلَا أَوْفَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَىٰ﴾ أولم
 يكفر الذين علموا هذه الحجة من اليهود بما أوتي موسى من قبلك.
 وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل: ذكر من قال ذلك: ... عن مجاهد
 قال: يهود تأمر قريشاً أن تسأل محمداً مثل ما أوتي موسى، يقول الله لحمد ﷺ: قل
 لقريش يقولوا لهم: أولم يكفروا بما أوتي موسى من قبل.

﴿سِحْرَانِ تَظَاهَرَا﴾

واختلف القراء في قراءة ذلك، فقرأته عامة قراء المدينة والبصرة ﴿قَالُوا
 سِحْرَانِ تَظَاهَرَا﴾ بمعنى: أولم يكفروا بما أوتي موسى من قبل، وقالوا له ولمحمد في
 قول بعض المفسرين، وفي قول بعضهم: لموسى وهارون عليهما السلام، وفي قول
 بعضهم: لعيسى ومحمد سحران تعاونا.

وقرأ عامة أهل الكوفة: ﴿قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا﴾ بمعنى: وقالوا للتوراة
 والفرقان في قول بعض أهل التأويل وفي قول بعضهم: للإنجيل والفرقان.

ثم نقل عن ابن عباس أن المقصود بالسحرين: محمد وموسى عليهما السلام.
 ونقل عن مجاهد أن المراد بهما موسى وهارون. ونقل عن الحسن أنهما: عيسى
 ومحمد أو قال موسى، ونقل عن ابن عباس وابن زيد أن المراد بهما: التوراة
 والقرآن، ونقل عن مجاهد أنهما التوراة والإنجيل. وعن الضحاك وقتادة أنهما:
 القرآن والإنجيل.

ثم قال: وأولى القراءتين في ذلك عندنا بالصواب، قراءة من قرأه ﴿سِحْرَانِ

تَظَاهَرَا﴾

بمعنى كتاب موسى وهو التوراة، وكتاب عيسى وهو الإنجيل.

وإنما قلنا ذلك أولى القراءتين بالصواب، لأن الكلام من قبله جرى بذكر الكتاب وهو قوله: ﴿تَوَلَّأَوْفٍ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَى﴾ والذي يليه من بعده ذكر الكتاب، وهو قوله: ﴿فَأَتَوْا بِكُتُبٍ مِّنْ عِندِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا أَنِيعَةً﴾ فالذي بينها بأن يكون من ذكره أولى وأشبه بأن يكون من ذكر غيره. وإذا كان ذلك هو الأولى بالقراءة، فمعلوم أن معنى الكلام: قل يا محمد أولم يكفر هؤلاء اليهود بما أوتي موسى من قبل وقالوا لما أوتي موسى من الكتاب وما أوتيته أنت، سحران تعاونا.

﴿وَقَالُوا إِنَّا بِكُلِّ كَافِرُونَ﴾

يقول تعالى ذكره: وقالت اليهود: إنا بكل كتاب في الأرض من تورا وإنجيل وزبور كافرون ونقل ذلك عن مجاهد، أما الضحاك فقال: بالإنجيل والقرآن. وعن

ابن عباس وابن زيد: التوراة والفرقان.^(١)

وقال ابن كثير:

يقول تعالى مخبراً عن القوم الذين لو عذبهم قبل قيام الحجة عليه لاحتجوا بأنهم لم يأتهم رسول أنهم لما جاءهم الحق من عنده على لسان محمد ﷺ، قالوا على وجه العنت والعناد والكفر والجهل والإلحاد ﴿تَوَلَّأَوْفٍ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَى﴾ يعنون، والله أعلم، من الآيات الكثيرة مثل العصا واليد والطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم وتنقيص الزروع والثمار مما يضيق على أعداء الله وكفلق البحر وتظليل الغمام وإنزال المن والسلوى إلى غير ذلك من الآيات الباهرة والحجج

(١) تفسير ابن جرير: ج ١٠، ص ٨١ ص ٨٢.

القاهرة التي أجزاها الله تعالى على يدي موسى عليه السلام حجة وبرهاناً له على فرعون وملئه وبني إسرائيل.

مع هذا كله لم ينجع في فرعون وملئه، بل كفروا بموسى وأخيه هارون، كما قالوا لهما: ﴿أَجِئْتَنَا لِتَلْفِنَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِرْبِيُّ فِي الْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ﴾ وقال تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا مِنَ الْمُهْلَكِينَ﴾ ولهذا قال ههنا: ﴿أَوَلَمْ يَكْفُرُوا يَمَّا أُوْفِيَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ﴾ أي أولم يكفر البشر بما أوتي موسى من تلك الآيات العظيمة ﴿فَالْوَا سِحْرَانِ تَظْهَرَا﴾ أي تعاونا ﴿وَقَالُوا إِنَّا بِكُلِّ كَفْرٍ﴾ أي بكل منهما كافرون، ولشدة التلازم والتصاحب والمقاربة بين موسى وهارون، دل ذكر أحدهما على الآخر، كما قال الشاعر:

فما أدري إذا عمت أرضاً أريد الخير أيهما يليني
أي: فما أدري يليني الخير أو الشر.

قال مجاهد بن جبر: أمرت اليهود قريشاً ليقولوا لمحمد ﷺ ذلك، فقال الله: ﴿أَوَلَمْ يَكْفُرُوا... تَظْهَرَا﴾ قال: يعنون موسى وهارون عليهما السلام (تظاهرا) أي: تعاونا وتناصرنا وصدق كل منهما الآخر؟ وبهذا قال سعيد بن جبير وأبو رزين في قوله: (ساحران) يعنون: موسى وهارون، وهذا قول جيد قوي والله أعلم. وقال مسلم بن يسار عن ابن عباس: قال: ﴿فَالْوَا سِحْرَانِ تَظْهَرَا﴾ يعنون موسى ومحمد ﷺ وهذه رواية الحسن البصري. وقال الحسن وقتادة يعني عيسى ومحمداً ﷺ وهذا فيه بعد، لأن عيسى لم يجر له ذكر ههنا، والله أعلم.

وأما من قرأ ﴿فَالْوَا سِحْرَانِ تَظْهَرَا﴾ فقال علي بن أبي طلحة والعمري عن ابن عباس: يعنون التوراة والقرآن وكذا قال عاصم الجندي والسدي وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم. قال السدي: يعني صدق كل واحد منهما الآخر.

وقال عكرمة يعنون التوراة والإنجيل، وهو رواية عن أبي زرعة واختاره ابن جرير. وقال الضحاك وقتادة: الإنجيل والقرآن، والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب!!

والظاهر على قراءة (سحران) أنهم يعنون التوراة والقرآن، لأنه قال بعده: ﴿قُلْ فَأَتُوا بِكِتَابٍ مِّنْ عِندِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا أَتَّبِعُهُ﴾ وكثيراً ما يقرن الله بين التوراة والقرآن، كما في قوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ﴾ إلى أن قال: ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ﴾ وقال في آخر السورة: ﴿ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَىٰ الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَىٰ الَّذِي أَحْسَنَ﴾ الآية. وقال: ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ وقال الجن: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾.

وقال ورقة بن نوفل: هذا الناموس الذي أنزل على موسى، وقد علم بالضرورة لذوي الألباب أن الله تعالى لم ينزل كتاباً من السماء فيما أنزل من الكتب المتعددة على أنبيائه أكمل ولا أشمل ولا أفصح ولا أعظم ولا أشرف من الكتاب الذي أنزل على محمد ﷺ وهو القرآن، وبعده في الشرف والعظمة الكتاب الذي أنزل على موسى ابن عمران عليه السلام، وهو الكتاب الذي قال الله فيه: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ الْتُورَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّحِبِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِن كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ﴾ [المائدة: ٤٤].

والإنجيل إنما أنزل متمماً للتوراة، ومُحلاً لبعض ما حرم على بني إسرائيل، ولهذا قال تعالى: ﴿قُلْ فَأَتُوا بِكِتَابٍ مِّنْ عِندِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا أَتَّبِعُهُ﴾ إن كنت صديقاً أي فيما تدافعون به الحق وتعارضون به من الباطل.^(١)

الآية (٤٩):

﴿قُلْ فَأَتُوا بِكِتَابٍ مِّنْ عِندِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا أَتَّبِعُهُ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾

قال ابن جرير:

«يقول جل ذكره لنبيه محمد ﷺ: قل يا محمد للقائلين للتوراة والإنجيل: هما سحران تظاهرا اتوا بكتاب من عند الله هو أهدى منهما لطريق الحق ولسبيل الرشاد. أتبعه إن كنتم صادقين، في زعمهم أن هذين الكتابين سحران، وأن الحق في غيرهما. وهذا المعنى منقول عن ابن عباس.

وعن ابن زيد: قال الله ﴿فَأَتُوا بِكِتَابٍ مِّنْ عِندِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا﴾ من هذين الكتابين الذي بعث به موسى، والذي بعث به محمد ﷺ. ^(١)

الآية (٥٠)

﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَن أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ يَفْزَحِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ إِنَّكَ أَنتَ الْهَادِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾
الربط بما سبق ووجه المناسبة مع السياق:

كان في الآية السابقة يتحدثونهم أن يأتوا بكتاب من عند الله يكون أهدى من الذي جاء به موسى وجاء به محمد عليهما السلام، وفي هذه الآية يعلم القرآن النبي ﷺ ما يصنع إن هم لم يستجيبوا للتحدي، وهم بالقطع لن يستجيبوا.

المعنى بإجمال:

يقول النص الكريم للنبي الكريم عليه الصلوات والتسليم، إن لم يستجب لك هؤلاء الكفار، فاعلم بيقين أنهم إنما يتبعون أهواءهم، والأهواء ليست تستقر على

حال وأربابها في تغير واضطراب، ولا أحد أضل ممن اتبع هواه بمعزل عن هدى الله، ثم ختمت الآية بقانون الله رب العالمين في البشر والناس أجمعين، هذا القانون يتلخص في أن الله لا يهدي القوم الظالمين. وناسب هذا الختام لهذه الآية، لأن هؤلاء الذين يجادلون في آيات الله ظالمون لأنفسهم ولغيرهم وللحقيقة، والمقيم على الظلم لا يهتدي إلى الحق ولا ينشرح عقله للعلم، فأنى يهتدي؟ وهو قابع في قواقع التخلف والجهل والتعصب؟!

قال الزمخشري في (أساس البلاغة) في معنى (الهوى):

(هوى: هوى يهواه، وهو هو، وهي هوية. قال:

أراك إذا لم أهو أمراً هويته ولست لما أهوى من الأمر باهوى

وهو من أهل الأهواء ﴿وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى﴾

ومن هوى هوى. وهوى من الجبل. وهوت الدلو في البئر هويّاً بالفتح. وطاح في المهواة والهاوية، وهي ما بين الجبلين. وتهاووا فيها: تساقطوا. وهذه هوة عميقة وهوى. وهوى الرجل مات ﴿فَأَمَّهُ هَآوِيَةً﴾ ﴿وَأَسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ﴾ ومن

المجاز، قولهم للجبان: إنه لهواء: خالي القلب عن الجراءة ﴿وَأَفْتَدَتْهُمْ هَوَاءٌ﴾^(١)

وقد ورد (الهوى) بهذه الصيغة، في الكتاب المجيد ٤ مرات في سور مكية ومدنية هي: النساء و ص والنجم والنازعات.

ورود (هوى) فعلاً في موضوعين: في طه (٨١)، والنجم (١)

وأما (أهواء) فقد وردت ٣ مرات وأهواءكم مرة، وأهواءهم ١٢ مرة^(٢)

(١) الأساس، ص ١٠٧٠.

(٢) المعجم المفهرس: ص ٧٤٠.

تفسير المقطع الثامن

تعقيب على تعقيب

(الآيات ٥١-٥٩)

تفسير المقطع الثامن تعقيب على تعقيب

(الآية ٥١)

﴿وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَذْكُرُونَ﴾

أشار الدكتور أبو موسى إلى التكرار الوارد في سورة القصص لقصة موسى، فقال:

«ورد التكرار في الأمور المهمة والمعاني التي يحرص القرآن على أن يثبتها في القلوب ويثبتها في الضمائر، وقد أشار سبحانه إلى الغرض من التكرار فقال:

﴿وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَذْكُرُونَ﴾ [القصص: ٥١].^(١)

جعلت عنواناً لهذه الآيات التسع: «تعقيب على تعقيب»، وأقصد من هذا أن المقطع السابق كان تعقيباً على قصة موسى عليه السلام، ركز على رابنية هذا القرآن العظيم، وأن مافيه من حقائق لم يعايشها النبي ﷺ ولم يجايلها، ولم ينقلها من كتاب لأنها أصلاً - بهذه التفصيلات الدقيقة الحقة -، غير وجودة الآن في كتاب إلا في هذا الكتاب، فمن أين مصدرها إذا؟ إنه الوحي الإلهي إلى هذا الرسول الخاتم ﷺ.

وكل من كان منصفاً يتحرى الحق سيصل إلى هذه النتيجة. ثم جاءت هذه المجموعة الجديدة من الآيات تعليقاً على التعليق، وتعقيباً على التعقيب، تؤكد الآي

(١) د. محمد أبو موسى: الإعجاز البلاغي، دراسة تحكيم لتراث أهل العلم، ص ٦٤، ط ٢ القاهرة، مكتبة وهبة

الأولى من المجموعة، وهي الأولى بعد الخمسين، تؤكد باللام وقد الداخلة على الماضي المفيدة للتحقيق والتأكيد أن الله عز وجل وصل لهم القول، أعني لقوم هذا النبي ﷺ ولم يكلفهم ولم يحملهم ولم يحشهم مشقة البحث عن الحق والفحص عن وجه المسألة، وإنما أتى الله بها إليهم على قلب أصدقهم وأعظمهم محمد ﷺ وأتى بها ناصعة واضحة متجلية.. حتى يتذكروا حقائق بديهية غابت عنهم أو غابوا عنها. وقد مرت يتذكرون في حقهم قبل خمس من الآيات فقط، للتأكيد على أهمية هذا التذكر في قوم تلفهم غفلة مطبقة وإغماض عن الحق شديد.

الآية (٥٢)

﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ﴾

استشهدت هذه الآية بموقف الصادقين من أهل الكتاب، بقطع النظر عن عددهم ونسبتهم، فإن من أعرض عن الحق هو المدان، ويكفي أن يعترف به كل محق باحث عن الحقيقة محافظ على فطرة الله فيه.

يقول النص الكريم: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ﴾ النص عام، وإنما المراد منه خصوص بعضهم، لا عموم جميعهم، أو إن شئت قلت إن العموم ممكن لو أنصفوا وشهدوا بالحق، والكتاب كذلك جاء عاماً، قد بقصد منه مطلق التوراة والإنجيل، أو التوراة على وجه الخصوص، على اعتبار أن الإنجيل، أتباعه في الجزيرة قليل، ولم يكونوا في بؤرة الحدث بالنسبة للعرب، ومن ناحية أخرى فإن الإنجيل مكمل للأصل وهو التوراة، فمرجع الأمر إلى التوراة.

وأياً كان وفي مطلق الأحوال، فإن بقاء النص مطلقاً مقصود: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ

الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ﴾. وعبر عن القرآن بالضمير لشهرته وانفهامه من السياق وإن لم يصرح باسمه، بل يكفي مجرد ذكر ضميره: (به) هؤلاء الذين آتيناهم

الكتاب يؤمنون بهذا الكتاب الذي أنزل على سيد الرسل وخاتمهم، لأن من آمن بمبدأ الكتاب آمن بهذا الكتاب، وعلى العكس من تحجر أو تعصب لكتاب فإنه ينغلق عن مبدأ الإيمان، تحت ما مظهره الإيمان بكتابه على الخصوص وهو بتعصبه قد كفر بالكتب على العموم. وعبر بالمضارع (يؤمنون) ليفيد تجدد إيمانهم جيلاً بعد جيل، وإن يكن العدد القليل هو الذي ينجو من غل التقليد والغلو والتعصب.

قال ابن كثير:

«يخبر تعالى عن العلماء الأولياء من أهل الكتاب أنهم يؤمنون بالقرآن، كما قال

تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا بِالْكِتَابِ الَّذِي بَنَوْا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ حَتَّى تَخْلُفَهُمُ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى﴾ [البقرة: ١٢١] وقال

تعالى: ﴿وَلَا يَرْجُوا يَوْمَ الْحِسَابِ﴾ [البقرة: ١٢٢] وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ

خَشِيعِينَ لِلَّهِ ﴿آل عمران: ١٩٩﴾. وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ اللَّهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَدْخُلُونَهَا إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَلَهُ يَنْزِلُ

عَلَيْهِمْ يَخْرُجُونَ لِلْآذِقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّ كَافِرًا كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ أُخْرَىٰ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ [الإسراء: ١٠٧-١٠٨]

وقال تعالى: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ

أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصْرُكَ إِنَّكَ لَآتٍ بِكُمْ فَمَا أَنتَ بِمُعْجِزٍ لَّهُمْ وَلَقَدْ مَكَرُوا أَنِ يُكَفِّرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَلَا يَفْعَلُونَ ﴿٨٢﴾ وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ

زَعَىٰ أَعْيُنُهُمْ فَيُضْئِلُ مِنَ الدَّمْعِ مَدَارَ فَوْءٍ مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴿٨٣﴾

[المائدة: ٨٢-٨٣].

قال الله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ﴾ أي هؤلاء المتصفون بهذه الصفة

الذين آمنوا بالكتاب الأول ثم الثاني ولهذا قال: (بما صبروا) أي على اتباع الحق،

فإن تجشم مثل هذا شديد على النفوس، وقد ورد في الصحيح من حديث عامر

الشعبي عن أبي بردة عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله

ﷺ: «ثلاثة يؤتون أجورهم مرتين: رجل من أهل الكتاب آمن بنيه ثم آمن بي، وعبد مملوك أدى حق الله وحق مواليه، ورجل كانت له أمة فأدبها فأحسن تأديبها ثم أعتقها فتزوجها» (البخاري. العلم، مسلم: الإيمان، حديث (٢٤١).

وقال الإمام أحمد:.... عن سليمان بن عبد الرحمن عن القاسم بن أبي أمامة قال: «إني لتحت راحلة رسول الله ﷺ يوم الفتح، فقال قولاً حسناً جميلاً، وقال فيما قال: من أسلم من أهل الكتابين فله أجره مرتين وله ما لنا وعليه ما علينا، ومن أسلم من المشركين فله أجره وله ما لنا وعليه ما علينا» (المسند ٥/ ٢٥٩).^(١)

قال في الظلال:

«وحين تنتهي هذه الجولة، فيتبين منها التواؤم ومراؤهم يأخذ معهم في جولة أخرى تعرض عليهم صورة من استقامة الطبع وخلوص النية. تتجلى هذه الصورة في فريق من الذين أوتوا الكتاب من قبلهم، وطريقة استقبالهم للقرآن المصدق لما بين أيديهم: ﴿الَّذِينَ آمَنَتْهُمْ أَكْتَبَ... سَلَّمَ عَلَيْكُمْ لَا نَبْنِئُ الْجَنَّةَ لَكُمْ﴾.

ثم ينقل الظلال عن سعيد بن جبير أنها أي الآيات نزلت في سبعين من القسيسين بعثهم النجاشي... أسلموا كلهم. ثم نقل عن محمد بن إسحق في السيرة أن عشرين من النصارى جاءوا من الحبشة عندما بلغهم خبر النبي ﷺ، فلما سمعوا القرآن من النبي فاضت أعينهم بالدمع وأسلموا، فراجعهم أبو جهل واعترضهم وأقذع لهم قالوا: سلام عليكم لا نجاهلكم..

ثم نقل الزهري أنها نزلت في النجاشي وأصحابه هي وآيات المائدة. ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَسَّيْسِرُ﴾ [المائدة: ٨٢]. وعلق الظلال على الروايات الطوال فقال:

(١). تفسير ابن كثير، ج٦، ص ٢١٩ ص ٢٢٠.

وأياً ما كان الذين نزلت فيهم أو في أمرهم هذه الآيات، فالقرآن يرد المشركين إلى حادث وقع، يعلمونه ولا ينكرونه. كي يفهم وجهاً لوجه أمام نموذج من النفوس الخالصة كيف تتلقى القرآن، وتطمئن إليه، وترى فيه الحق، وتعلم مطابقتها لما بين أيديها من الكتاب. ولا يصدها عنه صاد من هوى ولا كبرياء.. وتحتمل في سبيل الحق الذي آمنت به ما يصيبها من أذى وتناول من الجهلاء»^(١).

الآية (٥٣)

﴿وَإِذْ يُنَادِي عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ﴾

تواصل الآية هذه ما عرضت سابقتها من شأن هذا الكتاب، أعني القرآن فلإن من شأنه أنه إذا يتلى على أهل الكتاب قالوا فوراً: آمنا به، إنه الحق الذي نعرفه من ربنا، إنا كنا قبل نزوله وقبل وصوله إلينا، كنا من قبله مسلمين.. واختار كلمة "مسلمين" التي هي عنوان أمة هذا الدين، هذا الاختيار مقصود، ليجمع بينهم في نسق واحد ورباط واحد، واسم واحد ولافتة واحدة. فالدين عند الله واحد. مصدره واحد. وغايته واحدة. واسمه واحد: الإسلام ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ [آل عمران: ١٩]. واسم الأمم المؤمنة به واحد: المسلمون. هذه بعض إيجاءات ودلالات كلام أهل الكتاب ووصف أنفسهم بالمسلمين.

قال في الظلال:

«هذه إحدى الآيات على صحة الكتاب، فالكتاب كله من عند الله، فهو متطابق مع ما عرفوا من الحق، وهو من الوضوح بحيث لا يحتاج إلى أكثر من

تلاوته، بحيث يعرف الذين عرفوا الحق من قبل أنه من ذلك المعين، وأنه صادر من ذلك المصدر الواحد والإسلام لله هو دين المؤمنين بكل دين»^(١)

«يقول تعالى ذكره: ولقد وصلنا يا محمد لقومك من قريش ولليهود من بني إسرائيل القول بأخبار الماضين والنبا عما أحللتنا بهم من بأسنا، إذ كذبوا رسلنا، وعما نحن فاعلون بمن اقتفى آثارهم، واحتذى في الكفر بالله وتكذيب رسله مثالمهم ليتذكروا فيعتبروا ويتيقظوا، وأصله من وصل الحبال بعضها ببعض، ومنه قول الشاعر:

فقل لبني مروان ما بال ذمة وجبل ضعيف ما يزال يوصل»^(٢)

الآية (٥٤):

﴿أُولَٰئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾

هؤلاء الذين أسلموا من أهل الكتاب بعد أن عرفوا الحق المتطابق مع ما معهم من كتاب، هؤلاء يؤتون أجرهم مرتين، مرة على اتباعهم الحق الذي عندهم، ومرة على اتباعهم الحق الذي جاءهم على يد هذا الرسول النبي الأمي ﷺ ويؤتون أجرهم مرتين على صبرهم على الحق الذي حملوه هذه المرة، وضريبة حمل الحق، نظراً لتعنت الباطل ضريبة باهظة، وأجر الصابر على الحق وحمله أجر عظيم.

ومن جميل خصلاتهم وفعالهم أنهم يدفعون بالحسنة السيئة، فيرتقون ويرتفعون عن الاستجابة لدفعة الغريزة! وغلاظة الحس، وشهوة الانتقام. وهم ينفقون مما رزقناهم، عنواناً على جود النفوس وسخائها وانتصارها على بخلها وتخلصها من شحها، وتفوقها على ذواتها، وهو عنوان كذلك على الطبيعة السمحة التي تستحق

(١). الظلال، بتصرف يسير، ج ٥، ص ٢٧٠١.

(٢). تفسير ابن جرير، ج ١٠، ص ٨٣.

من الله التكرم، فهم سمحاء مع من أساء، أصحاب سخاء مع الفقراء، ولذلك كان شأنهم عظيماً عند رب السماء، وكان أجرهم جزيلاً وقت الجزاء.

قال في الظلال:

«هؤلاء الذين أسلموا لله من قبل، ثم صدّقوا بالقرآن بمجرد سماعه، ﴿أُولَٰئِكَ يُؤْتُونَ أَجْرَهُمْ مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا﴾ الصبر على الإسلام الخالص. إسلام القلب والوجه. ومغالبة الهوى والشهوة. والاستقامة على الدين في الأولى والآخرة. أولئك يؤتون أجرهم مرتين، جزاء على ذلك الصبر، وهو عسير على النفوس وأعسر الصبر ما كان على الهوى والشهوة، والالتواء والانحراف. هؤلاء صبروا عليها جميعاً، وصبروا على السخرية والإيذاء، كما يقع للمستقيمين على دينهم في المجتمعات المنحرفة الضالة الجاهلة في كل زمان ومكان: ﴿وَيَذَرُونَّ بِالْحَسَنَةِ أَلَسَيْنَهُ﴾.. وهذا هو الصبر كذلك. وهو أشد مؤنة من مجرد الصبر على الإيذاء والسخرية. إنه الاستعلاء على كبرياء النفس، ورغبتها في دفع السخرية، ورد الأذى، والشفاء من الغيظ، والبرد بالانتقام! ثم درجة أخرى بعد ذلك كله. درجة السماحة الراضية. التي ترد القبيح بالجميل وتقابل الجاهل الساخر بالطمأنينة والهدوء وبالرحمة والإحسان، وهو أفق من العظمة لا يبلغه إلا المؤمنون الذين يعاملون الله فيرضاهم ويرضونه، فيلقون ما يلقون من الناس، راضين مطمئنين. ﴿وَمِمَّا زَكَّيْنَهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ وكأنما أراد أن يذكر سماحة نفوسهم بالمال، عقب ذكره لسماحة نفوسهم بالإحسان، فهما من منبع واحد. منبع الاستعلاء على شهوة

النفس، والاعتزاز بما هو أكبر من قيم الأرض، الأولى في النفس، والثانية في المال، وكثيراً ما يردان متلازمين في القرآن^(١).

الآية (٥٥)

﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا تَبْنَعُوا الْجَهِيلِينَ﴾

قال ابن عطية في معنى الآية في محرر الوجيز:

«اللغو: لغو القول، واليمين لغو، حسب الخلاف فيهما، وكلام مستمع الخطبة لغو، والمراد من هذا - في هذه الآية - ما كان سباً وأذى ونحوه، فأدب أهل الإسلام الإعراض عنه، والقول - على جهة التبري - ﴿لَنَا أَعْمَلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ﴾. وقال ابن يزيد: اللغو هنا: ما كان بنو إسرائيل كتبوه في التوراة مما ليس من عند الله تعالى.

قال القاضي أبو محمد (ابن عطية): وهذه المهادة هي لبني إسرائيل، الكفار منهم، وسلام عليكم في هذا الموضع ليس المقصود بها التحية لكنه لفظ التحية قصد به المtarكة، وهو لفظ مؤنس مستنزل لسامعه، إذ هو في عرف استعماله تحية، قال الزجاج: وهذا قبل الأمر بالقتال، و﴿لَا تَبْنَعُوا الْجَهِيلِينَ﴾ لا نطلبهم للجدال والمراجعة والمسابة^(٢).

(١). الظلال، ج ٥، ص ٢٧٠١.

(٢). ابن عطية، أبو محمد عبد الحق: المحرر الوجيز، ج ١١، ص ٣١٢ - ٣١٣، تحقيق عبد الله الأنصاري وعبد المال إبراهيم، وزارة الأوقاف قطر. بيروت: مؤسسة دار العلوم ط ١، ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م.

قلت: وكلام ابن عطية قيم نفيس، أما قول الزجاج الذي نقله ابن عطية، وهذا قبل القتال، فهو فيما أرى قول في غير محله، فأدب الإسلام الدائم: أننا لا نبتغي الجاهلين، سواء قبل القتال أو بعده، لا فرق.

ما زالت الآيات تتحدث عن هؤلاء المؤمنين الذين آمنوا بهذا الكتاب من أهل الكتاب وقد تكلمت الآيات السابقة عن إيمانهم وتصديقهم، واستسلامهم لأمر ربهم، وعن صبرهم، وسماحتهم وجودهم بالمال، وهذه الآية تتكلم عن سماحة أخرى لهم، وهي أنهم إذا سمعوا اللغو تحافوا عنه وأشاحوا عنه، وأعرضوا عنه وعن أصحابه، وسواء أكان هذا اللغو بمسهم، أو أي كلام بلا قضية، هم عنه في شغل. وسواء أكان الحديث عما واجههم به أبو جهل كما في الروايات أو غير ذلك من الوقائع، فالنص عام يشمل ما قيل، ويشمل كل قيل ليس فيه غناء، ولا منه فائدة.

وبعد إعراضهم عن اللغو كان قولهم لأصحاب اللغو: لنا أعمالنا التي تشغلنا فلا تترك مجالاً للغو، فالأعمار أقصر من أن تقضى في غير طائل، وفرصة الوقت أثمن من أن تضيع في غير ما ينفع في قابل. وأنتم لكم أعمالكم التي تشغلون بها وتقتنعون بها، ولا سلطان لنا عليكم لتغيير قناعتكم وأعمالكم، فليمض كل في حاله وسبيله.. لكن الباطل وأهله لا يقبلون هذا المنطق.

ثم ختمت الآية بل ختمت صفات هؤلاء المؤمنين بالسلام. فكان السلام ختام قولهم للاغين، وختام الحديث عنهم في هه الآيات: ﴿سَلِّمُوا عَلَيْكُمْ﴾ وتأمل كيف يواجه المؤمن السفاهة والعدوان بالسماحة والسلام.

وأما قولهم: ﴿لَا تَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ﴾ فاحتمال كبير أنه من الكلام النفسي نقله القرآن لنا لنعلم منطلقهم في السلوك.. وأنهم لا يشتغلون بالجهل والجاهلية

والجاهلين. والنص يحتمل، وهو أكثر انسجاماً - فيما أنصور - مع خلقهم السامي وطبيعتهم السمحة.

قال في الظلال:

«واللغو فارغ الحديث الذي لا طائل فيه، ولا حاصل وراءه. وهو الهذر الذي يقتل الوقت دون أن يضيف إلى القلب أو العقل زاداً جديداً، ولا معرفة مفيدة. وهو البذيء من القول الذي يفسد الحس واللسان، سواء أوجّه إلى المخاطب، أم حكي عن غائب. والقلوب المؤمنة لا تلغو ذلك اللغو، ولا تستمع إلى ذلك الهذر، ولا تعنى بهذا البذاء، فهي مشغولة بتكاليف الإيمان، مرتفعة بأشواقه، متطهرة بنوره ﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ﴾ ولكنهم لا يحتاجون ولا يغتاظون ولا يجارون أهل اللغو فيردون عليهم بمثله، ولا يدخلون معهم في جدل حوله، لأن الجدل مع أهل اللغو لغو، إنما يتركونهم في موادة وسلام: ﴿سَلِّمْ عَلَيْكُمْ﴾ هكذا في أدب، وفي دعاء بالخير، وفي رغبة في الهداية.. مع عدم الرغبة في المشاركة: ﴿لَا تَبْنِئْ أَلْجُهْلِينَ﴾ ولا نريد أن ننفق معهم وقتنا الثمين، ولا أن نجاريهم في لغوهم، أو نسمع إليه صامتين!

إنها صورة وضيفة للنفس المؤمنة المطمئنة إلى إيمانها. تفيض بالترفع عن اللغو. كما تفيض بالسماحة والود. وترسم لمن يريد أن يتأدب بأدب الله طريقه واضحاً لا لبس فيه فلا مشاركة للجهال، ولا خصامة لهم، ولا موجدة عليهم، ولا ضيق بهم. إنما هو الترفع والسماحة وحب الخير حتى للجارم المسيء»^(١).

الآية (٥٦):

﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾

كان المتوقع أن يسارع العرب إلى الإيمان بهذا الكتاب، خاصة وأن الكتاب بلسانهم، وهم يعلمون أنه في غير مستطاع البشر الإتيان بمثله، وأن الرسول منهم ويعلمون صدقه وأمانته، والكتاب لا يدعوهم إلا إلى الخير، ولا يصرفهم إلا عن شر، ومع هذا سارع أغلبهم في الكفر والصد، وآمن نفر من أهل الكتاب، فالهدى استعداد فطري مركوز في فطر الناس، ومن حافظ على فطرته تعرف من خلالها إلى الخير والحق والهدى والدين.

من هنا جاء الخطاب في هذه الآية إلى سيد النبيين، يقرر أنك يا رسول الله لا تهدي من أحببت هداة، لقرايته منك، أو لحرصك عليه، ولكن الله جعل للهدى قوانين، وجعل له نواميس وأسباباً، فالتكبر لا يهتدي، والفاقد المفسد الذي دمر فطرته لا يهتدي، والظالم يصرف نفسه عن الهدى، والمثاله أنى يهتدي؟ فالهدى منحة الله ومنة الله، والهدى هدى الله، يفيضه على قلب حافظ صاحبه على ما وهبه الله، فظل سليم القلب قريب الاستعداد، لم يفرق في لجة الانحراف، ولم ينحرف إلى حماة الشرك والاستضعاف.. لأن من استضعف الخلق وتآله عليهم، كما في قصة فرعون، وكما كان الحال عند بعض زعماء العرب وقت نزول القرآن، ما صرفهم عن الهدى إلا كبرهم عن أن يتساوا مع العُبدان.

فعندما يقول الله إنه يهدي من يشاء، فليس الأمر مصادفات أو خبط عشواء، معاذ الله، وإنما هو قوانين، تنتظم الفطر، كما أن الكون كله تسيّره قوانين. والله تعالى أعلم بالمهتدين.. سواء أريد بالمهتدين من ملكوا الاستعداد أو من اهتمدوا

بالفعل من العباد، فالأولون مهتدون بالقوة، وهؤلاء مهتدون بالعمل والفعل والواقع.

قال في الظلال:

«هؤلاء الذين آمنوا من أهل الكتاب لم يزد الرسول ﷺ في جهاده معهم للإيمان على أن يتلو عليهم القرآن. ووراءه من قومه جهد جهده ليؤمن، ومن أحب بكل نفسه أن يهديه للإسلام. فلم يقدر الله له ذلك لأمر يعلمه من نفسه. وما كان النبي ﷺ ليهدي من يحب. إنما يهدي الله من يعلم من نفسه ما يستحق به الهدى ومن هو مستعد للإيمان. وورد في الصحيحين أنها نزلت في أبي طالب، عم النبي ﷺ، وكان يحوط النبي وينصره، فلما حضرته الوفاة دعاه الرسول إلى الإيمان والدخول في الإسلام، فلم يكتب الله له هذا لما يعلمه سبحانه من أمره.. وكان آخر ما قاله (بل على ملة عبد المطلب).

وإن الإنسان ليقف أمام هذا الخبر مأخوذاً بصرامة هذا الدين واستقامته. فهذا عم رسول الله ﷺ وكافله وحاميه والذائد عنه، لا يكتب الله له الإيمان، على شدة حبه لرسول الله ﷺ وشدة حب رسول الله له أن يؤمن. ذلك أنه إنما قصد إلى عصبية القرابة وحب الأبوة، ولم يقصد إلى العقيدة. وقد علم الله هذا منه فلم يقدر له ما كان يحبه له رسول الله ﷺ ويرجوه. فأخرج هذا الأمر من حصة رسول الله ﷺ، وجعله خاصاً بإرادته سبحانه وتقديره. وما على الرسول إلا البلاغ. وما على الداعين بعده إلا النصيحة. والقلوب بعد ذلك بين أصابع الرحمن، والهدى والضلال وفق ما يعلمه من قلوب العباد واستعدادهم للهدى والضلال»^(١).

قال ابن كثير:

يقول تعالى لرسوله ﷺ: إِنَّكَ يَا مُحَمَّدٌ ﴿لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ أي ليس إليك ذلك، إنما عليك البلاغ، والله يهدي من يشاء. وله الحكمة البالغة والحجة الدامغة. كما قال تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [البقرة: ٢٧٢]. وقال تعالى: ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يوسف: ١٠٣]. وهذه الآية أخص من هذا كله، فإنه قال: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ أي هو أعلم بمن يستحق الهداية عن يستحق الغواية. وقد ثبت في الصحيحين أنها نزلت في أبي طالب عم رسول الله ﷺ وقد كان يحوطه وينصره ويقوم في صفه ويحبه حباً شديداً طبعياً لا شرعياً. فلما حضرته الوفاة وجاء أجله دعاه رسول الله ﷺ إلى الإيمان والدخول في الإسلام. فسبق القدر فيه واختطف من يده، فاستمر على ما كان عليه من الكفر، والله الحكمة التامة.

وقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا إِنَّا نَنْبِئُكَ أَلْهُدَىٰ مَعَكَ نُنْخِطِفُ مِنْ أَرْضِنَا﴾، يقول تعالى مخبراً عن اعتذار بعض الكفار في عدم اتباع الهدى حيث قالوا لرسول الله ﷺ: ﴿وَقَالُوا إِنَّا نَنْبِئُكَ أَلْهُدَىٰ مَعَكَ نُنْخِطِفُ مِنْ أَرْضِنَا﴾ أي نخشى إن اتبعنا ما جئت به من الهدى وخالفنا من حولنا من أحياء العرب المشركين أن يقصدونا بالأذى ويتخطفونا أينما كنا. قال الله تعالى مجيباً لهم: ﴿أَوَلَمْ نُمْكِنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا﴾ يعني هذا الذي اعتذروا به كذب وباطل، لأن الله تعالى جعلهم في بلد أمين وحرم معظم آمن منذ وضع

ككيف يكون هذا الحرم آمناً لهم في حال كفرهم وشركهم، ولا يكون آمناً لهم وقد أسلموا وتابعوا الحق؟^(١)

قال البروسوي:

«استفهام إنكاري بمعنى النفي أي لا أضل منه أي هو أضل من كل ضال.

بغير هدى من الله: أي بيان وحجة. وتقيد اتباع الهوى بعدم الهدى من الله لزيادة التقرير والإشباع في التشنيع والتضليل، وإلا فمقارنته لهديته تعالى بينة الاستحالة. وقال بعضهم: هوى النفس قد يوافق الحق فلذا قيد الهوى به فيكون في موضع الحال منه.

إن الله لا يهدي القوم الظالمين: لا يرشد إلى دينه الذين ظلموا أنفسهم بالأنهماك في اتباع الهوى والإعراض عن الآيات الهادية إلى الحق المبين.

ثم قال: وهنا إشارات: منها أن الطريق طريقان: طريق القراءة والدراسة والسماع والمطالعة، وطريق الرياضة والمجاهدة والتزكية والتحلية وهي أهدى إلى الحضرة الأحدية من الطريق الأولى^(٢).

قلت: والجمع بين الطريقين أولى من افراد أحدهما وضربهما ببعضهما.

قال الرازي: «قال الزجاج: أجمع المسلمون على أنها نزلت في أبي طالب...».

ثم جمع الرازي بين هذه الآية وآية الشورى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي...﴾ [الشورى: ٥٢] فقال: «ولا تنافي بينهما فإن الذي أثبتناه وأضافه إليه الدعوة والبيان والذي نفى عنه هداية التوفيق، وشرح الصدر...»^(٣).

(١) تفسير ابن كثير، ج ٦، ص ٢٢١ - ٢٢٢.

(٢) إسماعيل حقي: روح البيان، ج ٦، ص ٤١٢.

(٣) الرازي، فخر الدين: التفسير الكبير، مجلد ٩ ص ٥، بيروت: دار إحياء التراث العربي، ط ١٤١٧هـ / ١٩٩٧م.

ثم دخل الرازي في مسائل في الهدى والضلال ما كان أغناه عن الدخول فيها.
قال القاسمي: روى البخاري في صحيحه، في تفسير الآية، عن ابن المسيب عن أبيه وذكر الحديث المعروف في أبي طالب.

قال ابن كثير: هكذا رواه مسلم في صحيحه، والترمذي عن أبي هريرة. وهكذا قال ابن عباس ابن عمر ومجاهد والشعبي وقتادة: أنها نزلت في أبي طالب حين عرض عليه الإسلام.

قال ابن حجر في فتح الباري: «لم تختلف النقلة في أنها نزلت في أبي طالب»^(١).
قال الآلوسي:

«أخرج البخاري ومسلم وأحمد النسائي وغيرهم، عن سعيد بن المسيب نحو رواية مسلم عن أبي هريرة: لما حضرت وفاة أبي طالب أتاه النبي ﷺ فقال:
«يا عماء قل لا إله إلا الله، أشهد لك بها عند الله يوم القيامة... الخ».
وعن ابن عباس قريب من ذلك.

ثم قال الآلوسي: نزلت في أبي طالب ألح النبي أن يسلم فأبى فأنزل الله هذه الآية، ومسألة إسلامه خلافية، وحكاية إجماع المسلمين أو المفسرين على أن الآية نزلت فيه لا تصح.. فقد ذهب الشيعة إلى إسلامه، وكان من يدعي إجماع المسلمين لا يعتد بخلاف الشيعة... الخ»^(٢).

(١). القاسمي، ج ١٣، ص ٤٢٧ تحقيق عبد الباقي، ط ١ بيروت: دار التاريخ ١٤١٥/١٩٩٥.

(٢). الآلوسي: روح المعاني، ج ١٠، ص ٣٠٢. ضبط وتصحيح علي عطية، بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤٢٢هـ/٢٠٠١م.

الآية (٥٧)

﴿وَقَالُوا إِنَّمَا هَدَىٰ مُعَذِّبٌ مِّنْ رَبِّكَ نَارَهُ ۖ وَكَذَّبُوا بِآيَاتِهِ ۖ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ۚ﴾
 ﴿ثُمَّ رَدَّ كُلُّ فِرْعَوْنَ إِلَىٰ رَبِّهِ ۖ فَكَذَّبُوا بِآيَاتِهِ ۖ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ۚ﴾
 وجه المناسبة والربط بين هذه الآية والسياق:

كان في الآية السابقة يتحدث عن الهدى، وأنه ليس إلى الرسول منتهى أمره، وإنما إلى الله، وفي هذه الآية يواصل الحديث عن الهدى (بل إن قرابة نصف مافي السورة من مادة الهدى اجتمع في هاتين الآيتين). ووجه ربط آخر أن السورة دعوة إلى الإيمان. وهنا ذكر تعللات المشركين لثلاثاً يؤمنوا..

قال الرازي مبيناً وجه ربط الآية بالسباق، ثم مفسراً الآية، قال: ثم إنه سبحانه بعد أن ذكر شبههم وأجاب عنها بالأجوبة الواضحة، وبين أن وضوح الدلائل لا يكفي ما لم ينضم إليه هداية الله تعالى، حكى عنهم شبهة أخرى متعلقة بأحوال الدنيا وهي قولهم: ﴿إِنَّمَا هَدَىٰ مُعَذِّبٌ مِّنْ رَبِّكَ نَارَهُ ۖ وَكَذَّبُوا بِآيَاتِهِ ۖ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ۚ﴾.

قال المبرد: الخطف: الانتزاع بسرعة.

ثم ذكر الرازي سبب نزول أو ما يشبهه فقال: روي أن الحارث بن عامر ابن نوفل ابن عبد مناف قال لرسول الله ﷺ: إنا لنعلم أن الذي تقوله حق، ولكن يمنعنا من ذلك تحطفتنا من أرضنا، أي يجتمعون على محاربتنا ويخرجوننا من أرضنا فأجاب الله سبحانه عنها من وجوه: ﴿أَوَلَمْ تُمَكِّنْ لَهُمْ...﴾ أي أعطيناكم مسكناً لا خوف لكم فيه..

ومعنى الكلية في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ رَدَّ كُلُّ فِرْعَوْنَ إِلَىٰ رَبِّهِ ۖ فَكَذَّبُوا بِآيَاتِهِ ۖ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ۚ﴾ وأوتيت من كُلِّ شَيْءٍ وحاصل الجواب: أنه تعالى لما جعل الحرم آمناً وأكثر فيه الرزق حال

كونهم معرضين عن عبادة الله مقبلين على عبادة الأوثان، فلو آمنوا لكان بقاء هذه الحالة أولى، قال القاضي: ولو أن الرسول قال لهم إن الذي ذكرتم من التخطف لو كان حقاً لم يكن عذراً في أن لا تؤمنوا وقد ظهرت الحجة لانقطعوا، أو قال لهم: نخطفهم لكم بالقتل وغيره، وقد آمنتكم كالشهادة لكم، فهو نفع عائذ عليكم لانقطعوا أيضاً، ولو قال لهم: ما قدر مضرة التخطف في جنب العقاب الدائم الذي أخوفكم منه إن بقيتم على كفركم لانقطعوا، لكنه تعالى احتج بما هو أقوى من حيث يبين كذبهم في أنهم يتخطفون من حيث عرفوا من حال البقعة بالعادة، أن ذلك لا يجري أن آمنوا، ومثل ذلك إذا أمكن بيانه للخصم فهو أولى من سائر ما ذكرنا، فلذلك قدمه الله تعالى^(١).

ولا بد من تعويض المسألة بعد هذا البيان الجميل إذ دخل الرازي من جديد في فلسفة تعكر على المعنى الجميل الذي قاله، فبحث في مسألة الكسب والاختيار فيما لا دخل له بالمسألة.

تفسير الآية بإيجاز:

يتذرع الكافرون بذرائع يحاولون بها إقناع أنفسهم وإقناع الآخرين بعد إيمانهم، وأنه متسبب عن العامل أو العنصر أو الدافع المادي الاقتصادي. فإن نحن اتبعنا الهدى معك انقطعت امتيازاتنا لدى قبائل العرب، فصرنا غرضاً لسهامهم، وهدفاً لرماتهم، ومحلاً لأطماعهم، وفقدنا الأمن والبيت الآمن الذي نرسل في ظلاله بأعظم مزية يتمتع بها مجتمع الأمن، وصرنا بدل ذلك في مهب الريح. وفاتهم أن الذي أمر ببناء الحرم هو الله، وأن بانيه رسل الله، وأن أرزاق الله لا تنازل بمعاصي الله، ولا بالشرك به، وأن الأمن لا يستجلب بالشرك، بل العكس من توهمهم، أن التوحيد هو الأمن، والشرك هو الفرع في الدنيا والآخرة.

يرد الله على دعوى أن العرب ستخطفهم إن هم آمنوا، بأنه هو سبحانه الذي جعل لقريش وللعرب حرماً آمناً، بينما يتخطف الناس من حولهم، وأن الحرم تجلب فيه وإليه الأرزاق والثمار من كل مكان، رزقاً من عند الله، ولكن أكثر هؤلاء المتعللين بهذه التعللات، أكثرهم لا يعلمون.

قال في الظلال:

والآن يجيء السياق إلى قولتهم التي قالوها للرسول ﷺ، معتردين عن اتباعه خافة أن يفقدوا سلطانهم على قبائل العرب المجاورة، التي تعظم الكعبة، وتدين لسدنتها، وتعظم أصنامها، فتخطفهم تلك القبائل، أو يتخطفهم أعداؤهم من وراء شبه الجزيرة دون أن تساندهم هذه القبائل. فبين لهم أين يكون الأمن وأين يكون الخوف من واقعهم التاريخي ومن حاضرمهم الذي يشهدونه، بعدما أبان لهم في هذه السورة عن ذلك في قصة موسى وفرعون. ويجول معهم جولة في مصارع الغابرين تكشف لهم عن أسباب الهلاك الحقيقي... (وقيمة الحياة الدنيا).

﴿وَقَالُوا إِنَّا نَتَّبِعُ الْهُدَىٰ مَعَكَ نَخْطِفُ﴾

فهم لا ينكرون أنه الهدى، ولكنهم يخافون أن يتخطفهم الناس. وهم ينسون الله، وينسون أنه وحده الحافظ، وأنه وحده الحامي، وأن قوى الأرض كلها لا تملك أن تتخطفهم وهم في حى الله، وأن قوى الأرض كلها لا تملك أن تنصرهم إذا خذلهم الله. ذلك أن الإيمان لم يخالط قلوبهم، ولو خالطها لتبدلت نظرتهم للقوى، ولاختلف تقديرهم للأمور، ولعلموا أن الأمن لا يكون إلا في جوار الله، وأن الخوف لا يكون إلا في البعد عن هداة. هذه حقيقة عميقة منشؤها أن اتباع هدى الله معناه الاصطلاح مع ناموس الكون وقواه، والاستعانة بها وتسخيرها في الحياة. فالله خالق هذا الكون ومديره وفق الناموس الذي ارتضاه له. والذي يتبع هدى

الله يستمد مما في هذا الكون من قوى غير محدودة، ويأوي إلى ركن شديد في واقع الحياة.

وما حدث قط في تاريخ البشرية أن استقامت جماعة على هدى الله إلا منحها القوة والمنعة والسيادة في نهاية المطاف، بعد إعدادها لحمل الأمانة. أمانة في الخلافة في الأرض وتصريف الحياة»^(١).

قال القاضي عبد الجبار:

«وبعد، فإن هذه اللفظة في الإثبات لا تفيد في اللغة العموم، لأنها بالتعارف تطلق في المبالغة والتكثير، كقوله تعالى: وَأَوْتِيتُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَتَجِبِي إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ. فإذا كان التعارف خصصها لم يكن حملها على العموم...»^(٢)

الآية (٥٨)

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ بَطَرَتْ مَعِيشَتَهَا فَإِنَّكَ مَسْكُوتُهُمْ لَمَّا تَسْكُنُ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ﴾

كان العرب في الآية السابقة يخشون الفقر إن هم آمنوا، وانعدام الأمن، والقرآن في هذه الآية يلفتهم إلى أنه ما الفقر هو الذي يخشى على الناس، وإنما البطر الناشئ عن الغنى هو المخوف. وتبتدئ الآية بتقرير الكم الكبير من القرى التي أهلكها الله لأنها بطرت وما شكرت، وما آمنت ولكنها كفرت، وعنت واستكبرت، فكانت نتيجتها أنها دمرت، ويشير النص إلى مساكنهم المدمرة بقوله: ﴿فَإِنَّكَ مَسْكُوتُهُمْ﴾ وإنما استعمل تلك التي للبعيد، إما لبعدها الزماني، وإما لبعدها بتعذيبها كما قال

(١) الظلال، ج ٥، ٢٧٠٣ - ٢٧٠٤.

(٢) القاضي عبد الجبار الهمداني: متشابه القرآن، ج ٢، ص ٥٥٧. تحقيق: د. عدنان زرزور، ط ١ القاهرة، دار التراث ١٩٦٩ م.

في غير ما موضع: ﴿الْأَبْعَدَ الشُّمُودَ﴾، ﴿الْأَبْعَدَ لِمَدِينَ كَمَا بَعِدْتَ شُموذَ﴾، ﴿وَقِيلَ بَعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾، ﴿الْأَبْعَدَ لِعَادٍ قَوْمِ هُودَ﴾، ﴿فَبَعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾، ﴿فَبَعْدًا لِقَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

ثم يبين أن خرائبهم لم تسكن من بعدهم - إلا قليلاً - إمعاناً في نفور الناس منهم ومن مناطقهم التي شدت عذابهم.

وتختتم الآية بتقرير أن الله تعالى وارث الأرض ومن عليها، بعد هلاك كل من عليها، وفناء كل ديار وخراب كل ديار فيها أو عليها. ﴿وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ﴾.

قال في الظلال: «إن بطل النعمة وعدم الشكر عليها، هو سبب هلاك القرى. وقد أوتوا من نعمة الله ذلك الحرم الآمن، فليحذروا إذاً أن ييطروا، وألا يشكروا، فيحل بهم الهلاك كما حل بالقرى التي يرونها ويعرفونها، ويرون مساكن أهلها الدائرين خاوية خالية.. بقيت شاخصة تحدث عن مصارع أهلها، وتروي قصة البطل بالنعمة، وقد فني أهلها فلم يعقبوا أحداً، ولم يرثها بعدهم أحد: ﴿وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ﴾»^(١).

قال ابن كثير:

«يقول تعالى معرضاً بأهل مكة في قوله تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ بَطَرَتْ مَعِيشَتَهَا﴾ أي طغت وكفرت نعمة الله فيما أنعم به عليهم من الأرزاق، كما قال في الآية الأخرى ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَقَهَا اللَّهُ لِيَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا

يَصْنَعُونَ ﴿١١٣﴾ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ ﴿النحل: ١١٢ - ١١٣﴾. ولهذا قال تعالى: ﴿فَإِنَّكَ مَسْكُونُهُمْ أَلَمْ تَسْكُنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا

قَلِيلًا﴾ أي دثرت ديارهم فلا ترى إلا مساكنهم.

ثم قال تعالى مخبراً عن عدله وأنه لا يهلك أحداً ظالماً له، وإنما يهلك من أهلك بعد قيام الحجة عليهم! ولهذا قال: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمَمٍ﴾ وهي مكة ﴿رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا﴾.

فيه دلالة على أن النبي الأمي وهو محمد ﷺ المبعوث في أم القرى رسول إلى جميع القرى من عرب وأعجام، كما قال تعالى: ﴿لَنُنْزِلَنَّ الْقُرْآنَ الْقُرْآنَ وَمَنْ حَوْهَا﴾ [الشورى: ٧]. وقال تعالى: ﴿إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨]. وقال: ﴿لَا تُنْذِرُكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ﴾ [الأنعام: ١٩]. وقال: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ﴾ [هود: ١٧].

وتمام الدليل قوله تعالى: ﴿وَلَنْ مِنْ قَرَبٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا﴾ [الإسراء: ٥٨].

وقد قال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ فجعل تعالى بعثة النبي الأمي شاملة لجميع القرى، لأنه رسول إلى أمها وأصلها التي ترجع إليها. وثبت في الصحيحين عنه صلوات الله وسلامه عليه أنه قال: (بعثت إلى الأحمر والأسود). ولهذا ختم به النبوة والرسالة، فلا نبي من بعده ولا رسول بل شرعه باق بقاء الليل والنهار إلى يوم القيامة. وقيل المراد بقوله: ﴿حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمَمٍ رَسُولًا﴾ أي أصلها

وعظيبتها كأهمات الرساتيق والأقاليم، حكاة الزغشري وابن الجوزي وغيرهما. وليس بعيد^(١)

قال البقاعي في الربط بين الآية والسياق:

«لما أخبر تعالى أنه قادر على التأمين والإنجاء والتمكين مع الضعفة، أتبعه الإعلام بقدرته على الإخافة والإهلاك مع القوة، ترغيباً لهم إن آمنوا بإهلاك أضعادهم، وترهيباً - إن أصروا - من المعاملة بعكس مرادهم، فقال، في مظهر العظمة عاطفاً على معنى الكلام: وكم أهلكنا..»

ويجوز أن يكون حالاً من ضمير (غمكن) أي فعلنا بهم ما ذكرنا من النعمة مع ضعفهم وعجزهم، والحال أنا كثيراً ما أهلكنا الأقوياء، وأشار إلى التأكيد والتكثير مع تمييز المبهم بقوله: "من قرية" وأشار إلى سبب الإهلاك بقوله: "بطرت معيشتها". أي وقع منها البطر في زمان عيشها الرخي الواسع، فكان حالهم كحالكم في الأمن وإدراك الرزق، فلما بطروا معيشتهم أهلكناهم. ومعنى البطر: مجاوزة الحد في المرح والأشر والفرح"^(٢).

الآية (٥٩)

﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْهِمْ ءَايَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَىٰ ۚ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ﴾

بعد ذكر هلاك القرى الكافرة المتبطرة بين الله تعالى قانونه وحكمه العدل، ورحمته وذاك أنه لم يكن مهلك القرى حتى يبعث في أمها منذراً، ورسولاً محذراً،

(١). تفسير ابن كثير، ج٦، ص ٢٢٣ - ٢٢٤.

(٢) البقاعي: برهان الدين أبو الحسن إبراهيم: نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، ج٤، ص ٣٢٧، ط دائرة المعارف الهند، ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م.

وأم القرى هي مكة إما لأنها أقدمها، كالأم، أو أكبرها، أو هي مرجع الجميع كحضن الأم، وأبرها وأكرمها، ومهمة هذا الرسول أن يتلو على أهل القرى الآيات محذرة من مغبة الكفر والبطر والشرك، منذرة من أن يصيب الحاضرين ما أصاب الغابرين..

ولم يكن الله تعالى ليهلك قرية من القرى إلا وأهلها ظلمون طاغون.. عتوا عن كل شر وقانون.
قال في الظلال:

«وحكمة إرسال الرسل في أم القرى - أي كبرها وعاصمتها - أن تكون مركزاً تبلغ منه الرسالة إلى الأطراف فلا تبقى حجة ولا عذر فيها لأحد. وقد أرسل النبي ﷺ في مكة أم القرى العربية. فهو ينذر عاقبة المكذبين قبلهم، بعد ما جاءهم النذير: ﴿وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَىٰ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ﴾ ﴿١﴾ يكذبون بالآيات عن معرفة وعن يقين».^(١)

تفسير المقطع التاسع
مشهد من مشاهد القيامة
(الآيات ٦٠-٦٧)

تفسير المقطع التاسع مشهد من مشاهد يوم القيامة

الآية (٦٠):

﴿وَمَا أُوْتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَّعَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَرَبَّتْهَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾

وجه الربط والمناسبة للآية السابقة:

هذه الآية فاتحة مقطع، والسابقة خاتمة مقطع سابق كان هناك يتحدث عن إهلاك القرى الظالمة، ولكن بعد إنذارها، وهنا يبين أن ما يتقبلون فيه من نعيم يسبق العذاب الذي سيحق بهم (إن استحقوا ووقع بهم) ما هذا النعيم إلا متاع زائل، وأما ما عند الله فغير حائل.

المعنى الإجمالي:

تبتدئ هذه الآية كسابقتها بما. لكنها هناك نافية وهنا مصدرية. تقول الآية الكريمة بما ينقذ في الذهن أنه المعنى: إن الذي أوتيموه من شيء أي شيء إنما هو متاع هذه الحياة الدنيا، وكلمة متاع تعني الشيء الذي يتفجع به ثم يلقى.^(١) وإن بدا جميلاً في أول الأمر فما أشبهه في زهرة سريعة الذبول.

أما النعيم الخالد الباقي الذي لا يحول ولا يزول فنعيم الآخرة وهو الذي ادخره الله عنده لأوليائه. - جعلنا الله منهم - هذا النعيم خير وأبقى، بشكل مطلق. أفلا تعقلون هذه الحقيقة البديهية، فحرصون على الباقي؟

وردت صيغة (تعقلون) في الكتاب العظيم (٢٤) مرة، في ١٧ سورة، وفي سورة البقرة وحدها وردت (٥) مرات، وما ورد في سورة القصص هو الموضع رقم

(١) ما أشبه الدنيا ومتاعها بالصحن الورقية والأكراب، تلقى بعد استخدامها، وليس لها بقاء ولا دوام.

(١٩) من بين ال ٢٤. وصيغة ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ وردت (١٣) مرة، ما في القصص هو ما قبل الأخير. ووردت صيغة ﴿أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ﴾ مرة واحدة في (يس) وهي في (المعجم) عقب ما في القصص، وعقبها مباشرة ما في سورة الصافات ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الصافات: ١٣٨] وهو الموضع الأخير من هذه الصيغة.

ووردت صيغة ﴿أَعْلَمَكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ ٨ مرات.

وأما عدد المرات للصيغة (تعقلون) في السور المدنية فهو (٨) مرات. أي بنسبة الثلث إلى مجموع المرات. وأما عدد السور المدنية ثلاث أي بنسبة ١٨ %.

وأما باقي مرات (تعقلون) وهما مرتان فقد وردتا بصيغة ﴿إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ مرة في [آل عمران: ١١٨]، ومرة في [الشعراء: ٢٨]. قال في الظلال تعليقاً على الآية الكريمة:

«على أن متاع الدنيا بكامله، وعرض الحياة الدنيا جميعه، وما مكنهم الله فيه من الأرض، وما وهبهم إياه من الثمرات، وما يتسنى للبشر كلهم طوال هذه الحياة، إن هو إلا شيء ضئيل زهيد، إذا قيس بما عند الله: ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَّعُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾».

وهذا التقويم الأخير لا لما يخشون فوته من الأمن والأرض والمتاع، ولا لما يمن عليهم من التمكين والثمار والأمان وحده، ولا لما وهبه الله للقرى ثم أهلكتها بالتبطل فيه وحده، إنما هو التقويم الأخير لكل ما في هذه الحياة الدنيا حتى لو ساغ، وحتى لو كمل، وحتى لو دام، فلم يعقبه الهلاك والدمار. إنه كله ﴿فَمَتَّعُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا﴾ ... ﴿وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ خير في طبيعته، وأبقى في مدته.

﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾؟ والمفاضلة بين هذا وذاك تحتاج إلى عقل يدرك طبيعة هذا وذاك، ومن ثم يجيء التعقيب في هذه الصيغة للتنبيه لإعمال العقل في الاختيار^(١).

الآية (٦١)

﴿أَفَن وَعَدْنَهُ وَعَدًّا حَسَنًا فَهُوَ لَنَقِيهِ كَمَنْ مَنَعْنَهُ مَنَعَ الْحَيَوةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَمَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ﴾

هذه الآية متصلة بسابقتها اتصالاً لا يوجبنا معه أن نسأل ما وجه الربط؟ إذ تسأل الآية في مبتدأ النص: هل الذي وعدناه وعداً حسناً (النص مطلق، وإن كان الذهن ينصرف إلى النعيم الأبقى) هل من وعد هذا الوعد المنجز الذي لا يخلف ولا يتأخر، هل هو كالذي تمتعه الله المتاع الزائل العابر، ثم هو يوم القيامة من المجلوبين للحساب والمحضرين للعذاب؟

والجواب عند أولي الألباب، واضح بلا ارتياب، إن الاثنين لا يستويان، وهل يستوي النعيم والعذاب؟ وهل يستوي من يُستقبل بالتقريع ومن يستقبل بالعذاب ومن يستقبل بالترحاب؟

وقد وردت مفرد (متاع) في القرآن العظيم (٢١) إحدى وعشرين مرة، وما في سورة القصص هو الموضع رقم ١٦ و١٧ (لأنه قد ورد فيها هذا اللفظ مرتين) مثل سورة البقرة). أما عدد السور التي ورد فيها هذا اللفظ فهي (١٥) سورة المدني منها (٥) سور.

أما عدد المرات المدنية فهو: (٨) مرات.

والعجيب أن صيغة (متاع) من بين صيغ مادة (متع) هي الصيغة رقم (٢١)

من بين عدد مرات صيغ المادة والبالغة (٢٥) صيغة .

أما عدد مرات ورود هذه المادة في القرآن فهو ٧٠ مرة .^(١)

قال الزمخشري في (الأساس) في معنى مادة متع .

«جبل مائع: طويل مرتفع. ونخلة مائعة، ومن المجاز: متع النهر: ارتفع ومتع الضحى. ومتع النبات. وخل مائع. وأحمر مائع: تبالغت حرته. ومتعك الله ومتعك وأمتعك: أطال الله لك الانتفاع به. وتمتع به واستمتعت. ومتع المطلقة بمتعة. والدنيا متاع الغرور. وهذه أمتعة فلان وتمتع بالعمرة. وأمتعني بفرقه: أي جعل متاعي فراقه. قال الراعي:

خليطين من شعبين شتى تجاوزا قديماً وكانا بالتفرق أمتعا»

قال في الظلال:

«وفي نهاية هذه الجولة يعرض عليهم صفحتي الدنيا والآخرة، ولن شاء أن

يختار: ﴿أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ... كَمَنْ مَنَعْنَاهُ...﴾

فهذه صفحة من وعده الله وعداً حسناً فوجده في الآخرة حقاً وهو لا بد لاقيه. وهذه صفحة من نال متاع الحياة الدنيا القصير الزهيد، ثم ها هو ذا في الآخرة محضر إحضاراً للحساب. والتعبير يوحى بالإكراه ﴿مِنَ الْمُحْضَرِّينَ﴾ الذين يجاء بهم مكرهين خائفين يودون أن لم يكونوا محضرين، لما ينتظرهم من وراء الحساب على ذلك المتاع القصير الزهيد.

(١) ارجع إلى المعجم المفهرس، ص ٦٥٨ - ص ٦٥٩ .

وتلك نهاية المطاف في الرد على مقالتهم: ﴿إِن يَشِيعْ أَهْذَىٰ مَعَكَ نُنْخِطِفُ مِنْ أَرْضِنَا﴾ فحتى لو كان ذلك كذلك، فهو خير من أن يكونوا في الآخرة من المحضرين! فكيف واتباع هدى الله معه من الأمن في الدنيا والتمكين، ومعه العطاء في الآخرة والأمان؟ إنه لا يترك هدى الله إذا إلا الغافلون الذين لا يدركون حقيقة القوى في هذا الكون. ولا يعرفون أين تكون المخافة وأين يكون الأمن. وإلا الخاسرون الذين لا يحسنون الاختيار لأنفسهم ولا يتقون البوار.^(١)

الآية (٦٢)

﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾

قال ابن كثير: يقول تعالى مخبراً عما يوبخ به الكفار المشركين يوم القيامة حيث يناديهم، فيقول: أين شركائي الذين كنتم تزعمون. يعني أين الآلهة التي كنتم تعبدونها في الدار الدنيا من الأصنام والأنداد، هل ينصروكم أو ينتصرون، وهذا على سبيل التقرير والتهديد، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْتُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرْكُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنْكُمْ مَا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ [الأنعام: ٩٤].

وقوله: ﴿قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ﴾ يعني الشياطين والمردة والدعاة إلى الكفر ﴿رَبَّنَا هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ﴾ فشهدوا عليهم أنهم أغووههم فاتبعهم ثم تبرأوا من عبادتهم، كما قال تعالى: ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِّيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا﴾ (٨١) ﴿كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾

الآية (٦٣)

﴿قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا أَغْوَيْنَهُمْ كَمَا غَوَيْنَا تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ﴾

وجه الربط والمناسبة:

الآية هذه جزء من سياق يتحدث عن مشاهد القيامة، ففي الآية السابقة كان السؤال عن الشركاء المزعومين، وفي هذه الآية تحقيق مع رؤساء الضلال وأئمة الإغواء.

معنى الآية بالإجمال:

هذا مشهد من مشاهد تبرؤ المتبعين من الأتباع. قال الذين وجب عليهم القول وثبتت عليهم الإدانة، قالوا إجابة عن سؤال في الآية السابقة: ﴿أَتَيْنُ شُرَكَاءَ﴾ قال هؤلاء ينادون الله تعالى: يا ربنا، ويشيرون إلى من أضلوهم من الأتباع: هؤلاء الذين أغويناهم، وأضللناهم، لم نضلهم ونحن كنا مهتدين، لا، وإنما أضللناهم ونحن كنا مثلهم ضالين، أما الآن، فإننا نبرأ إليك يا ربنا من كل كفر وشرك وضلال. فهؤلاء الذين أضللناهم ما كانوا يعبدوننا. إما أنهم يقصدون، أنهم كانوا وإياهم يعبدون آلهة أخرى. وإما يقصدون التنصل والتبرؤ بمعنى الانخلاع عن الشيء الذي قد كان. المعنيان محتملان.

قال الزمخشري في الأساس في مادة (غوى) ومعناها، قال: (استغواهم بالأماني الكاذبة، وهو من الغواة ومن أهل الغواية تقول: هو في غيابة الضلال، وغواية الضلال. وتغاووا عليه فقتلوه. تألبوا عليه تألب الغواة. ولألفينك في أغوية. وتقول: من استمع إلى أغنية، فقد وقع في أغوية. وحفر لأخيه مغواة إذا ورطه).^(١)

وقد وردت هذه المادة (غوى) في القرآن الكريم في (١٣) صيغة (٢٢) مرة.
 وهل تعلم أن نصيب سورة القصص من بين المرات ال (٢٢) هو (٤) مرات
 أي حوالي ٢٠٪، أما الصيغ فنصيب القصص أكثر من ٣٠٪ من القرآن الكريم .
 وأكثر مرة وردت فيها هذه المادة صيغة (الغاوين) ٤ مرات.

وهل تعلم أن هذه المادة لم ترد في القرآن المدني إلا مرة واحدة في سورة البقرة
 في قوله تعالى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدَبَتَيْنِ الرَّسْدُ مِنَ الْغَى﴾ [البقرة: ٢٥٦].

قال الزمخشري في الكشاف: (الذين حق عليهم القول: الشياطين أو أئمة الكفر
 ورؤوسه، ومعنى حق عليهم القول: وجب عليهم القول: وجب عليهم مقتضاه
 وثبت. وهو قوله تعالى: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [السجدة: ١٣].

وهؤلاء: مبتدأ، والذين أغويانا: صفته: والراجع إلى الموصول محذوف
 و(أغويانهم): الخبر، والكاف صفة مصدر محذوف (يقصد كاف كما) تقديره:
 أغويانهم فغوا غياً مثل ما غويانا. يعنون أننا لم نغو إلا باختيارنا لا أن فوقنا مغوين
 أغوونا بقسر منهم وإلجاء، أو دعونا إلى الغي وسولوه لنا. فهؤلاء كذلك غووا
 باختيارهم لأن إغواءنا لهم لم يكن وسوسة وتسويلاً لا قسراً وإلجاء، فلا فرق إذاً
 بين غيتنا وغيهم..

تبرأنا إليك منهم وما اختاروه من الكفر بأنفسهم هوى منهم للباطل، ما كانوا
 إيانا يعبدون: إنما كانوا يعبدون أهواءهم ويطيعون شهواتهم..^(١)

قال في الظلال معقبات على مسألة المجرمين وأن المقصود منها هو: (الخرزي
 والفضيحة على رؤوس الأشهاد، ومن ثم لا يجيب المسؤولون عن السؤال، فليس

المقصود به هو الجواب! إنما يحاولون أن يتبرءوا من جريمة إغوائهم لمن وراءهم، وصددهم عن هدى الله، كما كان كبراء قريش مع الناس خلفهم، فيقولون: ﴿رَبَّنَا هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا...﴾

ربنا إنما لم نغوهم قسراً، فما كان لنا من سلطان على قلوبهم، إنما هم وقعوا في الغواية عن رضى منهم واختيار كما وقعنا نحن في الغواية دون إجبار. تبرأنا إليك من جريمة إغوائهم. ماكانوا إيانا يعبدون. إنما كانوا يعبدون أصناماً وأوثاناً وخلقاً من خلقك، ولم نجعل أنفسنا لهم آلهة، ولم يتوجهوا إلينا نحن بالعبادة! عندئذ يعود بهم إلى المخزاة التي حولوا الحديث عنها... مخزاة الشركاء...^(١)

الآية (٦٤)

﴿وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ فَدَعَوْهُمُ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَرَأَوُا الْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَسْمَعُونَ﴾

الربط والمناسبة:

لا نحتاج البحث في المناسبة لأن السياق موصول، والنسق ظاهر فالآية استمرار لمسألة المجرمين أئمة ومأمومين، أتباعاً ومتبوعين.

المعنى الإجمالي:

يقول النص الكريم، بفعل القول مبنياً للمجهول ليطم التركيز على القول بقطع النظر عن القائل، فقال: وقيل. بينما في الآية (٦٢) كان التصريح بالسؤال وسأله، فقال: ﴿فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِي﴾.

المهم أنه هنا يركز النظر على القول ذاته، والمساءلة، مستمرة، فيقال لهم على وجه التحدي: ادعوا الشركاء الذين كنتم تدعونهم وتزعمونهم مع الله أو

تطيعونهم من دون الله ، وتشاقون فيهم. و العجيب أنهم دعوهم (فدعوهم..)
ولكن ماذا كانت النتيجة؟ إنها معلومة بالقطع واليقين: ﴿فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ﴾ ومن
ينصر من ومن؟ ومن يستجيب لمن؟ لقد انتهت المهلة التي كان بعض الخلق فيها
يصطنع من الصفات والخصائص ما ليس له. وجاء وقت الحساب والجزاء، لقد
كانت النتيجة أنهم بعد هذا تحققوا من العذاب وعاینوه: (ورأوا العذاب) لو أنهم
كانوا في الدنيا يهتدون إلى هذه الحقيقة، ويتوصلون إلى هذه النتيجة. لقد فوتوا
فرصة لا تقدر، وأهلكوا أنفسهم، فليتحسر من يتحسر.

قال في الظلال يربط بين هذه الآية وسابقتها ويشرح المعنى قال:

«عندئذ يعود بهم إلى المخزاة التي حولوا الحديث عنها، مخزاة الشركاء الذين
اتخذوهم من دون الله: ﴿وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ﴾».

ادعوهم ولا تهربوا من سيرتهم، ادعوهم ليلبوكم وينقذوكم ادعوهم وهذه
فائدتهم! والبائسون يعرفون أن لا جدوى من دعائهم، ولكنهم يطيعون الأمر
مقهورين: ﴿فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ﴾. ولم يكن منتظراً غير ذلك. ولكنه الإذلال
والإعنات، ورأوا العذاب، رأوه في هذا الحوار، ورأوه ماثلاً وراءه، فليس وراء هذا
الموقف إلا العذاب، وهنا في هذه اللحظة التي يصل فيها المشهد إلى ذروته يعرض
عليهم الهدى الذي يرفضونه، وهو أمنية الممتني في ذلك الموقف المكروب، وهو بين
أيديهم في الدنيا لو أنهم إليه يسارعون: لو أنهم كانوا يهتدون..»^(١)

الآية (٦٥)

﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ﴾

الربط والمناسبة:

وبعد انتهاء التحقيق والمساءلة في مسألة الشركاء المزعومين، وتقرر النتيجة تبدأ مسالة أخرى، ليستمر مسلسل عذابهم.

المعنى الإجمالي:

ويوم يناديهم الله تعالى، واكتفى بالضمير النائب عنه تعالى اكتفاء بما ذكر في السابق، وعطفاً عليه، وقصداً - فيما أتصور - لهوانهم على الله (أي الإشعار بهوانهم..). أقول: يناديهم الله تعالى ليسألمهم عن موقفهم من المرسلين إليهم، ماذا كان جوابهم لهم؟ هل استجابوا لهم أم أنهم كذبوهم وقاوموهم وصدوهم وصدوا عنهم؟ والجواب معلوم، لكنه التقريع، وإقامة الحجة والفضح، ليكون الجزاء العدل، من بعد كل ذلك.

قال في الظلال في وجه الربط والتفسير:

«ثم يعود بهم إلى ذلك المشهد المكروب: ويوم يناديهم فيقول: ماذا أجبت المرسلين؟

وإن الله ليعلم ماذا أجابوا المرسلين، ولكنه كذلك سؤال التأنيب والترذيل، وإنهم يواجهون السؤال بالذهول والصمت: ذهول المكروب وصمت الذي لا يجد

ما يقول: ﴿فَعَمِيَّتْ عَلَيْهِمُ الْأَنْبَاءُ﴾.

قال الزمخشري في الكشف:

(وإذا كان الأنبياء - هول ذلك اليوم - يتتبعون في الجواب عن مثل هذا السؤال،

ويفوضون الأمر إلى علم الله وذلك قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ﴾

لَا عِلْمَ لَكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّمَهُ الْغُيُوبَ﴾. فما ظنك بالضلال من أهمهم؟^(١)

الآية (٦٦)

﴿فَعَمِيتَ عَلَيْهِمُ الْآبَاءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَاءَلُونَ﴾

يقول تعالى ذكره: ويوم ينادي الله هؤلاء المشركين، فيقول لهم: ﴿مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ﴾ فيما أرسلناهم به إليكم، ومن دعائكم إلى توحيدنا والبراءة من الأوثان والأصنام ﴿فَعَمِيتَ عَلَيْهِمُ الْآبَاءُ يَوْمَئِذٍ﴾ يقول: فخفيت عليهم الأخبار، من قولهم: قد عمي عني خبر القوم: إذا خفي. وإنما عني بذلك: أنهم عميت عليهم الحجة، فلم يدروا ما يحتاجون، لأن الله تعالى قد كان أبلغ إليهم في المعذرة وتابع عليهم الحجة، فلم تكن لهم حجة يحتاجون بها. ولا خبر يخبرون به، مما تكون لهم به نجاة ومخلص.

الآية (٦٧)

﴿فَأَمَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَغَسَّيْنَا أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمُغْلَبِينَ﴾

الربط والمناسبة:

بعد أن أنهى في الموقف السابق فيما عرضت الآيات السابقة، أقول بعد أنهى التحقيق مع الكافرين وما سترتب عليه من جزاء، ختم هذه المجموعة من الآيات وختم المقطع كله بجزاء المؤمنين.

وأيضاً فيها فتح الباب لهم هم أنفسهم أن يقلعوا ويكونوا من المؤمنين.

المعنى الإجمالي:

يقول النص الكريم بعد أن بين سؤال الكافرين وانقطاعهم عن الجواب، بعمى الآباء عنهم، وعماهم عنها، قال يبين موقف المؤمنين: فأما من تاب عن مثل هذه المواقف، وآمن بالله تعالى وسائر ما طلب منه الإيمان به، وعمل العمل الصالح الذي يقتضيه الإيمان فغسي، وهي هنا - فيما هو مرتبط بالله للتحقيق، وفيما هو مرتبط بالعبد للتأميل - ، أقول عسى هذا أن يكون من الفائزين المفلحين الناجين.

قال في الظلال:

«وهذه هي الصفحة المقابلة - ففي الوقت الذي يبلغ الكرب ذروته بالمشركون - يتحدث عن تاب وآمن وعمل صالحاً، وما ينتظره من الرجاء في الفلاح، ولن شاء أن يختار وفي الوقت فسحة للاختيار!». ^(١)

وقال الزمخشري في الكشف:

«فأما من تاب من المشركين من الشرك، وجمع بين الإيمان والعمل الصالح، فعسى أن يفلح عند الله، وعسى من الكرام تحقيق، ويجوز أن يراد ترجى التائب وطعمه، كأنه قال فليطعم أن يفلح» ^(٢).

قال الزمخشري في الأساس في معنى مادة (فلح):

وهب له الله الفلاح والفلح، وهو البقاء في الخير، وتقول: ما المفلحة ولا المفرحة، إلا حيث السداد والمصلحة. وأحسبك من فلأحة اليمن، وهم الأكره، لأنهم يفلحون الأرض أي يشقونها، وفي المثل: (الحديد بالحديد يفلح) والفلح: الشق في الشفة السفلى، ورجل أفلح، وزوجتموني قلحاء فلحاء. ولن يحمل الفرع والفلح، حيث القلح والفلح.

ومن المجاز: (خشينا أن يفوتنا الفلاح). وهو السحور لأن به بقاء الصوم. ^(٣) وهل تعلم أخي القارئ أن صيغة (المفلحين) لم ترد في القرآن الكريم إلا هذه المرة في هذه السورة الكريمة، وأما (المفلحون) فقد وردوا في القرآن (١٢) مرة

(١) الظلال، ج ٥، ص ٢٧٠٦.

(٢) الكشف، ج ٣، ص ١٨٨، طبعة الحلبي.

(٣) الأساس، ص ٧٢٦.

وتفلقون (١١)، ويفلح (٩)، و (يفلقون) (٢)، و (أفلح) (٤)، وتفلقوا (١)،
فيكون مجموع ورود هذه المادة في القرآن (٤٠) مرة بالضبط في (٧) صيغ في (٢٧)
سورة ونصيب القصص من هذه المادة (٣) مرات بنسبة ٥, ٧٪.

تفسير المقطع العاشر

تقرير التوحيد

(الآيات ٦٨-٧٥)

تفسير المقطع العاشر

تقرير التوحيد

يتضمن هذا المشهد ثمانى آيات كلها في تقرير عقيدة التوحيد من خلال أسلوب التقرير المباشر وذلك في الآيات ٦٨-٧٠، ثم من خلال أسلوب الاستفهام الذي يثير العقول ويحرك الأفهام، وهذا الاستفهام يدور حول السنن الكونية التي تنتظم الكون وتنتظم وفقاً لها معاش الناس.

ويستمر هذا المحور الثاني من المقطع من الآيات ٧١-٧٣ وفي آخر آيتين من هذا المقطع يعرض السياق الكريم مشهداً من مشاهد القيامة حيث يسأل الناس في ساحات الآخرة عن التوحيد، وعن الشركاء المزعومين لله، وهذا في الآيتين ٧٤-٧٥.

المناسبة لما سبق من سياق السورة:

كان حتماً مقضياً أن يكون القرآن الكريم منسجماً متناسقاً مترابطاً، ومن أوجه ترابطه واتساقه أن تكون مقاطع السور ملتزمة متضافرة، والآن: ما وجه أو أوجه ارتباط هذا المقطع بسابقه؟

١- كان المقطع السابق يتحدث عن مشاهد القيامة، وهذا المقطع يتحدث عن التوحيد وهما ركنا العقيدة الأوثق، وكثيراً ما جمع القرآن بينهما، يسبق الحديث عن التوحيد مرة، ويسبق الحديث عن القيامة مرة، لكنهما كانا دائماً قرينين.

٢- كان الحديث في المقطع السابق عن الكافرين وموقفهم وادعائهم الشرك ثم تقطع أواصر الشرك بينهم وقتئذٍ، فبين في هذه الآية أن الاختيار الذي كان لهم في هذه الدنيا، والذي حوسبوا بناء عليه في الآخرة، هو اختيار شاء الله

أن يهبه لهم، لا أنهم أرادوه بمحضهم وإرادتهم فصاحب الإرادة المطلقة هو الله، وصاحب الاختيار المطلق: العزيز الحكيم سبحانه، فهو الذي يخلق ما يشاء ويختار.

٣- تكلم في المقطع السابق عن آلهتهم العاجزة وشركائهم الذين لا قوة لهم ولا حول، وفي هذه الآية يبين وجهاً من أوجه عظمة وقدره الله سبحانه من باب التعريف به سبحانه، ومن باب بيان عجز آلهتهم التي لا تخلق ولا تختار ولا تنفع أصحابها عند الاضطرار، ولكن: ربك يخلق ما يشاء ويختار.. ما كان لآلهتهم أي شيء من الاختيار.. ولا لهم هم اختيار.

تفتح الآية بخطاب النبي ﷺ بضميره ضمير المخاطب مضافاً إلى الرب تعالى، مزيداً من التلطف به وإكرامه ﷺ، ثم يقرر النص أن الله تعالى يخلق ما يشاء من الخلق، ويختار الخير المطلق، فله سبحانه الإرادة المطلقة والاختيار المطلق، والمشيئة التي لا يحول دون نفاذها شيء.

ومن ضمن معاني (ويختار) أنه سبحانه يصطفي من خلقه من يشاء لما يشاء، وبعد إثبات هذا الخلق والاختيار لله تعالى، نفت الآية الكريمة أي شيء من هذا لمن سواه سبحانه، سواء أكان هذا آلهتهم المزعومة وأوثانهم فهي لا تخلق ولا تختار، أو كانوا هم، فهم لا يخلقون، وليس لهم من الإرادة إلا ما شاء الله أن يمنحهم إياه، ضمن قانونه سبحانه في الابتلاء، أنه لا بلاء إلا مع الحرية والاختيار، فشاء أن يمنحهم هذا الاختيار وهو محدود على قدر محدوديتهم ومسئوليتهم... وعلى اختيارهم يكون جزاؤهم.

ثم ختمت الآية بتزييه وتسيحه تعالى بذكر الاسم الجليل دون التعبير بالضمير أو الاكتفاء به عائداً إلى لفظ الرب في أول الآية، لا وإنما بإبراز الاسم الجليل تعالى ﴿سُبْحَنَ اللَّهِ...﴾.

والتسبيح كما هو معلوم في اللغة والاعتقاد: تنزيه الله تعالى عن ما لا يليق وإبعاده من ساحة الألوهية والربوبية، ونسبة كل كمال إليه، ثم أضاف النص الكريم إلى التسبيح إثبات العلو المطلق له تعالى فقال: ﴿وَتَعْلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.
 تقدس الله عن كل ما يضيفه إليه المشركون ومن يجهلون قدره العظيم.
 الآية (٦٨):

﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ ۚ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعْلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾

قال الدكتور أبو موسى: (ومن الكلمات النائية المطارح المتباعدة المواقع التي ألفها النظم البديع وصارت به متجانسة متأنسة، قوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ ...﴾

أما التباعد فهو أن الأولى إخبار عن الحق بأنه يخلق ما يشاء ويختار، والثانية إخبار عن المعبود بالباطل بأنه لا يخلق ولا يختار، والثالثة تسبيح وتحميد، وهذا يعني أنها معان ثلاثة متغايرة متنائية، أما طريقة تأليفها ببديع النظم، فقد يكون في ذلك التطابق الذي تراه في إثبات الخيرة في الجملة الأولى، ونفيها في الجملة الثانية، وبهذا يتقارب الكلامان نوعاً من التقارب، ولا أريد أن أشير إلى الطباق، وإن كان من بديع الكلام، وإنما أشير إلى كلمتي: (يختار)، و(الخيرة)... وبناء الجملة الثانية على نفي الخيرة والخيرة التي بنيت الجملة الثانية على نفيها، أحد جزئين أساسيين في بناء الجملة الأولى: ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ﴾ وهذه رابطة نظامية لا ريب فيها، ثم تأتي الجملة الثالثة وفيها تسبيح لله سبحانه الذي يخلق ويختار عن أن يكون له شريك لا يخلق ولا يختار، وهكذا نجد النسيج المؤلف بين المختلف نسجاً رفيعاً ومتيناً.^(١)

الخطاب موجه في الآية لسيد المخاطبين ﷺ ثم من بعده للخلق أجمعين، يعرفهم النص الكريم بربهم تعالى، وأنه سبحانه الذي يخلق ما يشاء، وقد دخل تحت هذا التعبير كل موجودات الأرض والسماء والبر والبحر، العاقل وغير العاقل، والحى والجامد، وفي الماضي والحاضر والآتي... كل ذلك وما لا يحصىه إلا الله داخل تحت هذه اللفظة الواحدة، ثم مع الخلق فهو يختار سبحانه، فهو ليس خلقاً كلياً أو اضطرارياً، معاذ الله، وإنما هو خلق يتم بالاختيار، فعلى صعيد البشر، هذا يختاره الله معمرأ، وهذا ليس كذلك، وهذا يختار أن يكون أورياً أو أفريقياً أو أبيض أو أسود، أو ذكياً أو غير ذلك، أو غنياً أو ما سوى ذلك، وتحت الكلمة ما لا يتناهى من صور الاختيار، عبرت بها الكلمة الجامعة .. يخلق.. يشاء.. يختار.

ثم نفى المولى سبحانه، كل ذلك عن كل ما سواه مطلقاً فقال ﴿مَا كَانَتْ لَهُمْ أَلْفِرَةُ﴾ ويدخل تحت (لهم) دخولاً أولياً الشركاء المزعومون، ثم كل ما سوى الله تعالى.. فهو في نطاق (لهم) فليس الاختيار.. والخلق لأحد إلا لمولانا الصمد سبحانه: ﴿سُبْحَنَ اللَّهِ وَعَنَّا وَعَمَّا يَتْرَكُونَ﴾ تقدس الله عن كل صور الشرك التي بها يشركون، وتنزه مولانا سبحانه عن أن يكون له في كونه شريك أو أن يكون له في قلب عبده نديد فهو أغنى الشركاء عن الشرك.

قال الطبري رحمه الله:

يقول تعالى ذكره: ﴿وَرَبُّكَ﴾ يا محمد ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ أن يخلقه، و﴿وَيَخْتَارُ﴾ لولايته الخيرة من خلقه، ومن سبقت له منه السعادة، وإنما قال جل ثناؤه: ﴿وَيَخْتَارُ مَا كَانَتْ لَهُمْ أَلْفِرَةُ﴾ والمعنى: ما وصفت، لأن المشركين كانوا فيما ذكر عنهم يختارون أموالهم فيجعلونها لأهلهم، فقال الله لنبيه محمد ﷺ: وربك يا محمد يخلق ما يشاء أن يخلقه ويختار للهداية والعمل الصالح من خلقه، ما هو في

سابق علمه أنه خيرتهم، نظير ما كان من هؤلاء المشركين لأهتهم خيار أموالهم، وكذلك اختياري لنفسي واجتباتي لولائي، واصطفائي لخدمتي وطاعتي، خيار مملكتي وخلقي.

فلا شك أن (ما) من قوله ﴿وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخَيْرَةُ﴾: في موضع نصب بوقوع يختار عليها، وأنها بمعنى الذي: فإن قال قائل: فإن كان الأمر كما وصفت، من أن (ما) اسم منصوب بوقوع قوله: (يختار) عليها، فأين خبر كان؟ فقد علمت أن ذلك إذا كان كما قلت، أن في كان ذكراً من ما، ولا بد لكان إذا كان كذلك من تمام، وأين التمام؟ قيل: إن العرب تجعل لحروف الصفات إذا جاءت الأخبار بعدها أحياناً، كفعلها بالأسماء إذا جاءت بعدها أخبارها، ذكر القراء أن القاسم بن معن أنشده قول عنتره:

أمن سمية دمع العين يذرفُ
لو كان ذا منك قبل اليوم معروف
فرع معروفاً بحرف الصفة، وهو لا شك خبر لذا، وذكر أن المفضل أنشده ذلك:

لو أن ذا منك قبل اليوم معروف
ومنه أيضاً قول عمر بن أبي ربيعة:
قلتُ أجيبني عاشقاً
بكم معكُفُ
فيها ثلاث كالدمى
وكاعبُ ومسلُفُ

فمعكُف من نعت عاشق، وقد رفعه بحرف الصفة، وهو الباء، وأشباه لما ذكرنا بكثير من الشواهد، فكذاك قوله: ﴿وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخَيْرَةُ﴾ رفعت الخيرة بالصفة، وهي لهم، وإن كانت خبراً لما، لما جاءت بعد الصفة، ووقعت الصفة موقع الخبر، فصار كقول القائل: كان عمرو أبوه قائم، لا شك أن قائماً لو كان مكان الأب، وكان الأب هو المتأخر بعده: كان منصوباً، فكذاك وجه رفع الخيرة وهو خبر لما.

فإن قال قائل: فهل يجوز أن تكون (ما) في هذا الموضع جحداً ويكون معنى الكلام: وربك يخلق ما يشاء أن يخلقه ويختار ما يشاء أن يختاره، فيكون قوله: (ويختار) نهاية الخبر عن الخلق والاختيار، ثم يكون الكلام بعد ذلك مبتدأ بمعنى: لم تكن لهم الخيرة: أي لم تكن للخلق الخيرة، وإنما الخيرة لله وحده؟

قيل: هذا قول لا يخفى فسادَه على ذي حجا، من وجوه، لو لم يكن بخلافه لأهل التأويل قول، فكيف والتأويل عمن ذكرنا بخلافه، فأما أحد وجوه فسادَه، فهو أن قول: ﴿مَا كَانَتْ لَهُمْ الْخَيْرَةُ﴾ لو كان كما ظنه من أن (ما) بمعنى الجحد على نحو التأويل الذي ذكرت، كان إنما أجدد تعالى ذكره، أن تكون لهم الخيرة فيما مضى قبل نزول هذه الآية، فأما في ما يستقبلونه فلهم الخيرة، لأن قول القائل: لو كان لك هذا، لا شك إنما هو خبر عن أنه لم يكن له ذلك فيما مضى وقد يجوز أن يكون له فيما يستقبل وذلك من الكلام لا شك خُلف، لأن ما لم يكن للخلق من ذلك قديماً، فليس ذلك لهم أبداً، وبعد، لو أريد ذلك المعنى، لكان الكلام: فليس، قيل: وربك يخلق ما يشاء ويختار، ليس لهم الخيرة، ليكون نفيًا عن أن يكون ذلك لهم فيما قبل وفيما بعد.

والثاني: أن كتاب الله أبين البيان وأوضح الكلام ومحال أن يوجد فيه شيء غير مفهوم المعنى، وغير جائز في الكلام أن يقال ابتداء: ما كان لفلان الخيرة، ولما يتقدم قبل ذلك كلام يقتضي ذلك، فكذلك قوله: ﴿وَيَحْتَكِرُ مَا كَانَتْ لَهُمْ الْخَيْرَةُ﴾ ولم يتقدم قبله من الله تعالى ذكره خبر عن أحد أنه ادعى أنه كان له الخيرة فيقال له: ما كان لهم الخيرة، وإنما جرى قبله الخبر عما هو صائر إليه أمر من تاب من شركه وآمن وعمل صالحاً، وأتبع ذلك جل ثناؤه الخبر عن سبب إيمان من آمن وعمل صالحاً منهم وأن ذلك إنما هو لاختياره إياه للإيمان ولل سابق من علمه فيه اهتدى، ويزيد ما قلنا من ذلك إبانة قوله: ﴿وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾

فأخبر أنه يعلم من عباده السرائر والظواهر ويصطفي لنفسه ويختار لطاعته من قد علم منه السريرة الصالحة والعلانية الرضية.

والثالث: أن معنى الخيرة في هذا الموضع: إنما هو الشيء الذي يختار من البهائم والأنعام والرجال والنساء يقال منه: أعطي الخيرة والخيرة، مثال: الطيرة والطيرة، وليس بالاختيار، وإن كانت الخيرة ما وصفنا فمعلوم أن من أجود الكلام أن يقال: وربك يخلق ما يشاء، ويختار ما يشاء، لم يكن لهم خير بهيمة أو خير طعام أو خير رجل أو امرأة.

فإن قال قائل: فهل يجوز أن تكون بمعنى المصدر؟ قيل: لا، وذلك أنها إذا كانت مصدراً كان معنى الكلام: وربك يخلق ما يشاء ويختار كون الخيرة لهم، وإذا كان ذلك معناه، وجب أن لا تكون الشرار لهم من البهائم والأنعام وإذا لم يكن لهم شرار ذلك وجب أن لا يكون لها مالك، وذلك ما لا يخفى خطؤه لأن لخيارها ولشرارها أرباباً يملكونها بتعليمك الله إياهم ذلك، وفي كون ذلك كذلك فساد توجيه ذلك إلى معنى المصدر.^(١)

قال جوهرى في الجواهر:

«عبر بلفظ الرب إيذاناً بالتربية، فلم يكن الخلق إلا على مقتضى التربية (وبعبارة أخرى) لم يكن الخبر إلا على حسب المبتدأ، فالمبتدأ هو ربك، والخبر هو يخلق، وفي إضافة الرب لضمير الخطاب إيذان بشرف المخاطب، وأنه جدير بأن يكون خليفة في الأرض يرعى الأفراد والأمم، فالله يرعى ما خلق، ورسوله ﷺ ومن اقتدى به يتخلقون بالأخلاق الكاملة التي أمرهم بها ليكونوا مربين للناس، وجعل المشيئة خاصة به تعالى، والاختيار، ولم يجعل لأحد من عباده اختياراً في إعطاء أو منع - المربي الخالق الذي يعلم ما خلق لا يجعل لأحد سلطاناً فيما يدبره - وهذا

القول الإجمالي هو معنى الآية، وهذا المعنى معلوم^(١) ولكن الشيخ طفق يفصل المعنى المعلوم بتواردات من الأمثلة ليصبح المعلوم على الجملة معلوماً على التفصيل وبالشواهد، فأورد أمثلة وأورد صوراً ليجلي بالوقائع هذا المعنى العام. فجزاه الله على اجتهاده.

قال ابن كثير:

- يخبر تعالى أنه المنفرد بالخلق والاختيار، وأنه ليس في ذلك منازع ولا معقب، قال تعالى: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ﴾ أي ما يشاء، فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، فالأمور كلها خيرها وشرها بيده ومرجعها إليه، وقوله: ما كان لهم الخيرة نفي على أصح القولين، كقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٣٦]، وقد اختار ابن جرير أن (ما) ههنا بمعنى الذي تقديره: ويختار الذي لهم منه خيرة، وقد احتج بهذا المسلك طائفة المعتزلة على وجوب مراعاة الأصلح، والصحيح أنها نافية، كما نقله ابن أبي حاتم عن ابن عباس وغيره أيضاً، فإن المقام في بيان انفراده تعالى بالخلق والتقدير والاختيار، وأنه لا نظير له في ذلك ولهذا قال: ﴿سُبْحَنَ اللَّهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾، أي من الأصنام والأنداد التي لا تخلق ولا تختار شيئاً.^(٢)

قال القشيري:

يختار ما يشاء ومن يشاء من جملة ما يخلق، ومن ليس إليه شيء من الخلق.. فما له والاختيار؟

(١) تفسير الجواهر، ج ١٤، ص ٥٠، ط ٢ مصطفى الحلبي القاهرة، ١٣٥٠هـ.

(٢) تفسير ابن كثير، ج ٦، ص ٢٢٥، - ص ٢٢٦.

الاختيار للحق استحقاق عز يوجب أن يكون ذلك له، لأنه لو لم ينفذ مشيئته واختياره لم يكن بوصف العز، فمن بقي عن مراده لا يكون إلا ذليلاً، فالاختيار للحق نعت عز، والاختيار للخلق صفة نقص ونعت بلاء وقصور، ومن اتصف بما لا يليق به افتضح في نفسه، قال قائلهم:

ومعال إذا ادعاهها سواه
لزمته جناية السراق^(١)

الآية (٦٩)

﴿وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾

أثبتت الآية السابقة لله تعالى الخلق والإرادة المطلقة، وهذه تثبت له سبحانه العلم المطلق، ولكن الآية تعطينا هذا المعنى في صورة محددة معينة هي علمه تعالى بما تخفيه صدورهم من نوايا ومشاعر وأفكار، وما يعلنونه بأفواههم من ذلك أو من سواه. فكل سر يعلمه، وكل علانية يعلمها، وكل خفي متكشف لعلمه، وكل ظاهر دق أو جل يعلمه سبحانه.

وبينما الآية السابقة تحدثت عن قدرة الله واختياره وخلق ما يشاء تحدثت هذه الآية عن علمه سبحانه، وذكر لذلك العلم صورة عملية، وهي علمه سبحانه بما تنطوي عليه صدور الخلق، وما يعلنونه، وهي صورة معبرة مصورة لعلمه المطلق، ولكن لأن الحديث عن الخلق وما يعملون وما يسرون وما يعلنون، جعل العلم متمثلاً في هذه الصورة الحية العملية الواقعية المدركة عن عينيهم الأمر.

(١) القشيري، أبو القاسم عبد الكريم بن هوزان: لطائف الإشارات، ج ٢، ص ٤٤٤، بيروت ط ١، ١٤٢٠/٢٠٠٠، تحقيق عبد اللطيف عبد الرحمن.

الآية (٧٠)

﴿وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾

وفي ختام هذه الثلاثية من الآيات في بدء هذا المقطع تقرر الآية السبعون واحديته سبحانه، وهي وحدانية لا ينازعه فيها منازع ولا يشركه فيها أحد، فهو الله الحق، لا إله إلا هو، الحمد ثابت له في الدنيا وفي الآخرة، حمداً كاملاً مطلقاً على آلائه ونعوت جماله وجلاله، وله الحكم في الدارين كذلك لا لسواه وإن شاء أن يمهل بعض الكافرين فما ذاك عن عجز، معاذ الله، والمرجع والمآل إليه.

وقد جمعت هذه الآية ما تحدثت عنه سابقاتها، ولكن بأسلوبها الخاص، فقررت توحيد سبحانه، فلا إله معه، ولا إله دونه، ولا إله سواه، بل هو وحده الله ﴿وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾.

ثم جمعت الآية الحماد كلها له سبحانه، والثناء المطلق عليه سبحانه في الأولى وهي هذه الحياة، والآخرة وهي الحياة القادمة والحقة الدائمة.

وله وحده سبحانه الحكم في الدارين لا إلى سواه، وإليه المرد والمرجع والمآل، فيوفي كل إنسان حقه جزاءه، وبهذه الكلمة ستختم السورة بعد ثماني عشرة آية: ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾.

وقد وردت صيغة (ترجعون) ١٩ مرة في القرآن الكريم في (١٤) سورة، وما في سورة القصص هو الموضع رقم (٨) من حيث مرات ورود السورة رقم (٦). وقد وردت (إليه)، أو ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ في ١٣ مرة، وما في سورة القصص هو الموضع رقم (٥) من بينها.

وقد وردت هذه الصيغة في سورة البقرة (أعني ترجعون) ٣ مرات.

الآية (٧١)

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهُ غَيْرَ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ

بِضْيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾

يبتدئ من هذا المحور من محاور هذا المقطع رحلة كونية تبتدئ بسؤال الكافرين، بل الناس أجمعين، قائلة لهم: أنبئوني وأخبروني إن جعل الله عليكم الليل دائماً أبداً سرمداً إلى يوم القيامة، من إله من أهتكم المزعومة، عدا الله الحق سبحانه، يستطيع أن يغير نظامه سبحانه فيأتيكم بضياء بعد الليل، أفلا تسمعون.

هذه الآية في محاجة الكافرين من خلال مشهد كوني يبتدئ بقُلْ، وهي في ذات الوقت تعزز إيمان المؤمنين وتفتح أبصارهم وبصائرهم لتلمي آيات الله في الكون المتجلي، تقول الآية الكريمة:

قل يا أيها النبي ﷺ، وقل يا كل محاج عن الإيمان من بعده، قل أخبروني إن جعل الله عليكم الليل دائماً أبداً لا يحول ولا يزول، إلى يوم القيامة، فمن هذا الإله سوى الله، الذي يمكن أن يأتيكم بضياء، سواء أكان عن طريق الشمس أو عن طريق آخر، من غير الله يمكن أن يفعل هذا؟ أفلا تسمعون الحجة، فتفتحوا لها قلوبكم وعقولكم؟ ومع الليل اختار السمع لأنه الحاسة المناسبة.

وكم في هذا الوجود من آيات باهرات، وإنما تبدل الحس والشعور، والعقل والفكر فما عاد ينفع لها أو بها، وما عاد يندهش من كون كل ما فيه مدهش إلى آخر حدود الإدهاش.

وهذا الإيمان عود بالطاقات إلى أول عهد تفتحها، وهذا الدين عود بالإنسان إلى صفاته الأول قبل أن يتحول إلى كتلة جامدة تحجر فيها السمع والبصر والعقل فتحول إلى حفريات ومستحاثات.

هذا الإنسان مملوء بالطاقات لو فعلها لكان نعم الخليفة، ولكنه عطلها فصار بشس المتلف المعطل المتبطل المعرض عن ربه.

قال الزمخشري:

...وأتى (بضياء) وهو نور الشمس ولم يجمع التركيب: بنهار يتصرفون فيه كما جاء ﴿لَيْلٍ تَسْكُنُوتُ فِيهِ﴾ لأن منافع الضياء متكاثرة، ليس التصرف في المعاش وحده، والظلام ليس بتلك المنزلة، ومن ثم قرن بالضياء ﴿أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾ لأن السمع يدرك ما يدركه البصر، ومن ذكر منافعه، ووصف فوائده، وقرن بالليل ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ لأن غيره يبصر من منفعة الظلام ما تبصره أنت من السكون ونحوه، قاله الزمخشري.

ومن رحمته (فمن) هنا للسبب، أي وبسبب رحمته إياكم ﴿جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾ ثم علل جعل كل واحدة منها، فبدأ بصلة الأول وهو (الليل) وهو ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾، أي: هذه الرحمة والنعمة، وهذا النوع من علم البديع يسمى: التفسير، وهو أن تذكر أشياء ثم تفسرها بما يناسبها، ومنه قول ابن جني:

ومَقْرَطَقٌ يُغْنِي النَّدِيمَ بِوَجْهِهِ عَنْ كَأْسِهِ الْمَلَأَى وَعَنْ إِبْرِيْقِهِ

فعل المدام ولونها ومذاقها في مقتلتيه ووجنتيه وريقه

- والضمير في (فيه) عائد على الليل وفي (فضله) يجوز أن يكون عائداً على (الله) والتقدير: من فضله، أي من فضل الله فيه، أي في النهار، وحذف لدلالة المعنى. ولدلالة لفظ (فيه) السابق عليه، ويحتمل أن يعود على (النهار) أي من فضل النهار، ويكون إضافته إلى ضمير النهار على سبيل المجاز، لما كان الفضل حاصلًا فيه أضيف إليه كقوله: ﴿بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ [سبا: ٣٣].^(١)

وقال الطبري في تفسير آية (٧١): ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اتِّلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَآءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾

«يقول تعالى ذكره: قل يا محمد لهؤلاء المشركين بالله: أيها القوم أرايتم إن جعل الله عليكم الليل دائماً لا نهار إلى يوم القيامة يعقبه، والعرب تقول لكل ما كان متصلاً لا ينقطع من رخاء أو بلاء أو نعمة هو سرمد.

- وقوله: ﴿مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَآءٍ﴾ يقول: من معبود غير المعبود الذي له عبادة كل شيء يأتيكم بضياء النهار فتستضيئون به ﴿أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾ يقول: أفلا ترفعون ذلك سمعكم وتفكرون فيه فتعظون، وتعلمون أن ربكم هو الذي يأتي بالليل ويذهب بالنهار إذا شاء. وإذا شاء أتى بالنهار وذهب بالليل، فينعم باختلافهما كذلك عليكم»^(١).

قال ابن القيم:

خص سبحانه النهار بذكر البصر، لأنه محله، وفيه سلطان البصر وتصرفه، وخص الليل بذكر السمع، لأن سلطان السمع يكون بالليل. وتسمع فيه الحيوانات ما لا تسمع في النهار، لأنه وقت هدوء الأصوات، وخمود الحركات، وقوة سلطان السمع وضعف سلطان البصر. والنهار بالعكس، فيه قوة سلطان البصر، وضعف سلطان السمع.

فقوله: أفلا تسمعون؟ راجع إلى قوله: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ...﴾ أي إن جعل الله عليكم الليل سرمداً إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم به؟

وقوله ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ راجع إلى قوله: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ...﴾^(٢).

(١) تفسير ابن جرير، ج ١٠، ص ٩٧.

(٢) ابن القيم: التفسير القيم، ص ٤٠٢، ومفتاح دار السعادة، ج ١، ص ٣١١.

الآية (٧٢)

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ مَنْ إِلَهُ غَيْرَ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بَلِيلٌ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾

هذه الآية هي الصورة المقابلة للآية السابقة، فتصوروا أيها المخاطبون وأخبروني إن جعل الله عليكم النهار مؤبداً دائماً سرمداً إلى يوم القيامة فمن غير الله يستطيع أن يأتيكم بليل ترتاحون فيه وتسكنون من بعد عنائكم، أفلا تبصرون نعم الله.. وتقرون وتشكرون عليها؟

وإن للصورة وجهاً آخر. فقد تكلمت الآية السابقة عن الكون لو افترضنا فيه ديمومة الليل، وهذه الآية تتكلم عنه لو افترضنا فيه ديمومة النهار، فتقول بنفس البداية: قل أخبروني أيها الناس جميعاً كافرهم ومؤمنهم وأخص الكافر عله يتحول عن انطماسه وجهله وانغماسه في ظلمة كفره وشكه: أخبروني إن جعل الله نظام الكون نهاراً دائماً، فمن يأتيكم بليل تسكنون فيه فترتاحون وتجددون نشاطكم؟

أفلا تبصرون الآية فتعبرون؟

واختار مع النهار الإبصار.

الآية (٧٣)

﴿وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾

هذه الآية في نهاية هذه المجموعة الثلاثية من الآيات تجمع ما بينهما، وتحدث عما تضمنته السابقات من آلاء الله في ظواهر الكون، فنقول: إن من رحمته تعالى أنه جعل لكم الليل والنهار، لتسكنوا في الأول وتنتشروا في الثاني لابتغاء الفضل والرزق، ولعلكم تذكرون هذه الآلاء وحكم الله في هذا الاختلاف والتعاقب، فتشكروه سبحانه على ما أفاض عليكم وأغدق.

قال القشيري:

«الأوقات ظرف لما يحصل فيها من الأفعال والأحوال، فالظروف من الزمان متجانسة، وإنما الاختلاف راجع إلى أعيان ما يحصل فيها، فليالي أهل الوصال سادات الليالي، وليالي الفراق أسوأ الليالي، فاهل القرب ليايهم قصار، وكذلك أيامهم، وأرباب الفراق ليايهم طوال، وكذلك جميع أوقاتهم في ليلهم ونهارهم، يقول قائلهم:

والليالي إذا نأيت طوال وأراها إذا دنوت قصار
وقال آخر:

يطول اليوم لا ألك فيه وحول نلتقي فيه قصير^(١)
قال الطبري:

«وفي الهاء التي في قوله ﴿لَتَسْكُؤُنَّ فِيهِ﴾ وجهان: أحدهما أن تكون من ذكر الليل خاصة ويضمّر للنهار مع الابتغاء هاء أخرى. والثاني: أن تكون من ذكر الليل والنهار، فيكون وجه توحيدها وهي لها وجه توحيد العرب في قولهم: إقبالك وإدبارك يؤذني، لأن الإقبال والإدبار فعل، والفعل يوحد كثيره وقليله^(٢).
قال الشريف المرتضى في الأمالي:

«وحكي عن بعض علماء أهل اللغة أنه قال: العرب تلفّ الخبرين المختلفين، ثم ترمي بتفسيرهما جملة، ثقة بأن السامع يرد إلى كل خبره، كقوله تعالى: ﴿وَمِنْ رَحْمَتِهِ...﴾ وهذا واضح في مذهب العرب، كثير التطاير^(٣).

(١) القشيري: لطائف الإشارات، ج ٢، ص ٤٤٥.

(٢) تفسير ابن جرير، ج ١٠، ص ٩٨.

(٣) الأمالي، ج ١، ص ٤١٩.

وبعد الحجاج بتصور الكون ليلاً دائماً، أو نهاراً دائماً يلفت السياق الكريم الأنظار إلى حكمة ازدواج الليل والنهار وتعاقبهما على مر الأدهار، فيقول: إن من رحمة الله بكم أيها العباد أن جعل لكم الليل والنهار، ثم بين وظائفهما: لتسكنوا في الأول منهما أي الليل، ولتطلبوا من رزق الله وفضله في الثاني منهما أي النهار، فهو لف ونشر مرتب كما يقال في البلاغة. ولعلكم تشكرون على نعمة الله عليكم فيهما معاً، وهذا نعمة من الله تقتضي الشكر، والشكر يتطلب رؤية النعم أولاً، والرؤية تقتضي أن تكون الأبصار والبصائر والعقول يقظة فعالة فترى آلاء الله ونعمه المبثوثة والتي تنقلب فيها قلّ من يستشعرها وقلّ من يشكرها: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّاكِرُونَ﴾ [سبأ: ١٣].

وقد وردت هذه الصيغة (تشكرون) ١٩ مرة في القرآن الكريم كله، وقد وردت في البقرة وحدها (٣) مرات، وهذه هي المرة رقم (١٣) من بينها أعني الموضع الذي في القصص.

أما صيغة لعلكم تشكرون فقد جاءت (١٤) مرة في القرآن. وما هنا في القصص هو الموضع رقم (١١) من بينها. أما عدد السور الذي تضمن هذه الصيغة فهو (١٥) سورة، أولها في سورة البقرة الجزء الأول وآخرها الملك: ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ في الجزء التاسع والعشرين.

﴿وَمِن رَّحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾

قال الطيبي تحت عنوان: اللف والنشر، معرفاً:

وهو أن تضم متعدياً ثم تتبعه ما لكل منه من غير تعيين ثقة بأن السامع يرد كلاً منه إلى ما هو له، وهو على أقسام: الأول: ما يجيء على الترتيب، وذكر منه: قوله تعالى: ﴿وَمِن رَّحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾ والثاني: أن يجيء من غير ترتيب.. الخ^(١).

الآية (٧٤)

﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَاءِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾

هذه الآية بداية محور هو الأخير من محاور هذا المقطع، وهذا المحور من آيتين، هذه أولاهما، وهي نقلة إلى ساحة الآخرة، ليريهـم أن شركهم لا يسمـن ولا يغني، ولا يسعفهم وقت الملـمات والمهمات.

فيستحضرهم في الدار الآخرة، وينقل لنا لحظة فيها يناديهم المولى نداء تنخلع له قلوبهم فيقول: أين شركائي الذي كنتم تدعونهم لي، وتزعمونهم؟ وقد تكرر مثل هذا السؤال في سور عديدة ليبين المولى سبحانه للناس أن لا شريك له، وأن هذه الأوثان الموهومة المزعومة أعجز من أن تسعف أو تنفذ مربوبها.. أي من اتخذوها أرباباً مع الله أو من دون الله.

عاد السياق الكريم إلى صيغة: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَاءِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ بذات النص بلا كلمة زائدة أو منقوصة.

وهذا التكرار مقصود منه إقامة الحجة عليهم، والنفي القاطع للشريك الموهوم المزعوم.

وقد وردت مادة (زعم) كلها في القرآن في ١٧ مرة.

ووردت (تزعمون) ٤ مرات اثنتان في الأنعام (٢٢)، (٩٤) واثنتان في سورة القصص (٦٢)، (٧٤).

الآية (٧٥)

﴿وَنَرْعَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَنَكُمْ فَعِلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ وَصَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾

ما زالت الآية هذه تحدثنا من ساحة الآخرة، يبين الله تعالى أنه سينزع من كل أمة شهيداً، لم يبين النص ما هو ولا من هو، ولعلنا من بين المشركين أنفسهم وليس من الرسل، بدلالة ما بعده من قوله تعالى: ﴿فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَنَكُمْ﴾ أي هاتوا الدليل

على شرككم الذي كنتم تشركون، اعطوني الحجة التي استندتم إليها في ادعاء هؤلاء شركاء، وأنا صاحب الأمر أقول لكم إنه لا أنداد لي ولا شركاء، وكتابي ينطق بهذا فمن أين زعمتم الشركاء، فيكون الشهاد على هذا -فيما أرى- والله أعلم، أنهم هم قادة ومنظرو الشرك والوثنية ومزينوها للناس.

فعلم جميع هؤلاء حيث أن الحق المطلق لله تعالى، وتاه عنهم وضل الطريق إليهم، فلم يصلهم من كانوا يزعمونهم آله، وما آله تضل الطريق إلى عباده؟
هذه الآية هي نهاية هذا المقطع، فيما أرى من تقسيم السورة إلى مقاطع، وهو ختام مناسب، فيما أرى، لنهاية مقطع. فهو يحسم موضوع النقاش حول الأنداد والشركاء المزعومين.

يقول النص الكريم: ﴿وَرَعْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا﴾ ولا يسد مسد كلمة (نزعنا)، فلا يعني أن نقول: أخرجنا أو استخرجنا، فلا تفيد ما في النزاع من الشدة والقوة، وهل المقصود بالشهيد هنا الرسول الذي كان يقيم الحجة على قومه ويشهد عليهم، أو المقصود بالشهيد هنا الذي كان يشهد على قضية الشرك بمعنى أنه يدعيها ويراها.

والرأي الأول فيما أرى يليق به ويليق هو بكلمة شهيد.
والرأي الثاني ينسجم مع: قفلنا هاتوا برهانكم. فيكون الشهيد هو المطلوب منه البرهان.

وعلى الرأي الأول يكون انفكاك ما بين الشهيد والإتيان بالبرهان، إلا إذا رأينا أن معنى ﴿هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ﴾ هو: أنكم بلغت دعوة الله، وأقمتم الحجة على وحدانية الله، وأن من كفر كفر عن بينة وبعد استبانة الحجة والمناهج، فيكون الشهيد والبرهان في نسق.

﴿فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ﴾ أي قول الحق، والألوهية الحق، والميزان الحق، بيد الله والله، وأنه وحده الإله الحق، وبطلت الألوهية الآلهة المدعاة، وتحلت اليوم عن عابديها، وكافى الله بالجنات اليوم من عبده سبحانه.

أما المشركون فقد ضل عنهم ما كانوا يفترون. وقد وردت صيغة: ﴿وَضَلَّ عَنْهُمْ مَّا كَانُوا يُفْتَرُونَ﴾ ٦ مرات هذه آخرها، وقد وردت (يفترون) (١٧) مرة وليس وراء ما في القصص إلا موضعين.
قال الطبري:

وأحضرنا من كل جماعة شهيدها وهو نبيها الذي يشهد عليها بما أجابتها أمته فيما أتاهم به عن الله من الرسالة. وقيل: ونزعنا من قوله: نزع فلان بحجة كذا، بمعنى أحضرها وأخرجها.

وقوله: ﴿فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ﴾ يقول: فقلنا لأمة كل نبي منهم التي ردت نصيحته وكذبت بها جاءها به من عند ربهم إذ شهد عليها بإبلاغه رسالة الله. ﴿هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ﴾ يقول: فقال: هاتوا حجبتكم على إشراككم بالله، ما كنتم تشركون مع إعدار الله إليكم بالرسول وإقامته عليكم بالحجج.

وقوله: ﴿فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ﴾ يقول: فعلموا حيثنذر أن الحجة البالغة لله عليهم وأن الحق لله والصدق خبره، فأيقنوا بعذاب من الله لهم دائم ﴿وَضَلَّ عَنْهُمْ مَّا كَانُوا يُفْتَرُونَ﴾ يقول: واضمحل فذهب الذي كانوا يتخرصون ويكذبون على ربهم، فلم ينفعهم هنالك بل ضرهم وأصلاهم نار جهنم.

تفسير المقطع الحادي عشر

قصة قارون

(الآيات ٧٦ - ٨٣)

تفسير المقطع الحادي عشر

قصة قارون

هذا المقطع يتكون أيضاً من ثماني آيات، ويتضمن قصة قارون، الذي يمثل الطغيان الاقتصادي والمالي.. مثلما مثل فرعون في بداية السور الطغيان السياسي والعسكري.

صلة هذا المقطع بما قبله ومناسبة لسياق السورة:

١- في فاتحة السورة تكلم القرآن الكريم عن نموذج للعلو العاتي المنطلق من البعد السياسي المستحوذ على السلطة والقوة، والذي يمارس قهر الناس بقوة السلطان والجند.

وفي ختام السورة تحدث عن علو آخر وسبب استكبار آخر هو العلو المنطلق من البعد الاقتصادي، فتكامل بين فاتحة السورة وخاتمها الاستكباران: السياسي والاقتصادي.

أما لماذا فصل بينهما؟ ففيما أظن لتتملى العقول كل استكبار على حدته وحتى لا يظن أنهما شيء واحد وإن تكاملاً، ثم إن هذا من قوم وهذا من قوم آخرين، ولذا فصل بينهما، وإن جمع بينهما الطغيان، وجمع بينهما الزمان والمكان. ففرعون بغى وطغى على شعبين: المصري والإسرائيلي، وقارون بغى على شعبه الإسرائيلي: ﴿كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ﴾، ﴿فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ﴾. أضف إلى الحديث عن الفساد في كلتا القصتين، فرعون وقارون من رموز الفساد.

٢- كان ذاك حديثاً عن صلة القصة بالسياق.. سياق السورة. ولكن ما صلتها بما قبلها مباشرة؟

والذي أراه: أن الآيتين قبلها كانتا تتحدثان عن الآخرة وتحدي الله تعالى للمشركين أن يأتوا بشركائهم، فيتبين أنه لا ينفع أحد أحداً.. وهنا يتقرر ويتكرر المعنى ذاته، فكانَ هذا الطاغية قارون، قد زعم ماله إلهاً معبوداً مع الله، ولا يدفع عنه النقم سلطانه، فتبين أن الحق والقوة والأمر لله وحده.

وجه الربط كما يراه صاحب الظلال:

وقال في الظلال في وجه المناسبة والربط بين قصة قارون وسباق السورة قال: «مضت مطالع السورة بقصة موسى وفرعون، وقد عرضت فيها قوة السلطان والحكم، وكيف باءت بالبوار مع البغي والظلم والكفران بالله، والبعد عن هداة. والآن تحيء قصة قارون لتعرض سلطان المال والعلم، وكيف ينتهي بالبوار مع البغي والبطر، والاستكبار على الخلق وجحد نعمة الخالق، وتقرر حقيقة القيم، فترخص من قيمة المال والزينة الى قيمة الإيمان والصلاح، مع الاعتدال والتوازن في الاستمتاع بطيبات الحياة دون علو في الأرض ولافساد»^(١).

ويتابع الظلال بأن القرآن (لا يحدد زمان القصة ولا مكانها)، وهذا صحيح، بالنسبة للقاعدة العامة، وبالنسبة لقصة قارون في هذا الموضع، لكن الموضع الأخرى حددت الزمان والمكان إذ قالت سورة غافر: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ بَكَائِنَا وَسُلْطٰنٍ مُّبِينٍ ۖ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَمَجْنَ وَقُرُونُ فَقَالُوا لَا سَجَرَ كَذٰبٌ﴾ [غافر: ٢٣ - ٢٤].

وواضح أن القرآن يجمعهم في سلسلة واحدة زماناً ومكاناً ورد فعل ودعوة من موسى. ثم سأل صاحب الظلال: «هل وقعت هذه القصة قبل الخروج من مصر أم بعده؟» ويجيب بنفس الجواب أن ذلك لا يعنينا، وصحيح ما يقول، لكن الثروة الهائلة التي وصفها القرآن لا تتكون في التيه وحياة الصحراء، بل تحتاج إلى مجتمع مستقر، وهذا لا يتصور إلا في مصر.

ونحن مع صاحب الظلال في عدم اعتماد الإسرائيليات القائلة إن قارون ابن عم موسى فهذا لا يعيننا ولا دليل عليه.

وجه الربط كما يراه صاحب الجواهر:

قال الشيخ طنطاوي جوهرى في توجيه ربط القصة بسياق السورة الكريمة: هذا القسم تطبيق على ما تقدم من أقسام السورة راجع إليها متمم لها مكمل لمقاصدها منه لما ترمي إليه. ابتدأ الله السورة بما يأتي: ^(١)

- ١- بذكر أن فرعون علا في الأرض وأنه من المفسدين.
 - ٢- ثم ذكر قصة موسى وفرعون ونجاة الأول وهلاك الثاني وقومه.
 - ٣- ثم أردف بذكر نظير ذلك من كفار قريش وأفهمهم أنهم كقوم بطروا معيشتهم فخرت ديارهم.
 - ٤- ثم أتبع ذلك بمن أنعم عليهم وتعلموا وشكروا.
- ذلك ملخص السورة، ثم أتبع ذلك بذكر قارون وأنه بغى على قومه، وقد كثر ماله فأبطره الغنى ونسبه إلى عمله وتكبر على قومه، وانقسم الناس في أمره قسمين: قسم العلماء وهؤلاء حقروا زينته وماله، وقسم الجهلاء وهؤلاء تمنوا مثل ما أعطي قارون، فلما وقعت واقعة، وانشقت سماء مجده فكانت واهية، وسقط قارون في الهاوية عرف الجاهلون الحقيقة بهذه الحادثة وأدركوها بتلك الكارثة.
- فأما أهل العلم فلم تزدهم إلا ثباتاً، إن ذلك أشبه بما حصل لفرعون وموسى ومحمد ﷺ وكفار قريش، وفرعون كقارون، وكأهل مكة لما أسرفوا وطفنوا واستكبروا، وتدمير قارون وما يملك كتدمير فرعون وجنوده وكذلك هلاك قريش.
- لذلك ختم السورة بأن الدار الآخرة يحرم منها اثنان: العالون في الأرض، والمفسدون. وينالها من تنزهوا من هذين، وهذا نظير ما في أول السورة: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ﴾، فهنا يقول: الآخرة لمن لم يتصف بهذين الوصفين، وتجرد

من الأمرين، وفاز بالحسينين: التواضع وإصلاح الأرض، ثم ختم السورة بأن كل شيء هالك إلا ما كان على نسق يرضاه الله كما كان موسى ومحمد ﷺ والذين أوتوا العلم.

وملخص ذلك أنه لا آخرة إلا لنبي أو حكيم أو عالم أو متبع سنتهم، فهؤلاء هم الذين لا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً، فكان السورة في هذا القسم لخصت مرتين: مرة في قصة قارون، ومرة في قوله: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ في آخر السورة.^(١)

الآية (٧٦)

﴿إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآيَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءَ بِالْعُصْبَةِ أُولَى الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾

تبتدئ هذه الآية بتقرير أن قارون كان من قوم موسى، لكنه خرج عليهم وبغى، وتمرد عن الولاء لأمرته، وانضم إلى معسكر أعدائها وانحاز إليهم.. إذ عندهم القوة والمال والظهور.

ولكن ما وجه التقرير بـ"إن"؟ هل ثمة من ينكر القصة فاحتجنا أن نؤكدها؟ اعتقد أن التأكيد هنا لبيان أهمية القصة ولشد الانتباه لتابعاتها. ثم يقرر ختام الآية أو شقها الثاني أن الله تعالى أعطى قارون من الكنوز والأموال ما تعجز مجموعة الرجال الأقوياء الأشداء عن حمل مفاتيح خزائنه، وهي صورة معبرة جداً عن مقدار ضخامة هذا المال.. وكثرة هذه الكنوز التي جعلت قارون رمز الغنى والكثرة والوفرة على مدى الزمان، ومضرب المثل في اكتناز المال.

(١) الجواهر الجوهري: ج ١٤، ص ٦٩.

قال الفيروز أبادي في بصائره، تحت عنوان بصيرة في قارون: وهو اسم عبري غير منصرف، وقيل مشتق من قرن، فاعول منه للمبالغة، سمي به لأنه قرن بالملك، ثم قرن بالهلك..^(١)

وبعد إسرائيليّات فصلّ الفيروز أبادي فيها استشهد بشعر فقال:

وعدتني وعدك حتى إذا أطمعنتي في كنز قارون
جئت من الليل بغسّالة تغسل ما قلت بصابون
قال المراغي:^(٢)

فبغى عليهم: تكبر وتجبر.

والكنز: المال المدفون في باطن الأرض، والمراد هنا المال المدخر.

مفتاحه: خزائنه، واحدها مفتاح الميم.

تنوء: من ناء به الحمل ينوء إذا أثقله حتى أماله - قال ذو الرمة:

تنوء بأخراها فلا يأيا قيامها وتمشي الهوينى عن قريب فتبهـر
والعصبة: الجماعة الكثيرة يتعصب بعضهم لبعض بلا تعيين عدد خاص.
والقوة: الشدة.

لا تفرح: لا تبطر وتمسك بالدنيا ولذاتها حتى تتلهى عن الآخرة.

قال بيهس العذري:

ولست بمفراح إذا الدهر سرّني ولا جازع من صرفه المتقلب

(١) بصائر ذوي التمييز، ج ٦، ص ٧٣، تحقيق عبد العليم الطحاوي، بيروت المكتبة العلمية بلا تاريخ.

وقال في غتار القاموس: والقارون: عني من العتاة يضرب به المثل.

انظر: الزاوي: غتار القاموس، ص ٤٩٩، بيروت: دار الكتب العربية ١٩٨٣.

(٢) المراغي: أحمد مصطفى: تفسير المراغي، ج ٧، ص ١٩٧، تخريج باسل عيون السود، ط ١، بيروت، دار الكتب

العلمية، ١٤١٨هـ / ١٩٩٨م.

والدار الآخرة: أي ثواب الله بإنفاق المال فيما يوصل إلى مرضاته.

على علم عندي: أي على حسن تصرف في المتاجر واكتساب الأموال.

ثم قال المراغي في الربط بين القصة وسياقها وفي المعنى الإجمالي لها قال: بعد أن ذكر سبحانه حديث أهل الضلالة وما يلحقونه من الإهانة والاحتقار يوم القيامة، ومناداتهم على رؤوس الأشهاد بما يفضحهم ويبين لهم سوء مغبتهم، أعقبه بقصص قارون، ليعين عاقبة أهل البغي والجبروت في الدنيا والآخرة، فقد أهلك قارون بالخسف، وزلزلت به الأرض، وهوت من تحته، ثم أصبح مثلاً يضرب للناس في ظلمه وعتوه، ويستبين لهم به سوء عاقبة البغاة، وما يكون لهم من النكال والوبال في الدنيا والآخرة على ما فعلوا:

ندم البغاة ولات ساعة مندم والبغي مرتع مبتغيه وخيم^(١)
ثم ينقلنا هذا القسم الأخير من الآية إلى صورة من وعظ قومه له بعدم الفرح، لأن الله لا يحب الفرحين البطرين المغترين بالملايين.

يبتدئ هذا المقطع من سورة القصص بقصة قارون، التي تبتدئ بدورها بإن المؤكدة، ثم تتبعها باسم قارون، ثم تقرير أنه كان من قوم موسى و(كان) لها دلالتها هنا، فكأنه كان ثم انشق عنهم وانسلخ منهم وخرج عليهم والتحق بغيرهم وإلى سواهم، كل هذا أدته ونقلته (كان).

وعززت هذا المعنى اللفظة التالية: ﴿فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ﴾، والبغي التجاوز والظلم، ولكأنك تقرأ القصة في الواقع، كيف ينشق الناس على أمتهم ويخمدون عدوهم في مقابل السماح لهم ببعض المكاسب أو بعض الامتيازات.

وتواصل القصة في الكتاب الكريم سيرها، فيخبرنا الله تعالى أنه أعطى قارون هذا من الكنوز، وهي كلمة جامعة تشمل أنواع المقتنيات من المال ذهباً وفضة وغير

ذلك من النفائس التي يعتبرها البشر نفائس، ويضحون من أجلها وفي سبيلها بإنسانيتهم ومبادئهم وأمتهم وآخرتهم.

ثم صور لنا القرآن ضخامة وفخامة ما أعطي هذا القارون بتقرير أن مفاتيح خزائن الأموال التي أوتيها يثقل حملها على العصابة أي جملة من الرجال أولي القوة والقدرة على حمل الأحمال..

ولك أن تتصور بعد هذا سعة غنى هذا الطاغية الذي بدل أن يشكر شكراً موصولاً لا ينقضي على ما وهبه الله من سعة رزق وسعة عطاء، ولكنه بدل ذلك طغى وبغى وبطر وكفر..

وفي آية واحدة ينتقل السياق الكريم من السرد إلى الحوار، فيقول واصفاً موقف قومه منه: إذ قال له قومه، أي شعبه وأهله وجماعته، قالوا له: ﴿لَا تَفْرَحْ﴾، والمقصود هنا ليس مطلق الفرح، وإنما الفرح المطلق بالأشياء، أما الفرح بالله وطاعته وعبادته فمسموح به بل أكثر من ذلك، كما قال تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا﴾ [يونس: ٥٨].

فالمقصود أن لا نفرح فرح البطر والأشر، ولكن فرح العبد بما وهب مولاه، فلا بأس به، فالدين ليس ضد أن تسعد الإنسانية، معاذ الله، بل إنه ما أكرمنا الله به إلا ليسعدنا به أي بالدين في الدنيا والآخرة: ﴿فَلَنَحْيِيَنَّاهُ حَيَاةً طَيِّبَةً﴾ [النحل: ٩٧] وعلى العكس فإن التجافي عن نهج الدين هو سبب التنغيص والنكد والضنك: ﴿فَإِنْ لَهُ مَعِيشَةٌ ضَنْكًا﴾ [طه: ١٢٤].

ثم ختم النص الكريم الآية الأولى من القصة بأن المؤكدة كما افتتح الآية بإن المؤكدة، ولكن ختام الآية يؤكد أن الله لا يحب الفرحين المتبطرين، الشاعرين متوهمين بالسعادة، لا يدين رب العالمين وطاعته مع الطائعين، وإنما بما جمعوا من المال واستكثروا من البنين.

﴿فَبِغْيَ عَلَيْهِمْ﴾

قال جوهرى في الجواهر:

(إن من الذنوب ذنوباً باطنية، وقال علماؤنا رحمهم الله: (إنها أشد فتكاً للإنسان من الذنوب الظاهرية)، ثم ذكر الشيخ من تلك المهلكات التي أشار إليها القرآن الكريم حين وصف قارون بالبغي والإجرام، قال الشيخ:

(إن فيه لكبائر الذنوب، مثل الكبرياء والتعالي على الناس والإعجاب بالنفس) فهذه وأمثالها ذنوب كبائر ويقول علماؤنا إنها هي المهلكة. إن هذه المظاهر إما أن تكون من أشرف الأعمال وإما أن تكون من أضلها، فأما إذا كانت لإظهار مجد الأمة وقهر عدوها وكسر نفسه وإظهار العظمة الدينية والقومية فهي جهاد في سبيل الله، وأما إظهارها لإذلال النفوس وكسر القلوب والتعالي على الإخوان وأبناء البلاد، فذلك تفريق للكلمة وإظهار للعظمة في غير موضعها، فإن الناس إخوانه، ومتى تعالى عنهم خفضهم فلا جامعة بينهم ولا رابطة تربطهم فيذلون في الدنيا بانقضاض الأعداء عليهم وفي الآخرة بجهمهم.

فمظاهر قارون كانت من القسم الثاني قصها الله ليعلم بعض المسلمين، ويقول لهم: لتكن نفوسكم شريفة وإياكم أن تطغوا، إنما نظري لقلوبكم لا لصوركم، فكم مظهر نعمة يريد بها التعالي والتفاخر، وكم مقيم زينة وصانع وليمة وهو في كل ذلك كقارون.^(١) ثم أعاد التنبيه إلى خطر الذنوب الباطنية وعدم انتباه الناس إلا للأمور الظاهرية.. وأن شؤم الذنوب الباطنية ليس في الآخرة وحدها بل يحصل في الدنيا.

(١) الجواهر لجوهرى: ج ١٤، ص ٧٠ - ٧١.

قال الطبري:

فإن قال قائل: وكيف قيل ﴿وَأَيُّنَهُ مِنَ الْكُؤُزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ﴾، وكيف تنوء المفاتيح بالعصبة. وإنما العصبة هي التي تنوء بها. قيل: اختلف في ذلك أهل العلم بكلام العرب، فقال بعض أهل البصرة: مجاز ذلك: ما أن العصبة ذوي القوة لتنوء بمفاتيح نعمه. قال: ويقال في الكلام: إنها لتنوء بها عجيزتها وإنما هو تنوء بعجيزتها كما ينوء البعير بحمله، قال: والعرب قد تفعل مثل هذا، قال الشاعر:

فدبت بنفسه نفسي ومالي وما آلوكم إلا ما أطبق
والمعنى: فدبت بنفسي وبمالي نفسه.
وقال آخر:

وتركب خيلاً لا هوادة بينها وتشقى الرماح بالضياطرة الحُمر
وإنما تشقى الضياطرة بالرماح. قال: والخيل: هاهنا: الرجال.

وقال آخر منهم ﴿مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ﴾ قال: وهذا موضع لا يكاد يتبدأ فيه إن وقد قال: إن الموت الذي تفرون منه فإنه ملائكم. وقوله: ﴿لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ﴾ إنما العصبة تنوء بها، وفي الشعر:

تنوء بها فتثقلها عجيزتها

وليست العجيزة تنوء بها، ولكنها هي تنوء بالعجيزة. وقال الأعشى:

ما كنت في الحرب العوان مغمراً إذ شب حرّ وقودها أجذاها
وكان بعض أهل العربية من الكوفيين ينكر هذا الذي قاله هذا القائل، وابتداء إن بعد ما، ويقول ذلك جائز مع ما و من، وهو مع ما و من أجود منه مع الذي، لأن الذي لا يعمل في صلته ولا تعمل صلته فيه فلذلك جاز، وصارت الجملة عائد ما، إذ كانت لا تعمل في ما، ولا تعمل ما فيها. قال: وحسن مع ما و من لأنهما

يكونان بتأويل النكرة إن شئت والمعرفة إن شئت، فتقول: ضربت رجلاً ليقومن، وضربت رجلاً إنه لحسن. فتكون مَن وما تأويل هذا، ومع الذي أقبح، لأنه لا يكون بتأويل النكرة.

وقال آخر منهم في قوله: ﴿لَسَوَاءُ أَلْعَصْبَةُ﴾: نوءها بالعصبة: أن تثقلهم، وقال المعنى: إن مفاتحه لتثني العصبة: تميلهن من ثقلها، فإن أدخلت الباء قلت: تنوء بهم، كما قال: ﴿وَأَتَوْنِي أَفْرَغَ عَلَيْهِ قَطْرًا﴾، وقال: والمعنى: أتوني بقطر أفرغ عليه، فإذا حذفت الباء، ردت على الفعل ألفاً في أوله، ومثله: ﴿فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ﴾ معناه: فجاء بها المخاض، وقال: قد قال رجل من أهل العربية: ما إن العصبة تنوء بمفاتحه، فحول الفعل إلى المفاتح، كما قال الشاعر:

إن سراجاً لكريم مفخره تجلى به العين إذا ما تجهره
وهو الذي يجلي العين، قال: فإن كان سمع أثراً بهذا، فهو وجه، وإلا فإن الرجل جهل المعنى، قال: وأنشدني بعض العرب:

حتى إذا ما التأمت مواصله وناء في شق الشمال كاهله
يعني: الرامي إذا أخذ القوس، ونزع مال عليها. قال: ونرى أن قول العرب: ما ساءك وناءك من ذلك، ومعناه: ما ساءك وأناك من ذلك، إلا أنه ألقي الألف لأنه متبع لساءك، كما قالت العرب: أكلت طعاماً فهناني ومراني، معناه: إذا أفردت وأمراني فحذفت منه الألف لما اتبع ما ليس فيه ألف.

وهذا القول الآخر في تأويل قوله: ﴿لَسَوَاءُ أَلْعَصْبَةُ﴾: أولى بالصواب من الأقوال الأخر، لمعنيين: أحدهما: أنه تأويل موافق لظاهر التنزيل، والثاني: أن الآثار التي ذكرنا عن أهل التأويل بنحو هذا المعنى جاءت، وأن قول من قال: معنى ذلك: ما إن العصبة لتنوء بمفاتحه، إنما هو توجيه منهم إلى أن معناه: ما إن العصبة لتنهض بمفاتحه، وإذا وجه إلى ذلك لم يكن فيه من الدلالة على أنه أريد به الخبر عن

كثرة كنوزه، على نحو ما فيه إذا وجه إلى معناه: إن مفاتيحه تثقل العصبة وتميلها، لأنه قد تنهض العصبة بالقليل من المفاتيح وبالكثير، وإنما قصد جل ثناؤه الخبر عن كثرة ذلك، وإذا أريد به الخبر عن كثرته، كان لا شك أن الذي قاله من ذكرنا قوله من أن معناه: لتنوء العصبة بمفاتيحه، قول لا معنى له، هذا مع خلافه تأويل السلف في ذلك.

ورحم الله الطبري على هذا التطويل و التدوير والأمر أيسر بكثير.
(الآية ٧٧)

﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنَ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفُسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾

ثم قدم قوم قارون له البديل السوي عن سلوكه غير الرضي المغتر بالمال أن يقصد بماله وجهة الآخرة، وأن يسخره لعمارة الآخرة، وفي الوقت ذاته لا ينسى حظه من الدنيا في هذا المال، ومن الذي ينسى الدنيا حتى يحتاج من يذكره بها؟ إن الدار التي تحتاج إلى تذكير بها هي الدار الآخرة لا الدنيا.

وقال له قومه: أحسن يا قارون بهذا المال إلى نفسك ببذله، وأحسن إلى مستحقه بإيصاله إليهم، ولا تقصد به الفساد في الأرض، والعبث والمجون والترف والفسوق، ثم ختمت الآية بحقيقة جامعة تعزز كل ما قيل: إن الله لا يحب المفسدين.

تواصل الآية الكريمة هذه ما ابتدأته أختها الآية السابقة من حوار بين قارون وقومه، والتوجيهات أو التذكير والنصائح التي يسديها القوم لقارون. فهنا في هذه الآية يقولون: يا قارون، اطلب وابتغ بالذي آتاك الله الدار الآخرة، ووجه ما أعطيته الوجهة الصحيحة، وليس المطلوب منك أن تنسى الدنيا، لا، فلا تنس نصيبك من الدنيا، والإنسان بطبعته وطبيعته لا يحتاج إلى من يذكره بنصيبه من

الدنيا، إنما العكس هو الذي يحتاج، الإنسان محتاج إلى من يذكره بحظ الآخرة ونصيبيها الذي غالباً ما يجور عليه حظ الدنيا وحصلتها وجهدها واهتمامها.

فهي دعوة من القوم حكيمة لازمة لهذا الطاغى.

وواصلوا بنصيحة ثمينة ثانية جامعة هي قولهم: (وأحسن) أي افعل الأحسن، والإحسان في ديننا أعلى مراتب التدين، كما في حديث جبريل إذ يذكره إذ سأل النبي عن المراتب الثلاث: الإسلام والإيمان والإحسان، فظهر أن أعلى المراتب الإحسان، وفسر النبي ﷺ ذلك بأن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك. ومن الإحسان أن تحسن الفهم لكتاب ربك وأحكام دينك. ومن الإحسان أن تحسن علاقتك بالمجتمع ورحمك، وذوئك، والناس، بل والكون بكل ما فيه، ومن الإحسان أن تؤدى الحقوق التي في مالك.. والإحسان مفتوح على صور لا عد لها ولا حصر.

وقرئوا دعوتهم له إلى الإحسان بإحسان سبق من الله إليه، إذ قالوا: ﴿وَأَحْسِن﴾

﴿كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾ فالإحسان الحقيقي إحسانه سبحانه والعظيم أنه تعالى يحسن إلينا بعد أن نحسن إلى الخلق من إحسانه الذي أحسنه إلينا فالفضل له أولاً وأخيراً، ويحسن إلينا سبحانه إذ يتقبل منا على قلة ورداءة ما نقدم، ورغم تقصيرها في حقه تعالى وحق أنفسنا وحق الأمة والمجتمع علينا، فنحن مغمورون بالإحسان منه قليلو الإحسان في عبادتنا له وفي تعاملنا مع عباده.

وختموا وصاياهم بالنهي عن نقيض الإحسان وهو الفساد، فنهوه عن أن يبغى الفساد في الأرض، والفساد نقيض الإصلاح والصلاح، وهو أيضاً صوره لا تنتهي.. فكل إخلال بقانون الله في المجتمع أو في الكون أو في النفس هو إفساد.. ولك أن تتصور كم من الصور يدخل تحت هذا المفهوم المطلق الشامل.

ثم برروا دعوتهم له إلى عدم الفساد والإفساد بأن الله لا يحب المفسدين، فكيف يفعل الإنسان الفساد والله لا يحب الفساد وكيف يكون من المفسدين والله لا يحب المفسدين، وصيغة: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ﴾ هي ختام الآيتين لكنها اقترنت في الآية السابقة بالفرحين، واقترنت في هذه بالمفسدين.

فهل الفرح بالدنيا والتعلق بها، مما يقود إلى الفساد في الأرض، وإفساد هذه الدنيا كالطفل الذي يلعب باللعبة ثم يفسدها؟
قال الدكتور أبو موسى في هذه الآية:

«ومن التأليف بين المختلف هذه الآية، وقد علق عليها الباقلائي بقوله: وهي خمس كلمات متباعدة في المواقع، نائية المطارح، وقد جعلها النظم البديع أشد تألفاً من الشيء المؤتلف في الأصل، وأحسن توافقاً من المتطابق في أول الوضع»^(١).

وواصل أبو موسى يبين: «وربما كان ذلك في أن أردف الجملة الأولى التي هي حض على ابتغاء آخرته فيما رزقه الله، بالجملة الثانية التي هي نهى عن المبالغة في ذلك وأن يحرم نفسه حفظها من الدنيا، والإشارة إلى أن الأمر الإلهي هو في الوسط بين طرفي الدنيا والآخرة، وكان قوله: ﴿وَلَا تَنسَ...﴾ هو الطرف المقابل الذي يحد من الطرف الأول، وعلى هذا تكون الجملة الثانية مع أنها في الظاهر تطلب عكس الأولى، والنهي طلب الكف، إلا أنها مكملة لها، وجزء من معناها. ثم يجيء قوله في الثالثة: ﴿وَأَحْسِن...﴾ مع قوله: ﴿وَلَا تَبْغِ الْفُسَادَ﴾ ليكونا معاً حقيقة واحدة هي الإحسان الناتج عن ابتغاء الفساد في الأرض^(٢) والرافض له ثم تعطف هذه الحقيقة بوجهيها هذين: الإحسان والنهي عن الفساد - على الحقيقة السابقة بوجهيها - ابتغاء الآخرة وعدم نسيان حظه من الدنيا.

(١) نقلاً عن إجاز القرآن للباقلاني، ص ١٦٤.

(٢) محمد أبو موسى: الإعجاز البلاغي، ص ٢١٢.

ونظم الكلام على هذا الوجه الذي نراه: أمر ثم نهي، يعطف ثانيهما على الأول، ثم بعد ذلك تعطف الجملة الثانية برديفتها، على الجملة الأولى برديفتها. أقول: إن نظم الكلام على هذا الوجه فيه من دقة السبك وإحكامه ما ترى.. ثم تأتي الجملة الخامسة: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ فاصلة جامعة للكل وتحص على الكل، لأن عدم ابتغاء الآخرة فيما آتاه الله فساد، والله لا يحب المفسدين ونسيان حظه من الدنيا فساد، والله لا يحب المفسدين، وعدم الإحسان فساد، والله لا يحب المفسدين. وهكذا تجد الفاصلة ترمي روابط أخرى على الآيات السابقة، وتعتقد معها أسباباً فيزداد تشابك الكلام^(١).

الآية (٧٨)

﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي ۖ أَوَلَمْ يَعْلَم أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِن الْقُرُونِ مَن هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِ الْمُجْرِمُونَ﴾

تسجل هذه الآية جواب قارون على دعوة قومه الكريمة الناصحة إذ يقول لهم: إنما أوتيت هذا المال بتدبري وحكمتي وخبرتي وعلمي، فأنأ أفعل به ما أشاء، ويرد عليه النص الجليل فيقول: أألم يعلم هذا المغرور أن الله تعالى قد أهلك من قبله من أمثاله من هو أشد منه قوة ومن هو أكثر منه جمعاً وكنزاً ولا يسأل المجرمون إذا أراد الله أخذهم، لا يسألون عن ذنوبهم، بل يأخذهم الله على غرة وفجأة بلا مقدمات، يأخذهم في الدنيا أخذ عزيز، ليبدأ حسابهم العسير.

تواصل الآيات الكريمة نقل الحوار الذي دار بين قارون وقومه، لتنتقل لنا هذه الآية رد قارون على الدعوة الكريمة التي وجهها له قومه بعدم الفساد، وعدم البطر والاعتداد قال: إنما أعطيت هذه المال بعلمي وتدبري وحكمتي في إدارة مشاريعي وخبرتي الواسعة في التجارة، وحيلتي في اقتناص الفرص، والتخطيط الذي لا

(١) محمد أبو موسى: الإعجاز البلاغي، ص ٢١٢-٢١٣.

يخطئ ولا يعرف التخييط ولا التخليط. ويسأل النص الكريم بعد هذا الجواب: أولا يعلم هذا المغرور (طالما أنه معتد بعلمه) أولا يعلم أن الله قد أهلك من قبله من القرون والأمم والأشخاص من هو أشد منه قوة، وأكثر جمعاً مما جمع، ولست أسأل المجرمين عن ذنوبهم حين أمر بأخذهم.

قال الطبري:

«يقول تعالى ذكره: قال قارون لقومه الذين وعظوه: إنما أوتيت هذه الكنوز فضل علم عندي، علمه الله فيّ، فرضي بذلك عني وفضلني بها المال عليكم لعلمه فضلي عليكم.

وينحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل:

ذكر من قال ذلك... عن قتادة ﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي﴾ قال: على خبر عندي.

قال ابن زيد لولا رضا الله عني وعلمه بفضلي ما أعطاني هذا، وقرأ ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمَ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ﴾

وقد قيل: إن معنى قوله ﴿عِنْدِي﴾ بمعنى: أرى، كأنه قال: إنما أوتيته لفضل علمي فيما أرى.

وقوله ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمَ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا﴾.

يقول جل ثناؤه: أولم يعلم قارون حين زعم أنه أوتي الكنوز لفضل علم عنده علمته أنا منه، فاستحق بذلك أن يؤتى ما أوتي من الكنوز، أن الله قد أهلك من قبله من الأمم من هو أشد منه بطشاً وأكثر جمعاً للأموال، ولو كان الله يؤتي الأموال من يؤتيه لفضل فيه وخير عنده ولرضاه عنه، لم يكن يهلك من أهلك من أرباب الأموال الذين كانوا أكثر منه مالاً، لأن من كان الله عنه راضياً، فمحال أن يهلكه الله، وهو عنه راضٍ، وإنما يهلك من كان عليه ساخطاً.

وقوله: ﴿وَلَا تَسْأَلْ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ﴾ قيل: إن معنى ذلك أنهم يدخلون النار بغير حساب (ونقل ذلك عن قتادة).

وقيل: معنى ذلك: أن الملائكة لا تسأل عنهم لأنهم يعرفونهم بسيماهم، (ونقل ذلك عن مجاهد).

وقيل: لا يسأل عن ذنوب هؤلاء الذين أهلكهم الله من الأمم الماضية المجرمون فيم أهلكوا. (ونقل ذلك عن محمد بن كعب).

ثم قال: فإلهاء والميم في قوله ﴿عَنْ ذُنُوبِهِمْ﴾ على هذا التأويل لمن الذي في قوله: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً﴾، وعلى التأويل الأول الذي قاله مجاهد وقاتدة للمجرمين، وهي بأن تكون من ذكر المجرمين أولى، لأن الله تعالى ذكره غير سائل عن ذنوب مذنب غير من أذنب، لا مؤمن ولا كافر. فإذا كان ذلك كذلك، فمعلوم أنه لا معنى لخصوص المجرمين، لو كانت إلهاء والميم اللتان في قوله: ﴿عَنْ ذُنُوبِهِمْ﴾ لعن الذي في قوله: ﴿مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً﴾ من دون المؤمنين، يعني لأنه غير مسؤول عن ذلك مؤمن ولا كافر إلا الذين ركبوه واكتسبوه^(١)

الآية (٧٩)

﴿فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾

في هذه الآية صورة أخرى من صور سلوك قارون، فقد خرج على قومه في كامل أبهته كأنه طاووس منتفش الريش، في كامل هيئته وزينته، قال المفتونون بالدنيا والمعتظمون لها متحسرين عند مرآة يا ليت لنا مثل الذي أوتي قارون من المال والزينة والرياش، إنه لذو حظ عظيم.

(١) تفسير الطبري: جامع البيان، ج ١٠، ص ١٠٧-١٠٨.

تواصل الآية هذه سرد قصة قارون، فبينما كانت الآية السابقة تعرض رده على دعوة قومه، تتولى هذه الآية السرد القصصي لتخبرنا بالرواية والسرد أن قارون خرج على قومه في زينته، ويتكرر حرف (على) للمرة الثالثة من بدء القصة حتى حتى هذه الآية في أربع آيات، وما يفيد هذا الحرف من (الاستعلاء) الذي كان يغمر هذا الطاغية، ويملاً جوانحه وأي كبر انطوت عليه تلك النفس الخبيثة. المهم أن هذا الطاغية خرج في زينته على قومه ليمارس هوايته وتلذذه بالانتفاش على الخلق، ويمارس في ذات الوقت إذلالهم واحتقارهم واستصغارهم، وما درى أن جزاء الصغار والبوار والنار:

ولما رأى ضعاف الإيمان هذه الأبهة المعجبة، قال - الذين يريدون الحياة الدنيا - كما وصفهم القرآن وعبارته أدق عبارة، قالوا: يا ليت لنا مثل الذي أعطيه قارون من المال والرياش والجاه والغنى، وهم غفل عما ينتظره، وقد قصرت الأنظار، وقصرت الأفكار عن رؤية الأخطار التي تنتظر أصحاب الاستكبار.

ثم ختمت الآية بقولهم، من فساد قيمهم، إن قارون رجل محظوظ بل إنه ذو حظ عظيم.

وقد وردت كلمة حظ ٤ مرات وحظاً ٣ مرات فهذه سبع اثنتان مكيتان والباقي مدني.

الآية (٨٠)

﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيَلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَن ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلَقَّهَا إِلَّا

الصَّابِرُونَ﴾

ولكن الذين أوتوا العلم كان لهم موقف آخر، فهؤلاء تختلف مقاييسهم ونظرتهم وموازينهم، ولذلك زجروا قومهم بقولهم: ويلكم، إن ثواب الله خير من

زينة الدنيا ورياشها وهذا الثواب لا يأتي للمتبطرين، ولكنه يكون لمن آمن وعمل الأعمال الصالحة، وقانون الله أن الآخرة لا يلقاها إلا الصابرون على لأواء الدنيا وبلائها، وعلى عبادة الله فيها.

هذه الآية تتضمن الرد الذي رد به أهل الإيمان على مريدي الحياة الدنيا وقد سماهم القرآن: ﴿الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ كأنه يعني أن الذين يريدون الحياة الدنيا هم أهل الجهل، وهم كذلك، لأنهم اختاروا الكفة الخاسرة، وعقدوا الصفقة العائرة، وحرصوا على السلعة البائرة.

قال المؤمنون أولو العلم وأصحاب النظرة المستقيمة والميزان الصحيح، قالوا لعشاق الدنيا ومريديها: ﴿وَلَيْكُمُ﴾ وهي كلمة تهديد ووعيد وتحذير، ثم دلوهم على النهج السوي والطريق القويم، إذا قالوا لهم: ثواب الله خير وأفضل من متع الدنيا، وقد ادخر الله ذلك الثواب للذين آمنوا وعملوا الصالحات، ولا يلقى هذا النعيم إلا الصابر على لأواء الدنيا وهجيرها، وصبروا عن زخارفها ونعيمها.. وصبروا على مثل تصرف قارون الذي يستفز ويثير، فلا يغري نفوسهم بالتطلع إلى مثل ذاك النعيم الزائف الزائل، لكن مثل هذا اليقين يحتاج إلى إرادة واصطبار.

يقول: ولا يلقاها: أي ولا يوفق لقبل هذه الكلمة، وهي قوله: ﴿تَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ والهاء والألف كناية عن الكلمة، وقال: ﴿إِلَّا الْفَكْرُوتُ﴾ يعني بذلك الذين صبروا عن طلب زينة الحياة الدنيا وآثروا ما عند الله من جزيل ثوابه على صالحات الأعمال على لذات الدنيا وشهواتها فجدوا في طاعة الله، ورفضوا الحياة الدنيا.

الآية (٨١)

﴿وَنَحْنُفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنْتَصِرِينَ﴾

قال الدكتور أبو موسى:

«ويحسن أن نتأمل طبيعة المعنى هنا لنعرف الفرق بين المتقارب والمتطرح والذي نراه هنا أن الجملة الثانية مترتبة على الأولى، فالأولى إخبار عن خسف به وبداره، والثانية إخباره بأنه لم يكن له ناصر يعصمه من هذا الخسف، والجملة الثالثة تأتي بمعنى يدخل فيه الكلامان قبلها، لأنها تفيد أنه ليس من المنتصرين هكذا بالإطلاق، وإنما هو مخذول في أمره كله»^(١).

وكانت المفاجأة الصاعقة أن الله تعالى أخذه أخذ عزيز مقتدر فخسف به الأرض لتكبره، وجزاؤه كان من جنس عمله، وإذا يغور في الأرض، لم ينصره أحد من أتباع ولا أعوان، ولا حاشية، ولا فئة، وما كان من المنتصرين، وكيف يكون وهو بتكبره يحارب الله، ومحارب الله مكبوت مقهور مغلوب، فأني يتنصر؟

بينما كانت الآية السابقة تعرض مشهداً حوارياً، إذ بهذه الآية تعرض مشهداً سردياً، تعرض فيه ما جرى لذلك المستكبر، فتخبرنا أن الله تعالى خسف به وبداره الأرض، فسواها به وبداره فما كان لهذا المغرور من فئة ولا طائفة ينصرونه من دون الله، ولا أغنت عنه طائفته وفنته وخدمه وحشمه وأمواله.

(١) د. أبو موسى: الإعجاز البلاغي، ص ٢١٤.

قال الطبري:

«الفئة: الجماعة من الناس. وأصلها: الجماعة التي يفيء إليها الرجل عند الحاجة إليهم، للعون على العدو، ثم تستعمل ذلك العرب في كل جماعة عوناً للرجل، وظهر له، ومنه قول خفاف:

فلن أر مثلهم حياً تقاحاً وجدك بين ناضحة وحجر

أشد على صروف الدهر آداً وأكبر منهم فئة بصبر»^(١)

الآية (٨٢)

﴿وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيَكَآفُ اللَّهُ بِسِطْرِ الرِّزْقِ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلَا أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بَنَّا وَيَكَآفُ أَنْ لَا يَقْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾

أما المتقلبون المتذبذبون المتحركون بحركة الريح المائلون معها حيث تميل، وهم الذين كانوا قبل قليل يتمنون مثل ما لقارون من مال وأبهة، إذ يروونه وقد خسف به ولا ناصر له، بهم يصيحون وقد فطنوا لما غاب عنهم: وَيَكَآفُ أَنْ يَمِدَّ الرَّزْقُ وَيَسْطِطَ بِحُكْمَتِهِ لِمَنْ يَشَاءُ لِأَجْلِ الْإِبْتِلَاءِ وَيُضِيقُهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ، وَلَوْلَا أَنَّ اللَّهَ لَطَفَ بِنَا وَمَنْ عَلَيْنَا لَكَانَ أَصَابُنَا بِنَاتِنَا مَا أَصَابَهُ، فَالْأَعْمَالُ بِالنِّيَّةِ، وَنَوَائِنَا لَمْ تَكُنْ خَيْراً مِنْ نَوَايَاهُ، فَكَانَ الْمَقْتَضَى - لَوْلَا لَطْفُ اللَّهِ - أَنْ نَوَاجِهَ مُصِيرَهُ.

ثم ختموا مقولتهم بحقيقة إما هم قائلوها أو أن الله مباشرة يقررها: ويكأنه لا فوز ولا فلاح أبداً للكافرين.

تتكلم الآية عن رد فعل الذين تمنوا مكان قارون بالأمس، لما راوه وقد أصابه الخسف، وانطمس.. وإذ بهم تنقلب أمنياتهم وتبديل تشوفاتهم وتطلعاتهم ليكتشفوا حقيقة بديهية إيمانية حياتية كونية هي أن الله ييسط الرزق لمن يشاء من

عباده، سواء أكانوا من أحبابه أو من أعدائه سبحانه، ويقدر الرزق لمن يشاء بقطع النظر عن كونهم كذلك من المؤمنين أو من الكافرين، وقالوا كذلك: لولا أن الله منّ علينا ورفق بنا لخسف بنا مقابل ما تمنينا من مكانة قارون لكنّا معه في الخسران ومكانه، وقالوا متفجعين متوجعين: ويكأنه لا فلاح للكافرين في العاجل ولا في يوم الدين.

وهي حقائق تعلموها بالثمن الفادح الذي أصاب من كانوا يتمنون مكانه بالأمس.. ولولا لطف الله لكانوا معه في الخسف لأن النفسيات متقاربة أو متماثلة، فكان يمكن أن تكون العقوبات متماثلة.. لولا رحمة الله، وما يفترق هؤلاء عن قارون إلا في الإمكانية، أما النية فما أشبهها!!

قال أبو الحسن ابن غلبون: فقد بان بهذا أن من وقف على ويّ وأبتدأ (كأن..) فقد تضمن الكلام تنديماً وتعجباً- ومن وقف ﴿وَيَكَاثُ اللَّهُ﴾ فقد تضمن الكلام تنبهاً فقط. وكلا القولين حسن جميل^(١).

وأما معنى وقف الباقيين ﴿وَيَكَاثُ اللَّهُ﴾ فالتقدير فيه: ألم تر أن الله ييسط. وكذا قدرها الكسائي، ومعنى ذلك أن القوم نبه بعضهم بعضاً على هذا.

وكذا الوقف على قوله: ﴿وَيَكَاثُ لَا يُقْلِحُ الْكَفْرُونَ﴾ [القصص: ٨٢] على الوجهين اللذين تقدما سواء.

ولا ينبغي أن يتعمد الوقف هاهنا لأحد من القراء لأنه ليس بموضع تمام ولا كفاية..^(٢).

(١) قال المحقق: رجح الطبري أن تكون على معنى: ألم تر، أو ألم تعلم، وقال إن هذا المعنى يجعلها غير منفصلة فتكون متفقة مع خط المصحف بخلاف أن تكون (وي) للندم =

و(كأن) بمعنى الظن أو العلم أو بمعنى لعل، فهذا يجعلها تكتب منفصلة فتخالف خط المصحف. (ج ٢٠، ص ٧٨).

(٢) ابن غلبون: التذكرة، ص ٥٩٦-٥٩٧.

قال ابن غلبون في كتاب التذكرة في القراءات:

«وروي قتبية عن الكسائي في قوله: (ويكأنه) أن الوقف على الياء، يعني أنه يجعل (وي) منفصلة، ويبتدئ (كان الله) ووقف الباكون (ويكأن الله) فوصلوا (وي) بقوله: (كان الله) اتباعاً للمصحف. فمعنى مارواه قتبية، ما قاله الخليل رحمه الله أن القوم تنبهوا فقالوا: (وي) متندمين على ما سلف منهم، من التمني لمكان قارون، قال أبو الحسن رضي الله عنه: وهذا كما قال. لأن لغة العرب أن كل من تندم على ماسلف منه فأظهر تندمه قال: (وي).
فقوله (وي) تندم، و(كان الله) تعجب».

كما قال الشاعر القرشي زيد بن عمرو بن نفيل - من البحر الخفيف:
وي كان من يكن له نشب يحجب ومن يفتقر يعش عيش ضر
سألتاني الطلاق أن رأاني قلّ مالي، قد جئتماني بنكر
لأنه تندم على ما سلف منه من تفریطه لماله، وتعجب من أن من يكن له نشب
يحجب، ومن يفتقر يعش عيش ضر.
فكذا القوم تندموا على ما سلف منهم من التمني لمكان قارون، وتعجبوا من
بسط الله الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر.

قال الطبري: اختلف في معنى: ﴿وَيَكُنَّ اللَّهُ﴾، فأما قتادة، فإنه روي عنه في ذلك قولان:

- أحدهما:

... عن قتادة: ألم تر أنه.

... عن قتادة: أولا ترى أنه.

- والقول الآخر:

... عن قتادة أولا يعلم أنه.

وتأول هذا التأويل الذي ذكرناه عن قتادة في ذلك أيضاً بعض أهل المعرفة بكلام العرب من أهل البصرة، واستشهد بصحة تأويله ذلك، بقول الشاعر:

سألتاني الطلاق أن رأيتاني كل مالي، قد جتتما بنكر
ويكأن من يكن له نَشَبٌ يُخـ بـب ومن يفتقر يعش عيش ضر

وقال بعض نحوي الكوفة: ويكون في كلام العرب: تقرير، كقول الرجل: أما ترى إلى صنع الله وإحسانه، وذكر أنه أخبره من سمع أعرابية تقول لزوجها: أين ابننا؟ فقال: ويكأنه وراء البيت، معناه: أم ترينه وراء البيت قال: قد يذهب بها بعض النحويين، إلى أنها كلمتان يريد: ويك.. أنه، كأنه أراد: ويلك، فحذف اللام فتجعل أن مفتوحة بفعل مضمر. كأنه قال: ويلك اعلم أنه وراء البيت، فأضمر أعلم.

ولم نجد العرب تعمل الظن مضمرأ، ولا العلم وأشباهه في أن، وذلك أنه يبطل إذا كان بين الكلمتين، أو في آخر الكلمة، فلما أضمر جرى مجرى المتأخر، ألا ترى أنه لا يجوز في الابتداء أن يقول: يا هذا، إنك قائم، ويا هذا إن قمت يريد: علمت، أو اعلم، أو ظننت، أو أظن.

وأما حذف اللام من قولك: ويلك حتى تصير: ويك، فقد تقوله العرب، لكثرتها في الكلام، قال عنتر:

ولقد شفى نفسي وأبرأ سقمها قول الفوارس ويك عنتر أقدم

قال: وقال آخرون: إن معنى قوله: ويكون: وي' منفصلة عن كان، كقولك للرجل: وي أما ترى ما بين يديك؟

فقال: وي' ثم استأنف، كأن الله ييسط الرزق، وهي تعجب، وكان في معنى الظن والعلم، فهذا وجه يستقيم، قال: ولم تكتبها العرب منفصلة، ولو كانت على هذا لكتبوها منفصلة، وقد يجوز أن تكون كثر بها الكلام فوصلت بما ليست منه.

وقال آخر منهم: إن وي' تنبيه، وكان حرف آخر غيره، بمعنى: لعل الأمر كذا، وأظن الأمر، لأن كان، بمنزلة أظن وأحسب وأعلم.

وأولى الأقوال في ذلك بالصحة: القول الذي ذكرنا عن قتادة، من أن معناه: ألم تر، ألم تعلم، للشاهد الذي ذكرنا فيه من قول الشاعر، والرواية عن العرب، وأن ويكان في خط المصحف حرف واحد. ومتى وجه ذلك إلى غير التأويل الذي ذكرنا عن قتادة فإنه يصير حرفين. وذلك أنه إن وجه إلى قول من تأوله بمعنى: ويلك، اعلم أن الله، وجب أن يفصل ويك من أن وذلك خلاف خط جميع المصاحف، مع فساده في العربية، لما ذكرنا. وإن وجه إلى قول من يقول: وَيْ بمعنى التنبيه، ثم استأنف الكلام بكان وجب أن يفصل وَيْ من كان وذلك أيضاً خلاف خطوط المصاحف كلها.

فإذا كان ذلك حرفاً واحداً، فالصواب من التأويل: ما قاله قتادة، وإذا كان ذلك هو الصواب، فتأويل الكلام: وأصبح الذين تمنوا مكان قارون وموضعه من الدنيا بالأمس، يقولون لما عاينوا ما أحل الله به من نعمته: ألم تر يا هذا أن الله ييسر الرزق لمن يشاء من عباده، فيوسع عليه، لا بفضل منزلته عنده، ولا لكرامته عليه. كما كان ييسر ذلك لقارون، لا لفضله ولا لكرامته عليه. ويُقدر: ويضيق على من يشاء من خلقه ذلك، ويقتَر عليه لا لهوانه ولا لسخطه عليه^(١).

الآية (٨٣)

﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾

هذه الآية الختام في هذه المجموعة من خير الكلام، تقرر قاعدة أن الله تعالى جعل الدار الآخرة لمن تخلصوا من الكبر والعلو والفساد، والعاقبة للمتقين.

والختام الحسن والجولة الأخيرة في هذه الحياة وفي تلك لهؤلاء الذين يخشون ربهم ويتطامنون لجلاله وعظمته ولا يستكفون عن العبودية له. تختتم هذه المجموعة من الآيات، وتختتم قصة قارون، ويختتم هذا المقطع بهذا القانون الرباني العظيم، والسنة الإلهية الحكيمة العظيمة أن الدار الآخرة يجعلها الله للذين لا يريدون العلو في الأرض ولا يبيغون الفساد، وأن العاقبة والنهاية السعيدة الطيبة إنما هي للمتقين.

تفسير المقطع الثاني عشر

خِتامُ السّورة

(الآيات ٨٤ - ٨٨)

تفسير المقطع الثاني عشر

خَتَامُ السُّورَةِ

يتكون هذا المقطع الختامي من خمس آيات، وكشأن كل ختام في سور القرآن يأتي هذا الختام جامعاً لمعاني السورة ملخصاً قضاياها مقررأ موضوعاتها.. مؤكداً على التوحيد الذي هو جوهرها، ومصدقاً مواعيد الله تعالى لعباده الصالحين بالفوز والتمكين.

الآية (٨٤):

﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾

وجه المناسبة: أن هذه الآية تقرر قوانين الآخرة التي ذكرتها سابقتها. تبتدئ هذه المجموعة من الآيات بهذا التقرير الذي تتضمنه هذه الآية الكريمة، إذا تفيد أن الذي يأتي بالحسنة فجزاؤه خير منها، والذي يأتي بالسئنة، فلا يعاقب ولا يجزى إلا سيئة مثلها، لأن قانون الله تعالى: ألا يجزي الذين يعملون السيئات إلا ما كانوا يعملون، وأما المحسنون فلهم الحسنى وزيادة، فضلاً من الله وإكراماً.

تقرر هذه الآية قاعدة الجزاء الإلهي القائم لا على العدل فحسب، وهو عدل مطلق، ولكن على الفضل، وهو فضل جزيل مطلق.

فتقول الآية الكريمة إن الذي يفعل الخير ويأتي بالحسنات فإن جزاءه خير من عمله، وثوابه عند الله ليس على قدر ما عمل، بل أضعاف مضاعفة كثيرة، واكتفى هنا بالنص على الخيرية، وقد فصلت آيات أخرى وسور أخرى ما تكون هذه الخيرية في المكافاة والمجازاة.

وأما الذي يأتي بالسيئة فلا يجزى هذا الفاعل سوء أو الفاعلون إلا ما عملوا، ولا يثاب هؤلاء المسيئون إلا الذي يعملون.

قال أبو حيان:

«وضع الظاهر موضع المضمَر في قوله: ﴿فَلَا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ﴾ تهجيناً لحالهم وتبغيضاً للسيئة إلى قلوب السامعين ففيه تكراره ما ليس فيه لو كان (فلا تجزون) و﴿مَا كَانُوا﴾ على حذف مثل، أي: إلا مثل ما كانوا يعملون لأن جزاء السيئة سيئة مثلها، والحسنة بعشر أمثالها^(١).

الآية (٨٥):

﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ مَنْ جَاءَ بِالْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾

افترقت الأفهام في فهم هذه الآية إلى فرقتين: من يردّها إلى عودته ﷺ إلى مكة، ومن يرد الآية إلى عودة الآخرة. والذي أرجحه بناء على السياق والاتساق مع السياق أن الرد الذي ذكرته الآية إنما هو الرد إلى الآخرة والله أعلم.

يقول النص الكريم: إن الذي حملك أمانة تبليغ هذا القرآن، وجعله رسالتك الواجبة لرادك إلى معاد الدار الآخرة، ليكون هناك جزاؤك الموفور على جهدك الموصول المشكور.

ثم أمره النص أن يقول: ربي أعلم بالذي جاء بالهدى من عنده، وهو أعلم بالذي هو في ضلال مبين، وعلمه سيترتب عليه جزاؤه سبحانه.

قال الشيخ مخلوف رحمه الله في صفوة البيان:

«إلى معاد: إلى بلدك الذي نشأت فيه وهو مكة. ويسمى أو يدعى بلد الرجل الذي كان فيه معاداً، لأنه - عادة - يتصرف في البلاد، ثم يعود إليه. روي أنها نزلت بالجحفة بعد أن خرج النبي ﷺ مهاجراً من مكة واشتاق إليها»^(١).

قال في الظلال: «والآن وقد انتهى القصص، وانتهت التعقيبات المباشرة على ذلك القصص. الآن يتوجه الخطاب إلى رسول الله ﷺ، ومن خلفه القلة المسلمة التي كانت يومها بمكة، يتوجه الخطاب إلى رسول الله ﷺ وهو مخرج من بلده، مطارده من قومه، وهو في طريقه إلى المدينة لم يبلغها بعد، فقد كان بالجحفة قريباً من مكة، قريباً من الخطر، يتعلق قلبه وبصره ببلده الذي يحبه، والذي يعز عليه فراقه، لولا أن دعوته أعز عليه من بلده، وموطن صباه، ومهد ذكرياته، ومقر أهله. يتوجه الخطاب إلى رسول الله ﷺ وهو في موقفه ذاك: ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَيْنَا مَعَادٍ﴾ فما هو بتاركك للمشركين، وقد فرض عليك القرآن وكلفك الدعوة - ما هو بتاركك للمشركين يخرجونك من بلدك الحبيب إليك، ويستبدون بك وبدعوتك، ويفتنون المؤمنين من حولك.

إنما فرض عليك القرآن لينصرك به في الموعد الذي قدره، وفي الوقت الذي فرضه، وإنك اليوم لمخرج منه مطارده، ولكنك غداً منصور إليه عائد. وهكذا شاء الله بحكمته أن ينزل على عبده هذا الوعد الأكيد في ذلك الظرف المكروب، ليمضي في طريقه آمناً واثقاً، مطمئناً إلى وعد الله الذي يعلم صدقه، ولا يستريب لحظة فيه. وإن وعد الله لقائم لكل السالكين في الطريق، وإنه ما من أحد يؤذى في سبيل الله، فيصبر إلا نصره الله في وجه الطغيان في النهاية، وتولى عنه المعركة حين يبذل

ما في وسعه، ولقد رد الله موسى من قبل إلى الأرض التي خرج منها. ردة فأنقذ به المستضعفين من قومه، ودمر به فرعون وملأه، وكانت العاقبة للمهتدين - فامض إذاً في طريقك، ودع أمر الحكم فيما بينك وبين قومك الله الذي فرض عليك القرآن، ودع الأمر للذي يجازي المهتدين والضالين»^(١).

تبتدئ الآية بأن المؤكدة، مخاطبة النبي الكريم ﷺ قائلة له: إن الذي أوجب عليك أمانة القرآن وحمله وتبليغه ﴿لَرَأَدُكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ وقد نحأ أصحاب التفسير في فهم معنى هذه الآية منحين: الأول منهما يتجه إلى كون هذه الآية تعني وعداً من الله إلى رسوله ﷺ بإرجاعه إلى مكة بعد إخراجه منها، ويروون لها سبب نزول، ومكان نزول، وأنها نزلت في طريق هجرته، فينسبها بعضهم إلى القرآن المدني.

ولكني أرى الآية في ضوء سياقها تشير إلى معاد الدار الآخرة حيث الجزاء الأوفى لك أيها النبي على جهدك المبرور في الموصول، ويخاطب ختام الآية النبي ﷺ أمراً النبي بتفويض الأمر إلى الله في علم من جاء بالهدى، ومن الذي غارق في الضلال المبين.

والآية واضح أنها تشير إلى الخلاف مع أهل مكة وإعانتهم النبي ﷺ، ناعتين ما جاء به أنه شق الجماعة وتفريق كلمتها.. وأنه ضلال فنقول الآية إن الله هو أعلم بالذي جاء بالهدى من عند الله، ومن هو غارق في الضلال البين الواضح. قال أبو السعود:

(فرض: أوجب عليك تلاوته وتبليغه والعمل به.

لرأذك إلى معاد: أي معاد تمتد إليه أعناق الهمم وترنو إليه أحداق الأمم، وهو المقام المحمود الذي وعدك أن يبعثك فيه، وقيل: هو مكة المعظمة على أنه تعالى قد

وعده وهو بمكة في أذية وشدة من أهلها أنه يهاجر به منها ثم يعيده إليها بعز ظاهر وسلطان قاهر، وقيل نزلت عليه حين بلغ الجحفة في مهاجره...^(١)

الآية (٨٦)

﴿وَمَا كُنْتَ تَرْجُو أَنْ يُلْقَىٰ إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونْ ظَهِيرًا
لِّلْكَافِرِينَ﴾

الربط والمناسبة: تحدثت الآية السابقة عن القرآن الذي فرضه الله على النبي ﷺ وفي هذه الآية يبين أنه ما كان يتوقع ولا يرجو عليه الصلاة والسلام أن يلقي إليه الكتاب. فالحديث موصول.

تقول الآية الكريمة وما كنت أيها النبي تأمل ولا تتشوق نفسك ولا تتوقع أصلاً أن يلقي إليك الكتاب وأن تكون إليك الرسالة وإن ينزل عليك الوحي، لأنه لا فكرة عندك عن كل هذا، ولكن رحمة الله تعالى أدركتك، واصطفاه واجتباها إياك. وخصك بخاتم الكتب، لأنه يعلم ما انطوت عليه نفسك الكبيرة وقلبك العظيم وفؤادك وفطرتك.. فكان أن أكرمك الله بأعظم كتبه، وجعلك خاتم رسله وأكرمهم وأعظمهم، والله تعالى أعلم حيث يجعل رسالته، فلهذا الاختيار والاصطفاء، إياك أن تكون نصيراً أو معيناً للكافرين. وحاشاه أن يكون لكنه التعليم له ولأمته ﷺ. وليعلم الخلق جميعاً أن الكل في العبودية التوجيه وطاعة أمر الله سواء، سواء أكان المعني رسولاً نبياً، أو عبداً عادياً.

قال الشيخ مخلوف:

«ظهرت للكافرين: معيناً لهم على دينهم. والخطاب للنبي ﷺ والمقصود أمته»^(٢).

(١) أبو السعود: إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، ج ٤، ص ٣٢٣، الرياض: مكتبة الرياض، بلا تاريخ.

(٢) صفوة البيان، ص ٥٠١.

قال في الظلال:

«وما كان فرض القرآن عليك إلا نعمة ورحمة وما كان يجول في خاطرك أن تكون أنت المختار لتلقي هذه الأمانة. وإنه لمقام عظيم ما كنت تتطلع إليه قبل أن توهبه.

وهو تقرير قاطع عدم تطلع الرسول ﷺ، إلى الرسالة، إنما هو اختيار الله - والله يخلق ما يشاء ويختار، فذلك الأفق أعلى من أن يفكر فيه بشر قبل أن يختاره الله له ويؤهله ليرقاه. وهو رحمة من الله بنبيه وبالبشرية التي اختاره لهدايتها بهذه الرسالة - رحمة توهب للمختارين لا للمتطلعين، ولقد كان من حوله كثيرون في العرب وفي بني إسرائيل يتطلعون إلى الرسالة المنتظرة في آخر الزمان. ولكن الله أعلم حيث يجعل رسالته، قد اختار لها من لم يتطلع إليها ولم يرجها، من دون أولئك الطامعين المتطلعين، حينما علم منه الاستعداد لتلقي ذلك الفيض العظيم.

ومن ثم يأمره الله بما أنعم عليه بهذا الكتاب ألا يكون ظهيراً للكافرين. فما يمكن أن يكون هناك تناصر أو تعاون بين المؤمنين والكافرين. وطريقاهما مختلفان ومنهاجهما مختلفان، أولئك حزب الله، وهؤلاء حزب الشيطان فقيم يتعاونان»^(١).

ما زال الخطاب مستمراً موجهاً إلى النبي ﷺ.

أنه ﷺ ما كان يرجو ولا يتوقع أن يخصه الله بإنزال الكتاب، وإلقاء هذه الأمانة إليه، ولكنها رحمة الله، ولكنه اصطفاء الله، الذي جعله الرسول الخاتم وأعظم النبيين، وأكرمه بأعظم الكتب، فلا تكونن أيها النبي أمام هذا الفضل، وبعد هذا الاصطفاء، فلا تكونن نصيراً، ولا ظهيراً مؤازراً للكافرين.

وحاشاه أن يكون، ولكنها فيما أرى طريقة في بيان منهجية هذا الدين في الولاء، من ناحية، وخطاب لأمته من خلال شخصه ﷺ، للدلالة على أهمية موضوع الولاء والنصرة، من ناحية أخرى. وكلمة (ظهيراً) في القرآن وردت (٤) مرات هذه آخرها، وهي الوحيدة المخاطبة للنبي ﷺ.

الآية (٨٧):

﴿وَلَا يَصُدُّنَكَ عَنْ عَمَلِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنْزِلَتْ إِلَيْكَ وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾

الربط والمناسبة:

ختمت الآية السابقة بنهي عن أن يكون ﷺ ظهيراً للمشركين. وتبدئ هذه الآية والآية التالية بالنهي أيضاً عن أمور أخرى. فتواصلت التوجيهات بين الآيات.

التفسير:

تقول هذه الآية الكريمة: لا يصدنك أيها النبي الكريم، هؤلاء الكافرون الذين نهيتك عن مناصرتهم، إياك أن يصدوك عن آيات الله فيحرفوك عنها، أو يباعدوك منها، بعد أن أكرمك الله بإنزالها عليك. وادع أيها النبي ﷺ ادع إلى ربك وسبيله وعبادته، وحاذر أن تكون من المشركين. وحاشاه أن يكون، ولكنه التوجيه الذي يوجهه الله إلى كل العباد، بدءاً من خيرتهم إلى آخرهم.

قال في الظلال:

«طريق الكفار دائماً أن يصدوا أصحاب الدعوة عن دعوتهم بشتى الطرق والوسائل، وطريق المؤمنين أن يعضوا في طريقهم لا يلويهم عنها المعوقون، ولا يصدهم عنها أعداؤهم. وبين أيديهم آيات الله، وهم عليها مؤمنون. ﴿وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ﴾ دعوة خالصة واضحة لا لبس فيها ولا غموض. ومن شاء أن يتبع هذه الدعوة على تجردها فليتبعمها، ومن أراد غيرها معها فليس هذا هو الطريق. ﴿وَلَا

تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١﴾ إنها مفرق الطريق في العقيدة بين النصاعة والغموض. وعلى هذه القاعدة يقوم بناء هذه العقيدة كلها، وآدابها وأخلاقها وتكاليدها وتشريعاتها جميعاً. وهي المحور الذي يلتف عليه كل توجيه وكل تشريع. ومن ثم تذكر قبل كل توجيه وقبل كل تشريع»^(١).

تكرر كاف الخطاب في هذا الختام، وفي هذه الآية وحدها تتردد ثلاث مرات، موجّهة الكلام إلى خير الأنام، قائلة له عليه الصلاة والسلام: لا يصدنك هؤلاء الكافرون عن آيات الله بعد إنزالها إليك، وإكرامك بها، وتحملك أمانة تبليغها للناس، فهذا شرف عظيم، لا يصرفنك عنه، ولا يجرمنك منه، ولا يبعدنك عنه، بكلامهم واستهزائهم وحملاتهم، وواصل حمل دعوة ربك وادع إلى سبيله، وادع إلى الإيمان به، وتوحيده، سبحانه.

﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ وحاشاه أن يكون، ولكنه التحذير للعالمين، وطريقة القرآن في بيان خطر هذا الشرك، وخطر الكون من المشركين، وأنه فساد الدنيا والآخرة...

فالخطاب له بعدم الكون لبيان ضخامة الأمر، وأنه مهول جداً فإذا كان النبي وهو أبعد الناس عن الشرك منهياً عن الكون من المشركين، فكم يكون هذا الأمر عظيماً.

الآية (٨٨):

﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْمُعْزَرُ وَالْيَوْمُ يُزْجَعُونَ﴾ قال الدكتور أبو موسى ينقل عن الباقلاني في بعض لفتات هذه الآية، قال: «وتأمل الكلمات الشريفة تجدها يدخل بعضها في بعض، فقله: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ تأكيد للوحدانية، في الآية الأولى، وقوله: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ تأكيد

للألوهية، وكذلك قوله: ﴿لَهُ الْخُكُومُ﴾ وهذا واضح وهو ما نسميه كمال الاتصال^(١).

هذه آية الختام في هذه السورة العظيمة، ومع أن الآية السابقة انتهت بالنهي عن الشرك والكون من المشركين، إلا أن هذه الآية الخاتمة أعادت الطرُق.. على الموضوع ذاته، فقالت: ولا تدع أيها النبي، ويا كل مخاطب من بعده، لا تدع مع الله إلهاً آخر، لا معه، ولا من دونه.

وقد كانت الآية السابقة تأمر بالدعوة إلى الله فقالت: ﴿وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ﴾. وهنا قالت الآية الكريمة: ولا تدع مع الله إلهاً آخر، (لأنه) لا إله إلا هو، فلا معبود بحق، ولا يدعى فيجيب إلا الله عز وجل ثم إن كل شيء هالك فإن إلا وجهه الكريم، فكيف يدعو الفاني الفاني، وكيف يستعين الضعيف بالضعيف، إنما يستند الفاني إلى الباقي، ويستعين الفقير بالغني والضعيف بالقوي.

وختمت الآية والسورة بالكلمة الجامعة: ﴿لَهُ الْخُكُومُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ فالأمر كله لله، والمرجع إلى الله.
قال في الظلال:

«يؤكد هذه القاعدة مرتين: ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (٨٧) وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾ مرة بالنهي عن الشرك، ومرة بالنهي عن اتخاذ إله آخر مع الله. ثم يمضي في التقرير والتوكيد، وهذا الإيقاع الأخير في السورة ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ فلا إسلام إلا له، ولا عبودية إلا له، ولا قوة إلا قوته، ولا ملاذ إلا حماه. وكل شيء زائل. وكل شيء ذاهب. المال والجاه. السلطان والقوة. والحياة والمتاع. وهذه الأرض ومن عليها. وتلك السماوات وما فيها ومن فيها. وهذا الكون كله ما نعلمه منه وما نجهله. كله هالك فلا يبقى إلا وجه الله الباقي. متفرداً بالبقاء. ﴿لَهُ الْخُكُومُ﴾ يقضي بما

يشاء، ويحكم كما يشاء، لا يشركه في حكمه أحد، ولا يرد قضاءه أحد، ولا يقف لأمره أحد، وما يشاؤه فهو كائن دون سواه.

﴿وَالَّذِينَ يُزْعَمُونَ﴾ فلا مناص من حكمه، ولا مفر من قضائه، ولا ملجأ دونه ولا مهرب. وهكذا تختتم السورة التي تتجلى فيها يد القدرة سافرة، تحرس الدعوة إلى الله وتحميها، وتدمر القوة الباغية وتمحوها. تختتم بتقرير قاعدة الدعوة: وحدانية الله سبحانه وتفرد بالآلوهية والبقاء والحكم والقضاء. ليمضي أصحاب الدعوات في طريقهم على هدى، وعلى ثقة وعلى طمأنينة وفي يقين...^(١).

بينما أمرت الآية السابقة نبي الله بأن يدعو إلى الله، وبأن لا يكون من المشركين، جاءت هذه الآية الختامية تعريزاً، فنهته ﷺ بأن يدعو مع الله إلهاً آخر، وحاشاه، مرة أخرى، ولكنه عظم الأمر، ومنتهى الأهمية التي تتصل به، لذا يكون الخطاب لأول المؤمنين وأعظمهم بالألا يقع في الشرك، وبألا يدعو من دون الله أو مع الله إلهاً آخر، لأن الله تعالى لا إله ولا معبود بحق إلا هو سبحانه، ولأنه لا حي باقٍ إلا هو، فكل شيء سواه هالك، فكيف ندعو هالكاً من الهالكين،

ثم تأتي كلمة الختام: له الحكم، لا لسواه سبحانه، والمرجع والمآل إليه، وإليه ترجعون، وقد تكررت صيغة ﴿لَهُ الْخُكُومُ وَاللَّهُ يُزْعَمُونَ﴾ في الآية (٧٠) من هذه السورة وهنا، وذلك لأهميتها، وهو ختام يشير إلى (الختام) ونهاية تذكر بالنهاية.

وفي هذا من التناسق ما فيه، وهذا هو القرآن المعجز المعجب، نسال الله أن يزيدنا له فهماً وإليه دعوة، وأن يفتح علينا من أنواره وبركاته.. وأن يحيي به القلوب والعزائم وأن ينير به الدروب، وأن يرفع به الضيم والضعف.

اللهم أعزنا بالقرآن واجعله سعادتنا في الدنيا والآخرة.

من دروس سورة القصص

من دروس سورة القصص

يمكن أن نستخرج من دروس سورة القصص ما لا يتناهى من الدروس، ويمكن أن نستخرج من كل آية ما لا يحصىه إلا الله من الدروس، إن فيما يتعلق بالعقيدة، أو الدعوة، أو العبادة أو سنن الاجتماع، أو عبر التاريخ، أو ما يتعلق بالنفس وسنتها، أو غير ذلك.

والدروس مسألة - إلى حد بعيد - نسبية، فكل اهتمامه، وكل زاوية نظره وتأمله، وكل ومنهج فهمه وطريقة بحثه، وأسلوب تعبيره.

أقصد إلى القول أن ما استخرجته من الدروس من النظر المتعجل في هذه السورة المباركة، لو أتيح له مزيد وقت ومزيد تدبر وتعمق في البحث، لكانت الأمور أفضل مما جاءت وأوفر وأغزر.

على كل حال، هذه عينة من الدروس، ولا حرج على فضل الله، فلو نظر في السورة ما لا يتناهى من البشر، لخرجوا بما لا يتناهى من الدروس والعبر وزوايا النظر.

بعد هذه المقدمة البسيطة، هذه نفحة من دروس هذه السورة الكريمة.

١ - الحروف المقطعة في أوائل السور مظهر من مظاهر العظمة والإعجاز والتحدي، والتناسق، ولفت الانتباه، وإثارة الاهتمام.

وكل حرف أو مجموعة حروف منسجمة مع سورتها، متناسقة مع مضمونها وموضوعها كل الانسجام والتناسق، بحيث يستحيل أن يسد غيرها مسدّها. والحروف هي المادة الأولى للكلمات، التي هي مادة اللغة العربية والتعبير والتواصل، ومن هنا نثر الله تعالى هذه الحروف بين أيديهم، وقال: يا أهل

اللسان، هذه حروفكم، فانزلوا ساحة البيان، وعارضوا القرآن... وليجتمع الأنس والجان، ولن تأتوا بمثل هذا القرآن.

وإنه كلما أعمل الناس في هذه الحروف النظر خرجوا منها بمزيد من الفكر، ومزيد من الدرر.

٢- لقد سمى الله عز وجل آيات الكتاب آيات، وآيات الكون من شمس وقمر وغير ذلك آيات، ومعجزات الرسل آيات ليدل ذلك أنها جميعاً في الدلالة على المراد، على قدم واحدة، وعلى مستوى واحد. فآيات الكون تدل أنه من صنع الله، وآيات القرآن تدل أنه كلام الله، وآيات الرسل تدل أنهم رسل الله.

٣- هذا الكتاب العظيم أخص خصائصه الإبانة، فهو كتاب مبين، لا تعقيد فيه ولا تفلسف ولا تقعر، حاشا، ولا تعويص على الناس، معاذ الله، وإغما اليسر المتناهي، والعظمة المتناهية، وهنا التحدي. ومع كون الكتاب مبيناً، فقد كرر القرآن القصة الواحدة في مواضع لتزداد إبانة، وجعل مع الكتاب رسولاً مهمته الإبانة: ﴿لَتُنَبِّئَنَّ لِلنَّاسِ مَا نَزَّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل: ٤٤]، كل ذلك حتى لا يقع البشر في اللبس وسوء الفهم، فإن وقعوا بعد ذلك، أي بعد كل هذه الإبانة فمن تخلفهم ومن سوء تدبيرهم، ومن ضحالة ثقافتهم، ومن قلة صياغتهم للإنسان، ومن ضعف مستواهم، ومن ضعف حياتهم العقلية (النظرية) والبحثية، ومن قلة تعودهم على التأمل في كتاب الله..

٤- التاريخ أحد أهم مصادر المعرفة الإنسانية، ولئن كانت مواد العلوم لها مختبراتها، فإن للعلوم الإنسانية كذلك مختبراتها وهي حلقات التاريخ، وحلقات مسيرة المجتمعات.

- ٥- القرآن العظيم وقصصه أصدق وثيقة تاريخية، فالله تعالى قد اختار لنا من التاريخ الإنساني الحافل الذي أحاط به مولانا علماً اختار لنا أملاً الصفحات بالعبرة، وما نحن إليه أحوج.
- ٦- قصة موسى عليه السلام أحفل القصص القرآني بالعظة والعبرة، وهي تتضمن أعنف مواجهة في التاريخ حتى زمانه عليه السلام بين الحق والباطل، ولذلك كانت هذه القصة هي الأكثر تردداً و تكراراً في القرآن الكريم.
- ٧- ظاهرة الفرعونية، أو التفرعن أخطر الظواهر الإنسانية والاجتماعية لأنها تعني أن من ملك القوة سيتحول في نظر نفسه وفي نظر كثير من ضعفاء الناس إلى إله. وقد حذرنا القرآن منذ السورة الأولى التي نزلت منه من ظاهرة الطغيان إذ قال: ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَّاظٍ ۚ (٦) إِنَّ رَبَّهُ أََسْتَقْبَلُ﴾ [العلق: ٦- ٧].
- ٨- تقرر السورة الكريمة علو فرعون في الأرض، وأن من أسرار علوه، ومن أسباب قوته ضعف شعبه، وأن من أسباب ضعف الشعب: تمزيق فرعون لنسيجه، وتهديمه لأسباب وحدته، ليقوى فرعون على حساب ضعف الشعب: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيْعًا﴾ [القصص: ٤]. إن سياسة (فرق تسد) هي سياسة قديمة جديدة.
- ٩- الناس منقسمون عبر التاريخ إلى صنفين أو قسمين: من ملك القوة فهو مستضعف (بكسر العين)، ومن حُرِم القوة فهو مستضعف (بفتح العين).
- ١٠- قد تفوق الناس والبشر الوحوش والحيوانات في افتراسها وتوحشها، فالوحش يقتل ليأكل، وهذا الإنسان يقتل أخاه الإنسان لوهم أو لشعور مرضي فهذا فرعون يذبح أبناء الإسرائيليين، ويستبقي نسايتهم ليكون القهر والإذلال مزدوجاً ومضاعفاً.

١١ - الله تعالى يدبر الأمر، وإليه ترجع الأمور، فليس هو شاهداً ما يجري وحسب، سبحانه، بل يدبر لقلب الباطل وأهله رأساً على عقب، والتمكين للإيمان وأهله من بعد قهرهم والنصب.

وإرادة الله لا يقف لها شيء، ولا يحول دون نفاذ مشيئة الله تعالى أحد.

١٢ - المقاييس المادية ليست هي الأساس في صراع الحق والباطل، وغلبة الحق على الباطل، وإنما معية الله ونصرته للحق، وخذلانه للباطل هي أساس الغلبة في الصراع. ومن هنا فإن من ينظر إلى قوانين الصراع يجد التفوق الساحق في كفة فرعون، ومع هذا فإن الله قد قصمه.

١٣ - تبدو التغيرات القدريّة بطيئة، ولذلك لا تلحظها العين، ومن هنا يتجرأ أرباب الباطل على أصحاب الحق، ويستهنون بالتغيير القدري، ويدفع الله للناس، حتى تفجأهم التغيرات بما يقلب كل الحسابات.

١٤ - مداولة الأيام ستة الله في الخلق وتداول الأدوار الحضارية سنة تاريخية، بمعنى أن من هم في ذروة سلم الحضارة اليوم، ليسوا كذلك غداً ومن هم في قاع الأوضاع البشرية اليوم ليسوا بالضرورة كذلك في الغد. لأنه: ﴿وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُذَوُّ لَهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٤٠].

١٥ - التاريخ يصنع من طفل يرضع، وتأمل أن الله تعالى بعد أن أرانا إرادته في تغيير أوضاع بني إسرائيل وجلادهم، ابتداء السرد من إرضاع أم موسى له، فكأنه قال: من هنا من مهد طفل يرضع، سيتغير مسار التاريخ ومساره، ومصير الأمم الموجودة.

١٦ - أحسن الطرق لمواجهة الخوف والخطر ليس الانسحاب من وجه الخطر، وإنما أجدد الطرق هي المواجهة والتحدي والمنازلة والتصدي (فداؤها بالتي كانت

هي (الداء) ومن هنا فإن الأحسن لمن خاف من شيء أن يتحدها حتى ينكسر الحاجز، ومن هنا - مرة أخرى - فإن الله قال لأم موسى: ﴿فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي﴾ [القصص: ٧]، إذا خفت لا تخافي، فأحسن الطرق لمواجهة تهديد الموت أن تتعشق الشهادة، كما كان خالد والأصحاب الكرام يرددون: (جئتمكم يقوم يحبون الموت كما تحبون الحياة).

١٧- التحضير والإعداد، والتخطيط المسبق أساس للنجاح، من هنا فإن الله تعالى المتصرف في الكون، علمنا، من خلال قصة أم موسى أن نعد الإعداد المسبق، من خلال قوله لأم موسى عما سيواجهها سلفاً، وكيف أعدها والخطر متوقع لتلقيه إذا وقع.

١٨- ضرورة السيطرة على مشاعر الخوف والحزن، فإنها إن انفلتت أتلقت الشخصية، ودبت الانهيار بالنفسية، وتضعف الكيان الفردي والاجتماعي، فما المجتمع إلا مجموع هذه الشخصيات والنفوس. من هنا قال الله تعالى في هذه السورة: ﴿وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي﴾ [القصص: ٧]، وقال في غيرها: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا﴾ [آل عمران: ١٣٩].

١٩- كثيراً ما نقوم بأشياء لا ندرى إلى أين تنتهي، فما يعلم أحد النهايات من البدايات، إلا العليم الخبير سبحانه، وهكذا، فإن آل فرعون التقطوا موسى ليكون لهم في نهاية المطاف عدواً وسبب حزن، ولو علموا ما عملوا.

٢٠- مرتكب الأخطاء والخطايا لا بد أن يرزأ بالبلايا، وإن تأخر ذلك، من هنا فإن فرعون وهامان وجنودهما بعد كل مسلسلات الخطيئات، جاء رد رب الأرض والسموات. رداً فاق كل التوقعات والحسابات.

٢١- إذا أراد الله إنفاذ أمر أو إنقاذ عبد، هياً من الأسباب ما يدهش الألباب، فقد قبض لإنقاذ موسى قلب امرأة فرعون الذي رق لهذا الطفل، فكان ستار

الحبة الشفيف الرفيق، سبباً لإنقاذ هذا الطفل من أيدي الجبار العاتي الغليظ.. فرعون.

٢٢- شدة الحرص، قد تودي أحياناً بمن تحرص عليه، إن لم يكن مع الحرص حكمة ودقة وحسن تصرف.

٢٣- هذا الكون، وما فيه من أحداث، جسام أو غير جسام، يسير وفق ناموس ونظام، نأخذ هذا الكلام من قوله تعالى: ﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ﴾ فإن يقبل طفل مرضعته أو لا يقبلها، كل هذا بقضاء وتدبير حكيم.

٢٤- الله تعالى يتلي عبادته، ولكنه سبحانه لطيف في بلائه يخفف عنهم وقع البلاء، ويرزقهم الصبر ليجتازوا المحنة، ويؤملهم الفرج بعد الشدة واليسر بعد العسر، حتى لا يفقدوا اليقين.

فهذه أم موسى يتليها الله بفقد ولدها، أو قل ببعده عنها، ثم يرده إليها فترضعه وتربيته.. وهذا لطف من الله تعالى شديد.

٢٥- القصص القرآني منهجه الاقتصاد على مواطن الاعتبار، ولذلك فهو يتجاوز المشاهد والتفصيلات التي لا مكن للعبرة فيها، ومن هنا فإنه طوى من حياة موسى قرابة عقدين من الزمان أو أكثر، في كلمة واحدة هي قوله تعالى بعد مشهد التقاط آل فرعون له وتحريم المراضع حتى يعود إلى حجر أمه من جديد، قال مخزلاً سنين عديدة: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَىٰ ءَاتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾.

لقد طوت هذه الكلمة سنين طويلة وحوت ما يغني عن تفصيلات. هذا منهج القرآن في العرض القصصي، وقل مثل هذا في حقبة العشر سنين من رعي الغنم، طواها القرآن بنفس الكلمة: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى الْأَجَلَ﴾.

٢٦- في المرحلة العمرية التي طواها القصص القرآني، تحول موسى، من ربيب فرعون في الظاهر، وولي عهده على ما هو المفترض، تحول إلى نصير الشعب ومتني قضاياءه، وظهير المظلومين والمستضعفين ونصيرهم، خاصة من شعبه، ومن هنا فإن الإسرائيلي بادر إلى الاستغاثة به فور ما رآه، وهو يعلم أنه ظهيره: ﴿فَاسْتَعَاذَ الَّذِي مِنْ شَيْعَرِهِ﴾.

٢٧- أكثر الناس لا يشعرون بتدبير الله، لأنه على درجة عالية من الدقة والخفاء، فلا ترصده عيونهم، ولا تدركه عقولهم حتى يكتمل، فتندش نفوسهم حينذاك.

٢٨- الحكمة والعلم أساس الشخصية القيادية التغييرية: ﴿ءَايَتُهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾.

٢٩- الحكمة والعلم جزاء من الله تعالى على إحسان العبد، وتفضل من الله قبل كل شيء.

٣٠- دخول موسى المدينة مغافلة عن أهلها يشي ويشعر بأن موسى قد غدا مطلوباً للسلطات.

٣١- في مرحلة الاستضعاف يستحسن جداً تجنب المواجهة مع المستكبرين أو الانتقام للنفس، نأخذ هذا من قول موسى للإسرائيلي: ﴿إِنَّكَ لَفَوقَ مِيزَانٍ﴾.

٣٢- المعلومة في زمانها ومكانها مهمة جداً فقد يترتب عليها نجاة شخص أو هلاكه، نأخذ هذا من الرجل الذي جاء من أقصى المدينة يسعى ليحذر موسى.

٣٣- الخروج من الديار ومغادرة الأوطان متى كانت المسألة تتعلق إما بحياة وموت أو تهديد في الدين، هذا الخروج جائز وممكن، ودليله خروج موسى من بلده وكذا إبراهيم عليهم السلام، وكذا الأصحاب في هجرة الحبشة.

- ٣٤- القوة والأمانة أهم مواصفات الشخصية القيادية، من الراعي إلى (الراعي).
- ٣٥- يتحرك الإنسان بتدبيره واختياره، ليرى في النهاية أن الله تدبيراً حكيماً كان يتم والإنسان لا يدري، فعندما تحرك موسى من مدين إلى مصر، تحرك بدافع الخنن الإنساني، ليوافق ما كان مرسوماً في القدر الرباني، أنه سينبأ في طريق عودته، ولم يكن موسى يعلم، بطبيعة الحال.
- ٣٦- إعداد الشخصية التغييرية القيادية يتم في مصهر الشدائد، من هنا رأينا موسى يرعى الغنم عشر سنين، ويوسف في السجن بضع سنين، كل ذلك ليتم صقلهم وصهرهم وإعدادهم.. فالشدائد - في المآل - نعم كبيرة.
- ٣٧- النفس مفطورة على حرمة الدماء، وتعظيم جريمة القتل، ليكون ما ركز في الفطرة رادعاً عن ارتكاب هذه الفعل، نأخذ هذا من قوله تعالى على لسان موسى بعد قتله القبطي بالخطأ: ﴿هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ﴾ وجاءت الشرائع تعزز ما ركز في الفطرة.
- ٣٨- الاستغفار يمحو الذنوب حتى الكبار منها.
- ٣٩- المجتمعات المتخلفة قيمياً، لا تراعى فيها حرمة الضعفاء ولا النساء ومن هنا رأينا تأخر البنتين عن السقي لضعفهما.
- ٤٠- العقود قيمتها في تقوى القلوب فيمن ينفذ العقد لا في البنود التي تكتبها الأقلام، من هنا قال أحد العبدین الصالحين: ﴿سَتَجِدُ فِتْنًا إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنْ الصَّالِحِينَ﴾ وقال الآخر: ﴿وَاللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾.
- ٤١- تدبير الله للعبد خير بما لا يقاس، من اختيار العبد لنفسه وتدبيره لها، فهذا موسى ذهب يلتمس النار، فرجع بنور الدنيا والآخرة.

٤٢- القصص القرآني كان يحدد أحياناً بعض الأماكن أو بعض الأزمنة، قصداً، ليعطي للقصة مصداقاً، وليعطي أمثلة واقعية محددة، من هنا فصل في موضوع موضع إنباء موسى.

٤٣- لا بد أن يزود الرسل بآيات تشهد لهم أنهم رسل الله.

٤٤- وجود الصديق والمصدق في ميدان الدعوة مهم ومثبت، من هنا طلب موسى نصرة أخيه هارون: ﴿قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ﴾.

٤٥- الحق قوي، وإن بدا ضعيفاً، والباطل ضعيف وإن بدا قوياً والعبرة بالنهايات والخواصم: ﴿أَتَسْتَأْذِنُ مَنِ اتَّبَعَكَ الْغَافِلُونَ﴾ ﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾.

٤٦- تأله فرد في الأرض يفسد حياة ملايين البشر، وتأمل هذه الحركات البهلوانية يقوم بها فرعون، إذ يطلب بناء صرح يوهم الشعب أنه يبحث عن إله موسى... فكانت النتيجة أنه أشقى الشعب في الدنيا ثم انتهى به إلى الفرق، ثم إلى النار يوم القيامة.

٤٧- كتب الله تعالى بصائر تهدي القلوب والعقول، وترشد كل حائر.

٤٨- هذا القصص دليل وشاهد على ربانية هذا القرآن، فما كان النبي ﷺ شاهداً، لا الوقائع ولا الأمكنة ولا الأزمنة التي حدثت فيها مشاهد قصة موسى عليه السلام.

٤٩- عناد الكفار مؤذ بهم في الدنيا إلى الخسار وفي الآخرة إلى البوار، فهذه مصارع من قبلهم، تدل عليهم وتدل الآثار أن الله قصم من قبل هؤلاء وأهلك عديداً من الأقوام، فهذه قصورهم وقبورهم، ولكن، لا اعتبار، ولا اذكاء.

٥٠- الهدى مردده ومرجعه إلى الله، وما الرسول إلا مبلغ عن الله ومبين كلام الله، وداع إلى الله، والله الهادي.

مراجع تفسير سورة القصص

- ١- ابن الأثير، نصر الله بن أبي الكرم، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، تحقيق كامل عويضة، ط ١ دار الكتب العلمية، بيروت ١٤٩١هـ - ١٩٩٨م.
- ٢- أبو الأسود الدؤلي، ظالم بن عمر، ديوان أي الأسود، تحقيق عبد الكريم الدجيلي، شركة النشر والطباعة العراقية، بغداد ١٩٥٤م.
- ٣- أطفيش، محمد بن يوسف، تيسير التفسير، مطبعة عيسى الحلبي، القاهرة.
- ٤- الألويسي، أبو الفضل محمود، روح المعاني، ضبط وتصحيح علي عطية، ط ١، دار الكتب العلمية، بيروت ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م.
- ٥- الباقلائي، أبو بكر محمد بن الطيب، إعجاز القرآن، تحقيق عماد الدين حيدر، ط ١ مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت ١٤١١هـ - ١٩٩١م.
- ٦- البروسوي، إسماعيل حقي. تفسير روح البيان، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
- ٧- البغوي/ الحسين بن مسعود، معالم التنزيل، تحقيق محمد النمر وآخرون، ط ٤ دار طيبة، الرياض ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م.
- ٨- البقاعي، إبراهيم بن عمر، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، طبعة دائرة المعارف، الهند، ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م.
- ٩- الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر، البيان والتبين، الشركة اللبنانية للكتاب.
- ١٠- جرار، بسام، إعجاز الرقم (١٩)، فلسطين البيرة. مركز نون، (٢٠٠٠م).
- ١١- الجرجاني، عبد القاهر، دلائل الإعجاز، تحقيق محمود شاكر، ط ٥ مكتبة الخانجي، القاهرة ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٤م.
- ١٢- الجصاص، أحمد بن علي، أحكام القرآن، تحقيق محمد الصادق قمحاوي، دار المصنف، القاهرة.
- ١٣- ابن الجوزي، عبد الرحمن بن علي، زاد المسير، ط ٣ المكتب الإسلامي بيروت ١٣٨٤هـ - ١٩٨٤م.
- ١٤- جوهرى، طنطاوي، الجواهر في تفسير القرآن الكريم، ط ٢ مكتبة مصطفى الحلبي، مصر ١٣٥٠هـ.

- ١٥- حوى، سعيد، الأساس في التفسير، ط ١ دار السلام، القاهرة، ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م.
- ١٦- الخطيب، عبد الكريم، التفسير القرآني للقرآن، ط ١ دار الفكر العربي، القاهرة ١٩٧٦م.
- ١٧- الخطيب، عبد اللطيف محمد، المستقصى في علم التصريف، ط ١ دار العروبة، الكويت، ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م.
- ١٨- الخولي، البهي، تذكرة الدعاة، ط ١، دار البشير، طنطا، ١٤١٩هـ - ١٩٩٩م.
- ١٩- الرازي، فخر الدين محمد بن عمر، التفسير الكبير، ط ٢ دار إحياء التراث العربي، بيروت ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م.
- ٢٠- الرازي، محمد بن أبي بكر، مختار الصحاح، ط ٨ المطبعة الأميرية، القاهرة ١٩٥٤م.
- ٢١- الراغب الأصفهاني، الحسين بن محمد، معجم مفردات ألفاظ القرآن، تحقيق إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت.
- ٢٢- الرفاعي، محمد نسيب، تيسير العلي القدير لاختصار تفسير ابن كثير، مكتبة المعارف، الرياض ١٤١٠هـ - ١٩٨٩م.
- ٢٣- رضا، محمد رشيد، تفسير المنار، تحقيق إبراهيم شمس الدين، ط ١ دار الكتب العلمية، بيروت ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م.
- ٢٤- الزاوي، الطاهر أحمد، مختار القاموس، مطبعة عيسى الحلبي، القاهرة ١٩٦٤م.
- ٢٥- زرزور، عدنان، الحاكم الجشمي ومنهجه في التفسير، ط ١ مؤسسة الرسالة، بيروت ١٣٣٨هـ - ١٩٦٨م.
- ٢٦- الزنجشيري، محمود بن عمر، أساس البلاغة، دار صادر، بيروت ١٩٧٩م.
- ٢٧- الزنجشيري، محمود بن عمر، الكشف، ط ٣، دار الريان، القاهرة، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م.
- ٢٨- سعيد، جودت، العمل قدرة وإرادة: أبحاث في سنن تغير النفس والمجتمع، دار الفكر.
- ٢٩- السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر، الجامع الكبير، تحقيق خالد عبد الفتاح، دار الكتب العلمية، بيروت ٢٠٠٠م.
- ٣٠- السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر، المزهرة، تحقيق جاد المولى، المكتبة العصرية، بيروت ١٩٨٦م.
- ٣١- الشريف المرتضى، علي بن الحسين، أمالي المرتضى، تحقيق محمد أبو الفضل، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، ١٩٥٤م.

- ٣٢- الشنقيطي، محمد الأمين بن محمد المختار، أضواء البيان، طبع وتوزيع الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية الإفتاء والدعوة والإرشاد، الرياض، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م.
- ٣٣- ضيف، شوقي، البلاغة تطور وتاريخ، ط٥، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨١م.
- ٣٤- ضيف، شوقي، الوجيز في تفسير القرآن الكريم، دار المعارف، القاهرة، ١٩٩٤م.
- ٣٥- الطائي، حاتم، ديوان حاتم، دار صادر، بيروت، ١٩٨١م.
- ٣٦- الطبرسي، الفضل بن الحسن، مجمع البيان في تفسير القرآن، تحقيق إبراهيم شمس الدين، ط١، بيروت ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م.
- ٣٧- الطبري، محمد بن جرير، جامع البيان في تأويل القرآن، ط٣، دار الكتب العلمية، بيروت ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م.
- ٣٨- الطيبي، الحسين بن عبد الله، التبيان في علم المعاني والبدع والبيان، تحقيق هادي الهلالي، ط١ عالم الكتب، بيروت، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م.
- ٣٩- ابن عاشور، محمد الطاهر، التحرير والتنوير، ط١ مؤسسة التاريخ، بيروت ١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م.
- ٤٠- عباس، فضل حسن، البلاغة فنونها أفنانها، دار الفرقان، عمان ١٩٨٥م.
- ٤١- عباس، فضل حسن، قصص القرآن الكريم، ط١ دار الفرقان، عمان ١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م.
- ٤٢- عبد الباقي، محمد فؤاد، المعجم المفهرس، مكتبة التراث الإسلامي، بيروت.
- ٤٣- عبد الرازق، جبري مصطفى، فواتح الحروف الفواتح، ط١، إربد، ١٤١٣هـ - ١٩٩٣م.
- ٤٤- عبده، جمال محمد، دور المنهج الإسلامي في تنمية الموارد البشرية، دار الفرقان، عمان ١٩٨٤م.
- ٤٥- العجلوني، إسماعيل محمد، كشف الخفاء ومزيل الإلباس، مؤسسة الرسالة، بيروت ١٩٨٥م.
- ٤٦- ابن عطية، أبو محمد عبد الحق، المحرر الوجيز، تحقيق عبد الله الأنصاري، عبد العال إبراهيم، ط١، الدوحة ١٤٠٨هـ - ١٩٨٧م.

- ٤٧- العفيفي، طه عبد الله، حق الطريق في الإسلام، دار المطبوعات العربية.
- ٤٨- العلي، عبد المنعم صالح، تهذيب مدارج السالكين لابن القيم، تحقيق محمد بيومي، مكتبة الإيمان، المنصورة ١٩٩٧م.
- ٤٩- الغزالي، أبو حامد محمد، الدرة الفاخرة في كشف علوم الآخرة، تحقيق موفق غازي، دار الحكمة، دمشق ١٩٩٥م.
- ٥٠- ابن غلبون، عبد المحسن بن محمد، التذكرة في القراءات، تحقيق عبد الفتاح بحيري، ط مكتبة الزهراء، القاهرة ١٤١٠هـ - ١٩٩٠م.
- ٥١- ابن فارس، أبو الحسين أحمد بن فارس، معجم مقاييس اللغة، تحقيق: عبد السلام هارون، دار الفكر.
- ٥٢- فضل الله، محمد حسين، من وحي القرآن، ط ٢، دار الملاك، بيروت ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م.
- ٥٣- الفيروز آبادي، مجد الدين محمد يعقوب، بصائر ذوي التمييز، تحقيق عبد العليم الطحاوي، المكتبة العلمية، بيروت.
- ٥٤- الفيومي، أحمد محمد، المصباح المنير في غريب الشرح الكبير للرفاعي، ط ١، المطبعة الأميرية، القاهرة ١٩٢٦م.
- ٥٥- القاسمي، محمد جمال الدين، محاسن التأويل، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، ط ١، مؤسسة التاريخ العربي، بيروت ١٤١٥هـ - ١٩٩٤م.
- ٥٦- القشيري، عبد الكريم بن هوازن، لطائف الإشارات، تحقيق عبد اللطيف عبد الرحمن، ط ١ دار الكتب العلمية، بيروت ١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م.
- ٥٧- قطب، سيد، في ظلال القرآن، ط ١١ دار الشروق، بيروت ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م.
- ٥٨- القنوجي، صديق خان بن حسن، فتح البيان في مقاصد القرآن، مراجعة عبد الله إبراهيم الأنصاري، دار إحياء التراث الإسلامي، قطر، والمكتبة العصرية، بيروت ١٩٩٥م.
- ٥٩- القونوي، محمد مصلح مصطفى، حاشية محيي الدين شيخ زادة على تفسير القاضي البيضاوي، ط ١ دار الكتب العلمية، بيروت ١٤١٩هـ - ١٩٩٩م.
- ٦٠- القيسي، مكّي بن أبي طالب، الكشف عن وجوه القراءات السبع وحججها وعللها، تحقيق محيي الدين رمضان، طبعة دمشق، مجمع اللغة العربية ١٣٩٤هـ - ١٩٧٤م.

- ٦١- ابن القيم، محمد بن أبي بكر، مدارج السالكين، تحقيق الفقي، مطبعة السنة، ١٣٧٥هـ - ١٩٥٥م.
- ٦٢- ابن القيم، محمد بن أبي بكر، التفسير القيم، جمع محمد الندوي، تحقيق محمد الفقي، دار الكتب العلمية، بيروت ١٩٧٨م.
- ٦٣- ابن القيم، محمد بن أبي بكر، مفتاح دار السعادة، ط ٣ مكتبة حميدو، الإسكندرية ١٩٧٩م.
- ٦٤- ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل، تفسير القرآن العظيم، ط ١ شركة دار الأرقم، بيروت ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م.
- ٦٥- ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل، عمدة التفسير، اختصار وتحقيق أحمد شاكر، ط ١ دار المعارف، القاهرة، ١٣٧٦هـ - ١٩٥٦م.
- ٦٦- الكواكبي، عبد الرحمن، طبائع الاستبداد ومضارح الاستعباد، دار النفائس، بيروت ١٩٨٤م.
- ٦٧- لجنة من قسم العقيدة والفلسفة من كلية أصول الدين بالأزهر بالقاهرة، دراسات في الفكر العقدي والأخلاقي في الإسلام، ط ١ ١٣٩٦هـ - ١٩٧٦م.
- ٦٨- الماوردي، علي بن محمد، النكت والعيون، راجعه وعلق عليه عبد المقصود عبد الرحيم، دار الكتب العلمية، بيروت ١٩٩٢م.
- ٦٩- الماوردي، علي بن محمد، أدب الدنيا والدين، تحقيق مصطفى السقا، مكتبة مصطفى الحلبي، القاهرة ١٩٥٥م.
- ٧٠- محيسن، محمد محمد سالم، الإرشادات الجلية في القراءات السبع عن طريق الشاطبية، الكليات الأزهرية، القاهرة ١٣٨٩هـ - ١٩٦٩م.
- ٧١- مخلوف، حسنين محمد، صفوة البيان لمعاني القرآن، ط ١ دار الهجرة، دمشق ١٤١٤هـ - ١٩٩٣م.
- ٧٢- المراغي، أحمد مصطفى، تفسير المراغي، تخريج باسل عيون السود، ط ١ دار الكتب العلمية بيروت ١٤١٨هـ - ١٩٩٨م.
- ٧٣- مكيدوجل، الأخلاق والسلوك في الحياة، ترجمة جبران سليم، مكتبة مصهر، ١٩٦١م.

- ٧٤- المنذري، زكي الدين عبد العظيم، مختصر صحيح مسلم، تحقيق الألباني، ط ١
وزارة الأوقاف، الكويت ١٣٨٨ هـ - ١٩٦٦ م.
- ٧٥- ابن منظور، جمال الدين محمد، لسان العرب المحيط، إعداد يوسف خياط.
- ٧٦- أبو موسى، محمد محمد، خصائص التراكيب، ط ٢ مكتبة وهبة، مصر ١٩٨٠ م.
- ٧٧- أبو موسى، محمد محمد، الإعجاز البلاغي دراسة تحكيم لتراث أهل العلم، ط ٢
مكتبة وهبة، القاهرة، ١٤١٨ هـ - ١٩٩٧ م.
- ٧٨- الميداني، أحمد بن محمد، مجمع الأمثال بالهامش جمهرة الأمثال لأبي هلال
العسكري، تحقيق محمد الأسيوطي، المطبعة العامرية، القاهرة ١٣١٠ هـ.
- ٧٩- النحاس، أحمد بن محمد، إعراب القرآن، تحقيق زهير زاهر، ط ١ وزارة الأوقاف،
العراق ١٩٧٧ م.
- ٨٠- النسفي، أبو البركات عبد الله، مدارك التنزيل وحقائق التأويل، طبعة عيسى
الحلي، القاهرة .
- ٨١- نوفل، أحمد، سورة يوسف دراسة تحليلية، دار الفرقان، عمان ١٩٨٩ م.
- ٨٢- نوفل، أحمد، الإدارة الاستراتيجية، بحث مطبوع.
- ٨٣- النووي، يحيى بن شرف، رياض الصالحين، تحقيق شعيب الأرنؤوط، مؤسسة
الرسالة، بيروت ١٩٨٢ .
- ٨٤- النيسابوري، الحسن بن محمد، غرائب القرآن و رغائب الفرقان، تحقيق إبراهيم
عطوة، ط ١ مكتبة مصطفى الحلي، القاهرة ١٣٨١ هـ - ١٩٦٢ م.
- ٨٥- الهمداني، القاضي عبد الجبار، متشابه القرآن، تحقيق عدنان زرزور، ط ١، دار
التراث، القاهرة ١٩٦٩ م.

فهرس المحتويات

المبحث	الصفحة
مقدمة الطبعة الثالثة	٥
مقدمة الطبعة الأولى	٧
سور الحروف المقطعة حسب ترتيب المصحف الشريف	١٣
الأجزاء التي ليس فيها سور ذوات الحروف المقطعة	١٤
قول في الحروف المقطعة	١٥
حروف الفواتح وترتيب سور القرآن	٢٣
الحروف المقطعة بمجموعة الـ (ص) وعلاقتها بالرقم (٨)	٢٤
الأحرف المقطعة	٢٦
سور الأحرف وعلاقتها بالرقم (١٩)	٢٧
سور القرآن المشتركة في الحرف ط في فواتحها	٣٠
القسم الأول: معلومات عامة عن سورة القصص	٣١
اسم السورة وسبب التسمية وهل للسورة أسماء أخرى؟	٣٣
زمان نزول السورة	٣٥
المكي والمدني في السورة	٣٦
هل في السورة ناسخ ومنسوخ	٣٧
فواصل سورة القصص	٣٨
موقع سورة القصص بين سور الحروف المقطعة	٤٠
مقاطع سورة القصص وموضوعاتها والوحدة الموضوعية فيها	٤٢
مقاطع سورة القصص	٤٤
ظروف نزول السورة	٤٨
ظروف نزولها كما في الظلال	٤٩
محور سورة القصص كما يراه صاحب الأساس	٥٣
أغراض سورة القصص	٥٤

٥٦	من ألوان التناسق في سورة القصص
٥٧	التناسق بين فاتحة السورة وخاتمتها
٥٨	التناسق بين سورة النمل والقصص
٦٤	التناسق بين سورة القصص والعنكبوت
٦٦	التناسق بين سورة القصص و (ص)
٦٧	التناسق بين سورة القصص والبقرة
٧١	التناسق بين سورة القصص وآل عمران
٧٤	التناسق بين سورة القصص والروم
٧٥	التناسق بين سورة القصص ولقمان
٧٧	التناسق بين سورة القصص والسجدة
٧٩	التناسق بين سورة القصص ويس
٨١	التناسق بين سورة القصص والشورى
٨٣	كلمات محورية أو محاور بارزة في سورة القصص
٨٥	مفردات تفردت بها سورة القصص
٨٧	الأفعال في سورة القصص
٨٩	الفعل الماضي في سورة القصص
٩٢	الفعل المضارع في سورة القصص
٩٦	فعل الأمر في سورة القصص
٩٩	الالتفات في سورة القصص
١٠٥	ميزة أسلوب الالتفات
١٠٧	ضمير المتكلم (نون العظمة المتعلقة بالله) في سورة القصص
١٠٨	الحديث عن الله تعالى بصيغة المفرد (لفظ الجلالة، ربك، أو ضمير المفرد)
١٢٠	الإشارات الزمنية في سورة القصص
١٢٦	الاستقطاب الاجتماعي كما تشير إليه سورة القصص
١٣٢	قصة قارون مثل آخر على الاستقطاب الاجتماعي في سورة القصص
١٣٧	الشخصيات في قصة موسى في سورة القصص
١٤١	شخصية موسى عليه السلام

١٤٤	شخصية هارون عليه السلام
١٤٧	شخصية فرعون
١٦٠	دراسة حروف المعاني في سورة القصص
١٦١	حروف المعاني: حرف (من).....
١٦٣	حروف المعاني: حرف (اللام).....
١٦٥	حروف المعاني: حرف (ما).....
١٦٨	حروف المعاني: حرف (إن، أن).....
١٧٠	حروف المعاني: حرف (لا).....
١٧٢	حروف المعاني: حرف (على).....
١٧٣	حروف المعاني: حرف (إلى).....
١٧٥	حروف المعاني: حرف (أن المصدرية).....
١٧٦	حروف المعاني: حرف (في).....
١٧٧	حروف المعاني: حرف (إن).....
١٧٨	حروف المعاني: حرف (لم، لن، كي).....
١٧٩	حروف المعاني: حرف (يا).....
١٨١	حروف المعاني: حرف (عن).....
١٨٢	حروف المعاني: حرف (همزة الاستفهام).....
١٨٤	حروف المعاني: حرف (قد).....
١٨٥	القراءات في سورة القصص
١٩٣	من مباحث سورة القصص
١٩٥	الخوف كما ورد في سورة القصص
١٩٨	خلق الحياء في هذا الدين أخذاً من الآية (٢٥)
٢١٢	ظاهرة التفرعن
٢٢٥	جوانب الفريدة في قصة موسى وفرعون وبني إسرائيل
٢٢٧	مشاهد القيامة في سورة القصص
٢٣٦	ملاحظات عامة على كلمات آيات سورة القصص

٢٣٩	القسم الثاني: تفسير سورة القصص
٢٤١	تفسير المقطع الأول: (فاتحة ومقدمة) الآيات (١ - ٦)
٢٦٥	تفسير المقطع الثاني: (موسى الرضيع في يد فرعون) الآيات (٧ - ١٣)
٢٧٧	تفسير المقطع الثالث: (موسى يقتل القبطي ويهاجر) الآيات (١٤ - ٢٢)
٢٨٩	تفسير المقطع الرابع: (موسى في مدين) الآيات (٢٣ - ٢٨)
٣٠٣	تفسير المقطع الخامس: (نبوة موسى ومعجزاته) الآيات (٢٩ - ٣٥)
٣١٣	تفسير المقطع السادس: (موسى في مواجهة فرعون) الآيات (٣٦ - ٤٣)
٣٢٣	تفسير المقطع السابع: (إثبات نبوة محمد من خلال قصة موسى) الآيات (٤٤ - ٥٠)
٣٤١	تفسير المقطع الثامن: (تعقيب على تعقيب) الآيات (٥١ - ٥٩)
٣٦٧	تفسير المقطع التاسع: (مشهد من مشاهد القيامة) الآيات (٦٠ - ٦٧)
٣٨٣	تفسير المقطع العاشر: (تقرير التوحيد) الآيات (٦٨ - ٧٥)
٤٠٥	تفسير المقطع الحادي عشر: (قصة قارون) الآيات (٧٦ - ٨٣)
٤٣١	تفسير المقطع الثاني عشر: (ختام السورة) الآيات (٨٤ - ٨٨)
٤٤٣	من دروس سورة القصص
٤٥٥	المراجع
٤٦١	الفهرس